

تأملات سیاسیہ

د بشیر عبداللہ مساری



تأملات سياسية

د. بشير عبد الله المساري

1444هـ - 2023م

حقوق الطبع محفوظة



إهداء

إلى أمتي التي تقاذفتها أمواج الفتن والمحن . . وشلالات الشهوات
والشبهات . . والغربة الفكرية والروحية . . وثقت وحدتها
العضوية . . أهدي هذه التأملات

المحتويات

11	مقدمة
13	أولا - رؤى في التصورات الاجتماعية والتنظيمية
15	*خلل نظام العبودية في:
15	1- الانحراف عن المعبود الحق
18	2- طغيان آلهة الأرض
20	*خلل مبدأ التفويض في:
20	1- تفويض الاتكاليين للقوى الخفية
22	2- تفويض النخب لحكامهم
25	3- تفويض المؤدلين لزعمائهم
28	4- تفويض الجماهير لمشاهيرها
31	*خلل القيم الاعتبارية لدى:
31	1- المعتدّين بفروق الذوات
35	2- المتعالين على الناس
38	3- المفرطين بطيب الذكر
41	4- الطبقيين
44	*خلل الانتماء لدى:
44	1- المتعصبين للقبيلة
47	2- جماعات احتكار الحقيقة
50	3- جماعة التكفير والتفجير
54	4- جماعة السيف
58	5- جماعة الابتلاء والتمكين
61	6- جماعة الولاية
76	7- الأحزاب
81	ثانيا - رؤى في نظام الحكم
83	نظام الحكم
86	الحكم عبر صناديق الاقتلاع
89	مقولة كما يول عليكم تكونوا

- 92..... الشعوب الجاهلة نقاط فراغ الأوطان
- 97..... مصائر الشعوب بين كبار النفوس وصغارها
- 100..... قائمة تصنيف الحكام
- 103..... بين جنون العظمة و جنون البقر
- 107..... تواضع الكبار
- 110..... عندما يصبح الحاكم هو قدس الأقداس
- 113..... إظهار قوة الحق بقوة النفير
- 116..... صناعة المزاج العام
- 120..... من هم أولو الأمر الواجب طاعتهم؟
- 125..... طغيان الصلف على أساليب السلف
- 129..... مربو صفوف أولية يحلمون في إقامة خلافة
- 133..... وكيل الشيطان في مملكته
- 136..... الفرق بين مهام شيخ القبيلة وعمل مسؤول دولة؟
- 139..... الدولة المدنية موافق لمقاصد الشرع
- 143..... مصطلح الدولة المدنية محاولة تأصيلية
- 148..... أرفض الدولة العلمانية والدولة الدينية .. فماذا أريد؟
- 152..... تمزيق المسلمين بلوثة الخلافة
- 156..... هل اتحاد المسلمين خطيئة؟
- 158..... حكم سلطانية
- 161..... **ثالثا- رؤى في علاقات المكونات المجتمعية**
- 163..... الاختلاف تنوع وإثراء
- 166..... ازدهار صناعة الكراهية
- 169..... تثوير العواطف باسم القضايا العليا
- 172..... تقليص قائمة المشتركات مع الآخر
- 176..... التعايش بين تنازع الولاءات
- 179..... الاستبداد التنظيمي في ضوء قانون الاتجار بالبشر
- 182..... القناعات الشخصية ومحاكم التفتيش السياسية
- 185..... حدود التسامح
- 188..... صناعة الإرهاب

- 192..... سياسة ضرب المكونات بعضها ببعض
- 194..... شريحة تخريب المجتمعات في القرآن الكريم
- 198..... من وراء إشعال الحرائق في المنطقة؟
- 202..... المشكلة في جوهر المشكلة!!!!
- 206..... الوطن الموجود والوطن المفقود
- 209..... فلسفة الحروب
- 212..... الربيع العربي وحصاد الثورة المضادة
- 215..... قانون الثنائية الضدية
- 218..... الثنائية التقابلية في الفكر
- 221..... من على الحق؟
- 224..... هؤلاء خونة فلا تمكنوهم من أنفسكم
- 227..... لماذا أجهر بالسوء؟
- 231..... **رابعا - رؤى في الإسلام والسياسة**
- 233..... محاربة الإسلام باسم الإرهاب
- 236..... طلائع الانهزام
- 240..... الغرب وخنزيره .. والإسلام
- 243..... العلمانية بين تقييد المطلق وإطلاق المقيد
- 246..... دروشة الدين
- 249..... المعارضة في الإسلام
- 254..... مشروعية وجود جماعات دعوية بين المسلمين
- 257..... مركز "اعتدال"
- 260..... (ولقد وصلنا لهم القول)
- 264..... الولاء والبراء في الإسلام
- 271..... تفخيخ النصوص الباطنية بمنطق الدمار الشامل
- 275..... قصة (زيد بن السمين اليهودي) في القرآن الكريم (1-2)
- 277..... قصة (زيد بن السمين اليهودي) في القرآن الكريم (2-2)
- 279..... **خامسا- رؤى في العلاقة مع الآخر**
- 281..... الجيل الرابع من الحروب
- 281..... وسياسة أمريكا المفجعة

- 284..... أنسنة الغرب قبل فوات الأوان
- 287..... النصارى ومدرسة الكبر اليهودي
- 290..... زوال (دولة إسرائيل) (3-1)
- 291..... 1- تأصيل الإفساد الثانية:
- 293..... 2- ألم يكتب الله فلسطين لليهود؟
- 296..... 3- لماذا جمع الله اليهود إلى فلسطين؟
- 300..... الوجه الآخر للحضارة الغربية
- 304..... صدق الله وكذبت حساباتنا
- 307..... المسلمون وأهل الكتاب من يكره من؟
- 310..... مظاهر الصدام الحضاري بين المسلمين وأهل الكتاب
- 315..... فلسفة الرؤية الغربية لمواجهة الإسلام
- 316..... 1 - عقيدة الهيمنة على العالم لدى أهل الكتاب:
- 320..... 2- خوف أهل الكتاب من الإسلام كدين يحول دون أطماعهم.
- 324..... 3- ترهيب العالم من الصحوة الإسلامية ودعمهم للتنظيمات الغربية الدينية المتطرفة.
- 328..... 4 - تزييف أهل الكتاب المعلومات عن قضايا المسلمين وشيطنتهم وقلب أوجه الحقائق.....
- 332..... 5- الإرهاب السياسي ضد قادة الدول الإسلامية والتشجيع على الاستبداد.
- 335..... 6- التناغم مع نبوءات تدمير العالم في معركة (هرمجدون) بالأسلحة النووية وبخاصة المسلمين وروسيا.
- 339..... حرب المصطلحات

مقدمة

الحمد لله المختص وحده بالحمد والثناء .. وصلاة وسلاما على معلم الإنسانية
وعنوان كمالاتها محمد صلى الله عليه وسلم
وبعد:

هي تأملات في مفردات الواقع السياسي، ورؤى في محطات الزمن
المضطرب، أملتها نظرات فكر شغل برصد التدافع السياسي .. جذوره .. حركته ..
خصائصه .. اتجاهاته .. فلا تجمع أفكار كتاب (تأملات سياسية) وحدة عضوية
لموضوع بحثي واحد، بل هو إضاءة متعددة، خرجت أول ما خرجت في شكل
مقالات كتابية أدبية، حاولت فيها عكس حروف التجربة بجماليات الأسلوب، وعمق
الفكرة، تحاشيت الصنعة اللفظية والإغراق في الغموض، إذ لا يتغيا تقديم لوحة أدبية
فنية بقدر ما يتغيا معالجة قضايا يموج بها الواقع بلغة حسب تقديري قريبة المأخذ
سهلة المتناول يفهما الجميع .. وقد يتفاجأ القارئ بمقالات ساخرة، وأخرى شديدة،
أما الشدة فصدى لشدة الواقع، وأما الساخرة فلأن القلم ينساق مع أسلوب درجت عليه
من عمود (شرية البلية) الساخر التي حررته في مجلة النور وغيرها من الصحف
وعلى مدار سنوات.

انطلقت مقالات تأملات سياسية مع تأملات فكرية مع شبهات وردود عبر
منصات التواصل الاجتماعي ابتداء من فبراير 2013 وحتى يناير 2022م، حيث
كانت أشتاتا من وقفات متعددة قادتني بعدها إلى فرزها موضوعيا، وتخلت عن
التسلسل الزمني لها، وقد ساعد طول بقائها الكترونية - نظرا للبيئة السياسية
الاستثنائية - في دوام إجابة النظر فيها وتنقيحها، وإخضاعها للزيادة والحذف،
فعقلت عواطفها كثيرا، ودعمت النظري بالحقائق والأرقام ما أمكن، وربما أمكن
وصف الكتابة في هذا الظرف بثورة الكلمات وكلمات الثورة، وأشبه بشهادات

مقتضبة على العصر، وبنفس المقاومة تحمل هذه الانتاجات روح الإصلاح، بما أن الأحداث العاصفة مليئة بالآلام والآمال، وتحولات اشتركت فيها المنافع وغيثائية الواقع وأمواج المؤامرات.

وجدير بالتنويه أن تثير حروف هذه التأملات كان في مناخ شخص محايد، وبيئة مزاج فوق التأطير الفئوي، وأن زاوية التأمل كانت من المسافة التي تدرك مواقع الجميع، وتحفظ أشياءهم بدون استثناء، فلاتهضم ولا تظلم، فصاحبها بعون المولى سلطان فكره، وأمير قلمه، وفوق التوجيه من غير الموجه الأول، فكتبت في كل الجماعات واتجاهات الأحزاب بلا استثناء، مستمدا الأجر والرضا منه وحده تعالى، فهو منتهى القصد والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

و. بشير المساري

أولا - مرؤى فى التصورات الاجتماعية والتنظيمية

***تجلية:**

تحتاج السياسية البدائية إلى دروس في التربية الاجتماعية بما أن الساسة هم إفران منظومة القيم الاجتماعية فلقد تعرضت قوانين العلاقة النازمة بين الفرد ونفسه، وبين الخالق والمخلوق والإنسان وما حوله، وبين الحاكم والمحكوم، وبين العضو التنظيمي وزعيمه تعرضت لخلل كبير في القيم والتصورات، الأمر الذي قاد إلى تدنٍ في الأداء السياسي وخفض لكمالات الحياة التي يجب أن يعيشها الإنسان، كأكرم مخلوق .. سجدت له الملائكة .. ونفخ فيه الخالق من روحه .. وجعله خليفته في أرضه .. وسوده على المخلوقات من حوله، فأوقع الناس هذا الانحدار في بؤس وشقاء وتظالم، وفساد الحياة .. وهذه رؤى تأملية لمعالجة بعضها وعلى النحو التالي:

تدخل نظام العبودية في:**1- الانحراف عن المعبود الحق**

العبودية مكوّن أصيل من مكونات الفطرة البشرية، بل هي سر خلق الإنسان الأول: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)⁽¹⁾ .. فالإنسان مفطور لأن يكون عبداً .. والعبودية الحقّة لله، هي مناط الحرية، والعزة، والكرامة، ذلك أن خضوع العبد عندئذ لا يكون لعبد مثله .. ضعيف مثله .. مفتقر مثله، أو لجماد أعجز، فهو إن خضع فإنما يخضع لصاحب المطلقات، صاحب الغنى المطلق، والعلم المطلق، والقوة المطلقة، المتصرف في كل شيء .. وبالتالي إن لم يكن مؤشر الاتجاه العبادي نحو المعبود الحق، تكوّنت بين الناس دوائر عبودية متعددة .. وحلقات تسلط يتبع بعضها بعضاً، فيخضع الضعيف فيها للقوي؛ لأنه يرى في يده ضره ونفعه .. ويخضع الفقير للغني لأنه يرى في يده فقره وغناه، فالناس بين نقطة فراغ محتلة بطرف متأله، أو نقطة انطلاق لاحتلال طرف آخر مُسترق.

قد يقال لكننا لا نجد في بلاد مؤسّسة على نظام عادل سوى الحرية، والحقوق، والعدل، والمساواة، غير أن الصحيح أن هذا وإن وفر الاطمئنان النسبي لعدم وقوع التسلط الحقوقي، إلا أنه وحده لا ينهي دائرة العبودية، بل سيخضع الناس معه حتى للتفاهات، فقد يجد رئيس أكبر دولة أو

(1) [الذاريات-56].

إنسان مليار دير حاجته لإشباع رغبة الخضوع إما للصلاة في محراب إله معبود لا يزيد عليه في شيء، أو للتمسح بصنم من حجر كالدول الوثنية، أو عن طريق التواصل بمشعوذ ولو من وراء ستار .. أو ربما تعرض فراغ قلبه لسطو حب امرأة عابرة مثلاً، فهو يستمتع بتقديم قرابين الحب لها .. والخضوع بين يديها حتى ترضى، أو ركع أمام فتنة السلطة أو استبد به شهرة المجد الذاتي، وهام فؤاد في حب الأضواء ورونق الطلاءات .. أو خطف لب عقله بريق المال، فهو يقضي ليله ونهاره لمتابعة حركة السوق، ومؤشر الأرباح والتنمية والتكثير، فلا يملأ جوفه إلا متعة الكسب، ولا يعالج جنون حب المال سوى المزيد من المال .. فهو إلهه الذي ظل عليه عاكفاً، دائم القلق على سلخته من الغرق، وعلى كنوزه من الحرق.

وأخطر ما وجدنا من مظاهر الانحراف في العبودية هي تلك العبادة المتعدي ضررها من الفرد إلى الآخرين، ويكون الشعب هو قرابين طقوسها، فهو معبود من قبل شعبه وعابد فوق سلطانه سلطاناً آخر، يؤدي له طقوس العمالة والخضوع والارتهان .. وكم عشنا نرى حاكماً يتشامخ على شعب محب، ويزج في السجون بعظماء من رعيته لغير ذنب جلي، سوى أنه يرى في اضطهادهم إشباعاً لمرض التآله عليهم، في حين قد يغدق أحدهم على راقصة لا تلقي له بالاً من العناية والاهبات ما يعجز العقل عن تفسيره .. أو يجد له في حاكم أكبر منه ملتصاً للخضوع بين يديه .. فهو إما عابد أو معبود.

وتتحوصل الفكرة في أن الحرية تتمثل فقط في عبادته من يجد العبد علواً بعظمته على عظمة كل عظيم .. واكتفاءً بغناه عن غنى كل غني .. وسموا بحبه على حب كل حبيب، الذي بيده أن يقلب قلوب المبغضين فيحبوك، وبيده أن يلين عريكة الجابرة فيهابوك .. لذلك هذه العبودية الذليلة المستحقة ليست عبودية إذلال وامتهان، بل عبودية إعزاز وإكرام واستخلاف وتمكين، فالعزة لا تكون إلا للمؤمن الذي بذل الأسباب واستقوى بالله لا بسواه، قال تعالى: (... وَاللَّهُ الْعَزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...) (1) .. والكرامة الحقيقية ليست إلا للمتقين: (... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ...) (2).

والتمكين الإلهي لا يكون إلا للذين آمنوا وعملوا الصالحات: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ...) (3) .. فعبودية الله عبودية عزة ورفعة وتمكين .. عزة في محل تواضع، وتمكين في سياق عدل .. أما عبودية غير الله فهي عبودية امتهان ومصادرة لآدمية الإنسان .. فليس إلا قويا يمتهن الضعيف، أو ضعيفاً يمتهن القوي،

(1) [المنافقون 8].

(2) [الحجرات 13].

(3) [النور 55].

ولو كشفت الأستار عن حقيقة كبار في المال وأقوياء في السلطان والجاه، لوجدتهم بدون الخضوع لله أوطى النفوس، وأخفض الهامات تخضعهم ملتَمسات عبادية تافهة كما سبق؛ لأن الأمن والأمان والعزة التي لا تترام إنما تتحقق فقط في كنف المعبود الحق الذي ليس فوق سلطانه سلطان.



خلل نظام العبودية في:

2- طغيان آلهة الأمراض

ستجد ممن يعبدون غير الله ما لا حدود لطاعتهم .. لأنها طاعة غير مبصرة، فقد تصل قابلية الطاعة إلى الاستعداد بتقديم الأبناء كقرابين للآلهة كوثنية اليونان .. أو للنار كوثنية البابليين وفارس .. أو للأنهار كما كانت الديانة الفرعونية تفعل، حيث تختار كل عام أجمل فتاة وتلقيها في النيل لكي يجري ويفيض.

وفي بعض الديانات يمارس بعض أفراد الطوائف طقوس التوبة أو الخلاص من الذنب بأشكال عجيبة ومختلفة، من تعذيب الجسد كحبس النفس، وأكل القليل من الطعام حتى يموت التابع .. أو ضرب الجسد بأدوات حادة وخشنة حتى تسيل الدماء .. أو الزحف على البطون إلى مرقد الإله، أو السير على المسامير المحمأة، والجمر المتقد، كل ذلك لكي ترضى عنهم الآلهة .. وتحافظ تلك الجماعات على هذه الطقوس الشاقة وهي تشعر بلذة الطاعة، ومتعة الانتصار على الألم في سبيل إسعاد معبودها .. وليس الإله الصناعي بالذي يعرف معنى الرحمة كالإله الحق، فيضع لجنون الخضوع حدودا. فأشكال الاستعباد مفتوحة من ناحيته، سواء كان المعبود في شكل إنسان، أو صنم منحوت عن طريق السدنة، فأوامر الإله الصناعي وشروطه قاسية يستمتع بها لإذلال الأتباع وسماع نغمات أنينهم .. ويزين لهم الكهان أو الكتّاب والمنظرون هذه الطقوس القاسية، وينفخون فيها روح التجديد لاستمرارها حياة في النفوس؛ لأنها تعني سقفا عاليا من الإخلاص لكي يضمن الكهنة ما يحتاجون لأقل منه وهو إظهار الطاعة بتقديم الهبات والندور والأموال، فالذي يعرض إنسانيته لصنوف من الأذى والمسخ من السهل أن يقدم القرابين بلا تردد.

ومما قرأنا لا يبقى وجه للعجب أن تجد في بلاد المسلمين عقولا تم توجيهها .. وعواطف تم شحنها بقداسة إله مصنوع من البشر، وإن اختلفت طقوس الطاعة ومظاهر التعبير عن المحبة .. سواء ظهر ذلك الوثن في شكل حاكم مستبد .. أو زعيم حزب ديكتاتوري .. أو أمير جماعة متسلطة، فهؤلاء الصنميون يعمد أحدهم إلى تسييح نفسه بطوافين حول هيكله من الأتباع المفتونين، الذين تحولوا حوله

إلى مشاريع فداء وتضحية؛ لا لشيء إلا لأنهم وجدوا فيه حاجتهم لممارسة العبودية، تماما كما وجدت لديهم القابلية في عبادة الحجر والبقر .. وبهذه الطقوس من الولاء غير المشروط والتفاني المفتوح يتجسد كزعيم أوحده، فلا ضده ولا نده، وأي طلة على مقامه العالي بالنصح والنقد سوف يساوي الكفر بالله والخروج من الملة.

ثم لكي يمنع الصنم أتباعه من الاندماج بالفكر المخالف، فتكتشف نقاط ضعفه وسوء طبيعه، فإنه يسارع لسد منافذ عوامل التأثير والتأثر، عن طريق أهم سلاح وهو سلاح الحجر بتكفير الطرف الآخر المعارض وتبديعه والتحذير من الإصغاء له ولأفكاره وتجريم مشاهدة قنواته وقراءة صحفه ووالخ؛ خوفا من تسرب الحجج والأدلة إلى الأتباع فينتج عنه تسرب الولاء والطاعة .. كأن يحدث ذلك بين نظام ظالم ومعارضيه .. أو بين جماعتين متناقضتين .. ولربما استقوى الطرفان بالدين وحشد كل طرف آيات وأحاديث في الولاء والبراء، ليفسرها كل حسب هواه، ويرميها لأتباعه فتلتقطها عقولهم الخاوية على أنها مسلمات نهائية .. فالذي في أقصى اليمين يحشد نصوصا من القرآن لتكون ضد أصحاب الشمال .. والذي في أقصى الشمال يرمي أدلته في وجه أصحاب اليمين، فتغذى الكراهية المستدامة بأدلة وضعت في غير موضعها؛ فتستمر العلاقة الحربية ويتصل التمرس وعدم التنازل .. ولربما التقى الأتباع في الوسط يتقاتلون على كتاب الله وسنة رسوله أحيانا .. وعندما تحين الصلاة تجد من هؤلاء (الكفار) - بزعمهم - من يصلي بين يدي الله تعالى .. ومن هؤلاء (الضالين) من يصلي خاشعا لله، وقد يجتمعون في مسجد واحد وصف واحد، وكل واحد كافر في نظر الآخر وإنما هو كفر تنظيمي سياسي نفعي لا علاقة له بالدين إلا إضفاء شرعية المقاطعة وتطبيق مبدأ الولاء والبراء ضد بعض، وتسلية للنفس بأن العمل في سلك الشيطان هو عمل الله وفي الله.

ويظل مكنم الخلل الأكبر في إعطاء الطاعة بدون حدود لمن لا يستحقون .. ووجود قابلية للعبودية من حمقى ومغفلين لأناس انتهازيين يلعبون بعقولهم كيف شاؤوا، فيتركون أميرهم المطاع أو مولاهم المتأله يتحكم في تشكيل عقولهم، وترسيخ قناعاتهم، وتحديد اتجاهاتهم بدافع مصالحه لا بواقع مصالحهم فيعيشون ضحايا جلاد لا يرحم يسومهم سوء العذاب بلا جرم ارتكبه سوى جريمة الغباء.



خلل مبدأ التفويض في:

1- تفويض الاتكاليين للقوى الخفية

التفويض يكون من فاقده الأهلية، أو من عجز الجأ المفوض غيره للتصرف في أمر يخصه .. وبغير ذلك يكون التفويض اتكالا، وانسحابا مجانيا لإرادة المفوض، وهذا إذا كان في عرض الدنيا، أما التفويض في أمور الدين والهوية وتحديد منهج الحياة، كأن يتبع الشخص فردا يفوضه في تحديد مصيره بدون دور مستقل، فذلك معناه الإمضاء على عدمية الوجود، فكأن المفوض تماهى في غيره، وصار كظله لا خيار له في مخالفته ولا في تحديد اتجاه سيره .. فليكن المرء مع من أحب ولكن بقلبه لا بقلبه .. وبقلبه لا بعقله .. بمعنى أن يحتفظ المرء بنفسه في الحياة رقما فاعلا مساهما، لا مجرد متفاعل .. وملقيا مناقشا لا مجرد متلق .. ومؤثرا ذا بصمة لا مجرد متأثر .. فشخص فاقده الفاعلية يترك كل أمره لولي أمره يصبح زائدا على الحياة، لأنه لايزيد فيها.

وقد ضرب الله لنا مثلا بين فرد أبكم آلي التصرف، فاقده لمهارة التواصل الإنساني الرسالي، يعيش كلاً على مولاه، أينما يوجهه لا يأتي بخير، وبين آخر فاعل، تجاوزت فاعليته في الحياة إصلاح شأنه إلى المساعدة في إصلاح الآخرين، والأمر بالعدل، وتحسين أوضاع الواقع فقال تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَأَيُّاتٍ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)⁽¹⁾ .. إن هذا النص القرآني في هذا سياق غاية في الأهمية، فهو يبرز الصنف الأول الاتكالي أبكم كالدابة، إن لم تقودها للحرث أو تحمل عليها في انتظار من يسخرها لحاجته، ولأنه كل لا يعمل فهو منعدم التجارب، فإذا مارسها أفسدها (أينما يوجهه لا يأتي بخير)، وعكسه الصنف الثاني المبادر الذي لا يطالب بالعدل وحسب، بل يضع نفسه موضع الموجّه فيأمر به الآخرين.

ومن مظاهر الانحراف في مبدأ التفويض غير المقبول، الاستسلام للقوى الخفية أو لعامل القدرية .. فلا يفتأ العاجزون يبررون عجزهم بنحت الأساطير التي تتحكم في مشيئة البشر .. فمتى أصابهم البلاء بادروا باسترضائها بتقديم النذور والقرايين واستدعائها لحل المعضلات وقضاء الحوائج، فليس إلا الجن، أو العين، أو السحر، أو الأولياء الذين يملكون توجيه مسار حياة الناس، فتصبح الحياة قصة ينسج فصولها أبطال غير مرئيين، لا قدرة لهؤلاء السلبيين الاتكاليين عليهم .. وآخرون يتمسحون

[1] [النحل 76].

بالقدر لتبرير تواكلهم أو إهمالهم فيخطئ أحدهم حين يخطئ ليرمي باسم الله الأعظم في وجه اللاتمين فيقول: (الله كتب عليّ .. ماذا أفعل؟) وإذا شاء أن يُخلف وعدا وينقض عهدا ربط التنفيذ بمشيئة الله: (إن شاء الله) ويخلي عن مشيئة نفسه المسؤولية، فينحرف بالتفويض الإلهي إلى غير مساره .. ويحمل ثقافة التوكل بفساد نيته .. وذا لم يتقن عمله أو قصر فيه قال: (ما لنا إلا ما كتب الله) وإذا أهمل ما طلب منه، قال: (نسيت .. أخذ الله عقلي) .. وإذا اقترب في حق الآخرين جرما كما تفعل الحركات الاستباحية قال: (الحمد لله مكننا الله من أكتافهم) (أعاننا الله عليهم) (لو لم يكونوا على ضلال ما حل بهم الدمار) .. ويحمل الله تعالى أخطاءه وعجزه، وأحيانا جرائمه حتى لا يتحمل هو المسؤولية .. ويخطئ بذلك بين المشيئة الإلهية العامة التي هي خارج حدود الاستطاعة، وبين المشيئة الخاصة التي يحاسب المرء عليها من خطأ أو تقصير.

وبلاريب كل هذه التعبيرات قد تستعمل من أصحاب النوايا الصادقة، وهي جارية على أسنة المؤمنين، وليسوا هم مجال حديثنا، بل حديثنا عن المختبئين خلف المشيئة الكبرى لتحميلها عجزهم أو انتهازيتهم أو بوائقهم.

إن الله عز وجل لم يعذر قادرا من القيام بالعمل، حتى تلك التي تولى الله فعلها للأنبياء وأوليائه الصالحين، وهي فوق متناول القدرة البشرية لأنها خارقة للعادة أمرهم بالاشتراك في فعلها، فأوحى إلى موسى: (أن ضرب بعصاك الحجر) و(أن اضرب بعصاك البحر) وليس من خصائص العصا إخراج الماء من الحجارة ولا شق البحر، لكن ضربه بها من المقدور عليه، إذن فليفعل ما يقدر عليه لكي يحصل على ما لا يقدر عليه .. ومثل ذلك توجيهه لمريم عليها السلام (وهزي إليك بجذع النخلة) فليس بيدها أن تأتي بالثمرة في غير أوانها لكن بيدها أن تحرك النخلة .. قال الصحابي: يارسول الله هل اترك ناقتي وأتوكل على الله؟ قال: (اعقلها وتوكل). أي لا تتركها طليقة بدون بذل السبب ولو بربطها، ففرق بين التوكل والتواكل.

إن تحميل العناية الإلهية مهمة جلب الحظ للاتكاليين الكسالى بطريق المعجزات، أو تحميلها الأخطاء البشرية هو تفويض قدرتي جبري ياباه المولى؛ لأن فيه رفع اليد عن مهمة الاستخلاف التي لأجلها خلقنا الله تعالى.



خلل مبدأ التفويض في:

2- تفويض النخب لحكامهم

وفي الدول والحكومات يظهر المانحون للوالي مطلق التفويض وهم مدركون لمعنى المسؤولية .. ومطلعون على ما يمنحه القانون للحاكم من صلاحية مقيدة، ولكنهم يتخلون عنها ويفوضونه للتصرف بمصير أمة لكي يحصلون منه على المكافآت .. يستعجلونها ممن لا يملك ولو كانوا عوناً على تطبيق العدالة لوصلتهم بدون نفاق ولا استرقاق .. ستصلهم من وطن مزدهر بفضل العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص .. لكنهم يسلمون له كل شيء دون أن ينتظروا منه للوطن أي شيء .. يحرضونه على انتهاك القانون بذريعة الرمزية التي يجب تقديسها وعدم الوقوف في وجهها .. وبسياسة الخبال هذه ينهار كل شيء .. ثم لا يحصلون من ورائها إلا على لعنة التاريخ .. وهؤلاء هم الشريحة الأرقى .. هم المتقنون والسياسيون والصحفيون .. هم أصحاب التوجهات والأفكار الصانعة للعقل الجمعي والرأي العام.

كثير من هؤلاء يميل إلى نحت الأصنام البشرية، ويستمتعون بأداء دور السدنة وحراس المعبد، التي تتقن لغة النفاق للاله الصناعي، وبخاصة في العالم المتأخر الذي تصالح على طبقتي التابع والمتبوع.

هؤلاء ميتو الضمائر قصيرو النظر عندما يسند للحاكم مهمة حكم الشعب، ويبدأ هو وجلا هيأبا خائفاً من تبعات المسؤولية .. حذراً من تجاوز القوانين اللاجئة لصلاحياته، يخاف من محاصرة أعين الرقباء حركاته وتصرفاته .. يفاجئونه بخطوة غير متوقعة، وهي إضفاء صفة المفوض الذي (لايسأل عما يفعل وهم يسألون) ولا يلبث أن يجدهم يتزاحمون للتقرب منه، والبلوغ منه مبلغ الرضا كمصدر هبات ومالك أعطيات .. فيتحول الموقف ليرى البلد ملكيته الخاصة .. وأنه المفوض في التصرف بكل شيء، بدون مانع من قانون ولا رادع من ضمير .. فيصبح هو المانح المانع .. فإن منع فمن حقه .. وإن منح فبحقه.

ويزيدونه افتتاناً بنفسه بتدبيح المدائح وترصيع القوائد .. وكل منافق وما يملك من قدرات في تمجيد اسمه والاعتناء برسمه .. ولطالما أضافوا إلى معجم النفاق مفردات الفرادة في منحوتهم فهو الفلثة التاريخية ورجل الضرورة .. مبعوث العناية الإلهية .. والمخلص لشعب يستحق، ويمنح درجة نصف إله.

كل هذا يتم من النخبة الملوثة بالرسائل السياسية المفسدة للحكم قبل أن يعلموا غالبا عن خصائص ممدوحهم وشروط القيادة فيه، ولم يكن بالمستغرب أن يحكم عشرات السنين زعماء لا يجيدون القراءة والكتابة .. فضلا عن أن يتمتع بالمهارة السياسية .. ويلم بتعقيداتها .. وتشابك المصالح الدولية .. وعلى اطلاع بالتاريخ السياسي وأنظمة الحكم.

أما هو أي الزعيم أو السلطان فيبعد تعرضه لحالة تضليل واسعة وتسميم عقله بترايات الرجل الكامل، مطلق الصلاحية، يجد من الصعوبة مع حالة الضعف التربوي أن يعود إلى قواعده البشرية العادية .. ويتصرف مع شعبه بتلقائية الرجل المسؤول .. فيرى سلطته فوق السلطات ولا يعلو على علو مقامه مقام، فليس المستحق للسلطة وحسب بل الشعب مستحق لأن يكون زعيما عليه، فيمنّ على الشعب أنه تولى عبء حكمه وسخر عبقريته لخدمته فلولا وقوفه على باب المخاطر وإمساكه بأعنة نوازل الدهر وعوادي الزمان لفتحت على الجميع أبواب جهنم .. وتخطفتهم الفتنة من كل مكان ولا يزال يقود السفينة وسط الأمواج المتلاطمة ليصل بالجميع إلى بر الأمان .. ثم يكون حقه بلا حدود على من يقف في وجهه ويقول له أخطأت، أو يجب محاسبتك، أو نريد أفضل منك، فهذا كمن تعدى على الكرسي الأعظم، وداس على النعم بحذاء الجحود والنكران، فهو حاقد ومريض وربما عميل ومأجور، كيف يند عن صوت مسموع يمجّد في سحائب فضله ليل نهار.

واستمرار سير الزعيم أحادي التفكير بالطريق الخطأ تتفاقم معه المخاطر فربما أصلح الخطأ بخطأ أكبر وغير المنكر بما هو أنكر لأن العقل واحد وزاوية الرؤية لم تتغير، فإذا أوشك الجميع على الغرق .. بدأت أصوات الاحتجاج تتعالى وذلك بعد عقود من السير الخاطئ، ولغة واحدة من لغة (ما أريكم إلا ما أرى) فيكون العودة إلى المربع الصحيح في الوقت الضائع غير ذي جدوى كترقيع ثوب اهترأ، فما يرتق منه جانب إلا ليفتق آخر .. فالنتائج كارثية في كل الحالات، لقد أغمضوا أعينهم عقودا على خط سير منحرف .. وسدوا أفواههم في كل مقام لهم فيه مقالة ثم يصرخون في تشخيص داء فات دواؤه .. ويعلنون الشقاق بعد النفاق ولو توسطوا بين النفيضين لكان لهم ولأمتهم أسلم.

فأولئك المملأ المشكلة القديمة الجديدة هم المهندس الأول في خراب البلدان وتفكيك المجتمعات .. وسبب أول في ظلم أنفسهم وشعوبهم .. وليس وزير الحاكم بأشد من وزيرهم .. إن لم يكن وزيرهم أشد.

فماذا يستفيدون من إنفاق نفاقهم لنشر الفساد والكسب غير المشروع (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)⁽¹⁾ .. لن يجنوا في

(1) [الأنعام 44].

الأخير سوى بلد يتشظى أو عملة تنهار والدخول في استنزاف وتآكل ذاتي، فالذي كان يأخذ المليون مثلا عن طريق الفساد وحقه خمسون ألفا ربما صار قيمة المليون بعد الانهيار وغلاء الأسعار خمسين ألفا، ثم قد يصبح لا مليون ولا خمسون ألفا، ولو عفوا أنفسهم عن أخذ الكثير بالفساد لتنامى الخير وارتفعت قيمة القليل وكسبوا خلة النزاهة وأمنوا وأمنت أجيالهم، وهذا يقودنا إلى حساب كلفة الفساد، في أن السارق والمسروق والمنافق والحاكم المخدوع الجميع في النهاية سيخسر، إلا أن الفاسد سيربح رصيда من السخط .. وسيلا من اللعنات .. وتاريخا ملطخا بالسواد، كنتيجة طبيعية لكل ظالم.



خلل مبدأ التفويض في:

3- تفويض المؤدجين لزعمائهم

ومن المفوضين المدركين لمسئولياتهم المتخلين عنها لكبرائهم، جماعات فكرية دينية انتظمت في سلك فكر تنظيمي معين .. فوضت من سبق من المنظرين ونظرت في مسارات فكرهم كطرق إجبارية قدرية لا يمكن تعديلها أو تعديد زوايا النظر إليها .. فتلك الرؤى الموروثة عن المؤسس ربما وضعت كآلية عمل لخدمة الدين أو هكذا يجب، فما تلبث أن يلتبس في الدين دليلا على قدسيته، لتصبح الوسيلة هي الراية والغاية والدين أداة استعمالية لإيقاع الضحايا في فكر إنسان مجتهد تم توثينه.

وبقانون التفويض المختل ينتهي الاجتهاد عند آخر حرف كتبه صاحب هذه الأفكار، وآخر طريقة نفذها .. فلازيادة عليها ولا تعديل .. رفعت بعده الأعلام وجفت الصحف.

ومرة أخرى تعود القصة إلى هذا التفويض المنتكس الذي يعبر عن ميول نحو التغابي البحثي، والاستناد على عكاز المؤسس لتحاشي الوقوع في مسؤولية الإصلاح .. وتنشيط خلايا الفكر النائمة، وتبديد الجهد والوقت في جدلية البدء والإعادة، ويكفي لدى المنتفعين ما يصل من عوائد سدانة وبابوية التيار ولدى الكسالى ما أفاض عليهم المؤسس من وهج فكره عديم الشبه والنظير .. لذلك يتبارون في إطلاق المقولات التمجيدية من نحو: ما ترك الأول شيئا للأخر .. وليس في الإمكان أبدع مما كان .. وطبخ المنهج حتى احترق .. لقد تقاصرت دون الكبار القامات وتقزمت الهامات فلا مزيد لمستزيد على ما قرروه! وإنما هو عقل مكوّن وآخر مكوّن.

لذلك كثرت التراجم التقريظية للقذوات القدامى والمعاصرين وبصور إدهاشية كنموذج لا يوجد به الزمان مثل العالم العلامة والبحر الفهامة .. العارف بالله .. وحيد دهره وفريد عصره .. صاحب الفيوضات الربانية .. والتجليات الإيمانية .. وسيد العارفين .. وسر الموحدين .. أو قطب رحى الدين .. حجة الله الكبرى .. وآية الله العظمى .. المظلل بالغمامة .. صاحب كشف الأسرار .. ومصدر نور الأنوار .. وو الخ هكذا يتم نحت الألقاب في الفرق الإسلامية والمبتدعة لعلمائها وزعمائها التي تجعل من صاحبها فوق صفة البشر.

وإنما يصل الناس إلى أعلى درجات الإبداع والتطور عن طريق نقد الذات .. واتصال التطوير .. وتراكم التجارب .. فإذا توقف الفكر تكلس واستنفد أغراضه .. وصعب عليه مواجهة المستجدات .. وإعطاء الإجابات الملائمة للسياقات المختلفة.

وفي التنظيمات المغلقة يمنح التابع المتبوع الطاعة التي لاتبصر .. والثقة التي لا تناقش .. فلاشورى، ولا شفافية، ولا محاسبة، ولا يعرف كل واحد من يقود قائده المباشر ولا ممن يأخذ توجيهاته .. ولا ما هو الغاية من فضيلة التلقي الصامت .. ويكفي أننا أمام إخلاص الولاء والطاعة بلا حدود .. فغالبا لا ينظر الأدنى إلى الأعلى فهم فوق الخطأ، ولا يثق الأعلى في الأدنى فهم دون الثقة .. ولا يستأنس من في اليمين بمن في اليسار فمصدر التلقي رأسي لا أفقي.

من هنا ربما توكل إلى العضو العادي من الأعلى الفخيم مهمة لايدري عنها شيئا .. ولا كم تحتاج من الوقت .. ولا درجة أهميتها .. ولا مدى مطابقتها للشرع .. ولا كم درجة من التضحية تتطلبها .. لأنه عاهدكم على الطاعة من غير نقاش .. وقد يستيقظ يوم القيامة وهو صاحب عملية انتحارية ربما ذهب ضحيتها أبرياء لم يكن له في اختيارها دور .. ولا في تنفيذها رأي .. ولا في اختيار زمانها ومكانها حيلة .. سوى أنه قبل بالتفويض الأعمى لغير مستحقها .. فحملوه أمانة لايدري ما هي، وأرسلوه إلى أناس لايدري منهم .. ولا ماهي قصتهم .. قد يأمرونه بطاعة مخلوق ملثم لا يعرفه .. واسم مشفر لا يستطيع فك طلاسمه، تحت مبرر سرية التنظيم ودواعي الحفاظ عليه، إلى أن يسقط في حفرة من حفر جهنم.

والأصل هو تأصيل منهجهم وضبط سيرهم بمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقياسهم بقياس الشرع .. لم يبتدع رسول الله طرائق كَيْفَت الدين وهَجَنَتَه تهجيناً مظلماً باسم الدعوة أو تمكين الدين ؟ .. وما أمر أصحابه بالطاعة العمياء؟ .. ولا أرادهم مجرد أضرار في عجلة تدار بيد أناس مجهولين لايعرف الفرد سوى أميره المباشر وعن طريق كنيته أحيانا بحجة الاحتياطات الأمنية؟ لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه بالمختطفين ومجرد كائنات مستلبة، وطاقت مهملة في حاويات الطاعة، فقد كان مبدأ التشاركية حاضرا حتى في خطط الحرب والسلام .. لم يكونوا يجيدون فقط فن الصمت والإصغاء أكثر من فن الكلام .. كل هذا لم يكن، قال المولى تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ...)⁽¹⁾.

(1) (يوسف: 108).

إن التفويض الأعمى فيه انحراف عن منهج الله ورسوله .. واتباع أئمة ضلال جعلوا من أنفسهم أحكم من الله ورسوله وأعلم منهما.

ولقد تحولت بعض الجماعات الأكثر تنويرا واعتدالا نتيجة الانحراف في المنهج إلى جماعات معطلة بلا هدف واضح .. ولقاءات فارغة المحتوى بلامغزى .. ثم إلى أشبه بشركات تأمين محدودة لتوفير المنافع الشخصية وتزويد أتباعها بجرعات تجبين ونشرات عن الأوضاع الأمنية لمزيد من الشعور بأهمية الوحدة العضوية للجماعة وحسب .. وما حاجة الدنيا والدين إلى أضرار غير فاعلة؟ .. في الوقت الذي يواجهه العالم شلالا متدفقا من المسخ، ورجالا على أبواب جهنم من استجاب لهم قذفوه فيها، إن الواقع أحوج إلى المصدات الفكرية والمنابر التنويرية والتربية على المسؤولية وصنع القادة منه إلى التربية على الجندية في ميدان الطاعة العمياء، أو الشورى الشكلية.



خلل مبدأ التفويض في:

4- تفويض الجماهير لمشاهيرها

من الغريب أن ظاهرة التردد وعدم الثقة في النفس، عند الكثير في مجتمعاتنا حتى من أصحاب العلم والمعرفة عزز من ظاهرة المحاكاة وانعدام المبادرة .. فسادت مقولة (ما يختاره الناس نحن بعدهم) .. حتى وأحدهم يؤمن بجدوى فعل لم يسبق إليه، وضرورة قول لم يسمعه من آخر .. فهو يكف عن دفع نفسه للمبادرة، وينتظر صاحب الجسارة لكي يشجعه بعملية السبق فيفوضه ويمضي يقلده .. حتى على مستوى وضع إعجاب (like) مثلا، أو تعليق على رأي أو منشور أو صورة في خدمة التواصل الاجتماعي، فإذا كان الكلام جميلا والموقع خاليا انسحب سالما، حتى يأتي من يدلّه على طريق حريته، وأن يجدّ المجيد لا يقول له أجدت حتى يلقيه الآخر هذه الكلمة .. وقد يضع الكلمة لمستحقها فيندم عليها .. لأنه لم يجد لتأييده شفعا .. فالكلام الجميل لصاحب الفعل الجميل مشروط بتواتر ثناء الناس وإلا تردد الفرد عن قول كلمة الإنصاف لمستحقها.

والصحيح أن يعمل المرء ما يؤمن به، وما يراه صائبا، وما هو أرضى الله وأنفع للناس، وليس ما قالوه وما فعلوه وما سبقوا إليه بالضرورة، وإلا سنجد أن الكثير من المسبوق إليه زفة مراهقين .. وحفلة عاطلين .. وألعاب تسالي في مهرجانات شرك غير ذات مردود.

يشمل هذا التفويض والتقليد جميع الطبقات، ولكنه في دهماء الناس أوسع .. لذلك عرف المتاجرون بالعقول مفتاح غزو القناعات، وأن ما هو رديء يمكن إعادة صناعة جودته بالضجيج الإعلامي والدعائي فيصبح جيدا .. فكثير من الدهماء لا يتراقصون إلا مع ضجيج الأواني الفارغة .. ولا يتفاعلون إلا مع سحر الأضواء الساطعة .. ولا يأخذون قذواتهم إلا عن طريق حفلات الإشهار .. وصخب الإعلام .. وهالة الدعايات المكثفة .. فلا تزال هذه الوسائط تصنع لهم العباقرة والعظماء .. دون أن يحملوا أنفسهم عناء التفريق بين المباني والمعاني .. والأشكال والمضامين.

فالبطل القومي قد يصنعه لهم مذيع يزين لهم منحواته، ويبهرهم بكلامه، فيسلمونه أزمّة عقولهم.

والأسطورة قد يصنعه معلق رياضي يهولهم بتحويله فيمنحونه نواصي رؤوسهم.

والعبري قد يصنعه كاتب صحفي يسحرهم ببهرج ألفاظه، ويتلاعب بعواطفهم فيجرون وراءه هم دون أن يضطر لجرهم إليه .. وكلما زادت أضواء التسليط، وصخب التصفيق، ازداد الدهماء افتتاحنا بأصنامهم المنحوتة وهاموا فيهم جنونا.

وإن الله تعالى ليندد بهذا الصنف المحاكي أشد التنديد .. كيف ضيعوا عقولهم وأصبحوا مجرد مقلدين (أم تأمرهم أحلامهم بهذا)؟ (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)⁽¹⁾. وقال: (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)⁽²⁾.

هم أضل من الأنعام، فالهدهد لم يصرفه إعجابه ببهرج عرش ملكة سبأ عن ضرورة قياسها قربا وبعدا من طاعة الخالق مثلا .. والنملة لم يصرفها انبهارها بسليمان وجنوده عن ضرورة قياسه قربا وبعدا من مسؤوليتها في نفع أفراد مملكتها .. لا يسأل الدهماء عقولهم المعطلة أين هذا الفرد من الخير والشر؟ .. من الحق والباطل؟ هل قدم للناس نفعا فيحمد عليه؟ .. أم هل أبعد عنهم ضرا فيشكر له؟ أم المسألة مسألة إنتاج وتسليع .. وضجيج وتهريج .. وعرض وتسويق؟

وسيزول عجبك عندما تجد مفتونا بمخلوق، ثم تسرد له مساوئه فيوافقك على كل ما تقول .. ثم في الأخير يقول لك "لكني أحبه" .. تحبه لماذا؟ يجيب هكذا لا أدري؟ ولا يدري لماذا بات لا يدري .. إنه ضحية ضجيج الدجالين وزخرف النحاتين .. ليس ذلك الإعجاب من الله كما قد يظن البعض .. بل إنه من شياطين الإنس والجن .. الذين ضللوهم وملؤوا عقله بزخرف القول غرورا .. كما قال المولى: (.... يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يَقْتَرُونَ)⁽³⁾.

ومع فريق المفوضين هؤلاء تنتهي كل فضيلة يرونها مجردة بأعينهم .. أو يدركونها بأذواقهم .. مالم يعاد عرضها عبر الفنيين .. فقد يعرض عليهم الدر فيرون فيه الحصى .. ويجدون رائحة المسك فيتأحسونها كنتن الكير .. لأنهم ينتظرون أحكام غيرهم وأذواقهم .. فالرائد الحقيقي قد ينتهي في تابوت النسيان .. لأن الصجة والضجة لم تصل إليه بالطبول والمزامير .. وكم من العباقرة ماتت مواهبهم ودفنت معهم بين توابيتهم، لأن جمهور الصجة هؤلاء كان ينتظر إعادة تعليمهم وتغليفيهم وعرضهم عبر حفلات الإشهار .. وليس كثرة المبدعين هناك وقتلهم هنا إلا أن جزءا كبيرا يعود منه إلى هذا السبب .. وهو مسألة التدخل الصناعي المذكور.

(1) [الشعراء 74].

(2) [الأعراف: 179].

(3) [إنعام: 112].

إن ظاهرة الاستلاب وميول البعض نحو تفويض عقول الآخرين وأذواقهم، والصدور عن أحكامهم هي ظاهرة مخيفة ومروعة في عالمنا .. جاءت من الجهل المتفشي .. أو نتيجة الشعور بالانسحاق والدونية .. والمبالغة في قمع الذات .. وضعف الثقة بالنفس.

والمخرج من ذلك يكمن في الاستقلال والتحرر من هيمنة الآخرين، وفي تنشيط الفكر وتحريك عجلة التأمل مع الاعتدال في الحكم على الأشياء .. بحيث يسمى الشيء كما هو على الواقع لا كما هو في أذواق الناس.

نعم ليس كل أحد يجب أن يستقل دائماً بعقله، ويتحرر من التبعية للآخرين فقد يحتاج إلى رافعات عقول مجربين وأذكياء (ولا ينبئك مثل خبير) .. ولكن كل أحد يجب أن لا يتخلى عن أدوات إدراكه لغيره، مهما كان قادراً على توظيفها.



📌 خلل القيمة الاعتبارية لدى:

1- المعتدين بفروق الذوات 📌

القيمة الاعتبارية، هي المكانة المتميزة التي صار يُنظر إلى الفرد من خلالها على أنه ذو مكانة في المجتمع بما امتلك من الكسب المادي، أو العلمي، أو القيادي، أو الفني .. الخ فهي محل رضاه وموضع إعجاب الآخرين .. هذه القيمة الاعتبارية كيف صار مفهوم المحافظة عليها عند كثير من الناس؟

صارت في عالمنا تساوي معنى حق العظمة المكتسب بالجهد .. فهو رأس ضمائر الفرد .. وهي حصيلة المنتج القومي للشعوب المتخلفة .. فالناس لا يتسابقون فيها على السوق والتنمية والانتاج، بقدر ما يتسابقون على شراء المكانات الاجتماعية .. والدرجات العلمية .. والألقاب الرسمية لذاتها أحيانا .. حتى يحصل على لقب (هذا فلان).

ومع أن الألقاب الرسمية حق احتفظ بها الشارع لأصحابها كما نجده في قوله تعالى: (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ...)(1). فالنبي يسمى نبيا، ولا يقال (محمد) مجردا، أدبا واعترافا بنبوته ومهمته الرسالية، وهذا النبي صلى الله عليه وسلم يقول في سعد بن معاذ رضي الله عنه: "قوموا لسيدكم" وليس قوموا لمعاذ ولا لأخيكم .. ففي موضع الرسميات تحفظ لكل مقامه، فالشيخ يقال له شيخ، والدكتور، والقاضي، والمدير، كل يأخذ لقبه الرسمي للتعريف وإسناد الصفات لأهلها .. إنما البأس أن يقدم المونتاج على الإنتاج، وأن تتحول الأشكال والأسماء إلى ألقاب طبقية، وفواصل شرائحية .. وأشكال تمايزية .. وبخاصة لدى المسؤولين فالوزير أو السفير وما فوقهما يحبس نفسه في برج عاجي ولا ينزل إلى القاع فينظر في شؤون من يحكم .. فكل طبقة تعزل نفسها خلف مصدات لا يسمح للأقل قيمة اعتبارية بالوصل إليها.

فلهذا التقييم الخاطئ لمعنى الاعتبار الشخصي مضاعفات انعكاسية .. أهمها هذه الفواصل الحاجزة التي تعزل فئات المجتمع عن بعضها .. فيرى الكبير أن قيمته لا تعلق أكثر، وبريقه لا يصدع أشد، إلا إذا احتجب عن المستويات الأقل.

(1) [النور 63].

ولا شك أن الاحتجاب وصدى السمعة عن الشخص قد ترفعه إلى سقف فوق مستوى الواقع، كالصورة غير الحية يرسمها الفنان بريشته .. فيوشيتها بدرجة من الهالة بحيث تعطي إحياءات من الصعب قراءتها قراءة واقعية، الغموض .. الهيبة .. التفرد، من هنا يلجأ الذوات إلى تعزيز صناعة هذه الهالة الاعتبارية بتسييج أنفسهم بالعوازل الحائلة أمام فئات الدُّون .. وتحديد شريحة معينة ذات العيار المكافئ لتكون هي عالم خطابها، ومجال مطارحاتها، ودنيا أنسها، ولا بأس أن ينسجم كل قرين مع قرينه الذي يحسن فهمه أكثر من غيره، إنما المشكلة كما سبق هو في تكلف وضع مصدات حائلة لصناعة الأسطورة واتخاذ معيَّات أحياناً وحجَّاب، وسائقين، ووسائط ناقلة بين القمة والقاعدة إلى آخره.

وتأسيساً على ما سبق فإن صناعة هالة الذوات .. هي إحدى أهم معوقات النهوض في الأمة .. إنها غول خفي أصاب الكثير بحالات العقم والتكلس والانعزال .. فهذا يتعامل بإيقاع نمطي متكلف .. وهذا مشغول بإضافة الألقاب ورسم اللافتات .. وهذا تتقلب عليه الظروف فلا تجد فيه الرجل العملي الذي يتشكل مع الواقع، بل ذلك المحافظ على رسمية اللبس والخطاب ولمسات الرجل الشيك، الذي يعطل قدراته ويمسك نفعه عن المحاوِيج خوفاً من النزول إلى مقامهم .. وإن أحدهم ليعيش كلفاً بتقدير المقادير .. ووزن الأوزان فمن يكلم من؟ ومن يسلم على من؟ حتى الذي يهدي إليه معروفاً، يجد من الصعوبة أن يقول له: شكراً، قد يقول: أحسنت، لأن أحسنت وصف للفعل، لكن الشكر ثناء على الفاعل .. إلى أن يعرف درجة مقامه وقيمته .. فإن كان أقل كان مدحه أقل، وإن كبيراً كان ثناؤه أكبر (٤).

ولقد تسببت هذه الوثنية الخفية (القيمة الاعتبارية) في أن يحتجب الحاكم عن كثير من فئات الشعب، فلا يعلم عنهم إلا من المقربين الذين يزيفون له المعلومات .. وقد يجري مقابلة مع كبريات الصحف أو القنوات العالمية؛ لأنها تليق بسمعته ومقامه .. ويترفع عن إجراء مقابلة مع صحيفة أو قناة محلية .. ويظل يمارس الامتهان ضدها؛ لأنه يشعر أنه أكبر منها، والواقع أن مكانته حين يكون مع من يكبرونه لا مع من يستصغرونه.

قد يقال إن مكان الحاكم هو الإشراف من رأس الهرم، فلو نزل لأدار ظهره لبقية الأضلاع، والصحيح تحاشي حالتي الإفراط والتفريط، فلا يستمر شعبياً ويترك المهام العليا، ولا ينصرف تماماً عن الشعب فيجهل دقائق ما يدور فيه وله فيها مقال، فأى حاكم هذا الذي يمتنع عن الإدلاء بتصريح في قضية اجتماعية هزت المجتمع؟ فلمن يعيش؟ ومنهم المستهدفون من وجوده إن يكن حاضراً معهم؟

والغني قد يحرم الكثير من صدقاته لأنه لا يدري عن عالم الفقراء شيئاً .. فهو قابع في برجه العاجي .. وإذا خرج وضع العواكس الزجاجية التي تحجب عنه عالم المعوزين.

والعالم أو المفكر قد يحرم الكثير من علمه لأنه لا يليق به في نظره أن يتحدث مع من هبّ ودبّ .. لأن مقتضى الحفاظ على مكانته تستوجب الاقتصاد في الكلام، والعناية بتجويد الخطاب لمن هم أكبر، لا لمن هم أقل، فهؤلاء الأقل يجب أن يحفظوا له مكانته من التوقير بحيث لا يكون سهل المتناول قريب المأخذ.

وكثيرا ما يشتغل هؤلاء بفحص البيئات الملائمة للمقام .. حتى بين الأوساط العلمية .. لن تجد سوى القليل من الشخصيات التي تجهل هذه المفردة الاعتبارية السمجة .. فربما كلمت أحدهم لا يعرفك فلا يعيرك اهتماما .. أو سلمت عليه فلا يرد حتى يعرف أولا من معه .. فإذا عرف أنك بدرجة جيدة عدل وضع خطابه معك، وإذا وجد أنك أعلى في نظره تأسف وتمسح وقال: ما قدرك من جهلك .. وللأسف حتى إن بعض الناس بسبب هذه الوثنية الخفية التي اعتادوها إذا تواضعت له ظن أنك أقل قيمة لأنك وضعت فوق قدره، فتقلب الآية عليك فيضعك دون قدرك، ولا يستطيع أن يعاملك بالمثل لأنه إما عالٍ أو واطٍ.

وتستطيع أن تفسر ازدياد الخصومات والنزق حتى بين الرفقاء أحيانا؛ فكل طرف دولة مستقلة ذات سيادة .. لاتسمح بعوامل الخدش التي تفرضها أحيانا ضرورات الاحتكاك .. فمن هذا من حتى أعمل معه؟ أو أعمل تحت سلطته؟ أو أسمع توجيهاته؟ وإذا سمع لغة ندية انفرط عقد عصاميته .. وكشر عن أنياب الدفاع عن ذاته وصرخ: ألا تعرف من أنا؟ احترم نفسك وأعرف مع من تتكلم .. صحيح من الحق الاحتجاج على إهدار الوقت والتجربة مع الضعيف علما ومهارة ولكن يلزم أن يكون الاحتجاج مهنيا لا شخصيا.

عدا ذلك فالاحتجاب ولغة الترفع إنما هي محاولة كسب قيمة عليا غير موجودة، فيصنعها صاحب الشعور بالنقص بالرسائل الإيحائية هذه، وهذا الضرب من التصرف يحتاجه بعض المشاهير كالفنانين وزعماء الحركات الهدامة الملبسون بالقصور الفاضح .. والعجز البين، فكلما تبسط انكشفت سوءاته .. وبان للناس عجزه، أما الكامل فإنه كلما تبسط للناس اكتشفوا جوانب عظمتة أكثر فزادوا فيه حبا وزادوا له تجلّة.

ولذلك أفضل الخلق وأعلامهم مقاما وصفه الله بالتواضع ولين الجانب، فقال: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

(... (1) .. كما وصفه بالبساطة والانفتاح مع الآخرين والصبر عليهم: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...) (2).

وعندما جعل رجل يرتجف بين يديه خوفاً، لفت نظره إلى معايير الناس التي ألفوها فقال: "هون عليك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة" .. فكان يتبسط للكبير والصغير، وينزل إلى السوق بمفرده، ويتفقد حركة البيع والشراء، ويوجه التجار .. وربما لاطف بسطاء الناس أكثر من غيرهم كما تروي هذه القصة الإنسانية الجميلة.

عن أنس بن مالك أن رجلاً من أهل البادية يقال له (زاهر بن حرام) كان يهدي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - الهدية، فيجهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج فقال عليه الصلاة والسلام:

- "إن زاهر باديئا ونحن حاضروه".

قال فأتاه النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه والرجل لا يبصره، فقال:

- أرسلني، من هذا؟ فالتفت إليه، فلما عرف أنه النبي جعل يلزق ظهره ب صدره، فقال النبي:

- من يشتري هذا العبد! فقال زاهر:

- إذن تجدني يا رسول الله كاسدا. قال:

- لكنك عند الله لست بكاسد، أو لكنك عند الله غال" (مصنف عبد الرزاق).



(1) [آل عمران: 159].

(2) [الكهف 28].

خلل القيم الاعتبارية لدى:

2- المتعاليين على الناس

—فلسفة التعالي:

الإنسان بعيد المنال من الناس كالأحجار الكريمة أخذ قيمته من ندرته .. والشخص القريب من الناس كالهواء أخذ قيمته من وفرته..فما أغلى الأحجار الكريمة وما أرخص الهواء..هكذا يبدو الوضع لكن ما أقل حاجة الناس إلى الأحجار الكريمة وما أشد حاجة الناس إلى الهواء الذي تتوقف عليه الحياة.

فلنقل إن الشخص المتعالي كالمعدن النفيس .. نادر التداول .. بريقه أخاذ .. وثمانه عال، ولا يصل إليه إلا القليل من الناس .. لكنه لايمثل قيمة وجودية لأحد .. فكل الناس سيعيشون حياة طبيعية بدونه .. حتى من دون أن يسمعو بوجوده .. في حين المصلح الاجتماعي القريب من الناس، من يسهم في بناء واقعهم، ويصبر على حياتهم هو كالهواء ليس له لون فاقع يسر الناظرين .. ولابريق أخاذ يسحر الألباب .. ولا ثمن عال يسيل له اللعاب .. ولايُشترى بالمال؛ لأنه متاح لجميع الناس .. لكن قيمته الجودية عليا، فلايمكن الاستغناء عنه .. ويمثل نقصه وندرته تهديدا للحياة .. وهكذا يمثل نقص المصلحين والبنائين تهديدا للحياة التي بدونهم يتوحش الناس ويفترس بعضهم بعضا.

لذلك الذي يعيش نفسه بنفسه لنفسه متعاليا على غيره حياته كموته .. وظهوره كاختفائه .. لا يترك أثرا فيحمد عليه، ولايدفع شرا فيشكر له .. أما الفرد الفاعل فهو إن حضر فكالشمس ترسل خيوط ضوءها وحنان دفنها لتلامس كل محتاج .. وإن غاب ترك قلق نفوس مستوحشة اعتلقت بجميل خصاله وفيض عطائه.

حجّ هشام بن عبد الملك رحمه الله فلم يقدر على الاستلام من الزحام. فنُصِب له منبر فجلس عليه، فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فجعل يطوف، فإذا بلغ إلى موضع الحجر تحيَّ الناس حتَّى يستلمه هبيبةً له.

هشام الملك لا يستطيع الكثير من الناس الوصول إليه في بلاط ملكه، لكنه لما أراد احترام الناس له لم يمنحوه شيئا من الاحترام، فسقط قوة ملكه أمام ضعف حب الناس، بينما زين العابدين ليس بملك

متوج لكنه ملك قلوب؛ لأنه كان قريبا من الناس فكان يكفي مروره لتنتشق عن سلطانه الصفوف المتلاحمة .. فماذا كان يفعل علي بن الحسين للناس؟ جزء منه ذكره الفرزدق في قصيدة شهيرة منها:

مَا قَالَ: لَا، قَطُّ إِلَّا فِي تَشَهَّدِهِ * * لَوْلَا التَّشَهُدُ كَانَتْ لَأَوْهُ نَعْمٌ

قال محمد بن إسحاق يصف علي بن الحسين (زين العابدين) - رضي الله عنهما - كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يُؤْتُونَ به بالليل.

وبالنتيجة، فإن الفرد المتواضع هو الإنسان العظيم في نظر الناس .. وهل تعريف العظيم إلا ذلك الذي يحب للناس ما يحب لنفسه؟! .. بل قد يؤثرهم على نفسه .. فيجوع ليشبع الناس .. ويتعب ليرتاح الناس .. ويسهر لينام الناس .. وقد يموت ليحيا الناس هذا هو العظيم .. هذا هو زعيم أمته .. وليست العظمة بالتلقيط والحياة الاستعراضية .. ولا بزيف التمثيل، وزيادة مساحيق التجميل.

ولك أن تتظر كم هو الفرق بين زعيم يقبل رأس معلم من عامة رعاياه بتواضع ولين جانب، تشجيعا له على تفانيه في خدمة أمته .. أو يقبل يد عجوز احتراماً لكبير سنّها وإشارة على مسؤوليته كخادم لها، وللمحتاجين من أمثالها .. وبين زعيم آخر يتمنى بعض أفراد شعبه أن يسمح لهم هو بتقبيل رأسه ويده .. رغم أنه ليس له في مقام العظماء وزن .. وإن سمح أن يقبله أحد فبترفع وتأفف أيضا .. ويعد ذلك صنعة منه، فرق بين ما يمثله مثل هذا من قيمة حياتية للناس، وبين ما يمثله الزعيم العظيم المعاش لهموم الواقع، الذي يسعى لأن يكون رافعة لأمة .. لا أن يجعلها رافعة لمجده، باني نهضتها، ومعلي مقامها ورائدها إلى التقدم والنجاح، فمثل هذا الرائد قيمته عندهم قيمة حياتية تساوي أكسجين الهواء؛ ولكنه لا يقاس بثمن .. لذلك فالمتكبر عدو نفسه .. لأنه يريد إخضاع قلوب الناس دون احتلال قلوبهم .. فيسقط سقطة مدوية في وهدة النسيان، ترفضه قلوبهم كما ترفضه مشاعرهم .. ثم ينتهي في تاريخ المصلحين كأن لم يكن شيئا مذكورا.

-الانشغال بتقصير القامات:

كثيرا ما تكون عظمة المتكبر عبئا على كرامة الآخرين .. فلربما بدا له دوما أن قامته قصيرة، ولايستطيع زيادة طولها .. فيلجأ إلى تقصير قامات الآخرين بإيذائهم وغمطهم حقهم، والتتقيص من مكانتهم، وعدم الاعتراف بفضلهم .. ويحاول أن يترفع عنهم بحركات التمثيل الزائفة .. لكي يرتفع

عليهم بالشعور الخادع شيئاً قليلاً .. وإنما هو كما يقول المثل العربي: رأس في السماء واست في الماء.

ولذلك كان سؤال الخليفة هشام بن عبد الملك عن علي بن الحسين باستنفاص كأنما يسأل عن نكرة (من هذا؟) وهو يعلم أنه زين العابدين بن علي، ولكنه أراد بتجاهله التتقيص من مكانته.

وقد سمعنا وعهدنا ولاة أمر يكرهون من هو أعلى منهم مكانة وشعبية بين الناس .. أو كانوا أصحاب ثروة ووجاهة .. أو كانوا علماء أو أدباء أو مفكرين غطى ضوء أنوارهم بريق السلطان .. فيغار على مكانته من مكانتهم ويسلط عليهم من يذلهم .. أو من يبدد سلطان مالهم وجاههم .. أو يمارس عليهم التجاهل والتغابي ونكران فضلهم مهما تركوا من إنجازات، ومهما كانت لهم من أدوار قومية ووطنية وفكرية.

وهنا يبرز أحد أهم الأسباب في تبدد الإبداعات؛ لأن كثيراً من المسؤولين لن يقبل بتكبير غيره بإبراز إنجازاته في حين هو بلا إنجازات، وبخاصة أن يكون المبدع تحت سلطته .. فحساب الربح والخسارة تبدأ بمصلحته هو لا بمصلحة أمة؛ لذلك يجتهد في تقصير قامة المبدعين لكي لاتعلو قامته قامة ولا تخفض هامته هامة .. فيدفنها ويوجه قدراته الحربية ضدها حتى يميمت الإنجازات والتطلعات وتستمر بسبب الأنانية مسيرة الركود والتخلف.



خلل القيم الاعتبارية لدى:

3- المفرطين بطيب الذكر

عاجلُ بشري المؤمن أن ينثر الناس من درر أحاديثهم في محامد ذكره دون أن يكون لهم هدف سوى منحه ما يستحق من الثناء والدعاء.

قال شوقي رحمه الله:

وارفع لنفسك بعد موتك ذكرها * فالذكر للإنسان عمر ثان

وامتن الله على نبيه بالثناء الحسن بين الخلق، فلا تمر لحظة إلا ويذكر فيها اسم محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) ⁽¹⁾ .. إنها نعمة يمتتها الله على نبيه دون سائر النعم، رفع الذكر .. لم يقل ورفعنا لك جاهك .. ولأمالك .. ولأماق اعتبارك .. لأن القيمة الاعتبارية بدون الذكر الحسن الناتج عن السلوك الحسن لا وزن له .. كون القيمة الاعتبارية نتيجة لمقدمة لا بد منها .. واستحقاق يوهب من الناس ولا ينتزع.

فمن أين نال النبي الخاتم هذا الاستحقاق؟ لنعد إلى هذا المتربع على عرش مقام البشرية، من أين جاء رفع ذكره؟ وسمو مكانته؟ جاء من كونه على تعدد مشاغله .. وتحمل عبء أمة ورثت الطيش كابرًا عن كابر كان قريبًا من الناس بكل فئاتهم .. يبلغهم رسالة ربهم .. ويعلمهم الكتاب والحكمة .. لا يترفع عن مختلف فئات المجتمع فلا يفتقده فقير ولا غني .. ولا رجل ولا امرأة .. ولا سيد ولا مولى .. فكان لشريحة الضعفاء والطبقة المستترقة من حياته نصيب .. في معجم الطبراني عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى صاحب بز فاشتري منه قميصا بأربعة دراهم، فخرج وهو عليه فإذا رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم اكسني قميصا كساك الله من ثياب الجنة، فنزع القميص فكساه إياه، ثم رجع إلى صاحب الحانوت فاشتري منه قميصا بأربعة دراهم، وبقي معه درهمان، فإذا هو بجارية في الطريق تبكي، فقال: «ما يبكيك؟»، فقالت: يا رسول الله دفع إلي أهلي درهمين اشتري بهما دقيقا فهلكا، فدفع النبي صلى الله عليه وسلم إليها الدرهمين الباقيين، ثم ولت وهي تبكي، فدعاها فقال: «ما يبكيك وقد أخذت الدرهمين؟» قالت: أخاف أن يضربوني، فمشى معها إلى أهلها فسلم فعرفوا صوته، ثم عاد فسلم، ثم عاد فسلم، ثم عاد فسلم، ثم عاد فسلم، فقال: «أسمعت أول السلام؟»، قالوا: نعم، لكن أحببنا أن تزيدنا من السلام، فما أشخصك بأبينا وأمنا؟ قال: «أشفقت

¹ - [الشرح: 4].

هذه الجارية أن تضربوها»، قال صاحبها: فهي حرة لوجه الله لمشاك معها فبشرهم نبي الله صلى الله عليه وسلم بالخير والجنة، ثم قال: «لقد بارك الله في العشرة كسا الله نبيه قميصا، ورجلا من الأنصار قميصا، وأعتق الله منها رقبة وأحمد الله هو الذي رزقنا هذا بقدرته».

ولشريحة النساء من اهتمامه نصيب، فهذه امرأة عجوز تستوقفه - صلى الله عليه وسلم - إنها (خولة بنت ثعلبة) تسأله عن زوجها المسن الذي ظاهر منها .. فيأتي الوحي، ليشير المولى بعظمة سلطانه أنه كان ثالثهم أيضا يسمع تحاورهما .. كأنه تعالى بهذا يقول: لم تكن أنت وحدك تسمع شكوى هذه العجوز، بل وأنا من فوق السبع السماوات والعرش العظيم أسمع .. فأين مقام المتكبرين من مقام من ليس يعلوه مقام؟.

ولشريحة الأطفال من قربه نصيب فهذا العظيم الذي كان يقيم بيته .. ويخسف نعله .. ويحمل الحطب على ظهره، ولا يترفع على أهله .. يردف الغلام الصغير ابن عباس - رضي الله عنهما - خلفه ثم يستأذن هذا الغلام .. انظر رسول الله يستأذن الغلام ويقول: "يا غلام ألا أعلمك كلمات لعل الله ينفعك بها؟ .. سبحان الله يستأذن غلاما لكي يعلمه ويضع له قيمته في الاختيار والرأي، وهو ضيفه على راحلته .. وما يعطيه التعالى من قيمة وإن مع الصغار؟ فاستحق أعظم وصف (وأنتك لعلى خلق عظيم) ولم يقل لعلى عباده عظيمه فما أسهل إقامة علاقة مع الخالق ولكن ما أصعب إقامة علاقة إيثار مع المخلوق.

ومن تجليات مظاهر القيم الاعتبارية في الإسلام أن حوّل العبيد إلى سادة والمدفوعين بالأسواق إلى قادة .. فلا يوجد في هذا الدين امرأة ليس لها حق .. ولا طفل صغير لا رأي له .. ولا مهمش منبوذ ليس له مكانة .. الكل في أصل الإنسانية سواء .. وفي مقام الفهم وتكاليف الاستخلاف سواء .. وإنما يترافعون بالتقوى.

على أن هناك من ارتبط في صورته الذهنية معنى غريب للتواضع، يساوي معنى الابتذال .. وعدم الحفاظ على هوية السلطان .. والتفريط بمعاني الوفاق .. وهذا ربط جائر لهذه القيمة الإنسانية العليا، فالابتذال والتواضع ضدان لا يلتقيان .. الابتذال بمعناه الحقيقي هو أن ينزل المرء نفسه منازل الشبهات .. وينخرط مع المنخرطين في سلوكيات تشينه ولا تزيينه .. تخفضه ولا ترفعه .. تخرم مروءته وتقدح في قيمته الاعتبارية .. وينتهي من شخصية محاطة بالتجلة والاحترام، ونموذج يُقتدى بها ويُهتدى إلى شخصية ملطخة بالأحوال .. فربما أراد أن يتواضع ولكن بالنزول إلى الوحل لا لينتشل الناس منه .. بل ليقع هو فيه فيتهتك مع المتهتكين .. ويسترسل في سفاسف الأمور وسقطها مع المسترسلين .. فلا يبقى فرق بينه وبين دهماء الناس .. والأوفق أن ينزل الإنسان للناس كما كان ينزل من هو أفضل منه، فإذا وجد نفسه بين أمثال هؤلاء فليكن هو موجهها لسلوكهم لا متوجهها نحو سلوكهم

.. ثم يعظهم فإن لم يتعظوا تركهم (... فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (1) .. والعزة تكون مع غير المسلم، ولكن أيضا في محل تواضع، فالعزة إن لم يكن معناها عزة النفس عما في يد الغير وتأييها على الخضوع لإرادته في غير ما طاعة فهي تكبر لا عزة، والتكبر لا يجوز مع مسلم ولا غير مسلم، فغير المسلم يحتاج إلى درس في جمال الخلق لتحيبته للدين وليس لسوء الخلق لتتفيره منه .. أما مع المسلم فلا يوجد عزة بل ذلة وتوطئة كنف وصبر على تبعات التواضع له، (أشداء على الكفار رحماء بينهم) (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) فربما لا يروق شكله، ولا لغته، ولاسنه، ولا مستوى مكانته فهذه كلها مطروحة أمام معيار الأخوة الذي أوشك أن يضيع بيننا.. لاسيما علاقة القمة بالقاعدة.

فمتى نعود لتعاليم ديننا نحن الذين انفرط عقد نظامنا فلم يعد أحد يدري بم نتعامل؟ .. هل بالمادية المتوحشة فلا تعترف بحق الأخوة كالغرب، ولكنها مع ذلك لاتخلو من قانون يحمي الحقوق ويتواضع الحاكم فيها للمحكوم؟.. أم بالجاهلية الأولى ولكنها ما خلت من النخوة والكرم والنجدة وبذل المعروف؟ .. أم بدين التسامح والتنازل ولين الجانب .. وأين هو في حياتنا؟ .. إن المرء منا ليبدل أحيانا الملايين ليذل أخاه في الدين والمواطنة، بمضايقته في رزقه أو إنهاكه بالشرائع .. أو بالاستقواء عليه بالسطو والنهب ومصادرة الحقوق والاستئثار بالمقدرات بل وباسترخاض دمه دون خوف من الله ولا من الناس ولا من التاريخ .. فضلا عن شيوع الغش والكذب وإخلاف المواعيد فأبي دين نحن عليه ليت شعري؟ لا يغرنك اسم محمد وصالح وفاطمة وزينب .. ولاصوت الأذان وأداء الأركان .. فالدين المعاملة .. وما يحدث من مظالم في عالمنا الإسلامي شيء مخجل وفظيع ويشعرك أنك في غابة مغطاة بمظالم لا أمل في تسرب النور إليها .. فويل للذين آمنوا بألسنتهم ولم يوقر في قلوبهم ولاصدقوه بأفعالهم .. ويل لهم ثم ويل لهم.



خلال القيم الاعتبارية لدى:

4-الطبقيين

لدينا تفاوت طبقي أفرزته تكريس سياسي طبقي .. وقيم اعتبارية أسرية .. وقيم اعتبارية جهوية .. وقيم اعتبارية قبلية .. وهذه أشد وسنفرد لها حديثا خاصا بعون المولى.

ومن السهل أن يصنع الشعور الزائف بالتفوق أمجادا على أكوام من قش .. وتيجانا ورقية على مفارق أطفال يلعب بعواطفهم الخيال .. وقد يكبر الخيال الطفولي مع ميراث الشعور الطبقي، الذي تتناقله بعض الأسر الجاهلية.

ولقد تمر بك تجارب الحياة فتجد النمر هرا .. وكريم المحنت عجزا خاويا .. وباذخ السمعة انتفاخا ورميا، وإنما الأصل فيما أثبتته الفرد لنفسه من فرادة وفضل في محك التجارب.

إن جماعة (أنا) و(نحن) على سبيل التعالي كلهم في النار .. (أنا خير منه) في النار .. (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين) في النار .. (أنا ربكم الأعلى) في النار .. (أنا أكثر منك مالا) في النار .. (نحن أبناء الله وأحباؤه) في النار .. (نحن أكثر أموالا وأولادا) في النار .. (من أشد منا قوة) في النار .. هؤلاء كبار في الدنيا (... وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...) (1). (لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ...) (2) .. لا متسع في القرآن لتشامخ أحد على أحد ولا للتعالي بالأنساب ولا للتنايز بالألقاب .. لكننا ونحن أصحاب هذا الدين صارت لدينا طبقات جاهلية محفوظة بتقاليد باتت موازية لتعاليم الإسلام .. بل وحيّدت تعاليم الإسلام حتى انتهت إلى نظريات بلا تطبيق .. وكثيرا ما هيمنت نخوة الجاهلية فيها على أخوة الدين .. وصار لهذه الآفة في كل قطر من الأقطار الإسلامية اعتبارات ونظرات خاصة .. تزيد قتامة أو تقل .. ولا يزال لنخوة الجاهلية أثره الذي ترك الناس أشتاتا .. انتهت الطبقيّة في بلاد العالم وبقيت لدى اليهود والهنود والعنصريين البيض والسلالم من أبناء المسلمين .. فهناك أسوار سميكة عزلت بعضنا بعضا في جزر طبقيّة لا أصل لها في الشرع .. وكمثال باليمن فبلدنا هذا يزخر بالفواصل الطبقيّة الجائرة .. طبقة السادة .. وطبقة القضاة .. وطبقة المشايخ .. وطبقة القبائل .. وعندنا طبقة (الأطراف) الذين حكم عليهم بالدونية، بسبب حرفة اختاروها لإعاشة أنفسهم .. فهذا حلاق وهذا جزار وهذا قشام .. ثم ضُمت إليها حرف معاصرة في بعض

1 - [البقرة 212].

2 - [الممتحنة 3].

المناطق مثل مدرّج .. متنّك .. مبلّط .. وبقيت فقط الزراعة والرعي التي هي مهنة القبلي الذي ليس عليه علامة استفهام غير أن أهل البداوة يعيرون على القبائل أيضا مهنة الزراعة لتتجو مهنة الرعي وحدها .. المهنة التي كان العرب قديما مجمعين على انتقاصها ليدلنا على أن العملية جاهلية وغرور ادعاء لا سوى.

وعلى أساس التمايز الطبقي انقسم المجتمع إلى أبناء أصل، وأبناء ناس .. وأصل تعبان وأصل فاتر .. وقبيلة عالية الجودة وأخرى خاملة الصيت .. قد يقال: عادات وتقاليد تعارف الناس عليها، وليست فوق مبادئ الإسلام .. ومن قال إنها ليست فوق مبادئ الإسلام؟ .. كيف وقد صار بعضنا يسرق البعض الآخر بقوة السلاح باسم خرافة التفوق السلالي وأصل الجينات؟ وباسم القبلي .. وبات شبه المستحيل أن يزوج الذي هو أعلى نسبا قريبته بالذي هو أدنى في نظره؟ .. حتى وإن كان صاحب الأصل المغموز متين الدين، وصاحب الأصل الشريف رقيق الدين .. فالسؤال دائما عن قربه وبعده من النسب الشريف، لا عن قربه وبعده من الكبير المتعال .. لقد همشوا أحد أعظم مبادئ الإسلام وهو كرامة التقوى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) " لا فرق بين سيد عربي وعبد حبشي إلا بالتقوى" وعادت ضلالات الجاهلية الأولى.

انصرف الناس في ظل العطالة والفراغ إلى صناعة الأمجاد الفارغة بألقاب منحوتة ما أنزل الله بها من سلطان: (إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى) (1) .. قال (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) لكننا تركنا الهدى .. وصار يقتل بعضنا بعضا بسبب خرافة الجينات وخرافة القبلي، وتركنا (أدلة على المؤمنين) (رحماء بينهم) .. نعيّر بعضنا بعضا بنوع أصل الخلق كأنما اعتراض على خلق الله أن خلق هذا من صلب أشراف كما يدعون وهذا من صلب أطراف .. ونعيّر بعضنا بعضا أن رزق الله هذا مهنة شريفة كما يزعمون وهذا مهنة وضيعة، فالسخرية بالخالق وإلا ما ذنب المخلوق؟ والانتقاص بالرازق وإلا ما ذنب المرزوق؟.

وتولى بعضهم كبره متمسحا بأحاديث ضعيفة ومتروكة .. تتناقض مع صريح القرآن وخصوصية الإسلام الذي جاء بالعدل والمساواة .. يستأنسون لعلو جاهليتهم بما يوافق هوى النفس من أخبار مطروحة ويتركون المحكمات .. يقولون "تخيروا لنطفكم" وعلى فرض صحة الأثر مائة في المائة .. فإن العيب في انحراف السلوك لا في أصل الخلق .. فتخيروا لنطفكم أهل بيت الصلاح والعلم

والتقوى لا أهل الخنا والفجور والانحراف، كائنة ما كانت أصل هذه الأسرة أو تلك، أو نوع الحرفة التي تزاولها.

إن السقطة الكبيرة التي وقع فيها بعض الفقهاء، وفتقوا بها في الدين فتقا لا يرتق، هي خرافة الكفاءة الاجتماعية، (الكفاءة في النسب) ونظروا لها وجودها وشرقوا وغربوا، وصاروا في هذا مشرعين مصدرهم الهوى، ناسين سيرة المصطفى الذي زوج من كان عبدا بالسيدة القرشية .. ومن كان حبشيا بالمرأة العربية .. ومن كان خفيف ذات اليد بالمرأة الميسورة، لكن بكذبة الكفاءة انتشرت العدوى وتعدت الأفراد إلى المجتمعات .. وأطلقوا فتنا عظيمة .. وإنما الكفاءة في الدين وحسن الخلق " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه .. إلا تغفلوا تكن فتنة في الأرض وفساد، قالوا يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال: إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه .. ثلاث مرات" (1).

ولا يخطئ النظر الثاقب أن يجد مواطنا شعوبيا يتعالى على أخيه المسلم .. وليت أن التعالي مرده إلى عبقریات تفوقت بل إلى وهم الأرومة .. أو إلى سعة الكروش وكثرة القروش .. أو إلى رصيد الماضي الذي لا يشبع جائعا ولا يكسي عاريا.

إن هذا التمايز الطبقي والإثني عار في حق القيم الإنسانية الذي حرّمته القوانين الدولية والمواثيق الأممية، وهو أشد في حق أهل دين الأخوة والمساواة .. وإنما كانت الطبقة العرقية في الجاهلية الأولى وامبراطوريات الهند، وفارس، والروم، أما الإسلام فقد جاء وساوى بين الناس .. فلا فرق بين أبيض وأسود .. ولا بين غني وفقير .. ولا بين عبد حبشي وسيد قرشي إلا بالتقوى .. ولقد نتج عن هذا التمييز الجاهلي شعور المهمشين اجتماعيا بعدم قيمة أي فضيلة يتحلون بها، فقادهم إلى أحيانا إلى شيء من عدم الالتزام والمحافظة، بحجة أنهم مجرد أطراف وليس الجينات سببها بل المجتمع بدرجة أولى.

والذي أراه أن هذه الأمراض الطبقيّة تعالج بشكل رسمي وقانوني، ويدشن تذويبها عن طريق المصاهرة والدمج العائلي ومزاولة المهن، يبدأ بها المسؤولون والنخبة المثقفة، وتتزامن مع حملة تنقيفية كما يفعل الأمريكيون لدمج السود بالببيض في الإعلام كذلك يجب أن يكون.



خلل الانتماء لدى:

1- المتعصبين للقبيلة

يعد غياب ضابط التكريم الحق، وشيوع معيارية التفوق العصابي سر دوران القبيلة حول حلقة مفرغة في فلك أسطورة ركن القبيلة الشامخ .. من الجاهلية الأولى كانت القبيلة تمثل القيمة المركزية التي يستمد منها الأفراد عزتهم ومنعتهم .. بها يتفاخرون .. وعلى أمجادها يتسامرون .. فصارت منبع فلسفة الحياة، وموضع الفدا والتضحية .. ومصدر الأمر والتوجيه.

وقد اختزل هذا المفهوم بيت دريد بن الصمة الذي يقول:

وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت * * غويت، وإن ترشد غزيرة أرشد

وأكثر البنى السلوكية تركت تأثيرها في عمق الفرد العربي هي بنية التعصب القبلي، والاعتداد بقيمتها الاعتبارية، التي قد تمنح أفرادها وهم القوة .. والشعور بالتفوق على كل الناس. حتى بعد مجيء الإسلام.

ولقد كانت تتصافح بواتر القصائد الشعرية بنقائض ترفع هذه القبيلة وتخفض تلك، فبين قائل:

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم * * فمن يسوي بأنف الناقة الذنبا

وبين قائل:

فغض الطرف إنك من نمير * * فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وبالمبالغة في الاعتداد بإرث بطولات القبيلة في زمننا ربما شعرت عن بدائية في التفكير وطفولية في التصور، أنها قادرة حتى على هزيمة كبريات الدول .. يظهر مثل هذا في الأهازيج الحماسية فبحسبهم الأنفة والكبرياء وعدم الاستسلام.

لقد بقي في تلافيف الذاكرة التاريخية قذح سنابك الخيول، ولمع بوارق السيوف .. وقصرت عن مزاحمة هذا المزاج المفاهيم المعاصرة .. التي تغيرت معها المعادلات .. واختلفت الحسابات ..

وتغيرت لعبة التغالب .. وبات العقل، والتخطيط، والتصنيع هو الحاكم المسيطر .. فكل ترسانة الأهازيج والأراجيز .. ورقصات المحاربين لإيقاع الرهبة في نفوس الخصم .. وكثرة تكتل الحشود القبلية المصحوبة بقرع الطبول المعبئة للحماس، لم تعد تكسب النقاط على عدو خارجي معتبر .. لقد استوى الشجاع والجبان في زمن الحرب عن بعد .. ويمكن من غرفة العمليات الحربية الحديثة أن يحصد صغير السن وناعم الكف والمرأة، وضعيف الحيلة، الآلاف من الرجال الأشاوس .. وبكبسة زر واحدة وعلى بعد آلاف الأميال، تترك الرؤوس الشوامخ كعصف مأكول .. ولن تبتلق العيون في وجوه الأسود الضواري لتهاجها وقد صارت مجندلة بضربة غاز حارق أو حديد خارق .. ولن تسمع الأسماع سهيل الخيول العوادي لهذه القبيلة أو تلك .. سيلتقي الطرف الثاني فقط بالأبطال الشجعان كإحصائية ميتة لسلاح الدمار الذي صنعه عدو مجنون.

نعم أسطورة القبيلة المحاربة أمجاد منتهية الصلاحية كمخزون بشري يملك أسلحة شخصية .. إلا أن تدخر للقتال بين المجتمع الواحد عندئذ يكون الاحتفاظ بأسطورة القبيلة المحاربة هو بهدف الحصول على قيم اعتبارية جوفاء، التي توفر للقبيلة بعض الامتيازات الداخلية أبرزها التسامخ .. ليس على الأعداء الحقيقيين بل على القبائل المجاورة من أخوة الدين والوطن.

ولدينا من الثقافات القبلية ما ينظر إلى ابن القبيلة كمشروع موت لا كمشروع حياة، وعدم تقدير قيمة الحياة ورسالتها العظيمة يجعل الإنسان فيها رخيصة، ويكون أعضاؤها مجرد أرقام مهينة للحصد ؛ لأنها لا تبالي أوقعت على الموت أم وقع الموت عليها وما أسرع ما تساق إلى محارق الفناء بهذه الثقافة العدمية وتستغل لأهداف شريرة مقابل الموت المجاني والرخيص .. والبطولة الحقنة أن تدافع عن حياة أفرادها من عبث العابثين .. وأن تكون مخزون سلم، وبناء، وإنتاج، فليس رخص أبناء القبيلة مما يعلي مقامها بل مما يعرضها للتفتيت ويعمق تخلفها فيما الناس من حولها يحسنون مداخل عيشتهم ليحصلوا على حياة أفضل.

وأجدر بالقبيلة أن تعرف كيف تمارس الحياة على أصولها ومن أن تجد نفسها وقد صارت في نهاية سلم الفقر، فتلجأ إلى أعمال قاذحة في المروءة والشرف، مثل الاستقواء بالتعصب القبلي على الضعفاء لأخذ ما في أيديهم دون وجه حق .. وتضع نفسها فوق القانون ومنظومة القيم وتبارز الله بالمعاصي الذي وصف المؤمنين بأنهم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) .. (أدلة على المؤمنين أعزاة على الكافرين) ..

وهذا يفسر لنا ظاهرة انتشار البندقية على رؤوس بعضنا البعض، واعتماد المسدسات بمناسبة وغير مناسبة .. ويفسر حرص بعض أفراد أبناء القبيلة على تعزيز دور قبيلتهم بمفهوم العجرفة

والترويع .. من خلال الحرص على اعتمار السلاح كمظهر للرجولة .. فتبندق الناس وحشدت المعيات المسلحة لتدل على أهمية الشيخ ومكانته .. ثم صارت لغة الرصاص أحيانا اللغة الأبرز في التفاهم .. فيأخذ المبدق ما يريد بحق القوة لا بقوة الحق .. وذلك لأنه مهياً لأن يكون قاتلاً أو مقتولاً ولأن وراءه قبيلة محاربة تتصر مواطنها مظلوما وربما ظالما.

قد يقال رويدك أيها المتحامل على القبيلة .. أرفع لسانك عنها فهي مخزون تحرر وخير لا مخزون طيش كما تصفها .. وأقول نعم القبيلة مؤسسة موجودة بقدر الله .. ونرغب في الاحتفاظ بعزتها لكي تحدث توازنا كمثل للشعب أمام الدولة .. لكن لا نرغب لهذه العزة أن تذهب إلى العنوان الخطأ، فتكون فوق القانون .. فقد اتضح أنها مؤسسة غير مؤسسة على ثوابت أكيدة فيركن إليها .. ففي اليمن كثيرا ما افتقدها الشعب حيث يحب .. ووجدها حيث لا يحب .. ولهذا السبب اضطر سيف بن ذي يزن إلى الاستقواء بالخارج لأن مؤسسة القبيلة بقيت مع الحاكم الغازي الذي يدفع.

واضطر ثوار 26 سبتمبر التحررية للاستقواء بمصر لأن القبيلة كان هواها مع الحاكم ظل الله الذي ينفع .. واضطر ثوار 11 فبراير إلى الاستقواء بالخارج لأن القبيلة بقيت مع من بيده المدفع .. رغم أن الخارج يبقى شرا على كل الوجوه .. وزعيم القبيلة غالبا إن وجد يد الدولة من حرير عصرها وابتزها .. وإن وجدها من حديد قَبَلها وقَبَلها .. فما حاجة الناس إذن إلى غوغائية حياة مضطربة؟ فحيث كانت القبيلة السلبيه كانت الدولة الرخوة وعلى يدها كان العصف بأفغانستان والصومال وجنوب السودان والكنغو .. ومثل شمال اليمن جنوب اليمن حيث القبيلة كانت دوما مصدر الاحتراب والتمايز .. وهاهي تتهارش على الملف الحقوقي للجنوب، عن طريق السباق بين قبيلة الزمرة وقبيلة الطغمة على المتاجرة بهذا الملف في أرصفة إرادات دولية مختلفة.

وبالمحصلة فالقبيلة مطلوبة بقوة .. ولكن بالشكل الذي يعصرن تفكيرها لا يملشن مزاجها، ويعيد إنتاجها بشروط العصر .. فتكون حامية للبناء والإعمار وعيونا مفتحة على الظلم والظالمين .. وبعد إزالة الفكر العصبوي الجاهلي عنها الذي أعاق وجود دولة مدنية حديثة يتحقق فيها مبدأ المساواة للجميع.



خلال الانتماء لدى:

2- جماعات احتكار الحقيقة

المراهقة الفكرية من قواصم السلم الاجتماعي .. وتضخيم مبدأ الانتماء لحزب أو جماعة، يصير معه الدخول في تنظيم ديني مساويا لمعنى الدخول في دين جديد بديل عن الهوية المشتركة والدين الجامع .. وكأن مواطنة جديدة قد استجدت بالعضو المنتمي فبات يحدد من هو الأحق بالانتماء للوطن والتمتع بمقدراته ومن يستحق التهميش والإقصاء.

ذلك أن ثمة خلا في مفهوم مبدأ الانتماء لجماعة دينية .. وعدم إدراك الحدود الفاصلة بين ما هو انتماء للدين وبين ما هو انتماء لطريقة من طرق التدين .. بين ما هو ثابت عام وبين ما هو جزئي وهامش اجتهادي قابل لتعدد زوايا الرؤية فيه .. فما يلبث أن يصبح العَرَض هو الجوهر .. والوسيلة هي الغاية .. والشعار هو الرسالة.

وبسبب التعصب وداء العُجب والافتتان بالنفس ترى الجماعة الغالية إلى نفسها كهيئة استكشافية أولى للخير، الذي عمي عنه سائر الناس من قبل ومن بعد .. فاختصها الله وحدها بهذا الفضل (والله يختص برحمته من يشاء) فهي وحدها تمثل الله .. وحدها تمتلك الحقيقة .. وبدونها فالناس على خطر عظيم، وعلى شفا حفرة من النار ما لم يبادروا بالانتساب إلى الحق المطلق الذي بيدها منتهاه .. ولو علمت تلك الجماعات لأدركت أنها إنما تمثل حلقة ممتدة من أذعياظ ظهوروا بنفس درجة حماسها ثم انتهوا سلفا نابيا في التاريخ.

وتأسيسا على مبدأ المفاصلة والإلغاء فأنها تطبق على الآخرين مبدأ الولاء والبراء .. في مقابل الفرقة الناجية .. فلاعهد لمن خالفها ولا ذمة .. عقابه قدر وحياته هدر .. قد تحولت شروط الدخول في الإسلام إلى شروط الدخول في نهجها هي .. فمعيار الإيمان والكفر بناء على قرب الآخرين وبعدهم منها، وليس على أساس قربهم وبعدهم من الله .. فقد ألبست نفسها جلابيب الصلاح والطاعة .. وغيرها سراويل الغي والارتداد .. وما تبقى من دور المولى تعالى هو فتح أبواب الجنة لأصحابها، وفتح أبواب جهنم لأعدائها.

وهذا الفهم الجهنمي لمعنى الانتماء جاء نتيجة عوامل عدة منها:

الفهم المغلوط لمعنى وجود جماعات اجتهادية، فبدلاً من أن تنتظر إحداها إلى نفسها كجماعة من المسلمين تظن نفسها أنها هي جماعة المسلمين، بعد أن خصصت الدين وصار لها حقوقاً محفوظة .. وعليه يبرمجون عقول أتباعهم فيصير في اللاوعي أن من خالفهم فقد خالف الدين .. وزين لهم الشيطان أعمالهم في أنه إما حق وإما باطل (... فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ...) (1) وليس هذا صح وهذا أصح .. هذا حسن وهذا أحسن .. هذا فعل بظاهر النص وآخر بمقاصده .. هذا أخذ بالعزيمة وآخر أخذ بالرخصة .. بل ما هو إلا أبيض أو أسود .. حق أو باطل، هذا موقفه أَرْضَى اللهُ وَالْآخِرَ أَسْخَطَ اللهُ .. وكما قال الخوارج للخليفة الرابع رضي الله عنه لقد محوت اسمك من إمارة المؤمنين [يريدون في كتاب الصلح مع معاوية] فإن لم تكن أميراً للمؤمنين فأنت أمير للكافرين؟! .. وبالنتيجة لا بد أحدهما في الجنة والآخر في النار .. استدلال جهنمي تكفيري بني على مقدمات خاطئة وأدى إلى نتائج خاطئة.

لنتأمل في منهج القرآن قال تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...) (2) فهم في مرتبة من مراتب الدين الثلاث وهي الإسلام والإيمان والإحسان ولم يقل ليس إلا كفر أو إيمان.

والاختلاف سنة جارية ليس على مستوى اختلاف زوايا النظر بل وفي الأطوال .. والأوزان والأذواق .. والألوان .. واللغات .. فلم يخلق الله الناس بصمة واحدة في كل شيء، (ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) (3) وإلا لماذا دعاهم إلى التفكير وإعمال العقل، ولماذا جعلهم درجات في العمل (ولكل درجات مما عملوا ...)؟.

على أن الاختلاف في مسائل الدين إنما يكون في مسائل لا نص فيها .. أو فيها نص ولكنه غير قطعي الدلالة أو غير قطعي الوجود .. وغاية ما هنالك أن الاختلاف فيها قد يكون دائراً بين الحسن والأحسن .. والراجح والمرجوح .. والعزيمة والرخصة. وأن الاختلاف هو اختلاف في التنوع والتخصص، لا اختلاف في أصول الدين فيجر إلى خلاف وتصادم وتصارم .. مثل حديث "لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة" (متفق عليه) فمنهم من صلى العصر في الطريق بناء على مقاصد الشريعة من أمر النبي وهو الإسراع، ومنهم من صلى العصر بعد غروب الشمس في بني قريظة بناء على ظاهر الحديث .. فاختلف فهم الصحابة واختلف التطبيق، وأقر النبي الاجتهادين.

(1) [يونس: 32].

(2) [الحجرات: 14].

(3) [هود: 118-119].

والحياة متشظية بين تخصصات لا تعد، فهذا مهتم أكثر بالعمل الفكري السياسي .. وآخر مهتم بالجانب الدعوي .. وآخر بالجانب الفقهي .. وآخر في الاعتناء بالسنة .. تماما مثل اختلاف تخصصات إخوة من أبٍ وأمٍ فهذا اهتم بعلم الهندسة .. وهذا عني بالطب .. وآخر ذهب للعمل الإداري .. فهل لابد من التطابق وإلا فجهنم من أمامهم والتكفير من خلفهم؟.

وإنما يلزم الاتفاق في المحكمات التي هي أحكام تشريعية كلية يحاسب الله عباده عليها بمختلف قدراتهم العلمية، مثل وجوب ترك الشرك، ووجوب إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة .. الخ قال تعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ...) أي ما هو معلوم من الدين بالضرورة لم يتركه الله بلا بيان محكم قطعي الورود والدلالة .. وما كان من المتشابهات فقد تعبدنا الله بالاجتهاد فيها، دون سياسة الاستلحاق، ودعاء احتكار الحقيقة، فليس التنظيم أو المذهب هو الدين، بل كل واحد وما ترجح عنده، وفي هذا تكريم لعقل الإنسان، وإلا لأنزل الله كل كتابه محكما كالرياضيات والفيزياء، فلا يختلف في مسلماته اثنان، ولكن سينتهي دور الإنسان في إعمال الفكر والتأمل ويصبح آلة استجابية وكائن جبري لا دور لها في التأمل والاستنباط الذي به تميز عن بقية المخلوقات.



خلل الانتماء لدى:

3- جماعة التكفير والتفجير

اختارت الجماعات التكفيرية العنيفة الطريقة الاستباحية والحرابة .. كأى جماعة إجرامية تقطع الطريق وتخيف السبيل ولكن باسم الدين .. لتصبح جريمتها مركبة، من جريمة ارتكاب الجريمة وجريمة نسبة الجريمة للدين، زورا وبهتانا وتوظيفا رخيصا.

ومنذ عهد الخليفة الرابع علي - رضي الله عنه- خرجت حركة الخوارج بتوصيف تنظيمي مختل، حيث خرجت على الخليفة ثم كفرته وقتلته، وكفرت معاوية، وعمرو بن العاص، وكان منها الصفرية، والأزارقة، والأباضية .. وهي في التراث الفكري حركة انتبذت من جماعة المسلمين مكانا قصيا، وليس مرجعها الفكري سوى هواها ونزقها وميول طبعها للعنف .. إذ كان غالب منابتهم البداوة حيث تطبعت سجيتهم على توحش المقافر، فلم يكن انتماؤها التنظيمي دعويا ضمن إطار سنن التغيير .. بل انتماء مختلا ذا هوية خاصة .. وفكرا مستقلا، يعمل بمعزل عن مرجعية شمولية الفكر الإسلامي .. وإنما اعتمدت كأى فكر ضال المنهج الالتقاطي في الاستدلال .. الموافق لوعورة طباعهم، فيأخذون من النصوص ما يوافق منزع التغيير بالعنف، ثم يقولون إنما أخذنا مبادئنا من الإسلام .. والصحيح أن في الإسلام المتشابهات، التي يتكئ عليها أصحاب الأهواء وينطلق منها كل من في قلبه زيغ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

ولذلك من نصوص المتشابهات خرجت أيضا فرق مناقضة لفكر الخوارج، ولكن اختطت خطها في التشبث بأدلة ظنية كرافعة لأهدافها، وهي حركات الروافض المختبئة خلف شعار (حب أهل البيت) الذي صار علامة مميزة وقيمة تجارية في أوساط الشيعة، فعن طريق نصوص غير قطعية الدلالة انطلقت لتعيث في الأرض فسادا، مثل حركة القرامطة .. والحشاشين .. والزنج في العراق، وفارس، والإحساء، وحركة عبيد الله المهدي في المغرب، وعلي بن الفضل في اليمن .. وفي الزمن المعاصر تجددت هذه الحركات بأسماء جديدة، واشتركت الدوائر الاستخباراتية العالمية في إحيائها وتقريخ عينات تخريبية لجعل واقعنا دوارا موارا، يعج بالأحداث التي لا تترك للأمة فرصة لالتقاط أنفاسها فتبني نفسها .. فتمحورت مطالب جماعة العنف في دعوة واحدة وهي: (أسلمة المسلمين وقتل الكافرين) فمنهم من يشمل تكفيرهم الأحياء ومنهم من يشمل تكفيرهم الأحياء والأموات .. كل المسلمين الموحيدين على ضلال إلا هم الفرقة الناجية .. ودوما عينها على الحكم إما باسم الخلافة أو باسم الولاية.

وإنَّ لحسنِ كلامِ هذه الجماعاتِ وجمالِ شعاراتها لِحلاوةٍ .. وإنَّ على مظهرها لطلاوةٍ .. فهذا أسودٌ خارجيٌّ وهذا أخضرٌ رافضيٌّ .. وأغلفة إصدارها أسلامي الماركة تعكس الجودة وأصالة المنشأة (الخلافة الإسلامية) (الإمارة الإسلامية) (أنصار الشريعة) (أنصار الله) (حزب الله) .. وإنها والصدق يقال لتقييم دين التوحيد ولكن على خرق سوداء كتب عليها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وتهزم الكفار ولكن بالتكبير وتنصر الدين ولكن بشعار (النصر للإسلام) .. وتسقط طائرات الأعداء ولكن بأصابع السبابة حين تطلقها في خطب التهديد والوعيد.

ورغم هذه الإنجازات الدعائية والفتوحات الشعراوية إلا أنك حينما تبحث تجد كل شيء متوفرا فيها إلا الإسلام والمسلمين .. يحاربون المسلمين باسم العمالة للكافرين وإنما هم أدوات استعمالية وجنود مجندة بيد نادي المحتلين علم ذلك منهم من علم وجهله من جهل .. إنها تعمل ما عجز عنه المحتل الخارجي .. تهدم عمود الدين بالفساد باسم إقامته .. وتميت منظومة قيمه بالغدر باسم إحياء شريعته .. وتمزق عرى الأخوة بالفتن باسم توحيدها .. وتذل الأمة بالتنكيل بها باسم إعزازها .. وكل شيء لديهم متوفر إلا العقل .. لأن مدرستهم الشوارع لا الجوامع، فأحدهم قبل أن ينخرط في جماعته تجده عاصيا يوم السبت .. فإذا انخرط في الجماعة يوم الأحد .. تعلم فكرها يوم الاثنين .. ليفتي بتكفير المسلمين يوم الثلاثاء .. ويعلن الحرب عليهم يوم الأربعاء .. ويطبق (شرع الله يوم الخميس .. ويعلن إقامة الدولة الإسلامية يوم الجمعة، كما قال العلامة الدكتور محمد الغزالي رحمه الله تعالى، فأنى لتيارات الشوارع أن تعي شيئا عن الدين ونظامه .. وحكمه وشروطه، وهي التي تأسلمت بطريقة النقيس الآلي .. وبطريقة كيف تقيم خلافة إسلامية في خمسة أيام؟.

وسلاح الإبادة الشاملة تطلقها شعارات على الكفار عابرة للقارات .. الموت لأمريكا .. الموت لإسرائيل .. اللهم احصهم عددا .. واقتلهم بددا .. ولا تغادر منهم أحدا، وعند قراءة محصلة القتلى نجد النتيجة (لاشيء كفار مقابل مليوني مسلم) من أفغانستان إلى سوريا إلى اليمن .. الخ وكلما هدد الخوارج الكفار بأنهم جاؤوهم بالذبح، حفروا للمسلمين والعلماء والمستأمنين قبورا وذبحوهم وسالت بدمائهم الأباطح ورموهم جيفا في الخنادق .. وكلما هدد الروافض الكفار بمطاردتهم إلى ما بعد ما بعد حيفا .. طاردوا المسلمين إلى ما بعد ما بعد القصير وإلى ما بعد ما بعد حلب .. وإذا طبق الخوارج الشريعة فبذبح علماء المسلمين ودك معابدهم .. وإذا نصر الروافض الحسين فيهدم دور التحفيظ ونسف المساجد.

فهؤلاء زمر الحرابة والصائلين فيهم نزل قول الله: (الْم تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ * جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقَارِ) (1) .. وإنهم لمعذرون لأنهم يحبون الإسلام لا كالحب .. فلشدة حبهم له وخوفهم عليه ذبحوه فأكلوه .. خافوا عليه من الرجل العالم المخالف لهم

(1) [إبراهيم 28 - 29].

فقتلوه .. وخافوا عليه من المسجد الذي لا يكرس عبوديتهم ففجروه .. وخافوا عليه من خطر القرآن فأحرقوه .. حتى صار الكفار منهم في عجب! لا يدرون هل هم بات هؤلاء إخوة لهم في الدين أم لا يزالون من جماعة المسلمين! .. يلعنونهم أي الكفار ويصبون جام غضبهم على المسلمين .. يكفرونهم وينفذون خططهم الحربية في ديار المسلمين .. يعلنون مقاطعتهم ويشترون أسلحتهم لقتل المسلمين .. لذلك أبقاهم الكفار إخوة لهم في السر أعداء لهم في العلن .. يصورونهم إرهابيين ليأتون باسم قتال الإرهابيين لقتل المسلمين .. يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة باسم تجفيف منابع الإرهاب وإنما القصد تجفيف منابع المسلمين .. فمن يقدم للكفار خدمات كما يقدم هؤلاء لهم الخدمات؟ إنهم لينامون مع الكفار في مذبذب جريمة واحدة .. ويخذقون في معسكر حربي واحد .. وينتهون إلى غاية واحدة وهي قتل المسلمين وتحت شعار موت الكافرين .. من هنا سمي رسول الله هذه الخارجة "سفاه الأحلام" فهم (سفاه) وشوارعيون .. "أحداث الأسنان" (صغار العقول) .. "يتكلمون بخير الكلام" (شعاراتيون متاجرون باسم الدين) .. "يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة" (أي يطيشون من إدراكه كما يطيش السهم من الهدف) .. ثم قال: "فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة"⁽¹⁾. ويكون ذلك بعد الحوار وإقامة الحجة عليهم، مالم يعاملون كبغاة متى كان هناك دولة رشيدة .. وفي البخاري قال صلى الله عليه وسلم "هَلَاكُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيِ أُغَيْلِمَةَ سَفَهَاء"⁽²⁾ .. وهذا يؤيد الحديث السابق "أحداث الأسنان سفاه الأحلام".

وبدهي أن تكون لهؤلاء العنفيين فلسفة تتم عن قصور في فهم الدين ومقاصده، خلاصتها أن الإسلام أهم من مسلمين مبتدعين ضالين فلنأخذ برّهم بجريرة فاجرهم، وتابعهم بجريرة متبوعهم، وليقتل من يقتل لنصرة الدين.

ويمكن الجواب على هذا التفكير العدمي الاستباحي من قول هارون لأخيه موسى عليهما السلام حين عاد موسى من لقاء ربه غضبان أسفاً أن يجد قومه قد أشركوا بالله من بعده وعكفوا على عبادة العجل وفيهم أخوه هارون فأخذ برأسه يجره إليه، فقال هارون: (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَ مَا تَأْخُذُ بِلِحْيَتِي وَمَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)⁽³⁾ أي خشيت لو حملت على المرتدين المشركين بالشدة والقتل أن يتفرق القوم فتلومني على ذلك، حيث كان قد انحاز إليه فئة منهم لقتال المرتدين، غير أن هارون خاف على تمزيق وحدة الأمة إذا استعمل معهم القسوة حتى وإن كان ذلك في إنهاء حالة مروق عن الدين، لأن بقاء القوم مجتمعين بدل الاقتتال كفيل بإعادتهم جميعاً بالموعظة والتذكير وذلك ما حدث، أما بعد حالة التفرق فستتطور المواقف إلى تمترس واحتراب

(1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(2) لرواه البخاري [7057].

(3) [طه : 94] .

لأسباب منها اتخاذ القوة وسيلة إذعانية، فاستخدم معهم اللين بدل الشدة: (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي) (1).

فالحكمة كفيلة بالتغلب على الشر، ولا يولد العنف إلا عنف، عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه» (2) ولم يأمر الله خير الناس أن يتعامل مع شر الناس إلا باللين (فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (3) مع أن الله ذكر أنه قال: (أنا ربكم الأعلى) (ما علمت لكم من إله غيري) (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (4) وبعد أن يذكر ربنا تعالى أن فرعون طغى أمر بموسى باستخدام صيغة نوقية معه وهي العرض والإغراء: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلِيَّ أَنْ تَزَكَّى) (5) هل تحب طهارة نفسك وكمال إنسانيتك .. لم يأمره حتى بشدة القول وغلظة الأسلوب فكيف بإهدار الدماء وبذر بذور الفتنة بين المسلمين على ما فيهم من تمزق وتفرق؟

وإذا كان موسى - عليه السلام - قد برر قتله لكافر بالخطأ أنه كان (من الضالين)، وإذا هذا نبي يقول في حق نفسه هكذا أنه يقتل هذا الفرعوني المشاحن قد ضل .. فماذا نقول فيمن يقتل مؤمنا متعمدا لأنه يخالفه في مشرب العنف؟ قال الله: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) (6) وهذا التشديد في العقوبة مرده إلى تلك الجرأة على استباحة دم امرئ موحد يحمل في قلبه لا إله إلا الله، التي بها فضّل على الكعبة .. ويضع كل يوم أشرف ما فيه في التراب تقديسا وتعظيما للخالق؟ .. فلم يقم القاتل حرمة لئله إلا الله، ولا لشرائع الدين التي تسكن قلبه ويدين بها لربه .. وكم قتل من المسلمين ومن علماء المسلمين حتى في بيوت الله ركعا سجدا .. وإنما يخفف من الخطب أن يقال إن أولئك المجرمين ليسوا سوى استخبارات لا علاقة لهم بالإسلام الذي يربي أتباعه على تعظيم الحرمات.



(1) [طه : 90].

(2) رواه مسلم وغيره من أصحاب السنن.

(3) [طه : 44].

(4) [الفصص : 4].

(5) [النازعات : 18].

(6) [النساء : 93].

خل قيم الانتماء لدى:

4- جماعة السيف

هم أولئك الذين يرون أن آية السيف أو آيات السيف تلك التي تأمر بالقتال قد نسخت آيات المودة واللين وبر المسالمين من غير المسلمين والإقساط إليهم بل وحالات السلم معهم، فليس إلا القتل والقتال فطرائق الاتصال الإنساني هذه تأبأها تلك النفوس التي تبحث عن مكان تكون فيه إما قاتلة أو مقتولة، فعلاقة المسايقة أظهر من علاقة المسالمة مع جهات السلم .. وبلاغة السنان أفصح من بلاغة اللسان .. وبضربة واحدة تحصد آية السيف عشرات النصوص .. وتحول الإسلام إلى نقطة تفتيش لا يفقه من فن الخطاب مع الآخر سوى سلم تسلّم .. وتحولت المنهجية من حمل الدين إلى الناس إلى حمل الناس على الدين حملاً .. وبدافع الكراهية لهم لا بدافع الخوف عليهم.

وبهذا أصبح معنى الجهاد هو قتل المخالفين لكونهم مخالفين .. لا لكونهم محاربين ومعتدين .. وكأن الله يخلق عبثاً فمن حيث يخلق الخلق يأمر بفنائهم، لم يخلقهم لعبادته بل لإبادتهم، وإرسالهم بأقرب الطرق لا إلى الجنة بل إلى جهنم .. فالأصل في الإسلام هداية الناس وتعبيدهم لله وإدخالهم الجنة وليس البحث عن تغييبهم فهذه بيد الأقدار.

وقد جاء أحدهم يسأل عالماً:

- رأيت لو أنني ذهبت إلى بلاد الكفار ثم استدرجت كافراً إلى مكان خال ثم قتلته، أكون لي في ذلك أجر؟ قال له العالم:

- هل كان الشيطان يريد أن يموت هذا الإنسان كافراً أم مؤمناً؟ قال:

- بل كافراً .. قال:

- فأنت تقوم بعمل الشيطان.

نعم إن مثل هؤلاء يقومون بعمل الشيطان.

وهذا نبي الله موسى - عليه السلام - ندم واستغفر حين قتل كافراً خطأ، وهو من قوم أعداء ذبحوا أبناءهم .. واستحيوا نساءهم .. وأنزلوا بهم العذاب الشديد .. ولم يقل نبي الله موسى إنه كافر، أو بعض من الانتقام المستحق .. فيما أن الكافر ليس بمحارب ولا حامل سلاح المواجهة فإن قتله اعتداء وغدر لا يجوز .. ولقد أخذ فرعون اللعين هذا الخطأ على موسى قائلاً: (وَفَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ الَّذِي

فَعَلَّتْ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ* قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ⁽¹⁾ رغم جرائم فرعون لا تُحد ولا تُعد لكنه وجد للنبي ما رآها ثغرة لمحاجته بها.

إن المبدأ المقاصدي الأصل لرسالة الإسلام هو الرحمة للعالمين: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) لانقمة على العالمين .. والخوف عليهم (يا قومي إني أخاف عليكم) لا أحقد عليكم .. وأرسل الدعاة في محبتهم (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال (للناس) وليس على الناس .. فلماذا بضاعة الكراهية إذا كان القصد إنما هو الأخذ بحجز الناس من أن يتساقطوا في النار وإدخالهم الجنة؟ ليس بين دين الله وخلق الله من غير المعتدين حرب عداوة وانتقام .. بل رسالة محبة وسلام، فالله هو السلام .. وتحية الإسلام السلام .. وينهي المسلم صلاته بالسلام، فإذا دعا الناس لعبادة الله فلكي يدخلوا الجنة وينجوا من النار .. وقد جعل الله سبيل الكفر اختيارا وسبيل النار اختيارا يختار ذلك من يشاء، ويجب ألا يحمل كافر على الدين، بعد إقامة الحجة عليه ورفع الكلفة عن الداعي، فقال: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)⁽²⁾ انظر بعد بيان الرشد من الغي وبعد إقامة الحجة وانتفاء موانعها هو حر لا إكراه في الدين، فالإكراه على الدين لا يصنع إنسانا مؤمنا والإكراه على الفضيلة لا يصنع إنسانا فاضلا، فالحرية أساس الفضيلة ويجب أن يسبق وجودها وجود الدين.

وقال: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ...)⁽³⁾ بعد قول الحق من ربكم (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) فالناس أحرار في اختيار الجنة أو النار. (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)⁽⁴⁾ فإنما هو ابتلاء وامتحان ولن تنقص معصية العاصي من ملك الله شيئا.

وحديثنا هنا منصب على فهم القتال بهدف قهر الناس على الدخول في الإسلام وليس عن الجهاد كفريضة شرعت لحماية بيضة الدين ودفع المعتدين المتربصين به، ولم يقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل غزواته إلا وكان معتدى عليه، ولما كانت الفرس والروم قد بدؤوا بالعداء فإن كل الفرس وكل الروم صارت أرض حرب في عهد النبي وما بعده، لذلك لم يعتد الفاتحون على ممالك مثل الحبشة أو الصين لعدم مبادأتهم بالعداء.

(¹) [الشعراء: 19-20].

(²) [البقرة: 256].

(³) [الكهف: 29].

(⁴) [يونس: 99].

على أنك لا تجد في السيفيين هؤلاء تناسبا بين حجم الإدعاء ومستوى العقل فيفهموا الواقع وتعقيداته، فهم يريدون محاربة العالم بالسيف وبالطريقة الانتحارية، ومستندهم في ذلك قول الله: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...)⁽¹⁾. يقولون، قال الله في العدة: (ما استطعتم من قوة) ولم يطالب بأكثر من الاستطاعة.

ونقول: نعم ما استطعتم من قوة، القوة التي تجعل العدو يرهب منها لا يضحك منها قال (ترهبون به عدو الله وعدوكم) .. العدة التي تحقق الردع الاستراتيجي وليس البنادق والعصي وترسانة الأناشيد الحماسية ومبدأ الاستعداد للتضحية والموت في أي مطرح بلا طائل .. ولقد تحدث الله عن النسبة والتناسب فقال: (... فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) ⁽²⁾ (... فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)⁽³⁾.

والأصل أن يكون للمسلمين من القوة بنسبة 1-2، فأمريكا التي يصنفها البعض دار حرب ميزانيتها الحربية 700 مليار دولار .. فكم ميزانية كل الدول الإسلامية الدفاعية؟ ثم هل تحقق شرط وحدة الصف فيقاتل المسلمون المشركين كافة كما يقاتلون المسلمين كافة؟ ثم إن هذه الجماعات تأخذ في منهجها القتالي رحلة طويلة حتى تصل إلى العدو الحقيقي إسرائيل، فهي تبدأ بالمسلمين ثم أهل الذمة ثم المعاهدين ولا تدري متى ولا كيف ستحارب من أمر الله بقتالهم بقوله: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ⁽⁴⁾ وقال: (أُوذِيَ الَّذِينَ لَدَيْنَ يَفَاتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)⁽⁵⁾.

ونلاحظ في الآية إشارتين الأولى: أن القتال جاء بإذن من الله لدواع اقتضت ذلك، وهو ما يعني أن الأصل الكف حتى يعتدى على المسلمين كإسرائيل والاحتلال الغربي لبلاد المسلمين، وأن قتال الآخرين ليس مفتوحا، ولكن الجهاد هو المفتوح لأنه يشمل الكلمة والمال والدعوة والقتال .. إلخ فالجهاد أعم.

(1) [الأنفال: 60].

(2) [الأنفال: 66].

(3) [الأنفال: 66].

(4) [البقرة 190].

(5) [الحج: 39].

الإشارة الثانية: أنهم يقاتلون بالبناء للمجهول أي يعتدى عليهم بغير وجه حق دليله قوله بـ(أنهم ظلموا) فهذا تأكيد من الله أن القتال اضطرار لا اختيار، ولكل راغب في عصرنا هذا من الجهاد ما يمكن أن يدخل الله على يديه شعوباً فلا حوائل أمام منصات التواصل الاجتماعي المفتوح.



خلل الانتماء لدى:

5- جماعة الابتلاء والتمكين

في حلقة سابقة تحدثت عن الجماعات التي اتخذت العنف طريقاً لتحقيق أهدافها، وفي مقابل جماعة العُنف نجد جماعات أخرى نَحَتْ منحى الاعتدال، إذا ما تكلمنا عن منهجها .. جماعات منتظرة لإحدى الحُسنيين إما التمكين والحكم وإما الابتلاءات .. هذا ملخص سميتها.

انطلق الشيخ حسن البناء رحمه الله لتحقيق هذا الهدف من بناء الفرد إلى الأسرة فالمجتمع ثم التمكين بعودة الخلافة .. بيد أن التمكين عند جماعته يعني ظهور الخلافة الإسلامية كظهور المهدي (المنتظر) .. بدون الإعداد الجاد .. والإجابة على تساؤلات العصر المعقدة .. سوى دروس التزكية والصيام والقيام الجماعي (الذي هو شرط لبناء الفرد، وليس لنهضة أمة، إذ النهوض المادي يحتاج لتخطيط عمران وهندسة بناء) .. إنها بطريقة أو بأخرى تشبه في هذا الجانب جماعات تفقيس الإمارات الإسلامية، ولكن بصيغة عالمية مع طول نفس .. مالم فهي مهياً نفسياً لسنة الابتلاء، ولاتسمح مرونة الآلية بمنزلة بين المنزلتين فلا تمل من ترديد نشيد الأشواك .. والحفر .. والعوائق .. حتى لتلحظ أسطورة الصلب الخفية من أجل تكفير خطايا المذنبين .. ومواعظ من نحو من ضربك على الخد الأيمن فأدر له الخد الأيسر .. فشعارهم الموت في سبيل الله من أسمى أمانينا .. فالموت خيار تضحوي يسبق التفكير بالبقاء من أجل تحقيق نجاح الأهداف .. فيما الحركات الأخرى تهتف بالموت للآخرين وليس موتها في سبيل الله .. يعني جماعات تخطط لأن تكون قاتلة، وأخرى لأن تكون مقتولة .. وضاع بين الموت التخطيط للحياة .. ولأن الدخول إلى الحكم بات في عالمنا يؤتى إليه من بوابة فوهة المدافع، فقد استسلمت هذه الجماعة لقدر الابتلاء .. فيكفيها من حظوظ السياسة السجون والمعنقات .. لذلك كأنما تعيش حالة طوارئ مستمرة .. في انتظار رفع راية الاستسلام لأي عابر سبيل .. فتراجعت الجرأة الأدبية والثقة بالنفس وأسلحة الدفاع الفكرية والصحفية، وإسقاط الخصوم بقوة الحجة وتربية الأفراد على الروح المحاربة سلمياً عبر الفعاليات الضاغطة .. وليس بالضرورة تحت عناوينها بل تحت العناوين الشعبية وبرفقة المكونات المتوائمة .. ومتى سيقت إلى السجون فعلى الأقل بثمن مرض.

وربما أخذت كل المكونات بالأحضان؛ لإثبات قابلية التعايش مع كل التيارات بما فيها تلك الخطرة فكرا وسلوكا خوفا من تهمة الإقصاء⁽¹⁾ فصارت تعالج وضعها وتصحيح النظر إليها أكثر من التزام المبادئ وقول كلمة الحق بخطاب منفتح ومترن .. أضيف إلى ذلك عقدة الخوف من خيار التصادم وإن كان على مستوى الاشتباك الفكري فنقلص عندها مبدأ الوضوح .. وأصبح الهاجس الأمني عائقا لعملها حتى تجلبت برداء التقية أحيانا خوفا من الاعتراف بجريمة لم ترتكبها وهي أنها جماعة تريد إقامة الخلافة ولو بأي صيغة تقود إلى وحدة المسلمين .. مع أن هذا الخيار الأممي إذا بقي في إطاره السلمي تتعاطاه الأحزاب في العالم، ولولم يكن خيارا حيا لما وجد الاتحاد الأوروبي ولا حلف الناتو .. من هنا أثارت المبالغة في التحوط على نشر أهدافها وممارسة أنشطتها توجس وشك الآخرين .. فماذا يمارسون في الغرف المغلقة؟ وماذا يرمون إليه إن لم يكن وراءها مشروع بريء مسنود بقال الله قال رسوله؟ لماذا تكريس الإجراءات الاحترازية .. مثل سرية الاجتماعات والتذكير بمسح محفوظات الذواكر التربوية والفكرية، كما لو كانت مشاريع تخصيص اليورانيوم؟.

هكذا عندما يختل معنى العمل الديني غير الملتزم بسيرة المعصوم الدعوية صلوات الله عليه، الذي كان يعمل ويضع المقدمات ولا يتوقف في انتظار النتائج .. وكانت حياته المبدئية قائمة على الوضوح (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)⁽²⁾ ليست حياة قائمة على قواعد الاحتراس والتشهير وتحنيط القدرات البناءة في حاويات الطاعة .. إنه الهدف الواضح بالعمل الواضح بالقناعات الواضحة والنتائج بيد العليم الخبير، ولو كان الوضوح هو المرتكز لحظيت بقاعدة أوفر من التعاطف بل ومن تسامح الأنظمة لأن عدوا واضحا خيرا من صديق مليء بأسرار لا يدري نفعها من ضررها.

وصحيح أن انتهاج السلمية هو دأب المصلحين وأصحاب الدعوات البناءة .. الذين يرفضون تغيير المنكر بما هو أنكر .. إلا أن الصحيح أيضا أن جدلية الثنائية الضدية في العقل الباطن (التمكين أو الابتلاء) والبناء على قاعدة التضحية كخيار أمام العجز قد ضاع بينهما فن الممكن .. فحدث التفوق والانكفاء وتجمدت القدرات، وتركت الساحة لثنائية التقريط والإفراط بين علمانية متهتكة أو إسلامية متهتكة .. فإما انتظار سوانح الحكم وإقامة الخلافة، وإما غلق النوافذ والأبواب على موائد الجرعات التزكوية .. وتخليص النفوس من الشوائب .. وغرلة الصفوف من القواصي .. وتكريس طاعة الأمير بلا قيد أو شرط .. ولعن الظلام وواقع الانحراف السياسي .. مع أن الساحة مليئة بالشعور التي يمكن

(1) حدثت تحالفات في اليمن دون أن تسفر عن تحقيق أهداف سوى رسالة القابلية وقد تعرض التحالف إلى مواقف

خيانات مؤسفة.

(2) [يوسف: 108].

حمايتها والثغرات التي يمكن سدها .. فما للداعية وإقامة الخلافة إذا كان ذلك صعب المتناول بعيد المآخذ دونه خراط القتاد؟ فالأنبياء لم يأتوا ليحكموا بقدر ما جاؤوا ليوصلوا المخلوقين إلى خالقهم: (ولقد وصلنا لهم القول)⁽¹⁾ (وما على الرسول إلا البلاغ) فتبليغ رسالة الله، وإقامة الحجة عليهم هي مهمة الأنبياء الأولى .. وعندما كانوا يجدون السبيل إلى الحكم حكموا .. وليس الحكم شرطاً لإصلاح الأمة وتبليغ رسالات الله .. نعم ليس محرماً ولكن ليس واجباً دعويًا .. وليس قدراً يتوقف عليه حركة الأفلاك .. وليس صحيحاً أن السلطة هي وحدها معقد الخير والشر، وهي وحدها ركيزة نفع الأمة.

لقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالتمكين في الأرض .. فإذا كنا مؤمنين فلايزال أمامنا عمل الصالحات .. الإعداد الفكري والعلمي .. والتخطيطي لخدمة الأمة .. والنهوض بواجب نصره المظلوم أياً كان .. وإصلاح ذات البين .. والنجاح في إيجاد نماذج في القدوة الحسنة .. حتى لا يصدم المجتمع بأفراد ينادون أمي أمي، قبل أن يصلوا إلى الحكم فإذا وصلوا ووقعت أيديهم على حقوق البلاد والعباد تحول الشعار إلى اللهم لا أسالك إلا نفسي .. وتحولت اللغة من التجرد والإيثار إلى لغة العروش والقروش .. إنهم بحق آلات رافعة، وقدرات دافعة لنهضة الأمة إذا أحسنوا إدراك تساؤلات الواقع، وتم تعديل الآليات كما حدث في تركيا وماليزيا .. فالصعوبة ليست في أن يحكموا الصعوبة في كيف سيحكمون إن حكموا .. إن لم يعدوا ويستعدوا لتقديم النموذج الأمثل .. أين صناعة القادة في كل مجال، لماذا نجد الكبار في الصحافة والسياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع من غير الإسلاميين؟ صحيح هم كبار في الفكر الإسلامي لكن في مجال صناعة الفكر العام، كالتعمق في فهم الفرق الفكرية المعاصرة .. وتعقيدات السياسة .. والمصالح العالمية المتشابكة .. والتاريخ السياسي والثقافي للشعوب .. والأقطاب الحضارية وركائزها .. والمؤسسات المعادية وطرق مواجهتها للإسلام .. أزعم أن شيئاً من مثل هذا غير موجود .. إنما هو طابور واحد أمام شباك قسم الإسلامية، والشريعة، وعلوم القرآن، وكذلك الطب وبقية العلوم الطبيعية وهذه تخصصات مطلوبة لكن فهم العالم السياسي والفكري وتموجاته وسبل التعاطي معه وسيلة بنائية لا غنى عنها، إلى جانب الانخراط في خدمة الوطن كالجيش أو الأمن والشرطة لماذا يتم تجنبها كرجس من عمل الشيطان؟ إنها لجميع مكونات الأمة وليست مجرد أدوات بيد الجلادين فينظر إليها من زاوية الثنائية الضدية.



(1) [القصص: 51].

خلال الانتماء لدى:

6- جماعة الولاية

بين أنقاض الأوطان المحطّمة بفعل الصراعات، وعلى أرضية سياسية رخوة، تظهر نظريات مختلفة للحكم، فمن يحكم من؟

لكن ما لم يتوقف كتابت سياسي عند السلالة القرشية، هو ادعاء حقهم الإلهي في الحكم بلا منازع.

وقد كان هذا الحق عند الزيدية بموجب نص خفي .. ثم صار عند المتشددين بموجب نص جلي .. ثم صار عند الجارودية أصلاً من أصول الدين .. ثم بنظرية الارتقاء صارت الولاية أهم أركان الإسلام فيما لا وجود لكلمة التوحيد في أركان الإسلام عند الاثنا عشرية .. وصارت الولاية هي جماع الأمر .. وسر الخلق، وضُم إلى الولاية السياسية في الجعفرية الولاية الدينية .. فالدين حقوق محفوظة لهم ولا يزال خط الوحي والتشريع ساخناً بين الله والأئمة .. ومنها إلى الولاية التكوينية وهي شراكة الله في إدارة ذرات الكون؟! .

وكان الاختلاف في الأحق بالحكم بعد رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قد بدأ أول ما بدأ في سقيفة بني ساعدة هل هو للمهاجرين أم للأَنْصار؟ على قاعدة هوى العرب مع من؟ طلباً للاستقرار .. وبعد أن تنازل الأَنْصار لقريش صار الاختلاف في الحكم الجبري هل هو لبني أمية أم لبني هاشم؟ ولما ذهب الأمر من بني أمية إلى بني هاشم صار الاختلاف هل هو للعباسيين أم للعلويين؟ ولما ذهب عن العباسيين واستمر تواجد الحكم العلوي صار الاختلاف هل هو لكل بني علي بن أبي طالب رضي الله عنه أم لبني فاطمة رضي الله عنها وحسب؟ .. أمّ الهاديّة فما انتهت إليه هو أنه في البطنين الحسن والحسين قام أو قعد فقط .. وما انتهت إليه الاثنا عشرية أنه لبطن واحدة وهي ذرية الحسين فقط، من الاثنا عشر إمام لا غير .

ثم بنوا على هذا التطور السياسي الصناعي كل شرائع الإسلام فاستأثرت الولاية بالطاعة والاستغاثة وطلب الحوائج .. وبالمحصلة لم يخلق الله الجن والإنس إلا ليعبدوهم .. وليس (إلا ليعبدون).

فأن تؤدي مناسك الطاعة لله، وتخضع بين يديه وحده، وتحفظ القرآن (كمثال)، ثم لا تؤمن بركن الدين الأعظم (الولاية) فأنت ناصبي والناصبي يعني وهابي إرهابي عدو الله وعدو رسوله .. فلا دين لمن لا يؤمن بالولاية، وتبقى التوبة مفتوحة حتى يغرغر المؤمن بالولاية ولا سوى.

وأن تؤمن بالولاية حتى وإن لم تعرف الله طاعة .. ولم تقم جمعة ولاجماعة .. لكنك تبكي في محراب جلال الأولياء والأئمة الأصفياء، فأنت ولي الله .. محب لأوليائه ويحشر المرء مع من أحب، (ولا يحبك يا علي إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق) وتم حوصلة حب علي في الاعتراف بحكم ذريته من بعده، حتى ولو كان علي نفسه يبغضك لأنك على غير هدي الله ولم تقدر بسيرته فيكفي أنك تعطي لذريته الولاية.

فما النجاة إلا في ولايتهم .. وما الهلاك إلا في مخالفتهم .. لأنهم سفينة النجاة - كما في مناكير آثارهم - من ركبها نجا ومن تركها غرق .. وهم مفتاح باب العلم، فحكم الناس وفتياهم وتفسير دينهم ودنياهم حقوق محفوظة لهم .. وأنصبه مفروضة لا ينازعهم فيها إلا ظالم .. ومن نازعهم في ذلك كما قال عبد الله بن حمزة نزعوا لسانه من فيه.

وقد صور هذا أبو الأحرار بقوله:

فما الأرض إلا لنا وحدنا * * ولكنهم غلطونا بها

وما تبقى للباقيين من الناس فهو نيل فرصة الحياة السعيدة في الآخرة، ولكن بشرف الاستشهاد في سبيل الدفاع عن حقهم الإلهي المكتوب في السماء، كذا ينطق الواقع وتشهد به أدلة التاريخ.

* مناقشة نظرية الحق الإلهي.

أولاً- سأتوقف عن التوصيف؛ لأخلي طرفي من تهمة التجني والقول بغير علم وأبدأ بطرح (النظرية) - إن صحت التسمية- ومناقشتها.

وأقول: إن أول فصول قصة الحق الإلهي لم تبدأ من إشكال النسب المحمدي من طريق فاطمة - رضي الله عنها- ولا من تلك المأثورات الظنية أو المنتحلة، بل من وهم القرابة الذي تسبب في إنكاء الأماني الخادعة حتى عند السابقين وقد ترجم ذلك اليهود بشعار: (نحن أبناء الله وأحباؤه)⁽¹⁾. وبما

(1) [المائدة:1800].

أنهم أبناء الله وأحباؤه فمن حقهم أن يحتفظوا بملك الله لأنفسهم .. وأن يفعلوا بعباد الله ما شاؤوا: (ليس علينا في الأميين سبيل) (1) .. وغير ذلك من الأمانى فقال الله لهم: (تلك أمانيتهم) وقال للسابقين واللاحقين (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به).

ومن هنا أعبّرُ إلى التساؤلات التالية .. يقول المولى تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ...) (2) أي ما كان الله ليترك عباده في متاهات فرضيات الأفكار الظنية حتى يبين لهم دينهم ويحاسبهم على حقائق لا على ظننات وأوهام فالله عدل .. وما كان لعدل الله أن يحاسب عباده يوم القيامة ويعذبهم حتى يقيم عليهم الحجة بآيات محكمة وأدلة لا لبس فيها ولا غموض؛ لأن مقدمات هذه الدعوى ونتائجها باتت تمس جوهر العقيدة وبالتكاليف والواجبات الشرعية .. فلا بد من أدلة يفهمها العالم وغير العالم.

ولقد تحدث الله عما هو أقل شأنًا من هذا الذي سموه بالحق الإلهي .. تحدث عن بيعة الرضوان، وعن بيعة النساء لرسول الله، فكيف لا يتحدث الله عن ولاية علي، ولم يتحدث عن بيعة الناس له ويسميه مقرونا بألفاظ العقود الواضحة لا في الغدير ولا غير الغدير، كيف يصبح أمر غير مُحكم ولا يبين هو رأس الأمر الذي حوّل حياتنا إلى صراع جدلي وأفسد على المسلمين حياتهم من 1400 عام؟

من غير شك لهم ردود ولكنها تثير العجب يقولون: لم يذكر الله ذلك لأن الله ورسوله استحيا من أبي بكر وعمر وقال له: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) (3) ولكنه لم يفعل .. مع أن هذه الآية نزلت قبل قوله تعالى: (.. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...) (4) التي نزلت في عرفات في حجة الوداع، وحادثة الغدير في 18 ذو الحجة أي بعد انقضاء الحج.

وآية التبليغ جاءت في سياق كله عن أهل الكتاب .. والمراد بلغ ما أنزل إليك في شأن الدين ولا تلتفت إلى تعنت أهل الكتاب وكيدهم .. وليس بلغ ما أنزل إليك في مناصب الدنيا وتأسيس مملكة بني هاشم .. ثم كيف يستحي رسول الله من أصهاره وأنصاره وهو الذي لم يخف من كفار قريش وقد قال الله (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)!!

(1) [آل عمران: 75].

(2) [التوبة: 115].

(3) [المائدة: 67].

(4) [المائدة: 3].

ثانياً- ذكر الله تعالى في كتابه من اختصاصهم بالحكم وحكموا فعلا كإرادة متصرفة من الله في ملكة يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء .. وهما داود وسليمان عليهما السلام قال: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ...) (1). قال: (وكلا آتيناه حكما ...) وكنا أي أمة محمد أولى بذكر الاختصاص بالحكم لو كان في سلالة من الناس؛ لأننا أحوج إلى ذكر من سيختصهم الله بالحكم بعد رسوله حتى لا تكون فتنة .. لكنه لم يذكر ذلك؛ لأن الله يؤتي ملكه من يشاء؛ ولأن أمر الحكم شورى بين المسلمين فقال: (وأمرهم شورى بينهم). وبالتالي فهذا الادعاء العريض لا دليل عليه، وإنما هي أدلة أشبه بكومة من القش لا يبنى عليها حجة، ولا يقام عليها دليل، حتى أحاديث قریش كما سنناقشها.

ثالثاً- حاشا لله أن يعطي أحدا صكا مفتوحا لأحد يملكه في رقاب العباد ويقيد به مشيئته فلا يتحول عنه إلى أحد من العالمين، لأن حكم آحاد الناس مظنة للظلم والبطش والطغيان فكيف تصير أهواء الناس وانحرافاتهم قدرا من الله لا يتحول، إذن لا حجة لله يوم القيامة على عباده فيما لو أطاعوهم في ظلم ظالم منصب من الله لأن طاعتهم من طاعة الله. لذلك عندما قال الله لإبراهيم: (إني جاعلك للناس إماما) طلب إبراهيم أن يكون من سلالة أئمة، (قال ومن ذريتي) بدون تخصيص الصلاح، والجعل من الله استحقاق إلهي، فرد المولى هذا المعيار فقال: (لا ينال عهدي الظالمين) فقد يكون من ذريته في النسب غير صالحين، مع أن الأنبياء الذين من ذريته كلهم أئمة هدى فنالهم عهد الله لصلاحهم، لكن الله أبى ربط شرف المهمة بمجرد القرب السلالي العرقي؛ لأن من ذرية النسب الظالم: (ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) (2) وهذا النسب نسب الطين لا نسب الدين.

ولو استجاب المولى لطلب إبراهيم - عليه السلام - لوجب أن يشمل عهده من سلالة بقراية النسب، ولقلنا إن احتلال اليهود لفلسطين اليوم عهد سياسي من الله ولو بدون قرابة الدين لكنه قال: (لا ينال عهدي الظالمين) لأنه عهد خاص مرتبط بنسب الدين.

رابعا- يقول أصحاب هذه الدعوى إنهم أبناء النبي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فهم ورثة النبوة والحكم ونقول: ليس للنبي محمد صلى الله عليه وسلم أبناء بحديث الواقع ودلالة القرآن قال الله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ...) (3) .. ومن ادعى بنوته للنبي صلى الله عليه وسلم فقد خالف كتاب الله القائل: (ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله) (4) وقال صلى الله عليه وسلم: "من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه، الجنة عليه حرام" (5)

(1) [الأنبياء: 79].

(2) [الصافات: 113].

(3) [الأحزاب: 40].

(4) [الأحزاب: 5].

(5) (رواه البخاري ومسلم).

فالعلويون هم أبناء علي وأحفاده لا أبناء الرسول .. وإن نفي الذكورة خاصة (أبا أحد من رجالكم) يفيد نفي الوراثة لأنها لا تكون إلا لرجل .. فإن قيل فهم حفدة النبي عن طريق ابنته فاطمة؟ فالرد على ذلك وبنص القرآن أن حفدة الرجل يكونون من أبنائه البنين قال تعالى: (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) (1) والبنين يطلق فقط على الذكور لذلك ذكر كليهما في الآية: (وخرقوا له بنين وبنات).

قال الشاعر: بنونا بنو أبنائنا وبناتنا * * بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وإنما لم يكن للنبي أبناء وقبض الله إليه ابنه إبراهيم لكي يخلص النبي للرسال العالمية (ولكن رسول الله) أي هذه صفته ومهمته الوحيدة وهي الرسالة وليس الملك، حتى لا يفتتن الناس بهم كما فتن بنو إسرائيل ببنتهم للأنبياء.

ولو جاز أن يكون نسل علي نسل النبي أيضا لصار معنا نسبان اثنان، وهذا غير ممكن دينا وعرفا ولغة، والهاشميون أنفسهم يشددون على نفي نسب الابن من البنت إليهم، فهم لا يعترفون إلا بابن الابن، حتى لا يختلط النسب العلوي لذلك يتزوجون من غيرهم لأن أبناءهم من نساء غيرهم يلحقون بهم، ولما يزوجون غيرهم لأن أبناء بناتهم لن يلحقوا بهم .. فكيف يلحقون أبناء البنت بأبيها؟ ربما قالوا إن آية نفي الأبوة نزلت في زيد بن حارثة والرد على ذلك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وأما قول النبي إن "ابني هذا سيد" للحسن رضي الله عنه، فمجاز لا حقيقة كما يقال لأي طفل: (يا بني) ولا يصح عقلا ولا شرعا أن يراد به الحقيقة .. إنما الحسان أسباطه لا يرثهم ولا يرثونه، بعكس أبناء الإبن يتوارثون مهما سفلوا.

وقد رد بعض جماعة الولاية على هذا بأن الله جعل عيسى بن مريم من ذرية إبراهيم وليس له أب والجواب: أن ذرية الأنبياء في سياق الثناء قد اقتصر على قرابة الدين، ولذلك ذكر (لوطا) من ضمن ذريته .. انظر الآيات من [الأنعام: 83-86] مع أنه ليس من أبنائه بل هو ابن أخيه هاران، لكنه منه في الصلاح والاتباع .. يؤكد ذلك ذكره آل إبراهيم مع آل عمران، مع أن عمران هو من ذرية إبراهيم: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) (2) والمراد باصطفاء الآل في هذا الموضع هم ذرية إبراهيم من الأنبياء، وقد خرج من عمران من الصالحين مالم يخرج من بقية ذرية إبراهيم لذا قال بعدها (ذرية بعضها من بعض) أي في الصلاح فهم دوحة أنبياء، وبالتالي فعيسى من ذرية إبراهيم في صلاحه ونبوته أوضح مما هو في النسل، وهذا ما دأب عليه القرآن وهو التركيز على نسب التقوى ونفي نسب السلالة (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ...)

(1) [النحل: 72].

(2) [آل عمران 33].

(1) وقال: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ...)(2) وقال: (فمن تابعني فإنه مني)(3) وقال تعالى على لسان سيدنا محمد: (وأمرت أن أكون من المسلمين) (4) لا من القرشيين ولا الهاشميين ولا العرب، وفي آحاد الناس: (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين) (5) و(قال إنني من المسلمين)، وأشرف وصف أنه عبد الله (سبحان الذي أسرى بعبده ...). هذا هو النسب المعتد به في القرآن .. فالأبوة أبوة الدين قال تعالى: (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ...)(6) قال (أبيكم) حيث ربط المسلمين بأبوة الدين، وقال (هو سماكم المسلمين) وليس العرب ولا القرشيين ولا العدنانيين، والأمومة الحققة أمومة الدين قال الله: (وأزواجه أمهتهن) مثلما أن الأخوة الحققة هي أخوة الدين: (إنما المؤمنون إخوة) وهذا يفسر قول النبي صلوات الله عليه " سلمان منا أهل البيت" وإدخاله خادمه "وائثة بن الأسقع" في أهل البيت أيضا دخلا إلحاقا. وليسوا منهم طينا لكنهما منهم في الدين، لذلك يرى الطاهر بن عاشور أن عليا والحسين وفاطمة رضي الله عنهم دخلوا في أهل بيت النبي إلحاقا بحديث الكساء؛ لأن أهل بيت الرجل تحديدا هم نساؤه، وعندما طلبت أم سلمة رضي الله عنها أن تدخل في الكساء قال لها النبي صلى الله عليه وسلم "أنت على خير" أي أنت من أهل البيت أنت على خير، ثم أدخلها كما أرادت في رواية أخرى.

يقولون فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: كل نسب ونسب منقطع إلا نسبي وسببي فهو متصل إلى يوم القيامة" ورواية هذا الحديث بهذه الطريقة تزييف بل الرواية تقول: " كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي" فالحديث يتحدث عن يوم القيامة ثم إنه معارض بالقرآن وبصحيح السنة قال تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) (7) (لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)(8) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أنزل الله عز وجل: (وأندر عشيرتك الأقربين)؛ قال: "يا معشر قريش! - أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم، لا اغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف! اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب! لا اغني عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول

(1) [هود : 46].

(2) [آل عمران:68].

(3) [إبراهيم:36].

(4) [النمل: ٩١].

(5) [فصلت :33].

(6) [الحج : 78].

(7) [المؤمنون : 101].

(8) [الممتحنة : 3]. ومنه (... وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ...) [لقمان : 33]

وغيرها.

الله! لا اغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد - صلى الله عليه وسلم - سليني ما شئت من مالي، لا اغني عنك من الله شيئاً⁽¹⁾. وإن صح حديث النسب والسبب فلعل المراد يتصل بيناته وزوجاته وأصهاره.

ويستدلون بأحاديث المهدي وكلها لا تتهض بحجة، فالصحيح منها غير صريح، والصريح منها غير صحيح، وليست في وضوحها وصحتها كأحاديث نزول عيسى عليه السلام.

خامساً - ليس صحيحاً أن كل نبي إمام أو ملك منصب من الله، وأن لكل نبي وصياً، فمن الأنبياء من حكم ومنهم من لم يحكم، قال المولى على لسان بني إسرائيل: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...) ⁽²⁾.

طلب بنو إسرائيل ملكاً من نبي لهم يعيش بينهم .. فلماذا لم يكن هذا النبي هو الملك؟ جوابه: لأن النبوة شيء والحكم وتدبير الملك شيء آخر .. ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطابه للملوك يقول "أسلم ويبقى لك ملكك" ولم يكن يقول أسلم وسلّم الحكم لأهله، فأنت غاصب لحقنا الإلهي.

سادساً - بعث الله لبني إسرائيل (الذين طلبوا من نبي لهم ملكاً) بعث لهم رجلاً من عامة الناس ليكون ملكاً عليهم أنظر ماذا تقول نصوص القرآن: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) ⁽³⁾ لقد احتجوا على هذا التعيين لأنهم رؤوا "أن النبوة كانت مخصوصةً بسبط معين من أسباط بني إسرائيل، وهو سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام، وسبط المملكة بسبط يهودا ومنه داود وسليمان عليهما السلام، ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين قيل كان راعياً وقيل دباغاً وقيل سقاءً" (انظر تفسير أبو السعود للآية) .. كيف صار طالوت هو أولى من النبي بشئون الحكم وأولى من أبناء الأنبياء والملك؟ هل هناك أوضح من هذا الدليل الذي رد على أوهام المتهاكين على لعاعة الدنيا وجعلوها هي الدين بأن ملك الله لخذ أو عرق بعينه؟ فهاهو المولى يصرفه إلى غيرهم.

أنظر قال: (إن الله اصطفاه عليكم) أي اختاره عبداً من عباد الله وكفى .. وإنما الاصطفاء باستحقاق آخر لا علاقة له بالجينات الوراثية .. إنه هاهنا العلم، علم سياسة الدنيا ولو كان علم الدين لكان النبي أعلم من طالوت بالدين، واصطفاه بالجسم، أي بالقوة القادرة على مجادلة جالوت الملك ..

(1) - رواه البخاري.

(2) [البقرة: 246].

(3) [البقرة: 247].

لقد أراد المولى تعالى أن يقول لهم إنه حر بمن يختار .. طلق التصرف في شئون خلقه .. غير ملزم بأمانى الناس وقصور فهمهم .. ولذلك ختم الآية بقوله: (والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم).

ونفس مؤهلات طالوت مؤهلات يوسف - عليه السلام- للحكم لاعلاقة لها بالجينات، فعندما طلب الوزارة لم يقل إن الحكم إلانا، وأنا نبي ابن نبي ابن نبي بل علل استحقاقه بالحكم بمؤهلات المهمة: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) ⁽¹⁾ حفيظ أي أمين، وعليم أي صاحب دراية علم بالمهمة.

ومتى أرد الله أن يمكّن في الأرض لعباده مكّن لهم ولكن بشروط لا علاقة لها بالهندسة الوراثية، بل بالدين والعمل الصالح وهذا كلام الله، قال: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض)⁽²⁾ .قال: (آمنوا وعملوا الصالحات) صفة عامة غير مقيدة بنسب بل بالإيمان والعمل الصالح.

على أن من التجاسر أن تجد من أصحاب هذه النظرية من يرد بالقول: نعم نحن أصحاب العلم والدراية، ونحن الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟! .. ونحن نسأل لماذا لم يكن الإيمان الفطري والصالح الغريزي والفتنة الوراثية في الأسباط من بني إسرائيل وصار هذا الاستفراد في رجل من عامة الناس هو طالوت؟.

سابعا- لم نقرأ أن نبيا واحدا جاء ليقول لقومه سلموا لي ولاية الحكم التي هي قبل كل شيء .. وإنما كانت مهمتهم تعبيد الخلق للخالق وليس للمخلوق (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) ولم نجد أن الله تحدث عن غاصبين ملك الأنبياء وذريتهم، وهددهم بالعذاب كما هدد المشركين بالعذاب إن لم يؤمنوا بوحداية الله، بل ما نجده هو التركيز فقط على قضية توحيدة وعبادته؛ لأن الحكم وأنظمتها إجرائية تنفيذية تعود لاختيار البشر وظروف عيشتهم وبيئة زمانهم، يمكن أن يضطلع بها كل من قدر عليها وأدى الأمانة إلى أهلها ومنها حفظ الدين، وهاهم الكفار نجحوا فيما لم ينجح فيه أصحاب الولاية على مدار مئات السنين، ولم يحتاجوا إلى فلسفة الرفض بقولهم: "محال أن يترك الله الناس هملا بدون تعيين إمام" فهاهم الكفار تركهم الله هملا فهل نجحوا في إدارة الحياة أم فشلوا؟.

ثامنا- إذا كانت المسألة أبناء أنبياء فاليهود أبناء دوحه الأنبياء .. وذكر الله أنه فضلهم على العالمين .. فهل نصدقهم بهذه الدعوى ونقول كما يقولون إن حكم العالم لهم من دون الناس واستمروا بسبب ذلك يتآمرون ويوقدون نار الفتن بسبب دعوى ليس لها أصل؟

(1) [يوسف: 55].

(2) [النور: 55].

أيضا إذا كانت المسألة سلالة نبوة فنحن جميعا أبناء أنبياء .. تسري فينا النظفة الطاهرة بحسب هذا التصور .. فأبونا آدم نبي .. ونوح آدم الصغير نبي .. وأبونا إبراهيم (ملة أبيكم إبراهيم) إذن كل المسلمين يا سادة سادة وأشرف .. فمن دخل من القرشيين مع الجميع فالكل شريف، وإن أبو فإن النبي المنصوص على عدم وجود أبناء له هو محمد صلى الله عليه وسلم، وبذلك يفوتهم شرف نبوة الأنبياء إذا اكتفوا ببنوتهم لنبي ليس له أبناء!.

تاسعا- لم يقل رسول الله ذلك ولا أهل بيته ولم يوص رسول الله ولا علي بالحكم من بعدهم .. أما قولهم إن رسول الله قال في غدير خم: "من كنت مولاه فهذا علي مولاه" الذي قاله النبي في علي بسبب حادثة قافلة اليمن حين أمر علي عليها نائبه ولحق بالنبي إلى الحج، فتصرف النائب فيها ووزع حللها على أعضاء القافلة، فجاء علي رضي الله عنه ونزعها منهم، فغضبوا ولاكته أسنتهم فاستوقف النبي حجاج أهل المدينة في غدير يسمى خمًا وقال هذا الحديث: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) (1) وهي الزيادة التي لم ترد في رواية مسلم الرواية الصحيحة .. على أنه لم يقل من كنت (واليا) عليه فهذا علي وال عليه، فالمولى غير الوالي .. المولى يأتي منه المحب والنصير قال الله: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) فهل معناه بعضهم حاكم على بعض وقال الله: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ) (2) فهل المراد الله حاكم على الذين آمنوا والكافرون لاحكام عليهم؟! وقال في النار: (... مَاوَأَكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ ...) (3) فهل تعني هي حاكم عليكم؟. والشيء الملفت أن للشيعنة زيادة تشرح المراد بالحديث وهي: "اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" أي انصر من نصره وعادي من عاداه، ولا وجود هنا لمعنى حكم، ففي مقابل وال عاد، ووال مأخوذ من المولاة، والاسم منه مولى.

على أن لهذا الكلام مناسبة كما قلنا لا علاقة لها بالوصية وإلا لكان أوصى بها في خطبة عرفة، ومن المسلمين نحو 120 ألف مسلم شهود على الصحابة، لكنه قال ذلك عند عودته من الحج بعد انتهاء الموسم الجامع.

عاشرا- هم لا يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد بارك تسليم الخلافة من الإمام الحسن إلى معاوية وأثنى على الحسن بذلك فقال كما ورد في الصحيح "إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين" (4) وكان هذا الصلح هو تسليم الخلافة لمعاوية حقنا

(1) (رواه أحمد وغيره من أهل السنن).

(2) [محمد : 11].

(3) [الحديد: 15].

(4) (رواه البخاري).

لدماء المسلمين .. وهل كان رسول الله لا يعلم لمن سيسلمها؟ بل كان يعلم وتحدث عن تفاصيل كثيرة من أحداث الفتنة .. ولو كان خروجها من الهاشميين خروجاً عن الدين لم يباركه رسول الله ولحذر من ذلك ولما قبل الحسن بالتفريط بالدين.

أحد عشر - نعم للإمام علي فضائل كما للخلفاء فضائل .. فضائل أبي بكر رضي الله عنه أو غيره لاتعطيه حق تملك الخلافة هو وأبناؤه إلى يوم القيامة .. حتى وإن قال رسول الله "مروا أبا بكر فليصل بالناس" وقوله لعائشة في صحيح مسلم وغيره في حديث صحيح صريح "ادعي لي أباك أبا بكر، وأخاك، حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر"⁽¹⁾ قال: "إلا أبا بكر" فلا يعني ذلك إن صارت الخلافة إليه أن الحكم في نريته إلى يوم القيامة، إذ الأمر في النهاية شورى وبيعة، وإلا فإن لأبي بكر أبناء وأحفاداً وذرية.

اثنا عشر - دلت الكثير من الوقائع أن رسول الله قدم غير بني هاشم في الإمارة على بني هاشم، فجعل قائد المسلمين في غزوة مؤتة (زيد بن حارثة) وهو مولى وفي الجيش أحب الناس إلى رسول الله وهو ابن عمه الهاشمي جعفر بن أبي طالب. وأمر رسول الله أبا بكر على الحج، وعندما تبعه علي بأية البراءة من المشركين قال له أبو بكر: أجنّت أمراً أم مأموراً قال: بل مأموراً .. ولم يكن يختص بني هاشم بالوزارة بل هم مثل غيرهم في الاستخلاف على المدينة في غيابه وغير ذلك .. ثم أعطى مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة، وقال له "اليوم يوم بر ووفاء" .. كما جاء في الصحاح ثم قال له "خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم يا عثمان"⁽²⁾ وفي هذا شرف خدمة بيت الله وليس استخدام الناس باسم الله .. والسؤال الكبير لماذا لم يعط رسول الله لبني هاشم شرف سدانة الكعبة (الولاية الدينية) التي هي رمز ديني كبير إلى يوم القيامة لأهل بيته بموجب دعوى الحق الإلهي؟

ثلاثة عشر - نعم وصى رسول الله الناس بأهل بيته كما في صحيح مسلم (أذكركم الله في أهل بيتي) ثلاثاً. المراد بأهل بيته نوعان: الأول نساؤه اللاتي يلعنهن الروافض على مدار العصور وحتى يومنا هذا فوصى بهن المسلمين أن يرعوا الله في حرمة رسوله الثاني: من دخلوا إلحاقاً وصى بهم لأنهم ليسوا حكماً مستخلفين من الله، ولو علم رسول الله أنهم الحكام من بعده لوصاهم بالمسلمين وبحسن رعايتهم ولقال: كيف ستخلفوني في أمتي حين تتولون أمرهم، وليس العكس، ذلك أن المتبوع أولى أن يوصى بالتابع هذا هو القياس العلمي الصحيح.

(1) رواه مسلم برقم (2387).

(2) (ينظر عبد الرزاق الصنعاني في المصنف (9076).

أربعة عشر- يحتجون بأحاديث قريش ومنها "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان" (متفق عليه). وهي أحاديث أخبار لا توجب الحكم لهم بل هي من نحو قوله - صلى الله عليه وسلم- "الإيمان يمان والحكمة يمانية" (متفق عليه). فهل يكون معنى الحديث أن الإيمان خاص بأهل اليمن، وأن الحكمة فيهم لا غير؟ وإنما المراد أنه الغالب فيهم الإيمان والحكمة وهكذا أحاديث قريش، فقد كانت العرب لاتخضع إلا لذلك الحي من العرب أي (قريش) ؛ لأن فيهم البيت المعمور .. وفعلا دانت العرب لحكم الخلفاء ثم الأمويين ثم العباسيين والعلويين في أجزاء من التاريخ وكلهم من قريش ثم انتهت قريش كهيئة سياسية واجتماعية، وبالتالي لم يعد ثم موضع للاحتجاج بها كما قال كثير من العلماء.

وقد وردت أحاديث صارفة لهذا الفهم الحصري من ذلك عن يحيى بن الحصين، عن أمه قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع يقول: «يا أيها الناس، اتقوا الله واسمعوا وأطيعوا، وإن أمر عليكم عبد حبشي مجدع ما أقيم فيكم كتاب الله عز وجل»⁽¹⁾ وفي لفظ ابن ماجه "كأن رأسه زبيبة" وقال - صلى الله عليه وسلم - : " كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي حَمِيرٍ ، فَزَعَهُ اللَّهُ - عز وجل - مِنْهُمْ فَجَعَلَهُ فِي قُرَيْشٍ ، وَسَيَعُودُ إِلَيْهِمْ" ⁽²⁾ أي أنه سيخرج من قريش إلى حمير مرة ثانية، دليل عدم التلازم الديني.

خمسة عشر- يستدلون بقوله تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)⁽³⁾.

قلنا أين وجه الاستدلال في ذلك؟ الله يقول إنما أولياؤكم الذي يجب أن توالوهم وتحببهم هم الله، ورسوله، والذين آمنوا، فهل الذين آمنوا هم علي .. فعلي مفرد وهذه صيغة جمع، ثم قالوا لأنه زكى راعا بخاتمه، قلنا هذا لم يصح ولم يثبت، ربما جاء خبرا عند بعض المفسرين والتفسير ليس من مصادر التشريع وقد يذكر المفسر خبرا غير ثابت للرد عليه أو كمعتقد من المعتقدات ولا يؤمن به بالضرورة .. كما أن المراد بالزكاة ركن الإسلام الثالث وليس التصدق ثم كيف يتم هذا الاتصال الحركي في صلاة تقتضي الخشوع؟.

هم يقولون: فلماذا ذكر الركوع بعد الصلاة، فقد كان يكفي أحدهما إلا دليل وقوع حدث خاص في الركوع وهو زكاة علي.

والجواب: أورد الركوع بعد الصلاة من باب ذكر الخاص بعد العام للتأكيد، كقول الله: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)⁽¹⁾ فذكر الصلاة ثم ذكر بعد العام الخاص وهو الركوع،

(1) (رواه أحمد والدارقطني).

(2) (رواه أحمد).

(3) [المائدة 55].

والسبب أنه قد يقيم الفرد الصلاة في مؤسسته أو في أهله ولكنه لا يصلي هو، فقال وهم راعون تأكيدا .. ثم كيف يكون الله ورسوله وعلي حكاما على المسلمين في نفس الوقت فهذا تضارب (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا).

سنة عشر- لو صحت تفسيرات الاثناعشرية في الولاية السياسية فما علاقة أديانها اليوم بنصها في علي قال "من كنت مولاه فهذا علي .." ولم يقل فهذا علي وذريته من بعده، هي فيهم خالدة نالدة إلى يوم القيامة، مثلما قال في ولاية عثمان بن طلحة على الكعبة، وعلي نفسه لم يحتج بهذا الحديث على ولاية الحكم بل ورد في نهج البلاغة: "بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان فما كان للشاهد أن يرد ولا للغائب أن يختار"⁽²⁾ فهو لم يحتج إلا بالبيعة والشورى الواضحة البيئية.

سبعة عشر- يقولون نحن أهل البيت، وأهل بيت النبي أحق من غيرهم في هذا الأمر إذ لا يصح صلاة المسلم بغير الصلاة علينا في تشهده فكيف تصح حياته بغير ملكنا؟.

وأما آل محمد المذكور في الصلاة فشيء آخر، ف (الآل) غير (الأهل)، الآل يضاف إلى الأعلام والأهل يضاف إلى الجماد، نقول أهل البيت، وأهل اليمن، ولا يصح /آل البيت وآل اليمن/ بل آل محمد، وآل إبراهيم، وآل عمران .. الخ وبالتالي آل النبي الوارد في التشهد (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد) الذي يراد به الدعاء لهم الراجح أنهم ليسوا أهل بيت النبي وحسب بل يشمل كل أتباعه والدليل على ذلك والله أعلم في قوله: (... وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ...) (3) المراد بها الصلاة الإبراهيمية في الصلاة، وقول الله: (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) (4) فإله وملائكته ونبيه يصلون على المؤمنين .. والله وملائكته والمؤمنون يصلون على النبي (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (5) فالصلاة متبادلة بين النبي وكافة المؤمنين.

ولو كانت المسألة سائلة لكنا نصلي على أبي لهب كل يوم في تشهدنا، وعلى ننتياهو وشارون أيضا لأنهم ذرية إبراهيم، والدليل على أن المراد بالآل الأتباع آيات منها قوله تعالى: (.. أخرجوا آل لوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ) (6) (آل لوط) أي أتباعه الذين على دينه وقال في آل

(1) [البقرة 43].

(2) (بنظر نهج البلاغة تحقيق صبحي الصالح ص367).

(3) [التوبة 103].

(4) [الأحزاب 43].

(5) [الأحزاب : 56].

(6) [النمل : 56].

فرعون: (... وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)⁽¹⁾ وقال (كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ)⁽²⁾ أي أتباع دينه.

ثمانية عشر - يقولون فاشم قال؛ (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى)⁽³⁾ وأن المراد لا أسألكم على تبليغي إياكم أجرا إلا أن تودوني في قرابتي، ومن مقتضى هذه المودة أن تقدمونا ولا تؤخرونا.

والجواب: ليس صحيحا هذا التفسير البتة، وهو مما تمسح به الباطنيون، وقالوا إنه استثناء متصل لإثبات حق غير موجود .. والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يسأل الناس أجرا على تبليغ الدعوة إليهم صغيرا أو كبيرا، هذا ما يقره العقل والنقل وتفسير غالب العلماء .. وهذه الآية مكية وكان لا يزال بنو هاشم كفارا وكان علي لا يزال صبيا، ولا وجود للحسن ولا للحسين، فمن هؤلاء القربى الذين استهل النبي الدعوة إلى الله بالمحافظة على ودهم؟.

إذن فما هو تفسير الآية الصحيح؟ قيل لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تكفوا عني شركم وترعوا قرابتي فيكم، وتفسير آخر متطابق مع بقية الآيات ومقاصد الدين أي لا أسألكم عليه أجرا لكني أفعل هذا حبا فيكم، لكي لا تتساقطوا في النار كونكم قرابتي، وليس في هذا مصلحة للنبي بل مصلحة هدايتهم .. والأقربون في الهداية أولى بالمعروف لقوله: (وأندر عشيرتك الأقربين) أي حذرهم من مصيرهم .. لكن لمصلحة دنيوية له ولا لأقربائه في الدعوة، والدليل على ذلك آيات أخرى نزلت في النبي، منها: (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)⁽⁴⁾ أي هذا الأجر يعود لكم وفي مصلحتكم أما أنا فأجري على الله، وقال: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيَّ رَبَّهُ سَبِيلًا)⁽⁵⁾ أي إنما أبتغي مصلحتكم وهدايتكم، و(من) في معرض النفي تفيد التوكيد، (ما أسألكم عليه من أجر) أي لا أسألكم عليه أي مقابل البتة .. وهذا هو منهج الأنبياء جميعا وقد جاء على لسان كثير منهم في القرآن: (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرين إلا على رب العالمين) فكيف يصير رسول الله أنموذجا آخر في طلب المقابل؟ ولكنه الهوى يقرب أعناق الأدلة لأطماع دنيوية ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تسعة عشر: يقولون فلماذا حرم الله الزكاة على بني هاشم إلا لاختصاصهم بالفضل؟

(1) [غافر 46].

(2) [الأنفال : 54].

(3) [الشورى: 23].

(4) [سبأ 47].

(5) [الفرقان 57].

والجواب: أن هذا التحريم تحريم مؤقت كما يرى بعض العلماء، بوجود النبي إبعادا للإسلام عن شبهة الاستئثار، وليس ذلك خاصا بعرق بني هاشم، ولو كانت المسألة عنصرية لما دخل في المنع مواليتهم (عبيدهم وجواريهم) "وَقَدْ أَعْلَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لَهُ وَلَا لِمَوَالِيهِمْ" (صحيح بن خزيمة) وفي أبي داود: "مولى القوم من أنفسهم وإنما لا تحل لنا الصدقة" فالسر مقاصدي لا عنصري يعود إلى عدالة الإسلام، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "لا نورث ما تركنا صدقة" أيضا لإبعاد الدين عن تهمة الحيازة الخاصة والاستئثار بأموال المسلمين، وقد نفى المولى تعالى اتصال الدعوة بأي منفعة خاصة (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ) (1) أي هل أنت جاب حتى يحاربوك على أموالك وجمعها بتغريمهم؟ فميراث الأنبياء هو العلم والدعوة والدين لا الدنيا، وقد حرمت نساء النبي من ميراث النبوة إنما كن يأكلن من فيء الغنائم خمس الأنفال التي تصرف في خمسة مصارف (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...) (2)، وإنما أبيع للنبي أن يأخذ جزءا من الخمس لأنه منتزع من جهاد وتضحية وليس لقمة باردة يقات عليها من حر أموال المسلمين؛ ولأنه لا مورد له سواه كما سبق، وإذا كان سهم ذوي القربى مقابل منع الزكاة عن أقرباء النبي، فإن ذلك لا محالة في عهده حين كان له أقرباء، ولا يسمى أحفاد الأحفاد أقرباء، فلا أقرباء بعد مئات السنين، ولا أرحام، بل يدخل في خصوصيات العهد الرسالي حيث اختص النبي ونسأؤه وأقرباؤه ببعض الأحكام كما سبق، مثل عدم التوريث، وتحريم الزكاة على أقربائه، وعدم حل النساء له ولو أعجبه حسنهن من بعد التسع، وعدم حل تطليق نسائه، وتحريم زواج أزواجه من بعده .. أما البعد المقاصدي من تحريم الزكاة على أقربائه والتعويض بسهم من الخمس هو أيضا إبعاد الدين عن شبهة الاستئثار بالمال .. "وقد اختلفوا في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، سهم الرسول وسهم ذي القربى، فقال قائل: سهم الرسول صلى الله عليه وسلم للخليفة من بعده، وقال قائل: سهم ذي القربى لقرباوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال قائل: سهم ذي القربى لقرباوة الخليفة، فاجتمع رأيهم على أن جعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا في ذلك خلافة أبي بكر وعمر" (3).

ولبني هاشم اليوم أن يأكلوا من الصدقة بعد انتفاء المانع، ولا يحل لأحد أخذ خمس أموال المسلمين بدون وجه حق باسم خمس الغنائم كما يفعل تجار الدين، فليس المسلمون كفارا حتى يؤخذ من مالهم الخمس إنما تؤخذ من الكفار المحاربين، فالخمس ما كان من غنيمة حرب والغنيمة ما أصاب المسلمون عنوة من قتال الكافرين.

(1) [الطور: 40].

(2) [الأنفال: 41].

(3) رواه النسائي والبيهقي.

عشرون: يقول أصحاب أقصوصة الولاية: دليل آخر على أن النبي كان يريد أن ينصب عليا خليفة رزية الخميس وما أدراك ما رزية الخميس .. وهو أن النبي لما اشتد وجعه قال: " ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا " فتنازعوا فقال: "دعوني فما أنا عليه خير مما تدعونني إليه" بعد ذلك أوصى بثلاث منها إخراج المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم ..⁽¹⁾ ويقول أصحاب سلطة الدنيا وتسلمها إنه كان يريد أن يكتب بولاية العهد لعلي.

الجواب: أولا رسول الله صلوات الله عليه رأى رأيا اجتهاديا مثلما اجتهد في الأسرى، واجتهد في قضية بني أبيرق وعاتبه الله على ذلك.. واجتهد في إعطاء قبيلة غطفان ثلث تمر المدينة مقابل تركهم حصار المدينة في غزوة الخندق ولم يقبل الأنصار هذا الاجتهاد بما أنه ليس دينا. فما كان سيقوله النبي ليس وحيا ولكنه رأى رأي رآه للمسلمين ولم يتم؛ لاختلاف الناس فيه .. وقد بقي من يوم الخميس حتى يوم الإثنين الذي فيه قبض ولم يأمر بكتابته، ولو كان جزءا من الدين لكان كتابته واجبا .. الأمر الثاني كيف عرفوا أنه سيوصي لعلي لماذا لا يكون المراد الوصية بشيء غير الحكم؟ أو بالحكم ولكن لأبي بكر مثلا لمن قال "مروه أن يصلي بالناس" أو أي شيء آخر؟ .. فالمسألة غيبية ولا يُلحس أدلة من رحم الغيب .. الأمر الثالث ها هو أوصى بعد ذلك، بالصلاة وما ملكت أيما نكم، وتحريم الجزيرة على دين غير دين الإسلام ولو كان ما سيقوله دينا لأوصى به كما أوصى بغيره⁽²⁾.

واحد وعشرون: يستدلون بحديث المنزلة وللحديث مناسبة كما هو معلوم وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف علي بن أبي طالب على المدينة ثم عبره المنافقون أنه تركه بين النساء والصبيان فلحق بالنبي فقال له الحديث وأعادته إلى المدينة.

وجه الشبه الاستخلاف في مهمة سبق مثلها وهي استخلاف موسى أخاه هارون عليهما السلام على قومه عندما ذهب موسى لميقات ربه، وانتهت المهمة بعودة موسى، كذلك انتهت مهمة علي بعودة رسول الله من غزوة تبوك، والدليل أنها لا تعني استخلافًا ممتدا بعد النبي أن هارون مات قبل موسى، فلو كانت ممتدة لكان خليفته بعد موته ولما قبضه الله إليه.



(1) (رواه البخاري).

(2) في كتابنا شبهات وردود مزيد من البحوث في هذا الجانب.

خلل الانتماء لدى:

7- الأحزاب

تعد التكتلات البرامجية (الحزبية) من أبداع طرائق الحكم التي توصل إليها الإنسان في العصر الحديث .. فلقد أُطلقت وحققَت نجاحات خدمت البشرية، "والحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها" .. ولكن كيف استقبل قراصنة الأوطان الحرية والشورى والديمقراطية في عالمنا الثالث؟ .. لقد تحولت غالبا من نعمة إلى نقمة .. من استقرار معنى الحزبية في الارتباط الذهني لدى بعض أرباب الساسية كميدان للتهارش على مقدرات الأوطان، وغنيمة لمن يسبق أولا .. فهي إذن - أي هذه التكتلات الحزبية- تؤمن بالديمقراطية إن كان لا بد مما ليس منه بُدُّ، ولكن لتشكيل جهات تساندية تجيد فن التخادم العصابي، وتحترف لعبة النط على حبل الديمقراطية كغطاء شعبي لممارسة البلطجة السياسية فتحايلوا على الملكية العائلية بملكية حزبية ولكن بمصطلحات بريقها أخذ .. وشعارات طلاؤها فاتن .. فيما تخطيطها ينظر إلى ساحة انتقال السلطة كانتقال مفاتيح الخزنة العامة لأصحاب الثقة الجديدة وتسليم الدور بالنتعم وتحقيق رفاهية أعضاء الحزب الفائز .. فالبعض منها لا تخطط بيقين لما ينفع المجموع، كتوسيع الرقعة الزراعية التي ترفع محاصيل الإنتاج مثلا .. بقدر ما يخططون لتوسيع الرقعة الولائية، واستصلاح العقول البور من أجل جني محاصيل ثمرة الديمقراطية العائدة بالربح على أعضاء الحزب كشركة تأمين معنية بمواجهة احتياجاتهم هم .. وتوفير رغد عيشهم هم .. لا يخططون لصناعة الملابس .. وتعليب الأدوية والبقوليات .. كما تفعل الأحزاب في الدول المتحضرة .. بقدر ما يخططون لإعادة تعليب الأدمغة .. وتغليف القنوات .. وتوظيف الخزنة العامة لمزيد من الاستقطاب الحزبي وحشد الأنصار؛ وذلك للاستقواء بهم فقط على المنافسين في ميدان السباق على الوطن الكعكة .. ولكي يؤسس الحزب لمستقبل يؤمن بالتوحيد الخالص لوجوده في إدارة مقاليد الأمور، سيبدأ بمعركة تقليص الأظافر، وقص الأجنحة، ونزع الأنياب، لكل تكتل يمثل تهديدا جديا لحكمه في المستقبل، عملا بديمقراطية الفرصة الأولى والأخيرة .. ودوما لن يقوم بأي خطوة إقصائية إلا من أجل الشعب ولصالح الشعب .. ومن أجل استراتيجية الحفاظ على مستقبل وأمن (الوطن) - بين هلالين- فما كان للحزب (أو الرئيس) الحاصل على ثقة الجماهير أن يغض الطرف عن مكامن الخطر المحقق من قبل فئات متربصة، تهدد مصالح (البلد) وتطمع (في خيراته) وتسعى إلى السلطة بطرق ملتوية وغير ديمقراطية .. وهكذا سيطلق الحزب المبيت شرا بحرية الاختيار فصاحته بمفردات وطن .. شعب .. سيادة .. حرية .. ديمقراطية .. ليهدمها باسم الحرص عليها .. ويفرط بها باسم حمايتها ..

ويدعي حرب الخيانات لكي يكون أول الخونة وكاهنهم .. وستظل بطاقة انتماء المواطن للوطن عند الحزب الديكتاتور عضوية غير مأمونة الجانب حتى يتم تفعيلها ويحصل المواطن على بطاقة انتماء للحزب الحاكم عند ذلك فقط سيمتلك مشروعية وجوده .. وسيصبح وطنيا بحق.

أما اليساري والعلماني فسيرى أن الانتماء لحزب يميني متدين، هو بمثابة تموضع حربي وتهديد سياسي، ولا يتسع (الوطن) إلا لواحد من الطرفين، إما اليمين أو اليسار، فلتبدأ إذن حرب التنافس، فلا وقت لخطط البناء والانتاح، فلماذا نبني ليسكن غيرنا!! ولماذا نزرع ليحصد غيرنا!! ولماذا نصنع ليلبس غيرنا!! وحتى يغيب المسرح السياسي من منافسة الدقون، والحجاب، والقمصان (ظاهرة الأغيار السياسيين)، فإن على الشعب كله أن يصطف لمحاربة الإرهاب الذي يهدد أمن (الوطن) مستترا بوشاح الدين (فلاسياسة في الدين ولادين في السياسة) .. لن يثير الحزب اليساري من طراز جديد مشكلة تفشي الأمية، والبطالة، وقلة المحاصيل الزراعية، وعجز الإسكان، فأهم من كل ذلك عندهم ملفات لا تحتل التأجيل وخوض معارك وطنية تمثل قضايا الأمة الكبرى في فلسفة (الصراع من أجل البقاء السياسي) وهي استنزاع الحقول الفكرية .. وصناعة العقول والأدمغة .. والعودة إلى بدء الخليقة لمحاكمة التاريخ .. وتفخيخ التراث بالعبوات الناسفة .. وسيتم هذا باسم تجفيف منابع الغلو، وعن طريق إغلاق المؤسسات الأهلية التربوية والإنتاجية ومحاربتها، والدخول في معركة (مصيرية) لتعديل المادة (2) من الدستور، فإما نكون أولا نكون .. ومعارك إلهائية أخرى مثل معركة زواج القاصرات .. وتفشي ظاهرة البرقع .. وإعادة تعريف الختان وتحديد المستهدفين منه .. وفتح ملفات مصيرية تهم المجتمع الغربي مثل تعدد الزوجات .. وأخذ الذكر مثل حظ الأنثيين .. وإتاحة الحريات، وأي حريات لا سمح الله!!! هل منها حرية معارضة الحاكم الجاثم، قطعاً لا. بل حرية الهمس، واللمس، والتصاق الفتيان بالفتيات .. وجندرة المرأة .. وفتح حمامات البخار المختلطة .. واستقبال إبداعات الحضارة الانحلالية وتطبيقها أولاً بأول.

وربما جاء الإسلاميون أيضا ليحكموا - إن حكموا - لا بالأدوات الهندسية لبناء الجسور ونهضة العمران .. ولكن بمقاسات الأبعاد والمسافات .. لقياس طول اللحية والسواك .. وارتفاع القبر وطول الإزار .. والتشديد على بناء النقاب العازل .. سيأتون بمشروع الفرز والتصنيف، طبقاً لبعدهم من مربع التنظيم .. فهذا موال وهذا معاد .. وهذا ثقة وهذا خبيث .. وربما لن يحصل بائع الحلوى على ترخيص حتى يتجاوز مراتب التأطير المطلوبة .. وعندما يحصل أخونا المنتظم على الترقية الوظيفية سيسبق عمله للجماعة ورعاية مصالحها، عمله للمجموع وخدمة عموم الناس، ويسبق مهارة الطاعة للجماعة مهارة الامتثال للقانون الناظم العام لحركة سير الوطن .. وهكذا ندخل بعد ذلك في العصر الديمقراطي السحيق الذي يعني سحق المكونات نفسها بنفسها لنفسها .. بين جدلية الفرض

والرفض .. والهجوم والهجوم المضاد .. فيا لها من حرية بنكهة مصارعة الثيران .. (كل حزب بما لديهم فرحون) .. كل حزب يعتقد أنه نقطة ارتكاز الوجود .. ومحور دوران الحياة .. وعلى الجميع أن يدور في فلكه .. وإلا بنى متاريسه، وفتح خط النار ضد الآخرين ليطلق عليهم قاذفاته الحارقة الخارقة .. وهي لغة التجريم والتخوين .. والتهديد بالسحق والمحق.

فالاختلاف يعني الخلاف بالضرورة والخصومة الفاجرة .. والتربص والكيد بالآخر .. وليس إلا واحدا من اثنين إما أن تكون معي وإلا فأنت ضدي .. إما محض خير أو محض شر .. إنه قانون النظر إلى الآخر بمرآة النفس .. أنا أو الطوفان .. ثم ما تلبث الأوطان أن تصبح نقاط فراغ محتلة بالتدخلات الخارجية .. فطالما أن المسألة صراع نظريات سياسة وفكر، واستقطاب حزبي وتنظيمي وليس بناء وإنتاجا وحشد قدرات جميع المكونات بلا إقصاء لنهضة وطن، فإن الدوائر الاستعمارية ستدخل بالنتيجة في خط نصره الأحزاب المؤيدة.

فرنسا مثلا تريد توسيع الفرنكفونية وعلمنة قوانينها في هذه الدولة ذات الهوية محل التهارش.

وبريطانيا تريد ضم هذا البلد أو ذاك إلى ثقافة دول الكمونولث التابعة لها.

وأمریکا تريد لبرلة البلد وتحويل الجميع إلى الاتجاه التطبيعي الذي يضمن أمن إسرائيل واستقرارها.

والخمينية تبحث عن تصدير ثورة اللطم، والهدم، واللعن، والطعن والخرافات كمشروع نصره الشعوب الفقيرة والمستضعفة.

ودول السلطنات والإمارات تريد حصتها من توجيه الثقافة السياسية وفرض مذهب السمع والطاعة.

فيبدأ سباق الأخوة الأعداء للاستقواء بالخارج .. والانتظام في سرب العمالة على أبواب السفارات .. لأخذ مواعظ الإلحاق، واستلام كاتلوجات تجريب الهويات .. والتزود بوقود الفتنة؛ لكي تعزز الدوائر الاحتلالية من نفوذها .. وتجد لمصالحها مواطئ قدم؛ فغالبا ما يتحول الولاء الفكري إلى عمالة وتجسس ووصاية سياسية في نهاية المطاف .. ومن يدفع أكثر يكسب أكثر .. فتداس الأوطان من دول الخارج بأحذيتها التي تسير في الداخل .. ولكن لن يعدم الوطن أن يجد من يدعي الوسطية وخير الأمور أوسطها فلا ليسار المتطرف ولا لليمين المعتصب، وعندما تبحث عن مكان الوسط ستجده أنه قد أخذ مكان القلب في المعركة، فمعاركه لا دينية (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ولكن

معارك نفوذ وتوسع على رأس المال وصوامع الغلال لكي لا تذهب إلى أيادي غير أمينة .. فهو منها بموقع الوسط لا يذهب منها ناحية اليسار ولا ناحية اليمين.

إن الحزبيين المتعصبين المتخلفين إذا تولوا تولوا عن مهامهم .. وانشغلوا بمهمة تشتيت قواهم وبعثرة قدراتهم .. واتفقوا على ألا يتفقوا إلا على قذف بلادهم كالشرع المخروق إلى موج الفتن المتلاطمة، كما وجدنا في غير بلد ناشئ من بلداننا .. فيتسع الوطن للخصام ويضيق بالوئام .. وتضرب حالة الاستقرار .. وتتقلص فرص الاستثمار ويشيع الفقر وتتضخم البطالة .. وتتسع رقعة الموت جوعا على حساب الحياة الكريمة.

مع أن ما هو مطلوب هو تنفيذ برامج خدمية لا جدلية المحو والإثبات التي هي بوابات صراع لاينتهي .. وما هو مطلوب هو السباق في ميدان الانتاج والبناء، أما الهوية فيجب أن تكون قد وضعت من الجميع للجميع وبمحددات واضحة يحرم ويجرم تجاوزها والتلاعب بمضامينها من أي كان، وذلك هو فقط لا غير الضمان الوحيد للاستقرار والتعايش السلمي والنهوض الحضاري المنشود.



ثانيا - مروى في نظام الحكم

نظام الحكم

أولاً- نظام الحكم في بطن الحاكم:

من الصعب أن تعرف نوع نظام الحكم لاي بلد عربي، ولايغرك مسمى جمهورية أو ملكية، فهذا توصيف شكلي فضلا عن مسمى جمهورية برلمانية أو ملكية دستورية، بل جميعها أنظمة أقرب إلى الملكية فوق المطلقة .. والحاكم فيها هو مستودع السر السياسي الذي لايمكن قراءته بسهولة والتنبؤ بمساراته .. إذ تخضع السياسة لعالمه الداخلي، وتركيبه النفسي والسلوكي، وظروف نشأته وتعليمه.

فيكون التوجه لمعرفة نظام الحكم هاهنا ليس إلى بطون المدونات بل إلى بطون الحكام .. فليس الاعتماد على الدستور الورقي بدرجة أساسية بل في الدستور العاطفي لولي الأمر .. فليقرأ مواد خصائصه الشخصية .. وقانون مزاجه الذاتي .. وبنود الارتباط الآلي للمؤثرات الانعكاسية .. فكل هذه هي التي تتحكم في مصير الشعب.

أجدى من قراءة الورق أن تعرف الشعوب ما يعجب الحاكم وما لا يعجبه .. ما الذي يثير عواطفه وما الذي يسكنها.. من أين يمكن أن يؤتى لتوجيه مساره السياسي من غرائزه أم من نرجسيته؟ .. هل هو انطباعي حكمي أو تلقائي؟ .. هل هو شخصية معتدة بذاتها أم استلحاقية قابلة للتوظيف؟ .. الخ

ومع أن هذا لايفيد كثيرا في ضبط الصورة السياسية واتجاهاتها إلا أنه قد يفيد في رصد بعض المؤشرات، ووضع تنبؤات محتملة شبيها بجهود معاهد الأرصاد الجوية والتقلبات المناخية، إذ قد تتحول في لحظة من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، ومن ساكنة إلى عواصف سياسية مدمرة .. ومن علاقات مع الغير حميمية رومنسية إلى عدائية محكومة بفجور الخصومة والتفريط بكل الثوابت.

فعلى سبيل المثال كانت الجمهورية العربية المصرية في عهد عبد الناصر (جمهورية قومية اشتراكية) وجاء السادات وحولها من اشتراكية سوفيتية إلى ليبرالية غربية ثم ارتأى سيادته أن يحارب إسرائيل فحاربها .. ثم بدا له أن يصلحها فصالحها .. ثم ارتأى أن يتخلى عن القومية العربية فتخلى عنها .. ثم قرر مقاطعة الحكام العرب فقاطعوه وسحبوا سفاراتهم من مصر وأجمعوا على دعم حركات التحرر الفلسطينية.

ثم نظر بعض الحكام العرب أن يصلحوا مبارك فصالحوه .. ثم راق لهم أن يعقدوا معاهدات (سلام) مع إسرائيل فعاهدوها .. ثم تطورت مسألة تغيير المواقف إلى إعلان الفصائل الفلسطينية

كحركات إرهابية .. ثم انخرط البعض في محاربة الفلسطينيين والتجسس عليهم .. وتدحرجت السياسة تجاه إسرائيل من عدو رقم واحد إلى صديق رقم واحد .. إلى أن تم تشكيل تحالف معها سمي لهم (حلف إبراهيم) ولم يفاوضوا حتى على النطق العربي لإبراهيم، وبدهي أن يكون من ضمن مهامه القتالية قتال الفلسطينيين وضد كل الخارجين عنه والرافضين له.

فلاهوية ثابتة .. ولا سياسة ثابتة .. ولا رؤية ثابتة بل مزاج ثابت غالباً وفردية ثابتة وخيانة ثابتة.

ولست بهذا دلالة للانتهازيين إلى طريق الغواية، إذ ربما وُجد من يقول بما أن الأمور مشئت على هذا النحو، فلا قدرة لي على ابتداع طريق جديد .. أو ليسعني ما وسع غيري .. أو كما استقامت لأولئك عوج سيرهم وحكموا ونالوا حظهم من الشهرة والمال فبحسبي ما نالوه.. وإنما أنا أتلمس برصد الواقع إباء المخلصين الذين يحملون مشاريع أمة .. وليس مشاريع المتسللين كاللصوص للانقضاض على السلطة بهدف إشباع رغائبهم الأنانية.

نقل هذه النقطة بالإشارة إلى أن الدول الاستعمارية تدرك جيداً مدى معرفة طبائع حكام (العالم الثالث) وسير أغوارهم .. لذا هي تفتح لكل شخصية إرشيافا يحوي كل سيرته وخصوصياته مهما دقت وجلت .. وتخصص لذلك الخبراء النفسانيين .. وتضع لكل مزاج سياسته الخاصة وتعامله الخاص .. وإنها لتعرف نقاط ضعف كل زعيم ومن أين يمكن أن يؤتى .. وقد نجحوا كثيراً في ذلك حتى لقد فرغوا لبعضهم مستشارين سواء داخليين أو خارجيين يدقون على الأوتار المؤثرة فيهم وبها يقودونهم إلى حيث يريدون.

ثانياً- نظام الحكم في الفكر الإسلامي:

بعد طول نظر وتأمل لم أجد أن الإسلام قد تحدث عن نوع نظام الحكم بدليل قطعي، بقدر ما تحدث كثيراً عن العدل، إذ هو مناط المسؤولية وقطب رحى الحكم، بصرف النظر عن شكل النظام، ولم يتحدث عن نظام الملك لا بالقدح ولا بالتعريض .. بل تناول القرآن الكريم قصة ملكة سبأ وحكمها بمعرض الإشادة وحسن التدبير .. وقال الله في طالوت: (... إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ...) (1) وقال في داود: (... وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ...) (2) فالله يصرح بإسناد الملك لهم من قبله تعالى، وقال في سليمان: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ...) (3) فالله الذي آتاهم

1 - [البقرة : 247].

2 - [البقرة : 251].

3 - [الأنبياء : 79].

الحكم وسماه ملكا .. وقد ورث سليمان أباه الملك داود .. خَلَفَ أباه في الحكم ولم نجد إشارة بوجود خطأ في هذا الانتقال السياسي .. كما ليس في القرآن ما يدل على أن ذلك كان شرع من قبلنا بالضرورة، وأن نظام حكم هذه الأمة هو الشورى تحديداً أو التبادل السلمي للسلطة أو الانتخاب المباشر من الشعب .. نعم مبدأ الشورى سار عليه الخلفاء الراشدون وهي الفترة الذي امتدحها النبي صلى الله عليه وسلم وسمى ما بعدها حكما عاضا، وما بعده حكما جبريا .. فقد ينظر في ذلك دليلا على أنه لا نظام حكم في الإسلام سوى الشورى وعن طريق الترشيح والانتخاب من العامة.

والجواب على هذا: أن الإسلام نعم لا يقر العضَّ على الحكم بالباطل، ولا الحكم بالجبر ولا التفرد بالقرار أيا كان نوعه، فقد تكون ملكية ولكن دستورية والملك مجرد رمز .. وقد يكون ملكا لكنه شورويا عادلا، ذلك أن الشورى أعم من الملك وأخص أيضا، فهي مطلوبة في كل مؤسسة وفي كل شأن يلتقي فيه اثنان على قضية مشتركة ابتداء من الزوجين: (... فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ...) (1) إلى أعلى سلطة (... وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ...) (2) (... وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (3) .. فيمكن أن يسمى النظام ملكيا شورويا ويمكن أن يرشح ممن سبقه وينتخب عبر أهل الحل والعقد أو يخضع للبيعة.

وقد دلت تجارب التاريخ أن النظام ملكيا كان كماليزيا واليابان أو جمهوريةا كتركيا وفرنسا لا يختلف كثيرا في نواتج الأداء السياسي والإداري على الإطلاق، وربما كان هذا النظام أفضل هنا وأسوأ هناك، والمسمى واحد فإن تحققت العدالة فثمة الغاية، وإن خلا الحكم منها فلن تعطي الأسماء ولا المسميات ميزة وكم من أنظمة تغنت بالجماهيرية، والشعباوية، والديمقراطية، وكانت أسوأ من الملكية بمراحل.

فلم أجد سوى العدل والعدل وحسب هو محور تأكيد الإسلام، وهو الشرط الذي يغيب عن المنظرين الذين يركزون على جدلية شكل نظام الحكم ويتغافلون عن مضمونه.

لذلك متى ما كان الناس على أمر جامع بشكل نظام الحكم، فليزيم احترامه واحترام ما تعاقده عليه الحاكم والمحكوم .. ويكون التركيز فقط على سير العدالة فإن تحققت وإلا نادى الناس بها وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.



1 - [البقرة : 233].

2 - [الشورى : 38].

3 - [آل عمران : 159].

الحكم عبر صناديق الاقتلاع

عندما يستمر تهارش الأحزاب المدنية، يبقى التكتل الأقوى يرقب لحظة الانقضاء المناسبة على الحكم .. إنه (السوبر انقلاب) أسد الغابة .. الذي يدفع بالمدفع التدافع السياسي .. وينزل إلى حلبة المصارعة لتسديد الضربة القاضية لجميع الأحزاب المدنية، وبموجب البيان سيئ الصيت رقم (1) أو حتى بدون بيان رقم واحد بديمقراطية الفرصة الأخيرة .. ديمقراطية الانقاذ (العسكري) وحكم ببيادة التدخل السريع لحماية .. (الأوطان).

يتدخل العسكر لا للحكم لاسمح الله بل لفظ الاشتباك الحزبي الذي مله المواطن .. غير أن ترك العسكر للسلطة سيعني عودة المناكفات إذن عليه أن يبقى ولكن عن طريق صناديق الاقتلاع وتكون عبر الأصوات الحارقة الخارقة، ما الذي يضره أن يمارس لعبة الكراسي عن طريق الصناديق ولو تلك المليئة بالذخيرة .. وأجمل ما يمكن أن تسمعه من عبارات الغزل الديمقراطي هو ما يتضمنه بيانه الأول أنه لا أطماع له في الحكم .. وإنما اعتلى سدته غيرة منه وإيمانا واحتسابا .. لكي يمسك النظام لمرة واحدة فقط (ولكن إلى الأبد) .. إنها لمرة واحدة لا تتكرر ليسود الهدوء السياسي بعد صخب الأحزاب المراهقة .. وإنما بنيت الجيوش للسهر على حماية (الأوطان) ونعاهد الشعب الذي ذاق من الأحزاب الأمرين أننا سنضرب بيد لا من حرير بل بيد من حديد، فلا نمتلك لأصحاب المنافع سوى لغة المدافع .. (جزاه الله خيرا)!

ومن المتوقع بعد الذعر الشعبي من مصير مجهول الذي يتسببه عبث الأحزاب أن هذا التحول سيتلقاه بعض الناس بالارتياح .. ويصفقون له ربما بحرارة .. وللأسف إنما انطلقت بهم عربة الأقدار من السيء إلى الأسوأ عدا القليل .. فإنما يتدرب الجيش على فنون مواجهة العدو، وليس الصديق، وفنون تدمير الأهداف وليس بنائها، وبالتالي كلٌ ينفق مما عنده .. ومتى ما أصبح كرسي الحكم هو الوطن المفدى عند حماة الثغور، ومتى انتقلت البيادات الغليظة من المعسكرات إلى الإدارات .. ومن خلف المتارس إلى رياض الأطفال والمدارس انتقلت معها الروح القتالية لحماية مواقع (الوطن) الجديدة، فبالقوة الضاربة، وقوانين الضبط والربط سيحكم الجميع، ولم يكن فرعون (ذو الأوتاد) فرعوناً إلا بجنوده.

* التشبث بحبل الديمقراطية:

ثم إنه في الزمن المعاصر لم تعد موضة الحكم العسكري المطلق بالشيء اللطيف في عرف الذوق السياسي العام، فأى انقلاب عسكري ربما حاول الإبقاء على الحبل السري للديمقراطية، كعلامة على الجودة وربما تم إنشاء يوم للديمقراطية .. وربما لصق اسمها بأسماء الجمهوريات لتصبح (الجمهورية الديمقراطية الشعبية) .. فهي بحمد الله ديمقراطية وشعبية إنما هي منكم وإيكم والسلام عليكم.

وربما سمي القائد الأعلى الانقلابي حزبه بالحزب الديمقراطي، وألصق الديمقراطية بأسماء المؤسسات الحكومية .. وكبريات الصحف الرسمية .. ومضى يثرثر بها المذيعون ليل نهار، فتصبح أغنية مملة ثقيلة على السمع، وعندما يكثر العرض منها يقل الطلب عليها، وبالتالي يقل التنافس .. فلماذا يسأل عنها الناس بعد أن يجدوا كل شيء أصبح ديمقراطياً بالفطرة، أسماء الصحف ديمقراطية .. واسم الحزب ديمقراطي .. واسم الوطن ديمقراطي.

* البطون المعتلّة:

ولن يبقى أمام الحزب السوبر بعد أن يقضي على الأحزاب المختلفة سوى البطون المعتلّة .. وهي جر المنافقين ببطونهم .. للمساعدة في جر المعارضين برؤوسهم .. فكم من جازعين يرون ألا معدى للإنفاق من النفاق.

فيعمد إلى اعتلاف المنافقين برشاوى كاتمة للصوت .. ليصبحوا بعدها أبلغ من نطق بكلمة (أحبك يا زعيم) فيرقوه بكلمات التوحيد من صفة رئيس إلى صفة ملك .. ومن صفة ملك إلى صفة مالك .. وبدلاً من أن الزعيم كان يعيش في الوطن ينقلون الوطن ليعيش فيه، فيصبح هو الوطن .. وبالتالي يصير رجل الضرورة .. والفلة التاريخية الذي لا غنى عن وجوده، فمن يستطيع أن يستغني عن الوطن إلا خائن ومندس؟! ومتى دعا إلى الانتخابات وفتح باب المنافسة فمن الصعب منافسة الوطن .. ومتى تصرف بمصير الشعب طبقاً لقانون الملكية الخاصة فمن الصعب الوقوف في وجه الوطن .. ومن ينافسه سياسياً ثم يفوز عليه سيأمر بإلقاء القبض عليه فوراً بتهمة الخيانة العظمى للوطن .. وكم من الفائزين انتهى فوزهم إلى أقبية السجون أو المشانق لأنهم تحدوا إرادة الوطن.

ومن أراد في ظل الزعيم السوبر أن يؤمّن على حياته ممن لايزالون خارج لعبة الولاء للحزب الأوحده، ويضمن لقمة عيشة، فلا بد أن يحول قبلته الحزبية إلى قبلة حزب (الوطن) الذي تحول إلى

شركة تأمين .. فمن أراد العيش بسلام فهناك تأمين على الحياة .. تأمين على الوظيفة .. تأمين على التجارة .. تأمين على مستقبل الأولاد .. تأمين على التصدير والتوريد .. تأمين على القيمة الاعتبارية من أي تهمة باطلة تلتصق بمن يحب معارضة الحزب .. تأمينات إما بالدفع، أو بالمشاركة، أو بهدر الكرامة، أو بالسكوت، أو بالنفاق، وهكذا.

* الأرواح المؤتلفة:

أما الأرواح المؤتلفة فهم رفاق السلاح، أصحاب البيان الأول، هؤلاء أصحاب الامتيازات والحقوق المحفوظة، من سالمهم سليم، ومن شاكسهم غريم، كل الوطن لعلو مقامهم نقطة عبور بلا إشارة مرور، فما سرقوا فمن جلّه وما كنزوا ففي محلّه، يعيشون راتعين في جنة الحقوق المكتسبة بعرق مدافعهم .. وكواهل جنودهم .. لاحسب عليهم ولا رقيب .. يتقلبون في أعطاف النعيم .. الوليد منهم يخرج من بطن أمه بجواز دبلوماسي .. والشلفوت منهم يغمض عينيه ليفتحها على قفل فخمة بواباتها تكفي لبناء صرح جامعي عريق .. وصاحب السوابق لايقوم من مقامة حتى يجد الخدم والمعيات من حوله تتسابق على خدمته .. ويتمنى أثقل وزن أن يحظى بدقائق لمقابلة أخف عقل ولو عبر الهاتف .. والله يحفظ القائد المفدى سابغ النعمة .. ومزيل النقمة .. ومنبع الحكمة.

* قانون التدهور.

ومع تركيب النظام على قانون حق الرجل الأول في الحصول على الوطن كحق مكتسب، فإن سجل الوارد سيتعثر لحساب الصادر، بعد أن تحولت الدولة إلى مجرد ضمان اجتماعي للنفقات، وسيستدعي ذلك مزيداً من طباعة العملة، وعند الهبوط الاضطراري للعملة بفعل الصراعات والفساد لا بد من ربط الأحزمة وسد البطون .. وسيلجأ المسؤول بلامسؤولية إلى تحميل الشعب اختلال الفرق بين الوارد والصادر، وإنزال الجرعات بالتقسيم المريح .. ولكن مع حقن تخديرية بمستقبل واعد، فسيغدق على الجميع بخيال الرفاه الذي ينتظرهم، فلا تزال بطن الأرض حبلى بالخيرات .. وطالما الزعيم باق فالخير قادم .. سيكون البلد صناعياً وربما نووياً .. وسيوصل الغاز إلى كل مطبخ .. وستكون الصحة للجميع .. ثم يأتي غدا فلا يجدون الصحة للجميع ولا المصحة للجميع، بل الخيرات للحزب .. والوطن للجميع.



مقولة كما يول عليكم تكونوا

جدلية الأول: هل الحاكم أم المحكوم؟ من منهما المسؤول؟ وبدء إدارة عجلة إصلاح الواقع .. من أين يكون؟ هل من العامة عملاً بالمأثور [المنكر غير الصحيح] "كما تكونوا يول عليكم"؟ أم من الطبقة الحاكمة فيكون الصحيح "كما يول عليكم تكونوا"؟ رأيي ورؤيتي أن تغيير الواقع عملية مركزية .. من القائد الأول والنخبة .. من القمة لا من القاعدة، ولي على ذلك أدلتي.

أولاً- إن القاعدة الجاهلة إذا لم تتحول بالعلم إلى نخبة فلا رأي لها، لأنها فاقدة للأهلية ولا تملك أدوات تشخيص الواقع، ففيم تقني وهي لا تدري عن شروط الحاكم العادل .. ولا عن حدود صلاحياته .. ولا عن واجبات المحكومين .. ولا عن طرق الثواب والعقاب؟ وإن دورها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلن يتجاوز حدود معرفتها، ولن يصل إلى مستوى الحسبة في دقائق الأشياء .. وانتفاء أهلية الجاهل جهل دراية و علم هو ثابت في القرآن الكريم، فإله أثبت شهادة وحدانيته لا بالعامة المتلقية بل بشهادة (أولي العلم) بعد شهادته سبحانه والملائكة المقربين، فقال: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (1) فلم يذكر من المكلفين سوى أولي العلم؛ لأن الشهادة تقوم على أساس العلم، وشهادة من لا علم له بالشيء شهادة مردودة وباطلة، فكيف ينتظر من العامة أن تعدل ما قد تراه مستقيماً؟ .. وتجزم ما قد تراه بريئاً؟ قد يرى العامي أن السلطان العادل هو من لا يتعرض لممتلكاته الخاصة وحسب، بما أنه لا يسطوا على حقوقه فذلك هو العادل (حقك لك) ولا يدرك معنى أن يصير الحاكم غاشاً لرعيته .. متولياً لأعدائه .. ناهياً لمقدراته، بل قد يرى أن من بديهيات الحاكم التصرف في المال العام فإن أعطى فمكرم منه وفضل، وإن منع فالبلد حقوق محفوظة له ولعائلته.

ولأن انصرافات الناس تتعدد اتجاهاتها في الحياة، ومن الصعب أن يتفرغ المجموع لكل شيء فقد ندب الله طائفة من كل فرقة لكي تتعلم وتعود إلى الأكرثية الجاهلة وتعلمها أمور دينها، وسيدخل منها التوعية الحقوقية قال تعالى: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (2) وهذا دليل على أن واقع العامة أبعد من أن يكون لهم رأي أو يكون لهم حق الاشتراك في الإدلاء بقضايا ليست من اختصاصاتهم .. وعندما أعطيت الشعوب الجاهلة حق انتخاب ممثليها لجأت إلى تفويض من تراه أعلم منها بتوجيه

(1) [آل عمران : 18].

(2) [التوبة : 122].

خيارها، فباعوهم غير أمناء كأرقام انتخابية .. ووجهوهم غير نزيهين إلى انتخاب من تربطهم بهم مصالح حزبية أو تنظيمية مشتركة، بصرف النظر عن أهليتهم، ولا يدلونهم غالبا على النافع للمجتمع، فظل العامة رافعة بلا إدراك لمن يسومها سوء العذاب .. وعندي في ظل طغيان الجهل أن أهل الحل والعقد هم الأصح لتعيين الحكام، ويكونون من علماء الأمة وخبرائها ورجالاتها، ومتى ارتفع منسوب وعي القاعدة الحقوقية أشركت في انتخاب من يحكمها.

ثانيا- جاء التغيير الإلهي مركزيا بالأنبياء والرسول بعد اختيارهم كنموذج للكمال البشري قال الله في موسى (وأنا اخترتك) فقد جاءوا كأفضل البشر لمهمة التغيير، معززين بالكتب التي تنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق، ليكون التغيير بترتيبات علمية ومنهجية صحيحة، ولم تصبح أمة محمد خير أمة إلا بعد خط سير رسالي توعوي منظم (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)⁽¹⁾ ولايستطيع وضع قواعد تغيير ورؤى وتصورات مستقبلية سوى النخبة من المتعلمين والمجربين، وليس العامة المنشغلون بمعاشيهم الخاصة، والمنقطعون عن الواقع وقضايا الأمة العليا بأعمال الفلاحة والتجارة ورعي الماشية، ولو نال أحدهم نصيبا من العلم لاهتم إلى جانب عمله بالقضايا العامة، بعد أن صار عالما بها قارئاً جيداً لحركة الواقع غير مغيب عن شؤون السياسة وسيرها.

ثالثا- دلت أحداث التاريخ أن الكثير من التحولات الكبرى للشعوب قامت على أيدي زعماء تاريخيين أكثر مما قامت على هبة شعوب جاهلة أيقظتها مشاعر الغضب على من يحكمها، وليس حديثي عن ثورة منظمة تقودها النخبة فتاك يمكن أن يكتب لها النجاح، عدا ذلك فالمعول يقع أكثر على جهود زعامات قيادية ورموز تضحوية تعيش للناس، وتجري في عروقها دماء التغيير وروح الثورة، وليس مجرد زعيم يرى في النهوض بأعباء الأمة نافلة إن فعلها أجر وإن تركها لم يَأثم .. فإذا توفرت الزعامة التاريخية المضحية لا بد وأن تثمر جهودها، وبها قد تتحول بالأمة من النقيض إلى النقيض؟ فمن كان العرب قبل أن يرسل الله إليهم محمدا صلى الله عليه وسلم - الذي انتشلهم من الهامش ووضعهم بالإسلام موضع الريادة؟ وكيف كانت ماليزيا قبل القائد التاريخي محاضر محمد رئيس وزراء ماليزيا الرابع، ثم صارت بعده أحد النمر الآسيوية في الاقتصاد؟ وكيف كانت تركيا قبل زعيمها رجب طيب أردوغان الذي اختصر ستة أرقام من قيمة عملتها، وصعد بتركيا من الخانة 117 حضاريا بين الدول إلى الخانة 17؟ وكيف تحول السودان في جمهورية جنوب أفريقيا من شعب مستعبد إلى حاكم مالك حريته ومقدراته بنضال رجل اسمه نيلسون ما نديلا أول رئيس أسود لشعبه بعد سقوط

(1) [الجمعة : 2].

نظام الفصل العنصري الأبيض، وقبله مهاتما غاندي الذي قاد حركة الاستقلال عن (الاستعمار) البريطاني، وقل مثل ذلك على شارل ديغول رئيس فرنسا أول رئيس للجمهورية الخامسة، وجورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، وهلم جرا .. بهذه القيادات التاريخية التي بحجم أمة على أيديها تحدث التغييرات الكبرى للشعوب .. لذلك عندما تغيب مثل هذه القيادات الاستثنائية، وتخلو الساحة إلا من النخالات والدهماء عندئذ لا تنتظر من واقع الغنائية القليل ولا الكثير، فالعامة في مسألة القضايا العليا وأن فارغة يملؤها من شاء بما شاء، وهذا ما يحرص المستبدون عليه، فيعمدون إلى تفرغ الساحة من القيادات والرموز المجتمعية، إما باحتوائها بالمغريات أو تهيمشها بتضييق الخناق عليها أو تغييبها بسجنها أو تشريدتها أو القتل إن لزم .. أما من استدل بقوله تعالى: (.. إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ...)⁽¹⁾ ويريد بها أن مجموع الشعب الذي أكثرته العامة هو المعني بالتغيير إلى الأفضل فالجواب أن المراد بالتغيير في الآية تغيير النعمة دليله قول المولى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)⁽²⁾ وكذا قال المفسرون، فتغيير ما بأنفسهم يكون بجحود النعمة وكفرانها، ومن انزلاق أسهل من التزامها لأن الانزلاق تجاوب مع الغريزة الذي هو الراجح فيهم، والتزام السلوك الحسن تجاوب مع قيادة العقل، والعقل عين تبصر وضوء إبصارها العلم.

على أن فئة (النخبة) هي المصدر الأول في التغيير وعدمه، فهي قبل سلطة الفرد .. هي التي إن شاعت قيدت أو وسعت سلطاته، إن شاعت أخضعته وإن شاعت خضعت له فلا يستأسد الحاكم إلا إذا هي قبلت بموقع المنافقين الصامتين أو موقع المتخادمين المنتفعين، وفي القرآن الكريم سنجد النخبة (الملا) هي الموجه الأول للأحداث أمام دعوات الإصلاح الرسالي، ولم نجد للقوم (العامة) حضورا مباشرا على صعيد الصد عن منهج الله بقدر الملا منهم، لأنهم تابعون لا متبوعون.

من هنا فإن من تضييع الوقت والجهد انتظار الفاعلية الإصلاحية تأتي من القاعدة لأي أمة، لأنها فاقدة للفاعلية وإن ملكت فهو قوة الفعل الموجه من المتبوع لا قوة الفاعلية الذاتية.



(1) [الرعد: ١١].

(2) [الأنفال: ٥٣].

الشعوب الجاهلة تقاطع فراغ الأوطان

سبق أن قلت إن الشعوب الجاهلة ليست صاحبة رأي غالباً، ولا صانعة للسياسة، ولا موجهة للأحداث .. بل هي مسرح الأحداث .. وضحية السياسات.

ولا يعني أنه يكفيها محو الأمية الأبجدية أو حتى الترقى في التخصصات البعيدة عن الثقافة الحقوقية فكم من دكاترة يسوقهم ساسة أميون ولا يرون إلا أنهم أفضل المستحقين للقيادة لكن يظل المتعلم خيراً من الجاهل لأن مستواه العلمي يسهل من إدراك العوار إلا أن يكون ذا انتماء عصابي فإنه يلزم غرزه على ما فيه من باطل.

لقد جاء الدين حرباً على الأمية عموماً حقوقية أو أبجدية علمية فعظم العلم .. وحث على الفهم .. وحسن التفكير .. وصحة الاستدلال، وشبه معطي عقولهم بالدواب : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون)⁽¹⁾. إذا لم ينتفعوا بعقولهم فهم والدواب في النتيجة سواء .. وفي عشرات الآيات نجد أن اتخاذ الكثير من المواقف السلبية تجاه الحق جاء نتيجة عدم العلم به، (إن هم إلا يظنون) (إن هم إلا يخرصون).

وذم التقليد في مواضع عدة: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)⁽²⁾ .. وهو ما يعني أن تحصيل العلم مسؤولية وتكليف، فكيف لشعوب وتجمعات أغلبها أمية، أو متعلمة ولكنها تعاني من أمية حقوقية، لا تعرف أين تبدأ حقوقها وأين تنتهي واجباتها، كيف لها أن تكون مساهمة في الرقابة السياسية ومشاركة في تحديد مسارها؟ صحيح أن الحاكم قد يتكفل بتنقيفها حول واجباتها نحوه بقوة السلطة، ولكن من يتفقا هي بواجبات الحاكم نحوها؟

فلكي نقلل من منسوب الصراعات السياسية، فإن الشعوب العربية والإسلامية تحتاج إلى ثقافة حقوقية عالية، فيدرك الحاكم أن العيون التي تراقبه وتنتظر إنجازاته ليست من القلة بحيث يمكن شراؤها واحتواؤها .. بل يعلم أن عيون الملايين وراءه تحاصره بالرقابة الحقوقية .. وألسنة الملايين تجلده بسياط التساؤلات عن أي انحراف يحدث .. وإلا فكما قال طرفه بن العبد:

(1) [الأفقال:22].

(2) [البقرة:170].

خلا لك الجو فبيضي واصفري ** ونفري ما شئت أن تنفري

إن العلم يقوي حجة صاحب الحق، ويرفع رأسه ويعلي صوته، ويكون مهابا عند من يحكمه، وعندما تنتظر في دولة عظمى فترى من حول الحاكم جيوشا من العباقرة في كل شيء .. كل واحد منهم صالح لأن يحكم قارة وليس بلده وحسب، هل تبقى لدى الحاكم من القوة تكفي لاحتقار كل هؤلاء .. ويتجاسر على فعل ما يحلو له بدون إذن من القانون؟! لكن عندما يجد حالة الغنائية هي السائدة، والناس مهازيل في الوعي الحقوقي .. مهازيل في الفطنة وبعد النظر .. مهازيل حتى في الوعي الصحي والغذائي، هذا الوضع الهزيل يجريه على استهياج حالهم واستصغار شأنهم .. وفعل ما يروق له لأن الرقابة المجتمعية مغيبة .. بل ويطمع في ملء فراغ عقولهم بركام الزيف الذي يمكنه من إخضاع رقابهم بشكل أوسع .. لذلك يكثر السباق ويلغو غبار التزاحم على احتلال فراغ العقول من أصحاب الأطماع السياسية والمشاريع الاستثنائية، فكل فرد أو جماعة سياسية أو فكرية انتهازية تريد أن تستثمر خواء الجماهير لمثلها بقناعاتها، ومنها تعبر إلى أهدافها الوصلية.

ومن عوائق تحقيق العدالة وإشاعة الأمن والاستقرار أن الناس التي يغلبها الجهل تتجذب أكثر لا إلى المشاريع الجادة والبرامج المدروسة؛ لأنها قاصرة عن فهم الأفكار التجريدية الدقيقة الأبعاد، بقدر ما تسحرها الشعارات البراقة، والألوان الفاقعة، فقد تتعرض قناعاتها للمحو، بسبب خطبة حماسية - مثلا- من ممثل سياسي عرف كيف يلعب بعواطفها .. أو من إطلاق إشاعة تافهة .. أو منظر عاطفي .. أو قصة مختلقة، أو وعد كاذب .. لذلك فالشعوب الجاهلة نقاط فراغ الأوطان، وربما تعيش دوما ملعوبة بعواطفها بسبب سهولة اختراقها من جهات ضعفها التي أبرزها:

أولا- التفكير العصبوي:

يميل الأميون إلى التفكير العضلي العصبوي في مواجهة المعضلات؛ لأن مهارة التفكير المنطقي عندهم ضعيفة؛ لضعف أدواته الاستنباطية عندهم، وقلة حقائقه التراكمية، فتلقى لغة التدافع المادي تفهما أكثر من توجيه المنطق .. لاسيما عندما يتعلق بالبطولات القومية، أو القبلية، أو العشائرية، فهم يستقون بمبدأ التساند العصبوي كلغة مفهومة لهزيمة الآخر، أو الحصول على المنافع .. انظر كيف هزمت العاطفة القومية العقل في قصة فرعون مع موسى - عليه السلام - فحين تفوق موسى عليه بقوة الحجة والمنطق، لجأ فرعون لرصيد العاطفة القومية لهزيمة خصمه، فقال لهم: (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمُ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)⁽¹⁾.

(1) [الشعراء 35].

لقد ركن إلى دور العاطفة والغيرة في هزيمة المنطق، إذ كيف لفرد من أقلية مستضعفة أن يخرج شعبا بأسره من أرضه ويهزم فرعون (ذو الأوتاد) صاحب الجيوش الضخمة؟ لكنه توظيف العصبية الوطنية للتلاعب بعواطف الرعاع .. والشيء ذاته يتكرر مع الأميين فقد ينحازون لابن عشيرتهم ضد الأعم والأكفأ لكنه بعيد عنهم؛ لأن مبدأ التساند والتدافع العصبوي يقتضي نصره الأخ عالما أو أميا .. والدين أو المذهب أيضا جزء من هوية الجماعة وثقافتها، وداخل ضمن التعصب القومي، ويمكن استغلاله، وهذا ما فطن إليه كذلك سيد المستبدين فرعون الطاغية وملؤه (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)⁽¹⁾. فرعون يخاف أن يبدل موسى دينهم، وهل دينهم إلا عبادتهم إياه؟ لكنه مهما يكن فقد صار جزءا من الثقافة والهوية القومية التي تستحق الدفاع عنها.

لذلك يكثر في الشعوب المتخلفة استخدام مصطلح الدين، والوطن، والكرامة، مع مصطلحات المروق، والعمالة، والخيانة، وبالتالي يتوجب إيجاد متأمر على الوطن ويلزم تنصيب حارسه الأمين وهو الحاكم، الذي يوزع الألقاب والنعوت، ويمنح صكوك الولاء الوطني لمن يريد وينزعها عن من يريد، في حين قد يكون هو داء الوطن وأصل مصائبه .. فهذا فروع أيضا يصم موقف إيمان السحرة، وهم جزء من مواطنيه بالتآمر الجماعي على شعب مصر، لكي يخرجوهم من أرضهم، وليس مجرد قناعات وحریات شخصية: (إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)⁽²⁾. ويظهر هو البطل الذي يحمي شعبه من هؤلاء الخونة والمتآمرين، ليلهب بذلك مشاعر البقية المخدوعين ويعزز فرضية التهديد المستمر لحياتهم الأمانة.

ثانيا- الاستجابة لدعوات الصراع البيئي:

تحافظ الشعوب الجاهلة على دوائر الانتماء كافة لتتعصب لها، من الأنا، إلى العشيرة، إلى القبيلة، إلى التكتل الفئوي إلى الوطن .. فحالة الاستنفار الثأري تظل يقظة، وقد وجدنا منهم من يتسلى بتغذية الصراعات الحزبية ويستغل تعصب الناس الحزبي الأعمى، فيطلق الجيوش الالكترونية لتوجيه الشتائم والشتائم المضادة لتكتلات أخرى منافسة .. لأن باعث العصبية لدى الغوغاء يمكن تحريكها بسهولة ويبقى الولاء للحزب عصابيا مصيريا مربوطا بشرف الكيان المتجانس.

(1) [غافر 26].

(2) [الأعراف : 123].

ثالثا - الاكتفاء بصناعة البطولات التافهة:

في الشعوب الجاهلة أيضا يجد الحاكم المستبد مناخه الملائم لتخدير العوام بصناعة بطولات سهلة تعفيه من البطولات القومية النهضوية الجادة .. مثل إطلاق مسابقات رياضية وفنية، فيقدم للشعب ميداليات عالمية فهي قوته ومظهر قوته .. فإذا تضافرت عليه مظاهر الإفلاس ورأى تقدم ركاب الآخرين رجع إلى التاريخ ليذكر شعبه الفقير بما يمتلكه من رصيد بطولات تاريخيه سبق بها الآخرين، فيبرز تفوقه على العالم كله .. فرصيد تأريخه أدهش الباحثين .. وغناء تراثه محل إعجاب الكبار .. ثم وأخيرا صبره على فقره وشطف عيشه صمود أسطوري أذهل المراقبين .. فهو شعب متميز لا يمكن أن يسبقه الآخرون أو يتفوقوا عليه بشيء، مع أن الأرصدة الماضوية والفنوية لا تؤكل جائعا ولا تكسي عاريا ولكنها وجبات بطولية تسعد الأميين والغوغاء.

رابعا- الإسراف في استخدام اللهو بدل العمل:

تسرف الشعوب الجاهلة في اللهو كالرقص والغناء فهي غنية بالوتريات، والنفخيات، والقرعيات؛ لأن الأمم فقيرة العلم هي فقيرة العمل .. فقيرة الانتاج .. فقيرة الإبداع .. فهي تعيش حالة من البطالة والفراغ .. لذلك تنتشر بينها مظاهر الترفيه التي تقضي على الملل والرتابة .. فهي شعوب راقصة بالعموم .. وهي إن لم تشتغل بالتسالي انصرفت لتداول الأحداث والوقائع لأنها تعيش حالة الفراغ .. فتخوض في شئون السياسة .. وقضايا الحكم، وهذا يعني إمكان تداول عورات وعترات الحاكم المستبد .. فلا يدعها تنحو هذا المنحى، فيركز هو بدوره على إحياء الفلكلور الشعبي لمزيد من التخدير .. ويدعم هذا الجانب بسخاء .. ويكثر من بث الأغاني والأهازيج والرقص والزوامل والمسلسلات الملهية .. فيعيشون حالة من السعادة الصناعية اللحظية.

خامسا- ضعف الذاكرة السياسية:

قد تتكرر كذبات الحاكم الفاسد ومواقف استغباته لشعبه، فيكثر من إطلاق الوعود التخديرية مثل الحديث عن استخراج الكنوز المخبأة؛ لأن الحفريات سهلة عند الناس، لا تكلف سوى مجرد الحفر، ولا تحتاج منه بناء ولا تصنيعا .. ويستمر الرخاء مرهون بحفر الحقول لا بإصلاح العقول .. ولأن الوقت لا ينتظر فإن خيال العاطلين يميل إلى سماعها وتصديقها، ليقضي أطول وقت في متعة التخدير.

فالأكثر بؤسا وحرمانا الذين يشكلون نسبة كبيرة من الجهل يقتاتون على موائد الأوهام .. ويعيشون على منشطات الآمال .. فتراهم يرددون خطابات جلاديهم التهريجية المليئة بالحديث عن فتوحات الرخاء المنتظر .. ويعطي فيها من الوعود عطاء من لا يخشى الفقر .. لهذا يستمر في

نظرهم بقدر استمراره في تضليلهم رجل الخلاص القادم .. والبطل المنفذ .. ويرون أي معارضة تقف أمامه، مجرد إرباك لخطته الطموحة القادمة .. حتى بعد مرور عقود من السنين العجاف على حكمه، إلا أنهم يقاومون أي محاولة للتغيير بمزيد من التشبث بشخصه .. ومستعدة أن تضحي بكل ما تملك دفاعا عنه .. فيرددون خطاباته التهريجية ويعلقون صورته على الصدور والحوائط دون أن يفرقوا بين مسئول تعنيهم أفعاله .. وبين أبطال المسلسلات والفنانين ومهرجي السرك .. كأنما يكفيهم ما لدى سلطانهم هذا من إجادة للأدوار التمثيلية التي تسلي الخواطر .. وتثير الإعجاب بل والسحر والافتتان أحيانا.

سادسا - سهولة تحويل العدو إلى بطل منقذ:

يصنع الحاكم الفاسد الأزمات بيده، ويعزبها إلى حاشيته، ليظهر هو في صورة البطل المنقذ، وفعلا لدى الشعوب الجاهلة تظل الأعناق مشرئبة إليه كمنقذ في الساعات الحرجة .. وقد يهدد بترك مهمته وترك الناس يتلوون في واقع يؤسهم فتعود الركب تجثو بين يديه .. تتوسله ليبقى منقذا وحيدا لا معدى عنه فإن كان سيئا بمنطقهم فغيره أسوأ .. ليس منه كبير خير ولكن ليس منه كبير شر .. وكلما نجحت لعبة انتقل إلى غيرها .. حتى إذا وجد اشتداد المعارضة مضى يفخ الحياة السياسية بحقول من الألغام الأمنية والاقتصادية .. والإدارية .. ويضع خارطة حقول الألغام تحت إبطه .. فإذا أرادت المعارضة تغييره فكرت وفكر البقية معها عن معضلة تفكيك حقول الألغام تلك .. والتركة الثقيلة التي خلفها فينتظرون علّه يفكها ويصلح ما أفسد .. ثم لو سقط فعلا وجاء غيره سيرث تركة المشاكل ويجلس على بحر من كراهية الدولة العميقة، فيفجرون في وجهه تلك الألغام المزروعة، فيتدهور الوضع .. ويغيب ذلك المخلص الذي كان يملك وحده نزع فتيلها، فتعود العامة تملأ الفضاء بالترحم عليه .. وبتمجيد عهده .. تتمنى تلك الأيام التي كان يستطيع أن يصنع الأزمة ويستطيع أن يحلها، يستطيع أن يفخ الحياة بالألغام ويستطيع أن يبطل مفعولها .. وربما تحول ذلك الفاسد الوغد عند الغوغاء إلى بطل قومي .. ولا يدرون أنه كان مجرم حرب .. ومصدر كل بلاء .. ومنبع كل شر.



مصائر الشعوب بين كبار النفوس وصغارها

بمبدئية الرجولة يكون رجال المبادئ .. فلنتفحص الشعوب رجولة من يحكمونها وعلو نفوسهم عن أن يدخلوا صروح الحكم منهزمين أمام بريقها الأخاذ .. ولا تكتف بجمال الشكل .. وحلاوة الصوت .. وجاذبية الأسلوب .. فليست حاجتها إلى رجال سرك سياسي بل إلى خدام يخدمونها .. ولا تلتفت إلى ادعاء الحاجة إلى الاستقرار والانتفاف حول من يصعد بالتزام الصمت إزاء مخالفاته .. فكلمة الحق لا زمن لها .. ولتسأل الصحافة عن من يريد تسنم المناصب .. من هم؟ وأين درسوا؟ وما هي مصادر ثقافتهم؟ وما هو تأريخهم السياسي؟ وهل هذه الشخصية أو تلك جهة آمنة من اللصوصية، والخيانة، وعدم الالتزام؟ أم هي شخصية ملوثة ومشبوهة؟

هل تحمل همّ الناس أم ستحملّ الناس همّها .. تعيش الأمة في نفسها أم تعيش في الأمة لنفسها؟ وبمعانٍ أخرى، هل من انبرى ليحكمنا هو شخصية متجردة أم وصولي انتهازي؟ صادق أم ممثل؟ .. فاهم أم جاهل؟ .. عرف في سيرته الذاتية احترامه للمحددات المجتمعية والهوية الوطنية وكان مثال الإخلاص والإنضباط أم جاء من كواليس مجهولة؟ وفرض فرضا .. أو ألقت به مجاديف الظروف إلى سدة الحكم بلا أهلية؟ هل هو متواضع عملي، أم استعراضي رسمي يفهم من المسؤولية أشكالها ومراسيمها ومواكبها وأضوائها وحسب؟ .. أخيرا هل هو مستقل الرؤية يفعل ما يريد أم مسلوب التفكير موجّه الخطوات يفعل ما لا يريد ويريد ما لا يفعل؟

فالذين يصعدون إلى الحكم وهم عظماء في أنفسهم .. كبار في فلسفتهم لمعنى الربح والخسارة، يكون تفكيرهم بحجم أمة .. ونظرتهم تتجاوز محيط ذاتهم الضيق إلى المحيط الأوسع والفضاء الأبعد.. هؤلاء إن حكموا لايزيدون بالحكم، بل هم يزيدون فيه .. ولا يجدونه رافعة لمقامهم، فهم عند نفوسهم أكبر من أن يسحرهم بريقه الخادع، وإذا كان في الحكم من زيادة عزة على عزة نفوسهم، فهو بإعزاز كيان الأمة، وتكبير حجم مكانتها بين الأمم، عندئذ سيكبرون أكثر .. سيكبرون عند الله وعند الناس .. سيحتلون القلوب بالحب، والألسنة بالثناء .. وسيمتد طول مستقبلهم من متعة زائلة إلى متعة خالدة لا تبيد .. هؤلاء هم أولئك الذين يأخذون الحكم كتكليف لا تشريف .. ويضعونه في أكفهم لا في قلوبهم .. يتحكمون فيه هم لا يتحكم هو فيهم .. طموحهم يسبق الممكن فيدركون ما هو في نظر الناس مستحيلا لأن همهم عالية.

ثم متى وجدوا أن وجودهم في الحكم قد استنفد أغراضه .. وباتوا يكررون أنفسهم .. وأصبحت زوايا نظرهم إلى الأشياء لا تغادر مواقعها القديمة .. إذا ما شعروا بذلك تركوا المجال لطاقت أخرى

شابة .. ونظرات ذات زوايا جديدة توصل إلى مكامن نهوض جديد .. فالحكم عندهم غرفة عمليات بناء، وإنتاج ورعاية شعب، ومشاريع نهوض .. وإجابات اقتصادية وفكرية، وسياسية، وأمنية على تساؤلات الحاضر والمستقبل .. لذلك يبادرون إلى ترك مواقع المسؤولية قبل أن يتسببوا في خسارة أنفسهم، وخسارة مجتمعهم بسبب حالة الجمود والتكلس، لأن دائرة مشاريعهم تتجاوز متعة اللذة الحسية المؤقتة، إلى متعة النجاح في امتاع الجميع بحياة أجمل، فإذا تراجع الأداء عن مستوى الطموح، رفعوا أيديهم عن مصائر غيرهم، وطمحوا في خدمة الناس بالبحث عن قدرات أفضل.

أما الذين يصعدون إلى الحكم ليزيدوا به من نقص فيهم لا ليزيدوا فيه من كمال عندهم .. ويرون رسالة السلطة في التسلط وإشباع غرائزهم الجائعة - وغالبا ما يصلون إليه بطرق غير طبيعية لعدم وجود مؤهلات، بل بالاستقواء العصابي، أو القبلي، أو الانقلابي .. أو عن طريق الكذبات التاريخية بالأحقية - فهؤلاء لن يكون همهم أوضاع من تحت أيديهم .. بل الاستيلاء على ما تحت أيديهم .. لأن مشاريعهم ذاتية، فلم يعيشوا لغير أنفسهم، وسيكون استلام الحكم بالنسبة لهؤلاء الصغار كغنيمة سمحت بها الظروف لتحقيق الرفاه القشري .. والمظهر الزخرفي .. ومشروع استحواذ لإشباع الذات بالملذات .. وتصبح مقدرات الشعوب قرابين المقربين في معبد سلطانهم .. وستمتلئ القمة بأمثالهم من التافهين حتى يحضر معهم معركة البقاء بدل العدم.

إن هؤلاء صغار النفوس عندما يتضخم وجودهم بالسلطة بعد أن كانوا كائنات مجهرية، لا يفكرون بترك السلطة، فتركها سيعني انتقالهم من الوجود إلى العدم، من كل شيء إلى لا شيء، فلم يكونوا كبارا بأنفسهم حتى يغتنوا بها عن العوامل الخارجية، بل بما حصلوا عليه من وسائل تجميل وعوامل تضخيم .. فشعارهم أنا أحكم إذن أنا موجود .. وبالتالي سيكون نزع السلطة منهم كنز الصوف من جلد الثور المسلوخ.

ولهؤلاء ذوي النفوس الصغيرة متلازمات، تؤشر على وجود عقدة النقص فيهم، منها الاشتغال دوما بتقريم الأحجام الكبيرة، وتخسيس الأوزان الثقيلة الأكثر منهم علما وتجربة وهو وجودهم تهديد لمستقبل وجودهم، فيقررون دفنهم أحياء، إما بالتجاهل والتهميش أو بالتشويه والتشهير والحرق، وتفخيخ مستقبلهم السياسي بالشيطنة والتهم الباطلة .. أو حتى عن طريق التخلص منهم وتصفيتهم جسديا إن لزم .. فالغيرة السياسية إحدى علاماتهم .. إنهم يغارون على لقب الرجل الأقوى .. والقائد الأوحى .. وقد يصل الحد بأحدهم إلى الغيرة حتى من صاحب تميز في الإبداع الفني .. اختطف منه الأعضاء .. واستحوذ على مساحة من القلوب .. فهذه النجومية اعتداء على مقام السيد الكبير .. فالزعيم السياسي المصنوع ليس بريقه من كونه نجما يضيء للآخرين، بل يستمد من بريق السلطة

التي يشغلها، فالنجومية الحقّة تهدد رؤيته في أعين الناس .. لذلك ستجد الإبداعات، والاختراعات، للأفراد ذوي النفوس الحرة والمستقلة، في ظل حكم الاستبداد تحارب وتهمل وتشوه.

باختصار هذا النمط من الحكام يخططون ولكن للبقاء .. ويزرعون ولكن للفوضى .. ويحكمون ولكن ليتحكّموا .. ويملكون ولكن ليتملّكوا .. لا يريدون الإدارات الناجحة بقدر ما يديرون الإيرادات المنهزمة، ويخضعونها لسلطتهم .. فلا تبقى قوة تهدد مستقبلهم السياسي غير الشرعي إلا وقلّموا أظافرهم ونزعوا مخالبيها .. وأسسوا قالباً من الحكم على أساس الولاء الفردي لا على أساس الولاء لله، والمصلحة العليا للأمة .. وما ذا عسى تنتظر الشعوب من حاكم خطأ في المهمة الخطأ .. ضعيف النفس .. ضعيف الوازع القيمي ربما لم تتح له فرصة التربية السياسية في العائلة ولا في المدرسة ولا في المجتمع .. فلا يعرف من السلطة سوى حق الاستئثار وحق الاستثمار .. لذا ستتلاشى عند نمط كهذا أمام سلطة الحكم كل السلطات .. سلطة الله .. سلطة العقل .. سلطة الضمير .. سلطة الشعب .. وسيهنأ بعرش تقوم قوائمه على تل الجماجم .. وسيدمن الرقص على إيقاع أنين الجوعى والمعدّيين؛ لأنها تشعره أنه حاكم لايزال .. وأن بيده أن يسكتها لو يشاء؛ لكنها لو سكتت سكت معه الشعور بالسلطة والتسلط .. فلو اغتنى الفقراء .. وأنصف المظلومون .. وقضيت حاجات المعسرّين .. لتوقفت الأيدي التي تطرق باب رحمته .. ونوال فضله، فتشعرهم بالأهمية .. حتى طاعة الناس له يحب أن يقاضيهم أيها على خوف أمتع له منها على حب .. لا يحب حبهم بقدر ما يحب خوفهم .. لا يحب أن تقضى حوائج الناس سريعاً؛ ليقضي فيهم ما استطاع من شهوة الشعور بالافتقار إليه .. ولكي يزداد جو اللذة اتساعاً ربما جمع للناس بين ألم الظلم وألم الانتظار للعدالة .. فيطلق الوعود الكاذبة .. ويلوح بالأمانى الخادعة .. ويقول ما لا يفعل .. ويظهر من الحرص ما لا يخفي .. يعظ غيره ولكنه لا يتعظ .. ويأمر بالمعروف ولكنه لا ياتمر .. وينهى عن المنكر ولكنه لا ينتهي .. مجرد بائع كلام .. ومسوق أوهم .. وحاقن مواد مخدرة في أوردة الشعب المخدوع لا أقل ولا أكثر .. مثل هذا سنأتي منه من المآسي أضعاف ما ينتظر من الخير .. فمثل هؤلاء أعداء الشعوب لا خير فيهم، ولا أمل يرجى في صلاحهم ولا في ترويضهم وتطبيعهم فقد غلب الطبع التطبع.



قائمة تصنيف الحكام

عندما تقرأ عن تجارب التبادل السلمي للسلطة تقول هاهنا يعيش نموذج الإنسان العاقل .. هاهنا يوجد ذوق الكائن الرفيع الذي فصل عالمه بجدار القيم العليا عن إنسان ما قبل قبل التاريخ.

وعندما تقرأ عن تجارب التربص السياسي والانقلابات والمكر والغدر والاعتقالات السياسية حتى بأقرب الناس تقول هاهنا نموذج الكائنات الغابية التي تقع نفوسها في درجة من الضعف بحيث ترى بريق السلطة فتتركها صرعى وعقولها ثملى .. فلاتبالي على أي شيء تقع يدها بطشا وقتلا وتكثيلا فيمن تراه طرف تهديد لسلطتها .. حتى لا تتخرج أن تقيم قوائم الكرسي على هرم من الجماجم وعواصف لعن اللاعنين وسخط الناقمين وتاريخ ملطخ بالسواد.

هؤلاء ضعاف النفوس محرم عليهم المسؤولية شرعا، ويكفينا قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه وهو من هو سابقة وفضل حين طلب أن يوليه: عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعلمني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها» (1).

وسنجد أبا ذر الغفاري في أحاديث أخرى غير ضعيف الإيمان .. غير ضعيف في قول كلمة الحق .. لكن هناك ضعف في المسؤولية لديه وحرى ألا يتقلدها على علو مقامه ولا ندري عن أي أنواع ضعفه في هذا الجانب قد يكون ضعف عجز الذي لم يكن في بعض من هم دونه سابقة وفضل كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد .. وبالتالي لامساومة في المسؤول النموذج القادر على الإدارة والضبط فحجبها القائد الأعلى صلى الله عليه وسلم عن أبي ذر.

وعلى ضوء هذا الحديث النبوي التقييمي يمكن تصنيف الحكام الضعاف على أنواع أربعة:

- 1- نزيه مستبد.
- 2- فاسد غير مستبد (متسامح).
- 3- فاسد مستبد (ديكتاتور).
- 4- نزيه غير حازم (ضعيف).

(1) رواه مسلم.

وكل هذه الأصناف غير نافعة للحكم ونتائجها في كل الأحوال كارثية لكن بعضها أشد سوءا من بعض.

أما الصنف الأول (ونقصد بالفساد هنا الفساد المالي) فهو نضيف اليد غير مستفرد بالمقدرات .. لكنه ضعيف أمام شهوة الاستفراد بالحكم، وهذا النوع النزيه المستبد نوعان: قد يكون نزيها بخيلا كالإمام يحيى حميد الدين في اليمن، وقد يكون نزيها سخيا كصدام حسين في العراق، والنوع الأخير أرحم لأنه إن استبد بالرأي لم يستبد بالمال، لذلك كانت العراق في عهده أفضل من نظائره، ولكن لا يكفي التحنن على البطون مع السطو على العقول؛ لأن حكم الفرد قد يعتمد على تقديرات خاطئة وزوايا نظر قاصرة فيقود المجموع إلى كوارث اجتهداية حاسمة وهذا ما حدث للعراق الشقيق بعد سقوطه في فخ غزو الكويت ثم تعاورته الذئاب الجائعة ولم تقم له قائمه حتى اليوم.

أما **الصنف الثاني**: ففساد غير مستبد والحقيقة أنه لايجتمع أن يكون فاسدا وغير مستبد لأن عدم الاستبداد سكيل وجود رقابة، ولكن أردنا أنه متسامح في التعبير .. غير متسامح في التغيير وأقرب مثال له علي عبد الله صالح في اليمن وقريب منه حسني مبارك في مصر، غير أن تسامحهم ما سد خلل فسادهم وكانت النتيجة واحدة.

الصنف الثالث: وضعف هذا النوع من كونه نظر إلى السلطة ك مجال للتسلط ونظر إلى الحكم ك مجال للتحكم وهو الأشد وطأة على الشعوب، لأنه يحكم الإغلاق الجماعي ويسد منافذ التنفس ويكون الفناء طريق إجباري للمستضعفين .. فلا متسع لمواجهة فقر البطون .. ولا متسع لمقاومة قهر النفوس .. ولا متسع لمحاربة غسل العقول .. إنه صنف أسوأ من أن يوصف بجائحة قومية؛ لأن الجائحة قدرية ومواجتها بالأسباب القدرية، أما هذا النوع فهو ينفذ على المحكومين عقوبات إخضاعية بسبب جرائم لم يرتكبوها سوى جريمة واحدة وهي أنهم قبلوه حاكما عليهم .. فعاقبهم بجريمة القتل المادي .. وجريمة القتل المعنوي .. وجريمة التجويع الجماعي إنه ضرب من ضروب التوحش الإنساني .. والافتراس السلطوي وفساد هذا الصنف شامل قال تعالى : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ) (1).

وتقطيع الأرحام يأتي من عدة أسباب: منها تنكر الحاكم الظالم لصلاة أخوة الإنسانية والمواطنة، ومن كون شيوع الفقر في ظل حكمه يقطع الصلاة وشعائر البر، فلا يستطيع القريب أن يصل قريبه

(1) [محمد: ٢٢].

عن طريق واجب المساعدة وتلمس احتياجاته، فيفر كل ذي رحم من رحمه خوفاً من طائلة الحرج، والوقوف موقف العاجز المخذول أمام التزامات أهدرها جور السلطان.

وأمثلة هذا النوع كثيرة في التاريخ ونموذجهم الأعلى فرعون ذو الأوتاد الذي طغى في البلاد فأكثر فيها الفساد، ومثله في العصر الحديث بشار الأسد في سوريا وكل الأشباه والنظائر من طغى شرهم وندر خيرهم إلى يوم القيامة.

الصنف الرابع: وهو الذي قصم ظهر الخليفة عمر رضي الله عنه الذي قال: قصم ظهري اثنان .. عجز الثقة وجلد الفاجر .. فهو ثقة ولكن عاجز عن أن يدير حكم، فما حاجة الناس إلى فاقد الأهلية؟ وهو أسوأ حالاً من جلد الفاجر .. طبقاً لتوجيه المغيرة بن شعبة للنوعين قال يا أمير المؤمنين: أما النقي العاجز فتقواه له وعجزه عليك، وأما الفاجر الجلد، ففجوره عليه وجلده لك .. قال: صدقت.

إن هذا النوع لم تتعد قدراته إدارة شؤون نفسه، فقد عرف كيف يحمل نفسه على الورع والتقوى وكيف يحتاط لذنبا نفسه فما له ولدنيا غيره؟ .. وأبرز مثال على ذلك معاوية بن يزيد بن عبد الملك العابد الزاهد الذي تخلى عن الإمارة وانصرف لشؤون نفسه لأنها أحوج إليه من غيره .. ومثل هذا النوع غالباً أمر تعيينه لا يكون بيده لأنه أعجز من أن يقودها إلى هذا الموقع وإن لم يكن بيده تعيينه فليس بيده بقاؤه فما أسهل إزاحته خطأ غير مقصود.

ختاماً: من حكمنا ويحكمنا هم ضعاف النفوس .. وضعاف العقول .. وضعاف الإرادة .. هؤلاء لاخير فيهم .. ومحرم عليهم الحكم على كل المذاهب .. فإذا كان قد حرم الولاية أبو ذر وهو من هو فهي على هؤلاء أشد حرمة فمن ولي منهم شيئاً من أمر المسلمين فهو في حكم الشخص غير المناسب في المكان غير المناسب .. حتى يعتزل أو يعتدل.



بين جنون العظمة و جنون البقر

ليس عنوانا مرتجلا، بل له علاقة سببية بين الحالتين بوجه من الوجوه .. في عام 1996م تم إعلان حظر استيراد لحوم الأبقار من المملكة المتحدة البريطانية، ذلك لأنه تبين إصابة الأبقار هناك بالجنون نتيجة حالة تسمين غير طبيعية، وهي فرم اللحوم النافقة وتقديمها كأعلاف للبقر، بهدف تسريع تسمينها مع أن البقر عشبية لا لاحمة وهي لحم لغيرها، وليس غيرها لحما لها .. إلا أن الجشع أقام تضادا في توجيه الطبائع المختلفة، فأدى هذا التركيب المتنافر إلى جنون هذا الحيوان الضحية. ومع أنها بقر لكنهم جنونها.

والشيء ذاته يحدث عندما يتم تسمين فرد غير عظيم بعظمة زائدة، وتعريضه لحالة تضخيم الأنا بسبب غنى أو سلطان دون توفر عقل مواز .. قادر على كبح نوازع الطيش وخفة العقل .. أو وجود تاريخ كاف من تقاليد سلطانية مثلا إن كان ذا سلطان .. أو توفر مؤسسات رقابية ضابطة لهيجان غرور العظمة، الذي قد يثور من الحاكم في أي لحظة بفعل الجمع بين الشيء ونقيضه .. امتلاء اليد مع خواء العقل.

إن الحاكم الفارغ يشتغل ويشغل غيره بدائرتة الضيقة، ولا يجب أن يرى من حوله مستقل السيادة - كما سبق - يتمتع بطموح التميز والفرادة حتى على مستوى تنافس حكام أشقاء ودول مجاورة فهناك الغيرة وهناك الحمية طالما هو عربي فحركته في عين جاره يجب أن تظل محسوبة .. فأن يفكر في تجاوزه فذلك في حقه وحق بلده تحدٍ وتعدٍ وتشكيل مصدر خطر على والأمن والاستقرار .. لذا فكثير من مشاكل الدول العربية لدى الحكام مردها الانتصار لجنون العظمة والأنا، ولقد حشروا في ذلك الشعوب حشرا وأورثوها العداوات والتشامخ على بعضها.

فصدام حسين - غفر الله له - هجم على الكويت بقرار فردي لأنها تصرفت تجاهه وهي دولة صغيرة بلا توقيير أفقدته صوابه فأعطاها كفا بقيت تترنح منه طويلا.

وكان مبرر حسني مبارك في مشاركة مصر حربها ضد صدام، هو أن صدام كان يريد أن يستقل بعظمة قيادة العرب ويزيح مصر من موقع القيادة هكذا صرح، ودائما العظمة الفارغة لعقول فارغة مكن سر ردود أفعال مضحكة.

والجزائر لن تلتقي مع المغرب في واد طالما استمرت الأخيرة تظن حالها بدرجة عظمة أختها وتنافسها في قيادة المغرب وربما العكس صحيح، والعلاقة بينهما متوترة على الدوام بسبب جدلية

الكبير والصغير .. وربما لم تكن قضية الصحراء المغربية وجبهة البوليساريو سوى عرض من أعراض نرجسية الحاكم العربي.

وإذا عطس الحاكم المصري ولم يشمته الحاكم السوداني فليستقبل التآمر ضده، وتخريب أبو أم السودان على بعضها؛ لأن مصر أكبر ولا بد من تبعية الأصغر وإلا فالكيد والتآمر والاستقطاب جاهز.

وضرب التحالف العربي المنشآت اليمنية بلارحمة ولا هوادة وعلى مستوى الجسر الذي يتوقف عليه مصالح العباد .. والسوق العامر بالرواد .. والبيت الأهل بالسكان .. وما لا علاقة له بالحرب كل ذلك بمثابة رسالة مصدرها العظمة أيضا، فكفوا عن الطموح الزائد أيها اليمنيون انسوا حكاية التفوق العددي والتاريخي والتبادل الديمقراطي وتذكروا فقط أنكم شعب فقير وأن حياتكم أيها الفقراء تحت رحمة الأغنياء .. وأن مكتسباتكم أيها الضعفاء بيد الأقوياء .. فلا يوجد عندما نغضب شيء مقدس ولا خطوط حمراء ولا أخلاقيات حروب .. ولا سؤال عن كوم الضحايا التي نخلفها وما بقيت لدينا قوة سنترك مستقبلكم في صراع مستدام حتى لا تبقى لكم قائمة .. فليست القصة أيها اليمنيون نحن وأنتم .. بل نحن أو أنتم!؟

وأكثر ما أعاظ التحالف ضد قطر هو تصرف الأخيرة بلا توفير مع الكبار، والنظر إلى نفسها - وهي الدولة الصغيرة- كأنها ولية أمرها، فتقوم بتمويل الربيع العربي وتقف مع الشعوب المستضعفة هكذا وهي تعلم أن هذا التصرف يعكر مزاج الأخوة الكبار، فطبّقوا عليها حصار شعب بني هاشم .. وردت هذه الصغيرة أيضا بفجور الخصومة وانفلات ضوابط الحكم الرشيد، واستفزاز غير عقلاني ولسان حالها يقول: ومن قال إننا دولة صغيرة بل عندنا أعلى مخزون غاز في العالم، وأعلى احتياطي نقدي في المنطقة، وإمبراطورية إعلام الجزيرة العظمى .. فمن دافع الشعور بالعظمة أيضا لم تترك هامش احتياط، ولم تحسب حساب الشعوب، ومصالح الأجيال، بل قطعت شعرة معاوية فيما بينها ودول الحصار، فإن هم شدوا شدت وإن هم أرخوا شدت، وذهبت لتصف إلى جانب مشروع تفريش المنطقة من حيث تدري ولا تدري، وخلا قاموس جنون العظمة من مصطلحات علاقات متوترة .. وتقاومات باردة .. وسحب سفراء لتسوية الملفات موضع الخلاف .. بل لا يعرف الجميع سوى الضرب بالمليان و فقط، لكي يعرف ندي الذي يقف ضدي حجمه وكيف عن ممارسة حرّيته كدولة مكتملة الأركان .. ووصلت بطولات الصدام الأخوي إلى غلق المواقع الالكترونية لكل، وأصبح من خيانة ولي الأمر وضع (أعجبي) على منشور لم يعجبه .. ولو أن يطلب مواطن من الله أن يصلح الشأن بين المتغاضبين، كما فعل الدكتور /سلمان العودة، فمن أعطاه الإذن حتى يطلب من الله أن يصلح ذات البين، ومن قال إن صاحب السمو يريد من الله إصلاح هذا الشأن وكيف سمح هذا التابع لنفسه أن يعبر

عن غير ما في نفس ولي الأمر؟ ووصل الأمر إلى قطع صلوات الأرحام والتضييق على أداء نسك الحج .. وكما قال الشاعر العربي أسد علي وفي الحروب نعامة .. ففي حين يدسون رؤوسهم في الرمل من سماع سيل الإساءات وسخرية الإعلام الأجنبي، ويغمضون أعينهم عن الابتزازات الاقتصادية والسياسية من الأجانب .. يظهرون على بعضهم مواهب القوة ويتم إشهار المفاعلات الكيماوية للسياسة العربية المزدوجة .. مرض الكبر .. وسذاجة التفكير .. يضاف إليه (غياب المؤسسات الضابطة) فالذي يحكم هو عقل فرد وهذا الفرد تم نحته كوثن يعبد .. فيلتاث بمرض جنون البقر حين يحقن بعظمة صناعية وليس في نفسه عظيما وإنما هو خواء وهواء وطبل أجوف ولو كان هؤلاء يعقلون لسيجوا حكمهم وشعوبهم بحائط التضامن العربي ولكن لا عدو أعدى لهم وشعوبهم من أنفسهم هم.

ومن غوامض أمراض السياسة البدائية التي انعكست سلبيتها على حياتنا حقد الحاكم على شباب انصرف من تمجيده وترديد طقوس التبعية له وحده إلا عبادة خالقه وحده، فهذا الاختيار التعبدية الجديد أثار حفيظة الحكام وأنا أعني ما أقول، فما الذي جعل الحاكم يكره شباب الصحوة الإسلامية هذا الكره وهم مجرد متسكين يعملون بحب لدينهم ويستمتعون بطاعة ربهم؟ لقد تطبعت حياة الملك أو الرئيس على النفاق من التغريبيين والليبراليين والمنتفعين والمتاجرين بشرف الكلمة ، في حين الحاكم في عين أحد الشباب الملتزم راع وحسب، ومسؤول أمام الله عن رعيته إن أحسن فذلك واجبه وإن أخطأ وجبت محاسبته وأن أفضل من واقع حكمه أن يكون جزءا من دولة إسلامية كبيرة تضم جميع المسلمين .. هذا الاتجاه الجديد في التصور فيه عند الحاكم المخبول قلة أدب، وعدم احترام وتوقير .. وفيه خيانة وتحد لولي الأمر، وعدم الشعور بالانتماء للوطن .. وانفلات القلب والقالب عن حالة الاحتواء والسيطرة .. فعقلية الحاكم لم تغادر خيمة شيخ القبيلة الذي يأمر هات يا غلام حط يا غلام.

وقد يتطور التفسير المرّضي للاستقلال في التفكير إلى شق عصا الطاعة ومفارقة الجماعة .. لذلك تصيدوهم قتلا كما في عدن وسجنا ومطاردة هنا وهناك مع أنه في ظل الحرية اتجاه مشروع ورأي يحترم وموقف اجتهادي شخصي أو جماعي ما لم يحملوا السلاح ويثيروا الفتنة.

أخيرا من لا يقبل سوى أغاني التمجيد من الدون ويستعذب اضطهاد الأضعف منه فإنه يستعذب عبادة الأقوى منه كسلوك ومنهج مطبق .. نفس القاعدة التي بنوها لسياساتهم .. أنت قوي تُعبد .. أنت ضعيف تُستعبد .. وهذا يفسر تهافت هؤلاء النخالات على الخضوع للدولة الأقوى أمريكا .. والتقرن المهين أمام ربيبتها إسرائيل، والبحث دوما عن رضا الكبار ناتج عن قانون الأبوية المطلقة.

هذه الكائنات البدائية الجاهلة عذبت شعوبها وبددت طاقاتها فضلا عن تبديد طاقة الأمة بأكملها .. ويقيني أن اليوم الذي تتغير فيه سياسات بلداننا إلى الأحسن قادم لا محالة كسنة من سنن الحياة المتجددة، وسيكون من جميل صلاحها أن تتقبل توجيهها سياسيا كهذا وتعتبر بالدول المتحضرة حيث الدولة الملكية بجوار الجمهورية .. والصغيرة تحمي الكبيرة .. والغنية تدعم الفقيرة .. والحاكم يثبت خضوعه لشعبه بتلقي الصفع من مواطنيه كما حدث لمكرون رئيس فرنسا وغيره والرمي بالبيض والطماط دون أن يظهر قوته على ضعفه، فهلا أخذت زعاماتنا هذا التعيد كلبنات في إصلاح ما تهدم .. وإعادة ما ضاع؟! ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.



تواضع الكبار

طائر الهدد أحد موظفي نبي الله سليمان عليه السلام، الملك مسؤول عنه وعن وظيفته، وحضوره، وغيابه، وحينما هدده سليمان بالذبح أو العذاب لغيابه ما لم يأت بحجة ظاهرة، لم يمكث طويلا حتى وقف بين يدي هذا النبي ليقول: (...أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ)⁽¹⁾ لدي من العلم ما ليس عندك، فاسمع مني هذا الخبر المشفوع بموعظة في حق من يشرك بالله، وحدثه عن خبر ملكة سبأ، وقومها وأنهم يسجدون للشمس من دون الله .. لقد تميز هذا الطائر بالعلم الكسبي فأكسبه عند سليمان نقطة نجاح، نال بها التقدير واستحق بها أن تحفظ حياته، ويصب سفيرا بين سليمان عليه السلام وملكة سبأ.

إن القضية متعلقة بطائر في النهاية لكن الله يسجل له سبقا معرفيا ودعويا وإن كان مخلوقا بسيطا، ويسجل له أنه وقف بجرأة أدبية بعلم خاص أمام ملك عظيم ولسان حاله يقول عندي أنا - هذا المخلوق الضعيف - ما ليس عندك .. ونبي إلى جانب كونه ملكا عظيما يتواضع لمن صار يملك من المعرفة ما لا يملك هو، دون تعال ولا تعاضم ولا تكبر.

وللقصة موضع اعتبار آخر، وهو أن نبيا آتاه الله من الملك مالم يؤت أحدا من العالمين بالغ ما بلغ علمه وملكه ومقامه من الله يظل قصوره البشري مفتقرا للغير أيا كان، فالكمال لله وحده، فلأخذ معلومة من طائر، ولأخذ من مخلوق حشري - نملة يدوسها الناس بأقدامهم دون شعور منهم - درسا في فن السياسة والتدبير، ومعاني استشعار الراعي بالمسؤولية تجاه رعيته مع أن تحت إدارته الجن والإنس، والشياطين، والريح، والطير، فيدرك هذا النبي وهو من هو أنه قليل الحيلة أمام عظمة الله، وملكه الواسع، لذلك لما سمع كلام هذه الحشرة: (.. قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه ..) رب وفقني لدوام شكر نعمتك علي، فقد ذكرته النملة أن ملك الله فوق ملكه فلا ينسى شكر المتفضل عليه .. وبخلاف ذلك، الطغاة والمستكبرون، فقد يدعي أحدهم لنفسه القدرات والخوارق، وهو رأس في السماء وذيل في الماء، فهذا فرعون يأتيه موسى بآيات إعجازية متتالية يظهر فيها عجز فرعون المدعي الألوهية، ويظهر تميز موسى بمصدر علم سماوي فوق قدرات البشر، فيصرُّ على لغة الادعاء والاستكبار، وبدلا من إظهار التواضع والاعتراف بالعجز، وهو العاجز عن دفع واحدة من تسع آيات بينات جاءتهم بالعذاب، يظهر تعاضمه (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب* أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا

¹-[سورة النمل 22]

(... يوهم الأتباع السذج بهذه الاستعراض الناطح أنه قادر على الوصول إلى السماء؟ .. وبدلاً من أن يقر لموسى بفضل المعرفة قال مستهزئاً: (أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يُبين) أي بل أنا خير من هذا الضعيف الحقير الركيك البليان .. ادعاء أجوف شأن كل مستكبر وشأن كل نحلة وثنية مسكونة بهالة تقديس الأشخاص الذين منحتهم صفات الربوبية، وادعت أنهم شركاء الله في علم كل شيء، أو أنهم يطلعون على حجب الغيب وهم لا يعرفون متى يتخطفهم الناس.

ولنعد إلى درس التواضع مع أعظم ملوك الأرض النبي والمَلِك سليمان - عليه السلام - الذي احترم أيضاً مبدأ التخصص في العلم، حينما طلب ممن هم أعلم منه في مجال العلوم الطبيعية، ما لا قدرة له عليه فقال: (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) (1) أراد إحضار عرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام، فلماذا لم يستطع وهو نبي فعل ذلك؟ إن نقل جسم مسافة تزيد على الألفي كيلو في لحظة لا يبعد أن يكون علماً دنيوياً فيزيائياً ممكن أن يصل إليه البشر، وربما كان من اختصاص الله لسليمان بملك لا ينبغي لأحد من بعده توفر علماء طبيعة حوله ذوي قدرات هائلة في زمانه لا يملك ما يملك كما هو الآن من شأن علماء الطبيعة، فلجأ إلى علمهم، أو أنه علم لدني للذي عنده علم من الكتاب وهو كما قيل آصف بن برخيا، فيكون له من العلم كما للرجل الصالح الذي تبعه موسى، أما علم سليمان كما هو علم موسى وبقية الأنبياء فهو علم النبوة الخاص بوظيفة التبليغ، وما عدا ذلك فالنبي كغيره من البشر: (... وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (2) وعلى لسان نوح: (قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (3) وإذا كشف الله بعض حجب الغيب للأنبياء فذلك لتمام كمال الرسالة، كالمعجزات قال تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ رَّصَدًا ...) (4) قال (من رسول) تحديداً لارتباطه بتبليغ الدين، وليس لأحد غير الرسول، لا لولي ولا لإمام غير ما نص عليه الوحي ولذلك قال في الآية التالية: (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ...) (5) أي لئتم بهذا الكشف الغيبي تمام الرسالة وإقامة الحجة، ولا نبي بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن اللافت في مقام الاعتبار من تواضع الأنبياء أيضاً ما جاء في الصحيح عن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " موسى رسول الله عليه السلام، قال: ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت

1-[النمل : 38]

2-[الأعراف : 188]

3-[الشعراء : 112]

4-[الجن : 26- 27]

5-[الجن : 28]

العيون، وركت القلوب، ولى فأدركه رجل فقال: أي رسول الله، هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا، فعتب عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، قيل: بلى، قال: أي رب، فأين؟ قال: بمجمع البحرين، قال: أي رب، اجعل لي علماً أعلم ذلك به⁽¹⁾ الحديث .. وأعطاه الله أمارات إقامته ليذهب ويتعلم منه، فأعلن موسى عليه السلام بلغة تواضع العلماء أنه سيمضي إليه ولو يقطع أحقاباً من الزمان حتى يصيب من علمه فلما جاءه (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا)⁽²⁾ بلغة الالتماس والعرض يطلب أن يتعلم منه فأخذ النبي يتعلم من الرجل الصالح .. لقد أجاب موسى على سؤال السائل في حدود عمله، إذ رأى أن لا أحد أعلم منه في علوم الشرع، أليس هو من يأتيه الوحي من السماء؟ فلم يرد الادعاء فلقد كان التواضع شعار موسى، حين قال: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)⁽³⁾ ذكر ضعفه وتميز أخيه ووضع بين يدي الله حالة الافتقار إلى الأفصح، ولكن الله أراد أن يقول لموسى بقوله (إن هناك من هو أعلم منك) إن المطلقات من صفات المولى وحده، فلا يوجد العالم المطلق في علمه حتى الأنبياء.

وهنا لفظة عقديّة من الأهمية بمكان أن نذكرها وهو أن بعض فرق أهل الضلال يحتجون على قدرات أئمتهم واختصاص بالعلم (بالرجل الصالح) الذي تبعه موسى فقد أعطي علماً لدنيا وليس بنبي بزعمهم، والصحيح أن هذا يُحفظ ولا يقاس عليه، لأن الخوارق لا يتوسع في غير ما نص الله عليه، فهدهد سليمان ونملته لا تتكرر .. وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم لا تتكرر .. وضرب موسى بعصاه الحجر ليخرج منها الماء لا تتكرر .. والرجل الصالح وخصوصيته لا تتكرر .. وإلا سيدعي كل دجال أنه على اتصال بالسماء وأنه مؤيد بال العناية الإلهية، وأن على يديه تجري المعجزات كما كان لأولئك فهذا من التلبيس؛ وإن وجد أحد الناس كرامات من الله وعناية وتأيد ذلك يعود إليه، لا يدخل في العقيدة ولا في يقين الأخبار، فتوفيق الله وعنايته لا تحدّ ولا تعدّ فقد يجد ذلك الضعفة وآحاد الناس، بل وغير المؤمن قد يتولاه الله بعناية يدرك أن ثم تدخلا فوق تدبير البشر، أليس الله تعالى قد تولاه بنعم الإمداد والإيجاد، فيمنحه الله من العناية تحببها له للبحث عن المنعم الأول، فليس الكرامة من علامات الاختصاص في شيء، فالله يؤيد بنصره وبعنايته من يشاء.



¹ -رواه البخاري.

² -[الكهف : 66]

³ -[القصص : 34]

عندما يصبح الحاكم هو قدس الأقداس

جاءت الثورات العربية كفعل جماهيري يأس بعد عقود من الاستبداد، انتقل الحاكم فيها من رئيس إلى ملك، ومن ملك إلى مالك، فكل شيء سُخر لمحبهته، وانتقلت ملكية الوطن إلى سجل عقاراته، فصار حر التصرف في مقتنياته بيعاً، وشراءً، وهبةً، وتمليكا، لمن شاء وكيف شاء، بعد أن صار (لا يسأل عما يفعل) .. ومع ذلك مثلت هذه الثورات أستاذية عالية في الانضباط والسلمية، استقبلوا الرصاص بالصدور العارية، وشعارها (سلمية سلمية) ونزلت الجماهير إلى الشارع بروح الإصلاح وبنفس طويل من التدرج في التغيير، أكثر من روح الثورة الاستثنائية، التي تتسم بغليان الثأر وحنفوان التدمير كالثورة الفرنسية والبلشفية .. فعلى سبيل المثال لم تنص مبادرة الخليج بين طرفي الحكم وممثلي الثورة في اليمن على حظر نشاط سياسي لأي من أفراد النظام السابق، بما فيهم رئيس الجمهورية، بل لقد نصت على تقاسم الوزارات الحكومية مع النظام السابق بنسبة 50 في المائة، والأعجب من كل هذا أن تنص هذه المبادرة على أن يصدر مجلس النواب، بمن فيهم المعارضة القوانين التي تمنح الرئيس ومن عمل معه خلال فترة حكمه الحصانة من الملاحقة القانونية والقضائية؟! .. ثم عندما تم التقاسم كان عضو الحكومة من المعارضة الثائرة يقيم حفلا توديعيا للوزير السابق (المخلوع) ويقلده عقود الفل؟! بعد سيل من الدماء والتضحيات والمآسي .. وهكذا رضوا من الغنيمة بالسلامة .. وودوا أن غير ذات الشوكة تكون لهم .. ورجوا أن لا يفقد تغيير المنكر إلى ما هو أنكر، واقتنعوا بثورة بالنقسيط المريح، تبدأ بتغيير التصور التأيهي للسلطان إلى مبدئية جواز معارضته، والاعتراف بقصوره البشري، قبل أن يتجرؤوا في الاستطالة على طبيعة وجوده .. فهذا في عقلها الباطن كبير وكثير .. غير أن بنية الحكم التسلطي في هذه المنطقة رأى في هذا الحد الأدنى من الحراك بدرجة الكفر بقدس الأقداس .. فالشعوب في عيونهم ظلت بلا قدر ولا تقدير .. فمن هذه الأمة حتى تمارس أبسط حقوقها على مالك مصيرها وولي نعمتها؟ لا شيء.. فكان أن رفض الطغاة هذه الثورات المجازية .. ثورات الشراكة في الإصلاح .. وكادوا لها بثورات مضادة دموية خائنة، وغادرة، وحقيرة، ورفعوا شعار نحن أو الدمار .. فأنت نتائج هذا الاستكبار على الجميع ثم ذهب المستبدون بن علي في تونس، والقذافي في ليبيا .. ومبارك في مصر .. وعلي صالح في اليمن، في حين بقيت لعنة رفض ثورات شعوب مقهورة سلمية تعصف بالواقع المبني على شفا جرف هار؟

فليت شعري ماذا فعلت هذه الشعوب المغلوبة على أمرها لتواجه بكل هذا الظلم أكثر من قولها إما اعتدلت وإما اعتزلت .. وهل كلمة ارحل تقال في وجه حاكم غير محكوم طامة كبرى؟ للأسف نعم هي كذلك عند الحاكم العربي ربيب المحتلين فهو (لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك) تعالى الله

.. أجل صاروا هم قدس الأقداس، لا تسألوهم عن الكفر بالله، فالناس أحرار في إيمانهم .. فعندهم حرية الارتداد عن الدين مكفولة وموضع نقاش .. ويمكن حرية شطب نصوص من القرآن إن لزم الأمر .. ومن يرد أن يمارس حرية معصية الله فأمامه كافة التسهيلات إن لم يكن في الداخل باستقدام (وسائل الترفيه)، فمواخير الغرب في انتظار دولاراته، وليس ذلك عند الحاكم إلا مؤشرا على استقامة المواطن .. وصلاح سريرته .. وخلوه من تهمة الإرهاب .. إنما أن يتركوا حكم الحاكم وطاعته فذلك هو الارتداد الذي يوجب إقامة حد الردة الجماعية عليهم .. فمعارضة الحاكم عندنا هي التي تعني المروق عن الدين .. وهي التلمة الحقيقية في جدار الثوابت وهي شق عصا الطاعة .. وإن شق عصا (المتسيد) لتجريد يده من آلة الجلد وتكريس العبودية، فبماذا يجلد ظهورهم، ويسلب أموالهم بعد شق عصاه؟ .. وبماذا يسوقهم سوق القطيع والأغنام إلى حظيرة السمع والطاعة، دون قيد ولا شرط؟ .. وبتحريف جائر لمعنى الحديث (وإن جلد ظهرك وأخذ مالك) .. على أنهم يرهبون بسيف (الإرهاب) كل من يتسبب في هز قواعد كرسي الحكم بالإشارة أو بالعبرة .. فمن أنس في نفسه الرغبة في الحرية والتحرر فهو إرهابي إخواني خطير خارج من الملة، ولديهم سدنة المعابد يعملون في مشاغل فتاوى مفصلة حسب المقاس، فيأتي واعظ أرعن لا يستحي من الله ولا من خلقه يسمي كل حاكم يجلس على كرسي الحكم ولي أمر حتى وإن كان متغلبا، إلا جماعة (الإخوان المسلمون) هكذا بالتحديد .. يحكم لكل البشر بحق الحكم والتغلب إلا لجماعة تخالفه في التوجه والرأي .. وكل انحراف هذه الجماعة في فتواه يتبلور في عدم لحس شسع نعل ولي الأمر وسلطان الرقص والزَّمْر، والقضية الأهم ليس في جماعة يراد إخراجها من المشهد بل في أصحاب هذا الدين الجديد الذي صار يحرم ما أحل الله ويحل ما حرم الله وفق مزاج الحاكم الخائب .. وبمثل هذه الفتاوى أصبح رئيس منتخب من الشعب المصري متهما بتهمة الخيانة العظمى؛ لأن الشعب المصري أعطى ما لا يملك لمن لا يستحق، انتخب محمد مرسي الإخواني وهذا شخص لا ترضى عنه اليهود ولا النصارى .. لذلك اتهمته سلطة الانقلاب السياسي بالتخابر مع دولة قطر؟ وحركة حماس الفلسطينية؟ وصار التضامن الثوري والتحرري مع حماس (الإرهابية بزعمهم) ضد إسرائيل معناه تهديدا للأمن (القومي) الإسرائيلي كدولة .. وخيانة عظمى لمصر بسبب ربط المصير بالمصير، وهذا هو وجه ندالة ودياثة الثورات المضادة أنها متصالحة مع الغاصبين .. سواء الغاصبين لكراسي الحكم، أو الغاصبين للأوطان .. لست من الإخوان، ولا يليق بأكاديمي وصاحب رسالة أن يكون في موقع التابع، بل في موقع الأبوية العلمية، ومن هذا الموقع يحكم على الأشياء، فمن شيطان هذه الجماعة هم الحكام انفتحت مصالحتهم الوثنية مع مصلحة الخارج، وليست هذه الجماعة عندي بتهمة ولاشتيمة بل أراهم بقية الكرامة، لهم أخطاء ولكن ليس عليهم جرائم، ودوما حديثنا عن أصحاب الجرائم التاريخية وأبطالها الذين هم مجال نضالنا، ولولم تكن هذه الجماعة آخر الحراس على آخر المعازل على ما عليها من ملاحظات تحدثت عنها كثيرا في

هذا الكتاب، ما اصطف ضدها الحكام المتخابرون، والمليشيات الشيعية، والقبوريون، والعلمانيون، والليبراليون، واليساريون، وأصحاب الضلالات، والمنفلتون، وكل سقط المتاع، وبعض السلفيين الذين أصبحوا ظهيرا للمجرمين، يحاربون في اليمن ضد شعبهم ووحدته وشرعيته باسم محاربة الإخوان؟ وفي خندق الحلف الصهيوني المعلن؟! وبعلمهم أو بجهلهم يواجهون القوى الوطنية بالحديد والنار ليمهدوا للتدخل الأمريكي والفرنسي لاستغلال الثروات النفطية والغازية لهذا الشعب الفقير .. فأبي قميص تقمصوه بالمقلوب باسم السلف؟ .. يا لها من مواقف تحار منها العقول وتشيب لهولها الولدان!!

ويبقى وجع القلب ليس من جمهوريات تميلت .. بل من ملكيات تألّفت .. وصارت تحشر أنفسها فيما يختاره الناس وتفرض على الأنظمة الجمهورية ملكيات جبرية مستبدة شعار حكمها نحكمكم أو نقتلكم .. ليس من حق الجمهوريات تغيير نظام الملكيات كنوع من نظام الحكم المتفق عليه بالتعاقد بين الحاكم والمحكوم .. كما ليس من حق الملكيات فرض نظامها على الأنظمة الجمهورية وإن في صورة (جملكية) مشوهة .. فقد تعايشت الملكيات الغربية مع الجمهوريات بشكل نموذجي ولم يتدخل أي نظام في فرض نفسه على نظام حكم آخر قبل به الجميع .. وبقيت الجمهوريات جمهوريات .. والملكيات ملكيات .. والدول الصغيرة صغيرة .. والكبيرة كبيرة في جو من التعايش والتكافل لأن الله لم يخلق الناس بصمة واحدة، ولا قالبا واحدا يجب أن يتطابقوا في كل شيء وإلا تم تخريب الحياة .. فالتنوع اختيار إلهي .. أما نزعة الفرض والإلحاق فنزعة احتلالية استعمارية مرفوضة .. ومن يقبل بذلك لغيره فقد اختار الشيء ذاته لنفسه .. ويضاف إلى سياسة حشر الأنف، القيام بأدوار وظيفية لدول الاستخراب الغربية التي شعرت بالذعر الكبير من ثورات الاستقلال العربي التي توشك أن تخرج المنطقة من بيت الطاعة، فجندت هذه الدول الذيلية المستلحقة لقمع ثورات العدالة المنشودة، وصارت حفاظات قدرة تحمي مصالح أسيادها الذين سموا عقولها بأن هذه الثورات ستأتي لابتلاع عروشهم .. صحيح ربما تعلم حكام الخليج من ثورات التغيير دروس الحرية لشعوبها، ولكن لكل بلد وشعب الحق في اختيار نظامه، وما ظهر من أصوات ثورية حماسية ترعد وتزبد ضد دول الخليج العربي إنما تمثل نفسها وأصوات ذاتية الدفع والدافع، وليست حجة على بقية خلق الله.



إظهار قوة الحق بقوة النفي

كان الشعب الألماني في فترة الرايخ الأعظم يحب قائده أدولف هتلر الديكتاتور حتى الموت .. أحب زعيمه؛ لأنه منحه لقب الجنس الأرقى .. والدم الآري النقي الأزرق .. واجتاح تحت الشعور بالسيادة الاتحاد السوفيتي وفرنسا .. وكان يضرب في عمق دول الحلف وامتلك ما بين 1935م و1945م أقوى جيش في العالم .. وأنتج 4100 طائرة و35000 طيار في فترة الإعداد للمواجهة .. وقبل أن ينتحر بيوم أعلن عن امتلاك ألمانيا لعشرة أسلحة كفيلة بالسيطرة على العالم .. لذلك كان يجمع حوله الملايين من أفراد الشعب في اليوم الواحد؛ ليثبت حب الشعب الألماني لزعيمه صانع المعجزات.

وأحب المصريون عبد الناصر .. وكانوا يحتشدون بالملايين لسماع خطباته؛ لأن مصر بقيادته واجهت العدوان الثلاثي أمريكا وبريطانيا وإسرائيل في عام 1956م وانتصر عليها .. ثم لما هزم في حرب 1967م أعلن تنحيه عن الحكم وبدلاً من أن تخرج المليونيات تطالب بعزله وبالتحقيق في سبب الهزيمة خرجت تطالب ببقائه وتهتف بحياته .. ثم إنه غاب عن المشهد بعدها بثلاث سنوات وهو في بداية الخمسينات من عمره بطريقة أيضا لم يعرف الشعب عنها شيئاً .. لكنه بقي يعرف الحشد المليونى فخرجت الملايين في جنازته .. ثم غيب العرب صورة بطل حدثت على يده النكسة .. وقس على ذلك الكثير من النماذج.

فالحشد تحت إيقاع الانتصارات .. وسيل الإنجازات البطولية .. أمر متوقع وفي ظل الحكم الشمولي، وليس الديمقراطي .. فالديمقراطيات تحاكم الحكام على الأخطاء ولا تمجدهم على الإنجازات لأن ذلك من واجبه .. بل إن الشعب البريطاني أسقط بطل انتصارات الحرب العالمية الثانية رئيس وزرائها تشرشل وفاز رجل مدني آخر في الانتخابات .. معللاً ذلك أن تشرشل كان بطل حرب وبريطانيا تحتاج إلى بطل سلام .. يعني ببساطة موظف وانتهت خدمته.

ودعنا نقول إن العالم الثالث يعيش أزمة زعامة .. ويتعطش لوجود بطل قومي يلتف حوله ليفعل شيئاً .. ليغير في الناس واقعا رتبيا .. ليرسم في صفحات المجد ولو سطرا مشرفا .. فينتشل الواقع المأزوم والمتعثر إلى واقع يشع فيه نور الأمل .. فأن يبادر شعب إلى تشجيع المجيدين فذلك أمر أيضا مبرر .. إنما أن يصبح الالتفاف والتحميد حول أبطال صنعوا الهزائم والفقر أيضا .. فإنها رسائل مأساوية من شعوب تعاني انعدام تفكير، وغياب رؤية، وانسحاق آدمية .. تصفق بدون وعي لفارس بلاجواد .. فوق أنها رسائل عصبوية جاهلية تعطي مفهوم الولاء لزعيم حرب لجهة دون أخرى بين

فئات الشعب نفسه عندما يكون ميدان فروسينته الشعب الذي يقوده .. ففي العالم الثالث أكثر انتصارات الزعيم هو في سحق شريحة معارضة يتولى أمرهم .. في حين لم يشتغل هتلر ولا موسوليني بضرب شعوبهم بل بتحقيق ما يرون فيه المجد لشعوبهم .. ولكن على حساب كرامة واستقلال الشعوب الأخرى، فدخلا إلى صلة الرحم من بوابة التنكيل بأخرين أبرياء .. وأسوأ من مثل هذين المستبدين من يفرق بين فئات شعبه لتحقيق مجد طائفة على أخرى .. أو مجد عائلة وسحق بقية أفراد الشعب .. مثل هذا ليس بزعيم أمة ولكن مجرم حرب .. وطالع نحس .. وبوابة شر وفتنة، لاسيما أن تكون الشريحة التي نالها بطشه سلمية غير محاربة .. وهل بقي من هو أسوأ من هذا السوء؟ الجواب: نعم. إنه ذلك الذي يذل شعبه ليعز شعبا آخر هو عدو لشعبه .. ويهدم بنيان ثقافة شعبه ليبنى بنيان ثقافة ذلك الشعب المخالف .. وهذا الصنف يتمثل في طابور العملاء والمنافقين جردان (الاستعمار) وكلاب حراسته في منطقتنا وأعني به دولة الكيان الغاصب ومن وراءها .. فهل لهؤلاء أنصار وجماهير أيضا؟ الجواب: لا يخلو حاكم من أن يكون له أنصار ومؤيدون بالغ ما بلغ من سوء فلا يزال هناك المنتفعون، والمضللون، والخائفون .. إلخ

فيقوم بحشد أنصاره كسيف سياسي يهدد بها بقية الشرائح المناهضة لسلطته .. لذلك كثرت بدعة حشد الأنصار في دول العالم الثالث، كدليل على ما يتمتع به الحاكم غير الديمقراطي من تأييد، فإذا امتلأت بهم ساحة من ساحات العاصمة، أو شارع من شوارعها، عد هذه الساحة هي كل الخارطة الوطنية وهي كل الشعب، وعد هذا الحشد رسالة تأييد له وإعادة تفويض سياسي لحكمه .. وعلى بقية الشعب أن يلتزموا الصمت فهم مجرد أقلية مأجورة ومشاغبة.

وليس التحشيد على أية حال بدليل عافية له .. بل دليل خلل جسيم في نظام حكمه ونظام تفكيره وذلك للآتي:

أولاً- لاتخرج الشعوب الديمقراطية الحرة ذات المؤسسات الوطنية غير العائلية ولا الفردية لتمجّد حاكما أو زعيما موظفا عندها، يعمل براتب شهري لتجدد له الولاء السياسي إلا أن يكون في إطار تنافس حزبي .. فيكون التحشيد للبرامج .. أما الفرد فهو أداة وظيفية لايلهث الناس وراءه إلا أن يصبح صنما مقدسا لذاته.

ثانيا- من ينقل هذه الحشود؟ ومن ينفق على أطنان الصور واللافتات؟ من مال من؟ فإذا كان من مال الزعيم فمن أين جمعها؟ وإن كانت من مال الشعب فمن أباغ له ذلك؟ .. فتكاليف التحشيد من مناطق مترامية الأطراف يضع سؤالاً لدى الشعوب الحرة (من أين لك هذا)؟

ثالثا - الحشود الجماهيرية وراء الزعيم إن لم يكن صانعا للمعجزات الاقتصادية، أو الزراعية، أو العسكرية، إن صح التعبير فلا يمكن تبريره بغير حالة غياب الوعي لدى هؤلاء المفتونين أولا .. وحالة الفراغ والبطالة التي يعيشها الناس ثانيا .. وحالة الترهيب والترغيب الواقعة عليهم ثالثا .. وحالة التغرير والتدجيل الذي يمارس ضد مداركهم رابعا .. فما مناسبة الالتفاف والتهاف بروح زعيم أخذ من شعبه أكثر مما أعطى .. وأورده المهالك إن لم يكن مرد كل ذلك لهذه الأسباب.

رابعا - التحشيد الجماهيري عن طريق الأنظمة سنة قديمة استخدمها المستبدون على رأسهم قائدهم الأول فرعون (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) (1) (فَحَشَرَ فَنَادَى) (2) .. لماذا؟ يريد بالكثرة العددية هزيمة الحق وأهله وإعطاء رسالة بالعلو فيجعل كثرة الجموع دليلا على الحق وقوة الحجة: (فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى) (3) ويجعل القلة العددية دليلا على باطل خصومه وضعف حجتهم (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) (4).

وإنما العلو يكون بقوة الحق لا بحق القوة العددية .. وبلغة الحقائق والأرقام لا بالقدره على النفير والتحشيد .. فقد وفر الجوع والفقر والفراغ حالة عطالة وتسكع، فثمة الكثير بدافع الفضول، وحب الاستطلاع، وتبديد الوقت، والطمع فيما عند صاحب الشأن، أو الخوف على فوات المنافع من يتجاوب مع أي دعوة لأي عابر سبيل ولا يمثلون مؤشر رأي، ولا حالة رضى أو سخط، كما قد يعد في الدول المتقدمة والشعوب الواعية.

والجريء الشجاع هو الذي يقبل بإظهار مكانته بين أفراد الشعب من خلال الاقتراعات السرية والانتخابات المحايدة والنزيهة، وليس بملء الشوارع بغناء مغبيين مغلوب على أمرهم.



(1) [الشعراء:53].

(2) [النازعات:23].

(3) [طه:64].

(4) [الشعراء:54].

صناعة المزاج العام

لماذا يسعدُ الناس في الأفراح .. ويحزنون في الأتراح؟ ويشتاقون للقيام بالبطولات الحربية عند مشاهدتهم للعروض العسكرية؟ وغير ذلك من التساؤلات في مواقف مشابهة .. السبب في كل ذلك يعود إلى العواطف الإنسانية، والثقافة المتوارثة، وكذلك إلى البيئة التي ملئت بالمؤثرات الخارجية، ذات الرسائل العصبية والنفسية المعينة، والمؤثرات البيئية قد تصنع مزاجاً ما بطريقة ما، وهي التي نحن بصدد الحديث عنها.

فمثلاً يفرح الناس في الأعراس والأعياد للمعاني الراقية التي تلبسوا بها .. كذلك لأنهم يستقدمون لمزاج السعادة مؤثرات خاصة ملازمة لإنتاج السعادة .. تشترك فيها مؤثرات صوتية، وسمعية، وشمية، وذوقية، من قرعيات .. ووتريات .. ومنفوخات .. وإطلاق الأهازيج والأنغام .. والرقص .. ولبس الجميل من الثياب .. والتطيب .. والتوسيع على الناس بأطياب الطعام والشراب .. فهذه كلها ارتباطات شرطية لإنتاج مزاج معين هو (الفرح)، ففيما ترى من حولك، وفيما تسمع، وفيما تشم، وفيما تأكل تجد رسائل خاصة كلها تدعوك لتغيير مزاجك إلى الفرح؛ لأن هذه الأشياء مرتبطة بموقف معين هو السعادة، فالنفس تنهياً .. والمشاعر تتفاعل .. والروح تنتشي .. والخيال ينشط لإنتاج متطلبات السعادة، بل ومعدل الصحة ترتفع لانخفاض منسوب القلق والتوتر في هذا الجو المتفائل.

وها هو النبي - صلى الله عليه وسلم - يهتم بالارتباط الشرطي، لصنع بيئات معينة، فقد دخل أبو بكر - رضي الله عنه - وفي بيت النبي جاريثان تغنيان في يوم عيد فنهاهما أبو بكر فقال النبي: "يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا"⁽¹⁾.

أجرى عالم وظائف الجسم (إيفان بافلوف) الروسي تجربة عملية على الارتباط الشرطي بين المؤثرات الخارجية ووظائف الجسم، وكان طرفاً التجربة، الأول: (صوت الجرس + قطعة لحم) الثاني: (الكلب) .. فكان بافلوف حين يقرع الجرس يعطي الكلب قطعة لحم .. يأكل الكلب في البداية قطعة اللحم بدون ظهور علامات تفاعل غريزي .. ثم لما تكرر وجود قطعة اللحم مع قرع الجرس، وجد أن لعاب الكلب يسيل كلما قام بقرع الجرس، والكلب يتهيأ لاستقبال قطعة اللحم المصاحبة .. فمن أين جاء إفراز اللعاب والتجاوب الغريزي وهذا التهيؤ لاستقبال قطعة اللحم؟ الجواب من المؤثر الصناعي (الجرس) الذي تم ربطه بقطعة اللحم.

(1) (رواه البخاري).

وأنت تلحظ الشيء ذاته يحدث حين دخولك المطعم قبل الشعور بالجوع، فعندما تشم روائح الشواء، وتسمع صرير الملاعق والأطباق، وترى الإقبال على مضغ الطعام من الآخرين .. عندئذ تبدأ الإنزيمات بالفرز للتهيؤ لاستقبال الطعام، فتشعر بعدها بالجوع والرغبة في تناول وجبة الطعام؛ لأن هذه المسموعات والمشمومات، مؤثرات مرتبطة بالطعام.

كذلك لا يمكن وأنت تجد الناس من حولك قد انخرطوا في الحزن مثلا .. ولقّتهم غلالة الانكسار .. وذرفوا الدموع .. وتوشح الناس ثياب الحزن .. ومضوا يستعيدون جميل سيرة الراحل .. وتعيد مناقبه .. لا تستطيع سوى أن تحزن لحزنهم، أو على الأقل لن تكون مبتهجا في جو كهذا.

من هنا أي فعالية يراد لها النجاح فإن أحد أهم شروط نجاحها هو استدعاء الارتباطات الشرطية المتعلقة بها، لتهيئة النفوس للتفاعل الإيجابي معها، وأي فعالية تمتلئ بمؤثرات عكسية يقل مفعولها وقد ينعدم لأن المزاج منصرف عن الهدف إلى غيره، هل يمكن أن تبني مدرسة وسط سوق شعبي يعج بأصوات الباعة؟ البيئة غير مناسبة، والذهن سيبقى منصرفا إلى المؤثرات الخارجية.

وتلك هي حالات (البيئات الخاصة) وبنظرية الارتباط الشرطي أيضا يتم (صناعة المزاج العام)، سواء في الخير أو الشر .. فقد يتم صنع بيئات ذات رسائل ومؤثرات نفسية وعصبية معينة، وذلك من أجل تهيئة المزاج العام للتفاعل معها لهدف ما، أو لأجل صرفهم عن أخرى غيرها، قد تكون سياسية، أو اقتصادية، أو عسكرية، أو فكرية، أو اجتماعية الخ .. فمثلا لو أراد الحاكم أن يصرف مزاج الشارع إلى شيء غير شؤون الحكم .. أو حتى شيء غير العمل الجاد والمثمر الذي يتطلب نفقات وتفرغا، ويقود إلى رفع منسوب الوعي .. فما عليه إلا أن يساعد على إشاعة جو مشحون بالتنافس الرياضي الحاد مثلا، من خلال تهييج الشارع بالمعلقين الجهوريين المبالغين في تنعيم الصوت وتقخيمه وتهويل الفوز أو الخسارة، فيصعدون من تقييم الموقف، ويجعلون في الفوز والخسارة حياة أو موت، ونكون أو لا نكون .. ويكفيها هذه اللعبة ما فيها من مصطلحات حربية تكتمل بها أركان المعركة الحقيقية مثل ميمنة .. ميسرة .. قلب .. دفاع .. هجوم .. وبطل الدوري .. وشيئا فشيئا يصبح في اللعبة معسكران أصدقاء وأعداء، بينهما ولاء وبراء ومفاصلة ومقاطعة .. ويستمررون يملئون الجو بحديث الرياضة من ليل ونهار .. وفي مختلف القنوات والصحف .. بالندوات والتحليلات .. وحفلات التكريم والمقابلة مع النجوم .. وبهذا يعيش الشارع مع هذه اللعبة مشدودا متوترا طوال الوقت، وفي حالة انقسام .. فما يخرجون من دوري إلا ليدخلوا في آخر، وتستمر حالة الاستنفار وقلق الفوز والخسارة والصعود والهبوط، وسيشترك طويل العمر في الاهتمام والتصريحات القومية التي تجعل منه بطلا تعشقه الجماهير.

وقد يكون حزنك لا على الاهتمام بالرياضة لتتجح وترتقي وتستمتع الجماهير بمهارات وجمال وإبداع، بل على طغيان هذا المزاج الصناعي الذي يصبح حديث المجالس وأهم قضايا الساعة في سائر الأوقات .. وقس على ذلك التهييج السياسي .. أو الحربي .. أو الطائفي .. أو الجهوي .. أو السلافي .. أو الفني .. الخ .. والصحيح أن الحكومات لا ينبغي أن تتخرط في تغذية السجلات الداخلية إن كانت حكومات مسؤولة، فهناك خسائر فادحة تدفع على حساب هذه المسألة أو تلك .. وهو شغل الناس وإلهائهم في غير مقومات الحياة الأساسية وبناء الأوطان.

ويكون التأثير على المزاج العام مركزيا أكثر من تأثير القاعدة على رأس الهرم .. وهناك مقولة قديمة تقول: "الناس على دين ملوكهم".

في الدول الجادة يُصنع المزاج العام ولكن في البناء، فإذا دخل العام الدراسي مثلا .. هيأت له الجو العام، من الأناشيد المدرسية الجميلة، ولقطات للأطفال والشباب وهم في طريقهم للمدارس والمحاضن، تعلوهم السعادة والغبطة .. وأقامت له المقابلات والندوات لمعرفة متطلبات نجاح العام الدراسي .. وإعطاء التعليمات للمدرسين والطلاب وأولياء الأمور .. ويدخل الطالب عندما يدخل مدرسته ليجد المؤثرات الخاصة للمدرسة مثل الإذاعة الصباحية .. والوسائل التعليمية المُعينة في زوايا المدرسة .. والمجسمات المعروضة .. والمشجرات الحائطية .. ويسمع أصوات المعلمين، والمناقشات بين الطلاب ومعلميهم .. فإذا سلك العام الدراسي أقام المسؤولون دوري المسابقات المنهجية بين المدارس .. وشاركوا في حفلات التكريم .. وافتتاح معارض الوسائل والاختراعات العلمية .. وأقاموا أعيادا لتكريم المعلمين والمتميزين .. وحرّموا وجرّموا الغش .. أو التلاعب بالدرجات أو منح شهادات وأصدرت في ذلك عقوبات صارمة ورادعة .. كل هذا يصنع بيئة خاصة هي الإقبال على تلقي العلم بنفسية وعقلية خاصة، واستجابة عصبية خاصة، وتوجه قومي عام، من هنا يكون النهوض وتعلو صروح الأوطان.

والعكس صحيح أنى لطالب أن يجد بيئة تعليمية باعثة على التلقّي، وجوها مكهرب بمزاج عام محتقن بفلسفة الموت والاحتراب والتدافع - على سبيل التمثيل - والأطراف المتصارعة تملأ ذواكر الطلاب بأهازيج القتال واسترخاض الحياة .. ليتمثلوا البطولات ويتعشقوا حمل البنادق، ولتجد الأطفال في الحوار قد نصبوا متاريس اللعب واعتمروا ألعاب الرشاشات يفلدون المتصارعين؟! وصار المنخرطون في التعليم تتقاذفهم أمواج الدعايات العدمية. مشوشي الفكر مضطربي الرؤى، وقد ينشغلون باستقبال الضحايا. أو المساعدة في تضييد الجراحات، وربما وجودوا ضغوطا لحمل السلاح بدل الكتاب، وربما جرى تلاعب واسع في التعليم والتدخل في تعديل النتائج كجزء من غنائم الطرف

القوي، لاسيما في البيئات التي لا تقيم للتعليم وزنا .. فهل يمكن في بيئة كهذه أن تترك أي مزاج إيجابي للتعليم ومن ثم تقود واقعها إلى مستقبل أفضل؟ بالطبع لا يمكن ذلك .. ولك أن تصدق أو لاتصدق أن قناة الإخبارية الرسمية لدولة خليجية في شهر يوليو من 2022م تقيم ندوة مع ضيوف لنتناقش (فضيلة) انتشار الألعاب الالكترونية بين الشباب ويفخر المذيع أن نحو 19 مليون من الشعب وما نسبته من 80-90% من الشباب مدمنون على اللعب الالكتروني، ويعدون هذا ميزة تستحق الدعم والتشجيع، ثم لا يخبرونك لماذا هي ميزة تستحق اهتمام الدولة؟ وتقرأ في الأخبار كم أن الدولة تولي اهتمامها في تطوير هذا الجانب وأن ثمت صناعات محلية في طريقها لمواجهة احتياجات السوق؟؟ .. قد يكون فيها بعض المهارات، ولكن فيها السم الناقع .. فيها تدمير الجيل من نواحي لا تُحَدُّ ولا تُعد، وإنما يلجأ إلى مثل ذلك حاكم نغل مغفل يريد أن يلهي المجتمع عن قضاياها، وهذا إلى جانب كونه تفكيراً غاية في البدائية والسذاجة هو خيانة كبيرة للشعب، فهل المجتمع إلى صناعة هذا المزاج الذي يهدر الوقت بلا هدف أحوج منه إلى بناء جيل يعرف رسالته في الحياة، فيزيد فيها بدلا من أن يكون زائدا عليها؟



من هم أولو الأمر الواجب طاعتهم؟

إن (ولي أمر المسلمين) ليس مجرد لقب يمنح بالغلبة أو بصدور (فرمان) ولكنه رعاية والتزام، وعليه فولي أمر المسلمين الواجب طاعته هو القائم بأمرهم، فمن صار وليا لأمر الكافرين، محبا للمخالفين، ناصرًا لقضايائهم، فهو ولي أمر غير المسلمين .. فلا ولاية له ولا طاعة، قيل لسفيان الثوري إنني أخيط الثوب لجنود الظلمة فهل أنا من أعوانهم؟ قال: "بل أنت من الظلمة أنفسهم" .. وليست طاعته في باطله إلا مدًا له في الغي ومساندة له في الضلال .. ماذا بقي للمسلمين فيه حتى يطيعوه؟ غير أن يجلد ظهورهم، ويأخذ أموالهم، وينتهك أعراضهم على البث المباشر كما تقول الجامعة والمدخلية؟ فليسموه (جالد ظهور المسلمين إذن) إن مهمة (ولي أمر المسلمين) هو حماية ظهورهم، وحفظ أموالهم، وصون أعراضهم وليس استباحتها.

لقد أبى الله تعالى أن ينال عهدُه الظالمين، فالظالم لا يمثل عهد الله .. وليس بوكيله ولا بظله في أرضه، بل هو ظل الشيطان ووكيل أعداء الإسلام .. فحين قال المولى تعالى لإبراهيم عليه السلام: (إني جاعلك للناس إمامًا) قال: (ومن ذريتي) أي اجعل هذا التكريم في ذريتي إرثًا بدون اشتراط أهلية العهد الإلهي قال الله: (لا ينال عهدي الظالمين) فليس الجعل مفتوحًا بل مشروطًا بالعدل، وليس ولي أمر المسلمين بالتغلب، بل باقتضاء شروط الحكم العادل الذي نص عليه الله تعالى.

من هنا فإن السلفية الجامية والمدخلية التي توالي المنافقين وتقتل المسلمين تحت رايتهم في اليمن وليبيا وأي مكان وجدوا هي ظهيرة للمجرمين، وجماعة يقودها جواسيس الظالمين .. وعصابة شريرة متاجرة بدين رب العالمين .. معادية للأمة ضمن حلف إبراهيم الذي يقر لليهود باغتصاب أراضي المسلمين ومقدساتهم سواء عرفوا أم لم يعرفوا .. ولن تشفع لهم عند الله لا لحي طويلة ولا أثواب قصيرة .. ولو كانت المسألة معاداة جماعة (الإخوان المسلمون) فما بال ولي أمرهم يوالي اليهود ويتقمص دور أبي رغال لاحتلال أرض المسلمين وتمكينهم من رقابهم، وإنفاق المليارات في سبيل تقوية شوكتهم وتوهين عرى المسلمين وتمزيق وحدتهم!؟

لقد ساهم هؤلاء في تفتيت دول الربيع العربي وفي ارتكاب الفظيع من المخالفات الشرعية، ويدعون العمل بمنهج السلف الصالح، فعن أي من السلف الصالح يأخذون منهجهم؟ .. عن الحسين بن علي الذي خرج على يزيد؟ أم عن عبد الرحمن بن الأشعث الذي خرج على عبد الملك بن مروان؟ أم

عن أحمد بن حنبل الذي خرج عن هوى المأمون والمعتصم في فتنة خلق القرآن؟ أم عن شيخ الإسلام بن تيمية الذي خرج عن هوى الناصر محمد بن قلاوون، أم عن العز بن عبد السلام الذي خرج عن هوى الملك الصالح إسماعيل في موالاته للفرنجة؟ هؤلاء العظماء أليسوا أيضا سلفا صالحا؟ وهل بخروج أولئك على ولي الأمر بالسلاح أو بالنصيحة كفروا؟ .. راجعوا دينكم.

ثانيا- أولو أمر المسلمين - يا أعوان الظلمة - هم علماء الأمة بدرجة أولى .. العلماء الذين ساعدتم الطغاة في سجنهم وقتلهم تحت لافتة طاعة ولي أمر المسلمين قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)⁽¹⁾. قال الفخر الرازي: "المراد من أولى الأمر العلماء في أصح الأقوال؛ لأن الملوك يجب عليهم طاعة العلماء ولا ينعكس"⁽²⁾ .. وقال: "لا نزاع أن جماعة من الصحابة والتابعين حملوا قوله: (وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) على العلماء"⁽³⁾ .. وقال عطاء: عن الحسن في قوله: (وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)، قال: هم العلماء"⁽⁴⁾.

فالسطة العليا في رد الأمر إلى الله والرسول هي للعلماء؛ وبخاصة علماء الشرع حين يكون للدين مقالة في قضية ما، وإلا فكل العلماء مرجع (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) (... وَمَا يَعْظُمُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)⁽⁵⁾ فهم وحدهم القادرون على استنباط الأحكام من مظانها، يقول تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَاوَدُّوا رُدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ (...)⁽⁶⁾ تأملوا في قوله: (وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فمن أولو الأمر هؤلاء القادرون على الاستنباط إن لم يكونوا هم العلماء؟

وبسبب هذا التفرد في الدراية رفع الله قدر العلماء على من سواهم فقال: (... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ...) (7) .. وفيه إشارة إلى أن أحدا لا يمكن أن يساوي في مقامه وسلطته مقام العلماء وسلطتهم وبعد نظرهم .. ولذلك فسلطتهم هي السطة العليا فوق سلطة الحاكم العادل .. كيف لو كان حاكما ظالما!.

(1) [النساء: 59].

(2) (تفسير الرازي ص 324).

(3) (المصدر السابق (1476/1)).

(4) تفسير الطبري (501/8).

(5) [العنكبوت: 43].

(6) [النساء: 83].

(7) [الزمر: 9].

غير أن علماء السلطة يرون أن أولي الأمر هم الأمراء وحسب، وأكبروا من سلطة الحاكم أيما إكبار .. وعظموه أيما تعظيم .. وعطلوا آيات الحكم بغير ما أنزل الله، في مقابل لقب ظل الله في الأرض، حتى وإن بات ظل الشيطان في البر والبحر .. مستدلين بظاهر حديث "اسمع وأطع وإن أخذ مالك وجلد ظهرك" وبهذا الحديث الذي فرغوه من سياقه تفافزوا يقدمون قرابين الطاعة في معبد ولي الخمر والرقص والزمر .. وأجرنا الله في مصيبتنا .. نعم لقد أخذوا الحديث على علته فزيادة رواية مسلم "تسمع وتطع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك" ضعيفة ضعفها الحفاظ منهم الدار قطني في كتابه (الإلزام والتتبع) قال: "هذا عندي مرسل"⁽¹⁾ كما أن للحديث سياقاً ظرفياً خاصاً، فوق أن له معارضات منها الحديث المتفق عليه من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ قَتَلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ" وما جاء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: «فَلَا تُعْطِيهِ مَالَكَ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «فَاتِلُهُ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «فَأَنْتَ شَهِيدٌ»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «هُوَ فِي النَّارِ» واللفظ عام دون تقييد.

إن العدالة تكاد تكون هي ملخص الرسالات قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...) ⁽²⁾ فكيف يشرع الإسلام للظلم، قال ربعي بن عامر رضي الله عنه لرسول الله: "ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخره، ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام" وهذا النبي صلى الله عليه وسلم وهو في حالة مرض موته يدعو الناس إلى الاقتصاص منه، إن كان قد جلد ظهر أحد، أو شتم عرض أحد، أو أخذ مال أحد بدون حق فليستقد منه، دليل على حرمة فعل ذلك من الحاكم في حق المحكوم، عن الفضل بن عباس رضي الله عنهما قال: جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت إليه، فوجدته موعوكا، قد عصب رأسه، فقال: «خذ بيدي يا فضل» فأخذت بيده حتى انتهى إلى المنبر، فجلس عليه، ثم قال لي: «صح في الناس» فصحت في الناس، فاجتمعوا إليه، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، ثم قال: «يا أيها الناس، إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالا، فهذا مالي فليستقد منه، ولا يقولن رجل: إنى أخشى الشحاء من قبل رسول الله، ألا وإن الشحاء ليست من طبيعتي، ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ حقا إن كان، أو حللني فلقيت الله وأنا طيب النفس،

(1) [ص 181].

(2) [الحديد : 25].

ألا وإني لا أرى ذلك بمغن عني حتى أقوم فيكم مرارا» ثم نزل صلى الله عليه وسلم، فصلى الظهر، ثم عاد إلى المنبر، فعاد إلى مقالته في الشحاء وغيرها... الحديث (1).

لكن عباد القصور الذين كانوا يشتمون عباد القبور لأنها شرك، صاروا يعبدونها وجعلوا حديث جلد الظهر تشريعا لصناعة الطغيان، وسياجا لحماية أكابر مجرميها، ومنحوا فسادهم حصانة إلهية .. فيطاعون على أي وجه فقط لأنهم حكام .. وبالتالي لا يكون عدلهم في الرعية إلا فضلا منهم ومنة .. وجعلوا من قول كلمة الحق والتحريض على مقاومة المنكر بمثابة (شق عصا الطاعة .. ومخالفة الجماعة .. ومنازعة الأمر أهله) ففتحوا فراغنا لايسأل أحدهم عما يفعل ولا يريهم إلا ما يرى .. فما حاجة المسلمين إلى حكام يحمون ظلهم ولا يحمون المسلمين بعدلهم؟ فإذا كان الجواب أن نصحبهم في العن يهدد البلد فإن التهديد الأول يأتي من السكوت على الظلم بنص كلام الله: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (2) .. لم يقل وأهلها صالحون بل (مصلحون) ولا /وفي أهلها مصلحون/ بل قال و(أهلها مصلحون)، أي كل أهلها .. وما لم يصلحوا جاءهم الهلاك .. وعلماء السلطة يريدون الإصلاح عن طريق الهمس سرا في أذن الحاكم؛ لأن الجهر فضيحة تؤذي مشاعره، وإن قتل الأبرياء، فليس مكنم الخطر عندهم في الظلم ولا المشكلة في المظلوم بل في فضيحة الظالم .. فأين نذهب بقول الله في حق المظلوم: (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ...) (3) فإذا وقع الظلم من الحاكم فللمظلومين أن يجهروا بظلمه؛ لأن تلك حقوق عامة وهو شخصية عامة مسؤولة مسؤولية مباشرة أمام الجميع.

والله تعالى يعلم المسلمين الحرية وعدم القبول بالظلم فقال: (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) (4) أي لا يسكتون على ظلم الباغي ولكن يقتصون ممن ظلمهم، وعلى من تقع المسؤولية؟ ربنا يرد بقوله: (وَلَمَنْ آتَتْهُ بَغْيٌ فَلْيَنْصِرْ بَعْدَ ظَلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (5) ليس على المظلوم سبيل أن يقتص من الظالم لكن السبيل على الظالم لأنه هو السبب .. وهل قرأ هؤلاء آيات القرآن؟ وهل وقفوا عند قوله تعالى: (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) (6) (... وَلَا تُطِيعُ مَنْ

(1) رواه الطبراني في الأوسط (2629).

(2) [هود : 117].

(3) [النساء : 148].

(4) [الشورى : 39].

(5) [الشورى : 41-42].

(6) [الشعراء : 151-152].

أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا⁽¹⁾ كل هذه الآيات ألغاهما علماء ما يطلبه الحاكمون، وألغوا عشرات الآيات تحض المسلمين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل وأطاعوا الحكام المستلحقين في معصية الله وحاربوا المسلمين الأبرياء بمليشيات على الأرض، وانتقلوا من تكفير المبتدع إلى إباحة ابتداع الكفر واستقدام المخنثين وأبطال الجنس (الدعارة) وصار المسلمون يسمعون بالرقص الحلال والخمر الحلال استهزاء بحرمانات الله .. وقعدوا للظلم بنصوص استخذائية منها "أن أعيش ستين سنة تحت حكم إمام ظالم خير لي من بيات ليلة بلا إمام:" وحكم غشوم ولا فتنة تدوم" .. وآخر يقول على القنوات المرئية، لو قتل الحاكم ثلث الأمة لما جاز الإنكار والخروج عليه .. وآخر يقول: لو رأيت الحاكم يزني لمدة نصف ساعة لما جاز لك الإنكار عليه.

وتأسيسا عليه فإن يظلمك الحاكم لا تتكر عليه .. وأن يعصي الله لا تتكر عليه .. وأن يصير مواليا للكافرين لا تتكر عليه .. وأن يخرج من ملة الإسلام ويخرج معه الناس ويصيغ لهم دينا جديدا هو دين إبراهيم وبينى معابد للأوثان لا تتكر عليه .. لماذا؟ لأن الخروج عليه سيغضب الله تعالى عند علماء بلا حدود، لكن الخروج من الإسلام والكفر بالله تعالى لن يغضب الله، فسلطة ولي الأمر صارت فوق سلطة الله تعالى والخروج عليه أظهر من الخروج من الإسلام.

إن البيعة صفقة وعهد بين الحاكم والمحكوم يتعلق بإنفاذه تطبيق أحكام الشرع .. وإقامة ميزان العدل .. وحراسة الدين والدنيا، وحماية بيضة المسلمين من الأعداء .. فإذا غابت هذه المهام فقد استنفذ أغراضه وصار الناس في حل من طاعة من أخل هو بشروطها .. وما على المسلمين بعدها من سبيل .. اللهم اهدهم واهدنا جميعا إلى صراطك المستقيم.



طغيان الصلف على أساليب السلف

المراد سلفية اليوم سواء المتمترسة في خندق الخروج على الحاكم أو خندق الدخول في طاعة الحاكم، فهما سواء في انتهاج العنف مع الخصوم وتبريره، وعليهما غلب التفكير العضلي على العقلي، والرعونة على الليونة، واختصار مسافات الإصلاح بسلوك طريق الإفساد، كأنما أسهل من إصلاح عقل الإنسان قطع الرأس الذي يحمله .. وأسهل من تغيير قلبه تخييب قلبه .. وأسهل من تربيته هو إعطاؤه شهادة استحقاق بدخول جهنم .. فهذا وذلك لا يأخذ شيئاً من الوقت .. أما تغيير الإنسان فيحتاج إلى علم وحلم .. ونفس طويل .. ومعرفة خصائص النفوس وسياستها .. إلا أن نتائجها هو الانتصار لفقه التغيير الذي أراده الله .. والانتصار لقواعد الأخلاق الإنسانية ضد طرق تخييب وجود الأغيار وفكرهم بحد السيف .. لذلك فالبطولة هو في إصلاح العقول لا في إتلافها .. وفي إصلاح الانحرافات لا في مجرد إدانتها .. فقد كان الأنبياء - صلوات الله عليهم - دعاة لا قضاة، يشخصون العلل لعلاجها، لا لينشغلوا بإصدار الأحكام وتوزيعها يمينا وشمالا كما يفعل المتطعون اليوم كما لو كانوا أمناء على مكتسبات جهنم من تسرب الهالكين منها.

فلأسف هناك مصانع لإنتاج ألغام التكفير والتفجير .. ومعامل تنضيج حروبنا فكرية بينية مستقبلية خطيرة، ليس بين المتدينين والعلمانيين وحسب، بل وبين الجماعات المتدينة نفسها .. حتى لنجد أن أول دروس بعض جماعات الفكر الإسلامي هو تصنيف الجماعات الإسلامية الأخرى في قائمة الانحراف .. والتحذير من (ضلالاتهم)، وعلى نحو ما تفعل السلفية السلطانية (مشايخ البلاط)، والسلفية الفوضوية (الجهادية) ضد الجماعات المخالفة لها في المنهج الدعوي والتنظيمي.

ومن البدهي أن من يصدر الأحكام يلزمه تحديد العقوبات .. ومن يحدد العقوبات يحمل هم تنفيذها .. وهؤلاء أسرع ما ينتقلون من التكفير إلى التفجير، فنسوا نهج السلف الذي توخوا الاسترشاد به وانتهوا إلى واقع الصلف الذي توخوا تجنبه، فطاشوا في قصد الهدف كما يمرق السهم من الرمية.

أما سلفية الحاكم فقد رأينا آثار فتاواها في فظاعات رابعة العدوية التي اصطفت خلفها سلفية وصوفية السلطة .. ومثلها فظاعات الاغتيالات في عدن ابتداء من 2016م لعلماء ووعاظ كان يحكم حزامها الأمني سلفي سلطان الإمارات في عدن هو (هاني بن بريك) وإن لم يكن بأمره وتوجيهه فكل ذلك قد تم تحت سلطته وإدارته فهو المسؤول.

ولنا على فظاعات السلفية الجهادية شواهد من فتنة الجزائر بعد إلغاء انتخابات 1991م وفتنة داعش في العراق على يد (الدولة الإسلامية) منذ 2014م، كان السلفيون التفجيريون يقتلون علماء الأمة بحجة أنهم منافقون أو رافضون للانخراط في صفوفهم.

ومن انتاجات سلفية الجهة الأخرى أي السلطانية في معركة القضاء على الخصوم كونهم صاروا وكلاء الله على دينه، المنزهون من الخطايا، ستقرأ مأخوذاً بالدهشة قوائم طويلة أعدها هؤلاء تعدد فيها خطايا مشايخ، وعلماء، ووعاظ لا ينتمون لمدرستهم الفكرية .. اعملوا فيهم مبدأ (الجرح والتعديل) كما قالوا !!؟ وخاصة السلفية المدخلية نسبة إلى مؤسسها (ربيع بن هادي المدخلي) التي عرفت بارتكاز عقيدتها على طاعة الحاكم المطلقة، ولو خالف في ذلك طاعة الله.

ذهبوا يتقمون لغيرهم المثالب .. ويتصيدون الهفوات، يستخرجونها من بطون كتبهم وجهودهم واجتهادهم .. ويجمعونها كحيثيات لإصدار الأحكام ضدهم، وإلباسهم أثواب الغي وسرابيل الارتداد، وتحديد مواقعهم بالتالي من الجنة والنار، بالتصريح أو بالتلميح، بالإشارة أو بالعبرة، من نحو (ضال مضل) و(نعوذ بالله من أهل الضلال وسوء المآل) و(عمامة على بهيمة) أو (نسأل الله أن ينجينا من ضلال المضلين وزيف المبتدعين) .. فهم حاملو شباك صيد بهدف إيقاع الفرائس من المخالفين في حبالها، ومن ثم تشريحه في مشرحة هناك الاستار وتقطيع الأوصال، فليسوا دعاة ولا قضاة بل قصابين في مذابح آلهة الأرض، فمن تعثر لموا عليه بسكاكين معدة وألسنة حادة فلا يتركوه حتى يخردلوه بفرمان إفتاء في جهنم، وإلى الله المشتكى.

لقد استخدم العلماء القدامى (منهج الجرح والتعديل) بهدف توثيق قوة ضبط رواة النص النبوي، حفاظاً على وصوله سليماً، أما هؤلاء فقد استخدموه لجرح الآخرين، وتركيزاً أنفسهم في معرض الاختلاف والاجتهاد، فصاروا يفتشون القلوب ويحاكمون النوايا، وإسقاط مدارس دراسة وتيارات مندثرة على عقيدة الآخرين .. فهذا أشعري وهذا معتزلي .. هذا جبري وهذا قدري .. هذا معطل وهذا مجسم.

وبات عملهم كقارئة الفنجان التي تقول لك إن نجمك العقرب أو الدلو، وأنت لا تدري أن معك نجماً خاصاً بك اسمه العقرب أو الدلو أو الأسد .. الخ فهم يصنفون عقيدتك ومدرستك دون أن تعرف أنك كنت أشعرياً أو جهمياً أو خارجياً .. ستحصل منهم على بطاقة هوية تحدد مدار فكرك وموقعك من الحق أو الضلال .. ففوق تركيبتهم لأنفسهم صاروا هم أعلم بمن اتقى.

وغالبا ما تظهر معائب المخالفين في العقيدة من مخالفتهم لتنظيمهم .. فأهل القبلة لم يعودوا عند السلفية السلطانية والجهادية هم أولئك الذين يتجهون في عبادتهم نحو الكعبة .. بل صاروا هم أولئك الذين يتجهون في عبادتهم نحو محراب طاعة ولي الأمر .. أمير المؤمنين وقبلة الموحدين .. فمن خالفهم في هذا الغلو فاقتلوه كائنا من كان، حتى وإن كان من أهل قبلة المسلمين، فما يهمهم من قبلة المسلمين إن كانت قبلتهم قائمة .. وفقههم في محراب ولي الأمر يصلي .. كما لم يعد معنى شق عصا الطاعة ومفارقة الجماعة أي جماعة المسلمين .. بل جماعتهم هم، فإن كان من غير جماعتهم واختاره المسلمون كمحمد مرسي مثلا وجب الخروج عليه، وشق عصا طاعته ومفارقة جماعة المسلمين الذين اختاروه، بل يجب قتلهم ولو كانوا سلمييين؛ ولو كان البديل عميلا وفسادا كعبد الفتاح السيسي .. فمارسوا درجة من الازدواجية المنحطة بحجم الفضيحة .. وفي نقطة تقاطع تلتقي السلفية (الجهادية) الأكثر غلوا مع السلفية السلطانية في معنى أهل القبلة، فأهل القبلة هم عند الجهادية أتباع فكرهم، أولئك الذين خرجوا على الحاكم بالعنف وكفروه، ونصبوا بدلا عنه خليفة للمسلمين وبايعوه .. هؤلاء هم أهل القبلة عند الجهاديين التكفيريين، فبقدر تفریط سلفية ولي الأمر كان إفراط سلفية لا ولي أمر إلا منهم.

وتميز السلفية المنتطعة جامع الشكلائية⁽¹⁾ .. كضابط موحد للحكم على المخالفين، فقد حوصلت الدين في عدد من السنن الشعاراتية .. التي تحولت من سنن شعائرية إلى سنن شعاراتية .. ولافتات تنظيمية، يدل جودة الشكل على جودة المضمون .. فلم يشتهروا مثلا بالتمسك بسنن عملية كسنة التسامح .. والإيثار .. والعطف، ورعاية الفقراء .. أو بسنن قولية كلين الكلام وإفشاء السلام، والحظ على إطعام الطعام، بقدر ما اشتهروا بالاعتناء بتلك السنن التي يمكن بروزها كلافات دعائية وعناوين تنظيمية وبطريقة (كيف تصبح سلفيا في خمسة أيام) عن طريقة لبس الثوب .. ومضغ السواك .. ولبس الشماغ .. ورفع القبور .. والتفريغ بين القدمين في الصلاة .. هذه خلاصة هويتهم الفكرية، وتلك هي أركان الإسلام الخمسة التي صارت عندهم والتي صار بها يقاس إسلام المسلم .. وصارت حقوقا محفوظة دالة على علامة الجودة عندهم .. وأصل المنشأ الحركي .. وربما قاسوا ارتفاع إيمان المؤمن بارتفاع ثوبه عن الكعبين كعلامة مسجلة .. وكما لو قال : التقوى هاهنا ويشير إلى ثوبه ثلاث مرات، وليس إلى صدره، فمن لم يشفع له رفع الثوب فلن يشفع له حب الله ورسوله .. ومن لم يشفع له مضغ السواك فلن يشفع له أداء الصلوات .. ومن لم تشفع له الهوية التنظيمية فلن تشفع له الهوية الدينية؛ لأن الغيرة تحولت من الغيرة على الدين، إلى الغيرة على شكل التدين .. وصار الانتصار

(1) ليس السلفية كلها عندي موضع تهجم وتهكم حاشا فقد أخرجت المدرسة السلفية قامات علمية تعليمية أبوية ملأت الأصقاع علما وفقها واجتهادا وحكمة، وفيهم خير كثير وفضل وافر لا يعد ولا يحد، بل تركيزي على النخالات التي طفت على السطح بالإفراط والتفريط.

للحركة يسبق الانتصار لجوهر الإسلام .. إذ لو كانت المسألة مسألة دين لما أهدر إيمان المؤمن في سبيل الانتصار لتقليعات منقاة لتمثل جماعة خاصة.

وللايغال في إثبات التميز لا يفتنون يتمسحون بحديث الفرقة الناجية .. للتدليل على أن المراد بها هم (فإن لم يكونوا هم الفرقة الناجية فمن تكون؟) كما أفتى بعضهم، وذهبوا يضيقون ما وسع الله .. ويحاولون إسقاط بقية الفرق الاثنتين والسبعين على الباقيين .. فالمسلمون بين ناج وهالك .. فمن التحق بهم نجا .. ومن قصرت قدمه عن اللحاق بهم هلك .. نفس الفكر الرافضي وقصة ركوب سفينة النجاة.

أخيرا قد يقال: ها أنت ذا أوقعت نفسك فيما حذرت منه وتربعت على منصة القضاء، وأصدرت أحكامك فيهم.

والواقع أن من يشخص الداء ليس كمن يضعه .. فإذا ما استثنينا السلفية العنيفة فنحن لا نتهمج على المدرسة السلفية كخط ارتأته لنفسها، بل أذاع عن خط ارتآه الآخرون لأنفسهم من محاولة حمل الآخرين على خصائصها حملا .. أذاع عن الأبرياء من الإرهاب الفكري والعنفي الذي تمارسه العقلية التسلطية من بعض المنتسبين إلى الفكر السلفي .. فلئن كانوا قد سدوا ثغرة من العمل للدين كالعناية بالحديث فمن الذي نصبهم ليكونوا أوصياء على الدين، ووكلاءه الوحيديين .. لم يضر الدين أن يكون فيه أربعة مذاهب .. فهل يضره أن يكون فيه مدارس حركية مختلفة تلتقي على كتاب الله وسنة رسوله؟

هذا إذا افترضنا حسن الظن بالسلفية السلطانية، وأنها ليست مجرد عقول ملعوب بها من دوائر خفية ومشبوهة، وأدوات يتم توظيفهم لإشعال فتن داخلية، وتشويه الرموز الإسلامية المعاصرة لإسقاط مكانتهم من النفوس، كما استقل الروافض بتشويه الرموز الإسلامية القديمة ليصب الجميع في صالح أعداء الإسلام والمسلمين. فماذا عسى أن تسمى أناسا والغين في أعراض الآخرين بسبب قصور بشريتهم، في الوقت الذي لا ينبسون ببنت شفة في وجه دعاة ولادة أمورهم، وفسادهم وعماليتهم؟ .. هل نسمة مواقفهم هذه حرصا على الإسلام؟! أم حرصا على إخطبوط الشر في المنطقة .. وتفرغ الساحة لرجال على أبواب جهنم من استجاب لهم قذفوه فيها؟!



مروصفوف أولية يحملون في إقامة خلافة

قدم الأستاذ راشد الغنوشي رؤية عميقة توصل إليها في إطار الإصلاحات التنظيمية للأحزاب ذات الخلفية الإسلامية، والتي تهدف تلك الإصلاحات إلى تحرير الجزر المغلقة الملتزمة دينياً من قواقع الانعزال إلى الاندماج المجتمعي الفاعل في مناشط الحياة، ومن منظوري فإنها قد حبست نفسها بدون ذنب في جملة من الأنماط التنظيمية القائلة يأتي منها:

أولاً- النظرة التصفوية أحياناً لأنفسهم، والشعور الضمني بالاختصاص لقيادة الأمة، فيما الناس من حولهم في طغيانهم يعمهون .. ونعم تلك النعمة، لو بدأت بتمثل النموذج المجتمعي، والتوسع في خدمة الناس، واستبدال فوقية الشعور على الآخر بفوقية اليد العليا التي تعين الناس على تجاوز مأساة واقعهم المعيشي عن طريق الانفتاح والتبسط معهم، والحديث عن رديء عيشتهم ومعيشتهم.

ثانياً- المعيارية القائمة على أداء طقوس الطاعة والولاء للقيادة، وليس على الإنتاج وخدمة المجموع العام، فالأبوية الزائدة للأمير تضعنا أمام شركة تأمين لضمان الأحق بالتركيم بسبب تاريخ العضو التنظيمي، وليس بسبب تاريخ العضو الإنتاجي ورصيد نجاحاته في خدمة الناس، وأهليته في السير بالواقع من الحسن إلى الأحسن.

ثالثاً- الدمج بين ما هو دعوي تزكوي وما هو سياسي برامجي، لذلك عجزت تلك التنظيمات عن إخراج طبقة نخبوية ماهرة في السياسة، واستغنت بعامل القدرية، وتدخّل العناية الإلهية في التمكين السياسي، وكان الخيال وتجويد وعد الله لها بالاستخلاف هو الشراع الذي تبحر به في بحر متلاطم الأمواج بلامرسي .. إلا الثقة بقدرة الله على كسر نواميس الحياة لتحقيق الخلافة المنتظرة وتقلد قيادة المسلمين .. هذا التفكير الرغبي المجرد كما وصفه المفكر الدكتور عبد الله النفيسي وهو الفخ الذي وقع فيه الرئيس محمد مرسي رحمه الله، حيث قعد ومعه الأحلام على كرسي محاط بكراهية نخبة منابذة، فانتهى به الأمر إلى حيث لايريد كل ديمقراطي حر وشريف .. لقد كان عليهم وقد انخرط الكثير من أعضائهم في التخصصات العلمية مثل علم النبات، والبيطرة، والطب، والكيمياء والإنسانية الشرعية، أن يسعوا لتحقيق التوازن في تخصصات الإدارة والحكم، والإعلام، وصناعة الرأي العام، كون التدافع قائماً بين مشروعين محلي ملتزم وأجنبي منفلت لا معدى عنه، فيكون منهم كوادر دولة إن أرادوا الوصول إلى الدولة .. فقلما تجد فيهم الصحفي الوطني المحترف صاحب القدرة الجاذبة للإعجاب جماهيرياً ونخبوياً .. أو السياسي الوطني المحنك المطلع على زوايا أبعاد السياسة وتعقيداتها، وبحيث لايمكن الاستغناء عن تنظيراته وتحليلاته من مختلف الأطراف .. أو الاقتصادي الكبير المرجع في

فتاوى حركات السوق وتموجاته؛ حيث أوكلوا إلى الله مهمة التمكين لدينه .. وانصرفوا لإصلاح النفوس والتربية على الجندية التزكوية .. والاشتغال بمنهج الطاعة للجماعة أكثر من الانشغال بالتخطيط للزراعة والصناعة، وإدارة نظام الحكم .. ولو عملنا فقط إحصائية لصحفيين وكتاب نتسابق على نشر تحليلاتهم سنجدهم غالبا من خارج هذه الجماعات؛ لأن عند أولئك صناعة النخب الاحترافية غير مقدمة على صناعة التلاميذ المنضبطين، أما الحركات الراديكالية الدينية فتميل قياداتها إلى مُشاكلَة أتباعها بتلاميذ الصفوف الأولية، التي تجيد فن الطاعة، وحسن الانضباط، وأدب الاستماع والتحدث، والمبادرة الفورية ذات الإيقاع الجماعي لحل الواجبات .. والحضور لتحصيل المقررات التنظيمية التي تتقلهم من مستوى صفي إلى آخر.

يحرصون على هذه المشاكلة لتخريج تلاميذ متفاعلين مع الأوامر، لكنهم غالبا غير فاعلين ذاتيا ولامبادرين انتاجيا؛ بل كثير منهم انسحابيون لم تُنمَّ فيهم جرأتهم الأدبية ومهارة الاتصال الإنسانية .. ولم يبدع منهم من أبدع (وجلهم في علوم الشرع) إلا حين امتلكوا حريتهم وغادروا حاويات الطاعة التي تشنت الأذهان وتميت المواهب .. وترفض التآلق الذاتي بل وتهمشه .. وكثير الاقتراحات وطرح الرؤى ربما وضع في خانة الشقاوة أو أكثر من ذلك مندس مثلا وقد يحاط بسياج المقاطعة والإهمال، حتى وإن كانت جهوده في خدمة الأمة لا تخطئها العين فضابط الصلاح هو الطاعة العمياء .. ثم ومع كل هذا القصور يتحدثون عن إقامة خلافة إسلامية، ذات مؤسسات عملاقة، يجب أن تجيد مهارات إدارة ثلث الكرة الأرضية، وتدرك السياسة العصرية وتشابكها .. والسياسة الاقتصاد وتعقيداته .. ودور الإعلام وتأثيراته .. وتعرف حجم التحديات فتضع لكل سؤال جوابا .. كيف تحمل هذه الجماعات الإصلاحية مشروعا كونيا كهذا، بأعضاء في درجة تلاميذ صف، يفتحون أعينهم كل أسبوع على مربٍ لا يتغير .. ويفتحون آذانهم على أوامر لا تتحول.

رابعا- تحدثتُ في تأملةٍ أخرى عن لوثة الخلافة، واستمرار الجماعات الإسلامية مسكونة بهاجس الوحدة الكبرى (إقامة الخلافة) لعل مرد ذلك إلى رؤية مؤسس تنظيم الإخوان حسن البنا - رحمه الله- التي سعت إلى تحقيق إصلاح الفرد .. ثم الأسرة .. ثم المجتمع .. وصولا إلى إصلاح الأمة وإقامة الخلافة، ثم صار كما لو أن جَمَعَ المسلمين في كيان موحد هو سر الخلق .. وكما لو كانت دعوة الأنبياء الأولى هي إقامة خلافة للمسلمين في الأرض؟ وليس الإيمان بالله والعمل الصالح أولا .. ونسوا أن وحدة المسلمين في القرآن متحقق بشيء غير صيغة الملك بالضرورة منها:

- الاعتصام (بجبل الله) وعدم التفرق فيه (واعتصموا بجبل الله جميعا ولا تفرقوا) (1) ولم تنص الآية صراحة على صيغة وحدة سياسية جامعة، فقد يتوحدون على سياسة واحدة وهم وحدات أقاليم مختلفة .. ولغات مختلفة .. بل وحدود غير مشتركة إن صلحت النيات.

(1) [آل عمران:103].

- تحقيق الوحدة الشعورية التضامنية كما قال الله: (وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ)⁽¹⁾ قال (بين قلوبكم) وليس بين قلوبكم فماذا يفيد اجتماع المسلمين في مربع واحد وقلوبهم شتى؟

- تحقيق الولاء لبعضهم البعض (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)⁽²⁾ وهو التكامل السياسي، والاقتصادي، والثقافي .. الخ

أما مسألة الاستخلاف فوعد إلهي لا بشري، ونتيجة تلقائية لا مقدمة شرطية، فهي كائنة بعد غلبة الإيمان وعمل الصالحات، والعمل على تنمية المجتمعات .. ولاشك أن إعمار الأرض من عمل الصالحات كما يشير النص القرآني: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)⁽³⁾ أي طلب منكم عمارتها، (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ...)⁽⁴⁾ هذا التسخير الشامل للسماء قبل الأرض لا يزال بيد غير المسلمين الذين عملوا بالسنن التي أطلقها الله لجميع خلقه دون تفریق، ووعد الله بالتمكين مرتبط بعمل الصالحات (وعد الله الذين آمنوا منكم وعلّموا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ...) ومن الصالحات استصلاح الحياة للعيش الذي يحقق للمسلمين العزة والكرامة، وإنما يكون ذلك في وضع لكل سؤال جوابا وسد الثغرات التي يدخل منها عوامل الوهن والضعف .. ما هو العائد من جماعات تفلح في إقامة المناسك وتفشل في إدارة الممالك، تريد بناء خلافة بلا أساس نخبوي مدرك لشروط الوحدة الإدارية الكبرى بتصوري، فليست الخلافة قالبا سحريا ستأتي لتحقق المدينة الفاضلة، وتكفل تضيق البون الواسع الذي يفصل بين عالمين متقدم جدا وآخر متخلف بلفظة كن، بل بإعداد واستعداد .. وإن الوصول إلى غاية كهذه يقتضي العمل بقانون الأولويات، وهو الاهتمام بالأقرب طبقا للتدرج المنصوص عليه في الآية (والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب)⁽⁵⁾ فليخدموا شعوبهم .. وليعملوا على إيجاد صيغ تفاهم بين المسلم والمسلم في القطر الواحد، قبل الاشتغال بأنماط الخيال والتتقيب عن معجزات القوة في جملة من القوالب التي لا تحوج إلى كبير عمل .. وليتركوا وعد الله يحققه المولى حين تتوفر شروطه .. مالم فقد جانب منهجهم الصواب، ووضعوا العربة قبل الحصان، وأفرغوا الجهد في تحقيق الوسيلة على حساب الغاية، فلا يسألوا عندئذ أنى هذا؟ .. أنى هذا الإخفاق والتعثر والابتلاء؟ (قل هو من عند أنفسكم).

(1) [الأُنفال:63].

(2) [التوبة:17].

(3) [هود:61].

(4) [الجاثية : 13].

(5) [النساء:36].

خامسا- ثم مهلا هناك ميوعة في المبدئية مع الكبار رغم الصرامة مع الأعضاء الصغار، فجماعة التمكين فاجأت الجميع بالتذبذب في وضوح الرؤية وثبات المبدأ فالحزب الإسلامي العراقي يضرب برجله مع رقصة دبكة الفساد الشيعي وينخرط في الولاء للراعي الإيراني المحتل عمليا للعراق ومهندس تدميره .. وحزب العدالة والتنمية المغربي (يا للعار) يوقع بنود تطبيع بقيادة أمينه العام العثماني مع العدو الصهيوني لأن تلك تمثل رغبة الملك! مع أنه أي العثماني يعلن معارضته للتطبيع! .. وحركة حماس تضع يدها في يد حكام قتلة ومستبدين بذريعة نصر القضية الفلسطينية .. ومتى كان جائزا استعباد شعوب لتحرير أخرى وقتل شعوب لإحياء أخرى، وإذا كان الموضوع يتصل بتحرير مكان مقدس هو المسجد الأقصى فهل بلغهم أن حرمة الإنسان المسلم أقدس عند الله من الكعبة نفسها؟

وإصلاح اليمن بعد خروجهم من اليمن أصروا على النقية السياسية فلاتكاد تدري أين تبدأ حدود موافقهم، ولا أين تنتهي خطوط ثوابتهم، فلم يكن لتجاوبهم أحيانا مع التحالف سقف، يعني لا يوجد حلال وحرام سياسة .. صحيح أن كل عالم الشر بات في كفة وهم في كفة ولكن الحزب ليس مجرد شركة تأمين على الحياة، فله في النهاية رسالة تقتضي الصدع بها وباللغة السياسية الأمانة الكفيلة بتوصيلها دون تصادم .. ويبقى الله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ليس بيد البشر مصائر الخلق بعد بذل الأسباب.

إن هذه الميوعة ومعضلة التلون تترك بصمتها أحيانا على مستوى (بعض الأفراد) حيث من السهل أن تجد أحدهم مسؤولا منخرطا في فساد الفاسدين وسبب ذلك يعود إلى قلة الرقابة على الأداء المجتمعي بما أن الأهم هو الرقابة على الانضباط التنظيمي في هذه الجماعة.



وكيل الشيطان في مملكته

تعيش مملكة الشيطان في زماننا هذا أزهى مراحل ازدهارها على الإطلاق من حيث فنون الإغواء .. وابتداع طرائق المسخ .. وتخريج الدعاة والقادة من شياطين الإنس والجن .. فغصت الساحة بالأبليس المنتجين للأفكار التدميرية .. ومردة الجن المتخصصين في صناعة الشرور والكرهية .. وعفاريت الإنس الذين يفرقون بين المؤتلف ويؤلفون بين المفترق .. ويوطنون الخراب ويخربون الأوطان .. فوصلوا إلى درجة من الكفاءة في نشر الانحراف بحيث لم تكن تخطر على بال أبي الأبالسة نفسه حتى حولوا الثابت وثبتوا المتحول .. يصبح الرجل ذكرا ويمسي أنثى .. وتمسي المرأة امرأة، وتصبح ذكرا .. يخرج الذكر وهو (جورج) ويعود وهو (جوليا) .. تهاتفه وهو هو .. فيجيبك وهو هي .. وحولوا عناوين المعاشرة من الأمام إلى الخلف ومن الإنسان إلى الحيوان .. آمنوا الكافر وكفروا المؤمن .. عبدوا الشيطان وكفروا بالرحمان .. طاردوا المستقيمين بتهمة الانحراف وكرموا المنحرفين بشهادة الاستقامة .. قيدوا عقول المرشدين في المخافر ووضعوا الساقطين على المناير .. حولوا الكيان الغاصب إلى مظلوم والشعب المظلوم إلى غاصب .. والمهاجم إلى مسالم والضحية إلى إرهابي متمرد على القوانين الدولية.

استعبدوا البشر وقدسوا البقر .. وأسكنوا الكلاب في القصور وعيشوا الأنام في القبور .. وتركوا الناس يأكل قوتهم ضعيفهم .. وغنيمهم فقيرهم .. ورئسهم مرؤوسهم .. ووسدوا الأراذل وحتالات البشر في العلماء والخبراء والمجربين وذوي الرأي والنظر .. يمسي الواعظ واعظا مع ملك السماء ويصبح راقصا مع ملك الأرض .. يبكي الناس يوم الجمعة ويبكي عليه الناس يوم السبت .. كان دليلا للحاترين فأصبح ظهيرا للمجرمين .. باع دينه بدنيا غيره بعرض من الدنيا قليل.

لم يتركوا البشرية تتعم بعقلها وتهنأ بعيثها .. رأوا الطائرة فأسقطوها بأرض جو .. ووجدوا الجسر فهدموه بقنبلة فراغية .. وأدركوا تطور الصحة فصنعوا لها السلاح البيولوجي .. ولمسوا ازدهار الحياة فجهزوا لها قنابل الدمار الشامل.

وللشيطان وكيل خاص ناطق بالعربية .. هو أقرب الناس إليه وأحبهم إلى نفسه .. يدخل عليه في عرشه بلا استئذان .. ينظر الشيطان إلى حاشيته فيباهي به قائلا ما وجدت نفسي في أحد منكم يشبهني خلقا وخلقاً كما أجدها في هذا الشيطان الرجيم من عالم الإنس .. ولولا أن عداوتي للبشر قدر محتوم لسلمته مقاليد حكمي وانصرفت للعناية بذريتي وأبناء جنسي.

في هذا الوكيل من الشر ما لو وزع على شياطين الإنس والجن لكفاهم .. له نفس مملوءة على المسلمين كراهية عمياء .. وبطن تقيء على الصالحين حقداً أسود .. ووجه ينضح بالشر .. وطبع يعج بالغدر .. يتقمم في الأحوال حثالات البشر .. ويفتش في سوق الداشرين على رؤس الإجرام ليقاولهم في تقديم وجبات القتل والاعتقال .. لأنه لا ينام إلا على موسيقى أنين الأطفال .. ولا يتناول وجبته إلا على فطور دم الأبرياء .. وما لم يجد قربانا عمد إلى أخ من إخوانه فذبحة وتناول عشاءه .. مصاب حد الهوس بلوثة حب الكيان الغاصب .. يشتت شمله ليجمعه .. ويضع قدره ليرفعه .. ويقدم ما يملك قرابين مجانية في مذبح الطاعة .. فلم تلد نساء الشياطين مخلوقاً مثله ولا أراها تلد.

سأل رئيسه وقدوته الشيطان يوماً أي العمل أحب إليك يا سيدي؟

فقال له: يا لؤم طبعي .. ووجه نحسي .. وخسة نفسي .. وطليلة شري لمثل هذا اليوم اصطفتيك لنفسي .. واصطنعتك على عيني .. وعندك أموال الدنيا .. ما حاجة عاهرات الأرض كلها لعشر معشارها .. أنظر إلى عبادة الأصنام وشيد لها أكبر معبد في جزيرة العرب حيث معقل دين محمد تعيد لي فيه ديانة الوثنية بعد أن توارت خمسة عشر قرناً وتسعدني بإحياء طقوسها .. وبالطواف حولها .. ووسوس للنغل المخبول أبو الصدمة يستقدم إلى أرض الحرمين ما غفل عنه أبو جهل من الراقصين والراقصات و(أبطال) الشاذين والشاذات، مره بأنغام المعازف فلترفع .. وأصوات المساجد فلتغلق .. وأصوات العلماء فلتخبوا .. وأصوات المنافقين فلتعلو .. وأحي لي حفلات التهنك تضرب فيها المعازف .. وتغني فيها القيان .. ويختلط فيها الرجال بالنساء .. ثم ذرهم ودنياهم في سكرة يعمهون تؤزهم جنودي أزرأ.

وانظر إلى عبادة البقر وحي غوايتي فيها بالتبرك بروثها وأوبالها، والتمرغ بأوحالها، واجعلها مصدا في وجه دين الله .. ومد زعيمها بمالك وخيلك وراجلك .. واحمل مهمتي في تحويل الديانة الإسلامية إلى يهودية بتأسيس الديانة الإبراهيمية وحلف إبراهيم .. وانظر في نقاط المسلمين المضيفة في بقاع الأرض ووسوس لحكام الدول فتطمسها .. ومساجدهم فتغلقها .. ومؤسساتهم فتصادرها .. ولا تترك لأتباع محمد على رأسهم العرب دنيا إلا هدمتها .. ولا وحدة إلا مزقتها .. ولا تجمعاً إلا فرقته .. ولا استقراراً إلا قوضته.

ومنذ رمى الشيطان بوصيته هذه الخبيثة مضى وكيله مصدر الشر هذا يعيث في الأرض فساداً .. ويزرع الأرض فتناً وخراباً .. من غرب الوطن العربي إلى شرقه .. فنعوذ بالله من الشيطان اللعين ووكلية الشخبوط الرجيم.

ولقد ظهرت صورة لوكل الشفطان الخبفث هذا على فف الفنلن التشفكفلف الففطالف (برونو أمافو) المولود فف 1911 قبل ظهور وكل الشفطان ب 30 عاماف فقد تنبأ به مبكرا .. ثم أثارها فنلن الففطالف آخر هو (فوفلفنل فاسبارو) عام 19018 وفظهر فف اللوحة وكل الشفطان مقفدا بالسلسل ففجره رئفس الملائكة مفائل" وقد أنكر الفنلن التشفكفلف (فاسبارو) بشكل قاطع أن فكون قد قصد بها شفا ما .. وهو محق بذلك فلم فسقطها على أحد أبدا .. لأنها صورة حقففة لشفا حقفف .. عكسها قوة ففال الرسام لملمحه كما وردت فف ثقافته .. ولم فبق بعد هذه الأحداث العظام والتحولل الجسمل سول حقفق نبوءة ففرة الأنامل .. فلا تهنوا ولا تحزنوا.



الفرق بين مهام شيخ القبيلة وعمل مسؤول دولة؟

تستهل النشرات الرسمية العربية بأول خبر طويل روتيني ممل فارغ المحتوى، إنه عرض البرنامج اليومي لرصيد الشعب ورأس ضمارة الوحيد وهو فخامة الرئيس .. أو جلالة السلطان .. أو عظمة الملك المفدى .. فأهم ما في النشرة سرد فعالياته الاجتماعية اليومية، مثله مثل أي شيخ قبيلة يكرر جلسته النمطية جالسا ملتصقا بالكرسي مستقبلا الضيوف .. أو واقفا متخشا مصافحا المهنيين .. أو حاضرا حفلا غنائيا يمجّد في مناقبه الفريده.

أما الخبر السياسي فعادة مثل نشرة الأحوال الجوية لاتخرج منه بشيء مؤكد .. فليس سوى استقبال علوه أو فخامته وزير الشؤون الحربية - مثلا - لدولة كذا وقد نقل له تحيات سلطان دولته والاطمئنان على صحته كما ناقش - حفظه الله في حله وترحاله - مع الضيف الأوضاع المستجدة .. وهموم البلدين المشتركة .. وسبل تطوير العلاقات بين الجانبين .. واستمرار المشاورات بما من شأنه الارتقاء بالتعاون القائم بين القيادتين الحكيمتين ومواجهة المستجدات في المنطقة والعالم ووالخ .. والخبر المفيد الذي قد تجده هو تقديم الضيف شكره العميق لصاحب النظر الثاقب والسياسة الحكيمة على حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة!.

ونصف ساعة أو ساعة من التهريج تعصرها فلا تخرج منها بجملة مفيدة او كلمة لها معنى .. والسبب أنه لاقيمة للشعوب في نظر الحاكم بأمره .. فهو يفعل ما شاء مع من شاء على الطريقة التي يشاء فحياته السياسية كلها أسرار دولة .. وربما فهم الجمهور سبب زيارة هذا أو ذلك عن طريق التتجيم، والتخمين، وشعوذة المحللين السياسيين .. لأن سياسة البلد حقوق محفوظ للبهيم المتخشب والزعيم الأرعن - حفظه الله في ثلاجة بارد - .. حتى بعض المؤسسات التشريعية إن وجدت لاتعلم ما يقرره العقل المركزي الواحد، فهو الذي يعلن الحرب والسلام .. وهو وحده من يعين الصديق من العدو .. والبقية مجرد أصابع إيهام تضع البصمات وتؤمّن على ما يقول.

وتبلغ بقطعان الحكم العربي درجة من الاستهتار بالشعوب أن تجد البلد أحيانا يموج بأحداث عاصفة، والكل بات في كف عفريت .. ومستقبل البلد يذبح من الوريد إلى الوريد بينما عظمة الزعيم البهيم صاحب العرش والكرش مستمر في نشرات الأخبار بفعالياته اليومية البدائية وكأن شيئا لم يحدث .. وقد لاتخلو من أخبار استقزازية مثل بعث برقيات أفراح وأتراح لرؤساء أحزاب مغمورة، في بلدان مغمورة، بمناسبة نجاح فحوصات دورية، أو إعادة انتخاب، أو أي خبر سامج رخيص .. وكان هذا الخبر الأبله أهم من أخبار شعب بأكمله معني بشؤونه .. وكان فخامته في حالة تحشيش دائم انتهت

عنده كل مشاكل الدنيا ولم يبق إلا الاطمئنان على مسؤول مجهري في طرف الدنيا .. إنه لكثير على هؤلاء الحكام تسمية مشايخ قبائل لذا نعتذر لكل شيخ قبلي حر من معالي المواطنين هؤلاء وفخامة الوضيعين، فشيخ القبيلة يحمي حمى قبيلته ويهتم بشؤونها.

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين رئيس دولة وبين مجرد سلطان عربي متسلط فلك أن تقارن بين رئيس أوكرانيا فلوديمير زيلنسكي في إدارة الأحداث وبين مومياء محنطة حكمت اليمن في وسط أحداث عصفت ببلاده فرئيس تلك الدولة رئيس .. وهذا مخلوق من الكائنات العجيبة التي لا تزال فقط في محميات سلالة الحكام النادرة.

نعم وللأمانة ومن باب الاعتراف بالحق هناك جوانب عربية مشرقة في العمل الدؤوب والناجح وهو تنسيق وزراء الداخلية في محاربة الإرهاب، والمراد به بدرجة أولى المعارضين للحكم الفاسد، والمعارضين لمسيرة التطبيع والتركيع هاهنا يمكن أن تقول إن ثمة نجاحا ملفتا في العمل والتنسيق وتبادل المعلومات.

أي حاكم من حكام الدول المسؤولة الأخرى لابد أن تجده يملأ العين دائب الحركة .. كثير النشاط .. إذا مشى أسرع .. وإذا تكلم أسرع .. وإذا ارتقى سلما اعتلاه جريا كدليل قوة .. ولاحظ حكومة الكيان الصهيوني لاتظهر أول ماتظهر جالسة على الكراسي بل وهي تصعد السلم بنشاط وهمة وهذه محسوبة بدقة تعكس النشاط والاستعداد الدائم .. في حين إذا ظهر الملك المفدى أو الزعيم المحرز بالتعاون إذا ظهر ماشيا فإنه يمشي مثل زفة العروس .. يسير بإيقاع منتظم .. حوله الخدم وإن شئت (الوصايف) ولفيف من سمو الوزراء والأمراء .. فهذا يوسع له الطريق .. وهذا يمسح الجوخ .. وذلك يصفق له بانتشاء .. وآخر يهتف بحياته .. وذا يقرأ التعاويذ ليرقيه من شر الشياطين وعيون الحاسدين .. ومن يتحين الفرصة ليهوي على يده تقبيلا .. وعلى مقامه مدحا وتقبيلًا .. وهناك من بيده القسيمة المدحية تنتظر سانحة من الوقت لإلقائها بين سمو جنابه فهو فقط قصة عرض هيلمان وصولجان لا حامل هم أمة.

ولأن هناك من الفقراء الذين لايملكون شاشة العرض المرئية فيكحلون أعينهم بالنظر إلى مراسيم زعيمهم اليومية فإن عدالته تنظر بعين الرعاية والاهتمام إلى هذه الشريحة، فربما سهل توزيع أطنان من صورهم مجانا للفقراء والمساكين وبأوضاعه المختلفة مكتوب تحتها .. كلنا فداء الوطن .. يعيش الشعب .. وحدتنا صمام أمان .. ووالخ .. فشكرا للوطن الذي سد خلة الفقراء وأشبع جوعهم بصوره.

وهو بعد أي صاحب الحضرة العلية يمتن على شعبه بتلك الإطلاقات المهيبة .. والمواكب العجيبة .. والصور الفريدة .. التي تمثلهم وترفع رؤوسهم بين الخلائق .. حتى وهم في الأرصفة

ينامون .. ومن الزبالة يأكلون .. حتى وهو مجرد طبل أجوف .. وشتيمة شعب .. وكابوس حكم ..
وكائن لا وزن ولا عمق ولا ارتفاع .. المهم الطلّة التي تخطف الأبصار .. والصور التي تسحر
الأنظار .. وما حاجة الشعوب بعدها إلى الشراب والطعام والأمن والأمان.

ولأن أكبر ثروة قومية هو عندنا الحاكم ويقوم مقام الصناعات الثقيلة والذكية فإن الواجب الحفاظ
على هذه الثروة، لذا فإن أجهزة حمايته تكلف الشعب الحصة الدسمة من الميزانية .. فلكي يستمر
يعتلف آمنا في اصطبله .. ممثلاً في ثوبه .. عنده قوت شعبه فلا بد له من حرس رئاسي أو ملكي إلى
حرس شرف .. إلى أمن خاص .. وأمن وطني .. وأمن وقائي .. وبحث جنائي وفرق مكافحة
الإرهاب .. ووالخ ليبقى عقوداً مديدة في حياة سعيدة .. فمن لنا بعد ولي أمرنا سيدنا ومولانا وتاج
رؤوسنا وحيد دهرنا وفريد عصرنا؟! .. بينما الشعب الذي نكب بثروته القومية هذه وفي ظل كل هذه
الأجهزة قد لا يأمن على حذائه من أحد ضحايا الفقر فلا حامي لمتاعه، ولا لمرتبته، ولا لأرضيته، ولا
لوجوده إلا الله .. يحلم إن حلم أن يمتطي يوماً قارباً مطاطياً يقله إلى بلاد الكفار في مغامرة نهايتها
حياة آمنة أو التخلص من حياة الصنم الآسنة.

إن حديثي عن زعماء أمة نزل فيها قول الله: (وقل اعملوا فسيرى عملكم ورسوله والمؤمنون)
فالله ورسوله والمؤمنون إنما ينظرون إلى العاملين .. لا إلى العاهات والمحنطين من زعامات عاطلة
وأيداء آكلة لا يعملون ولا يتركون الناس يعملون .. ولا يغادرون السلطة ولا يتركون الناس يغادرون ..
إن بقي الناس يشكون جورهم فهم جواسيس وخلايا نائمة .. وإن فروا يطلبون نجاتهم فخونة وعناصر
عملية فيالها من كارثة (ليس لها من دون الله كاشفة).



الدولة المدنية موافق لمقاصد الشرع

جاء في العقد الفريد: لما قدم رجال من الكوفة على عمر بن الخطاب، يشكون سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم جميعا، قال: "من يعذرني من أهل الكوفة، إن وليت عليهم التقى ضعفوه، وإن وليت عليهم القوي فجرّوه. فقال له المغيرة بن شعبه: يا أمير المؤمنين، إن التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه، والقوي الفاجر لك قوته وعليه فجوره. قال: صدقت فأنت القوي الفاجر، فأخرج إليهم. فخرج إليهم، فلم يزل عليهم أيام عمر وصدرا من أيام عثمان، وأيام معاوية حتى مات المغيرة" .. هذا النص يترجم نظرية خطيرة في الحكم، لها مستندا في القرآن الكريم وفي سنة وسيرة النبي - صلى الله عليه وسلم- وهي نظرية القوي المتخصص، وحسن الإدارة في الحكم على رقة دينه، خير من قوي الإيمان ضعيف التخصص على قوة إيمانه، لأن قوي التخصص وقوي الضبط هو ما يحتاجه الناس لندياهم في التسخير العام، أما قوي الإيمان ضعيف الإدارة فإيمانه له فما يصنع الناس بتقواه إذا كان ضعفه السياسي سيترتب عليه ضعف حياة من ولي أمرهم .. وإنما يعنيه من أمره ماذا أنجزت لنا؟ وليس ماذا أنجزت لنفسك، فعمله لنفسه عبادة لازمة له، لكن إنجازه للغير عبادة متعدية للغير وهي الشرط الأهم للحاكم.

ولذلك القرآن الكريم قدّم التخصصات في العمل الدنيوي على الدين، فحين طلب يوسف عليه السلام من عزيز مصر أن يكون على خزائن الأرض (وزير الخزانة) علل ذلك بما تحتاجه الوزارة الاقتصادية من شروط المهنة، وهو الأمانة والحفظ والعلم بتدبير السياسة الاقتصادية، فقال: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)⁽¹⁾ .. ولم يقدم مؤهلاته الدينية كإنسان مؤمن وأنه بني وابن ثلاثة أنبياء؛ لأن ذلك غير مقبول في حكم فرعون وليس هو الشرط الأول للمهمة، لكنه بالتأكيد لن يحكم بخلاف الشرع، لأنه نبي ابن أنبياء، أي أن سياسة الدنيا جوهر الحكم وحفظ الدين جزء منه، كما سنشرح ذلك تاليا .. ولما أراد بنو إسرائيل ملكا وقائدا عسكريا ليحكمهم ويقاثلون به جالوت، لم يطلبوا من نبي لهم أن يكون هو القائد عليهم - كما سبق بيانه - رغم أنه الأتقى فيهم، بل طلبوا من النبي رجلا غيره متخصصا بشؤون الدنيا، فجعل الله لهم طالوت ملكا، يتصف بصفات دنيوية أيضا تصلح لطبيعة المهمة: (... قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ...) (2) .. هل بسطة العلم أي قوة علوم الشرع و فقط؟ الجواب لا بل بسطة في العلم بحسن إدارة الحكم، وإلا لكان هذا النبي أقوى إيمانا وأعلم بأمر الشرع من طالوت، وجاء طالوت ذا بسطة في الجسم للقدرة على

(1) [يوسف 55].

(2) [البقرة 247].

المبارزة وقيادة المعارك والصبر عليها أمام عدوهم جالوت .. وعندما عرضت ابنة شعيب على أبيها استتجار موسى عليهما السلام وصفته بأوصاف يحتاجها شعيب لندياه (إن خير من استأجرت القوي الأمين)⁽¹⁾.

ومن دون شك كان أبو ذر الغفاري رجلاً تقياً وصادقاً للهجة، ولما طلب من رسول الله أن يوليه لم يقبل رسول الله وقال: "يا أبا ذر إنك ضعيف" ليس ضعف الإيمان بل ضعف القيادة السياسية كما يبدو .. وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعين الأقدر على المهمة من الأتقى، فيعين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص على السابقين إيماناً وهجرة، وفيهم المبشرون بالجنة، لكنهم بأمور الحرب والحنكة السياسية أقل دراية من هذين، وقد استمر خالد بن الوليد رضي الله عنه يعمل لرسول الله رغم بعض اجتهاداته الخاطئة، لكن أخطاؤه محتملة كقائد أما نفعه للمسلمين فظاهرة ومتحققة.

وهناك حديث صحيح في غاية الأهمية، يفصل بين حدود الدين وبين سياسة الدنيا، فيجعل سياسة الدنيا غير محكومة بالدين حتى تتعارض مع الدين، عندئذ يقيم فيها حكم الشرع، ففي صحيح مسلم قال عليه الصلاة والسلام يوصي أحد قواده: "وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا" أي أن السياسة العامة، بما فيها شؤون الحرب لا تضبط بالشرع في كل شيء، بل الأصل فيها الاجتهاد وأن يصيب المجتهد أو يخطئ لذلك عائد إلى حنكته؛ أما الشرع فلم ينص على كل شيء في حركة الحياة، ولكن ما جاء من تلك الاجتهادات مناقضاً للشرع عندئذ يقيم فيها حكم الله، فلا يجوز للقائد العسكري مثلاً أن ينقض العهود المبرمة، أو يمتل بالقتلى؛ لأن هذه قضايا منصوص عليها، وليس من المسكوت عنها .. وما عدا ذلك فعائد لحسن سياسة القائد.

وهذا يفسر القاعدة الفقهية التي تقول: "الأصل في الأشياء الإباحة حتى يأتي دليل يحرمه"، فإذا كان الأصل في الأشياء الإباحة فيعني ذلك أن القضايا الشرعية هي عَرْض في الحكم لا الجوهر، إذ إن نحو 95% تقوم على الاجتهاد والابتكار والإبداع والتقن في خدمة حياة الناس، وتسمى المصالح المرسله، وأين تكمن المصلحة فثم شرع الله، كما تقول القاعدة الأصولية الكلية، وأحكام الدين متناهية محصورة وأحكام الدنيا غير متناهية فالتسخير شمل السماوات والأرض: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ...) (3).

(1) [القصص: 26].

(2) (رواه مسلم).

(3) [الجاثية : 13].

كما أن حديث وصية النبي لقواده يفسر حديث تأبير النخل، الذي قال فيه النبي: "إذا كان شيء من أمور دنياكم فأنتم أعلم به، فإذا كان من أمر دينكم فالإي" (1) أي ما كان من أمور الدنيا فأنتم المعنيون بحسن تسخيرها لصالح نفعكم أما الدين فليس فيه اجتهاد، وقد تحتاج الدول المسلمة إلى استقدام خبراء غير مسلمين بل قد يكون ذلك من الواجب إذا ليس عنه بد .. ولا شك أن الماهر في التخصص إذا كان أيضا على دين وتربية إسلامية عالية فهو أحرى أن يراعي الله في الأمانات، وإخلاص العمل، والنصح لله ورسوله والمؤمنين والخوف من رقابة الله، لكن ليس مجرد الالتزام الديني مؤشر ضامن دوما إلا باختبار السيرة الشخصية فقد يكون غيره أقل تدينا منه ولكنه أكثر نفعاً .. لذا يكون المعيار دوما الأنفع والأنزله.

ويمكن حوصلة ما سبق بالقول إن مصطلح (الدولة الدينية) لا يتوافق مع النصوص بل يتعارض معها، فالدولة الدينية تعني أن وزير الصحة، أو الكهرباء، أو الزراعة أو المواصلات يجب أن يكون غالبا عليه فهم علوم الدين أكثر من مجال التخصص، أو متدينا فقط وهذا مخالف للشرع، بل يجب أن يكون عالما بتخصصه الدنيوي، متقنا له، ثم إذا سنّ وزير الصحة قانون الصحة مثلا فليكن مراعي للشرع في منع الإجهاض على سبيل المثال؛ لأن فيه نصا شرعيا، وهذا معنى إقامة شرع الله .. وأين يتركز الشرع تحديدا في نظام الحكم؟

الجواب: يتركز الشرع أكثر في إدارة الأحوال المدنية ل(الإنسان)، وضبط علاقاته الفطرية للحفاظ على كمالاته وغاية وجوده، فالله تعالى حاكم للإنسان بشرعه لأنه خلقه لعبادته، لكن الإنسان حاكم للكون باجتهاده لأن الله سخره لمصلحته .. فما تعلق بالإنسان فذلك شأن إلهي، وما تعلق بقوانين إدارة الدنيا فالإنسان هو الحاكم لها حتى يتعارض شأن من شئونها مع نص شرعي فهنا يسمع للشرع كلمته، إلا أن غالب الحياة ونهضتها قائم على الاجتهاد البشري .. ولذلك لم يكن الأنبياء يعلمون عن نواميس الحياة المكتشفة اليوم لأنها شؤون دنيا، في حين رسالتهم تعبيد الناس لخالقهم، أما تطوير الحياة فعائد لحاجات الناس وإعمال العقل في اكتشاف نواميسها التي أودعها الله، من هنا أيضا لم يتحدثوا عن نوع نظام الحكم ونوع إدارة الناس للدنيا، بقدر ما كانوا يتحدثون عن الإنسان ونوع علاقاته مع الخالق والمخلوق، وأعني بنظام الحكم الطريقة التي يسيرون بها حياتهم .. هل هي رئاسي .. حكومي .. نيابي؟

وإن قوانين الدنيا لتتغير طبقا لحاجات الإنسان، أما قوانين الإنسان فتأبته لا تتغير لأنه فطرة الله، حتى لقد جعل الله الدين لصيقا بفطرة الإنسان، كأن الدين معني بدرجة أساسية بضبط سلوكه فقط قال

(1) (رواه أحمد وغيره).

تعالى: (... فَطَرَتَ اللَّهُ الَّذِينَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهِمْ لَنَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ...) (1) فجعل فطرة الله مقابل الدين .. (فطرة الله .. ذلك الدين). الفطرة هي الدين.

وقد اتضح الخلل الإنساني في الحضارة المعاصرة فعندما شرّعت الدول المتحضرة للدنيا أبدعت فيها، لكن عندما شرّعت للإنسان فشلوا فشلا ذريعا واسترسلوا في المسخ ومجافاة الفطرة، وحطموا منظومة القوانين الإنسانية، وصار الإنسان تحكمه المادة والمتعة والهوى لا يتحكم هو فيها، وهذه هي العلمانية التي نرفضها، والتي هي دعوة مفتوحة في تعريفها لأن يشق الإنسان طريقه نحو التحرر من كل قيد حتى من قيود الإنسانية ومعانيها.

من هنا يمكن أن نقول إن مصطلح (المدنية) لا (العلمانية) هو الأكثر انسجاما مع فلسفة الإسلام للحكم، فالمدنية كمصطلح لم يأخذ هويته الرسمية كما أخذه مصطلح العلمانية من مجافاة للدين، بل من معاني المدنية أي إدارة الدنيا طبقا لمعايير المدنية المتحضرة في الأدوات والآليات وتطبيق العدالة والمساواة على الجميع، التي تتميز بها عن سكان الوبر والمدر الذين تتعدم لديهم وسائل العصر الحديث، ويسودها الفوضى وعدم النظام.

والذي يأبى مصطلح المدنية معللا ذلك أنه رديف للعلمانية إنما يستند برأبي إلى استنتاجات تخمينية متعسفة، وفيه تنازل غير مبرر عن مصطلح دال على مقاصد الشرع وهو حسن إدارة الدنيا، وإقامة العدالة التي تميزها عن الحياة البدائية المتخلفة وغير المنضبطة.



(1) [الروم 30].

مصطلح الدولة المدنية محاولة تأصيلية

بوافر المحبة تلقيت تعقيبات لبعض أساتذة الفكر والرأي حول مقالي السابق المعنون ب (الدولة المدنية موافق لمقاصد الشرع) منها الراضي وغير الراضي .. فالصنف الأخير يعترض على مصطلح الدولة المدنية .. وأقول: لانريد جميعا العلمانية؛ لأنها تفصل الدين عن الدولة، بل وتفصل الإنسان عن منظومة قيمه، أما من يقول لا نريد مفهوم الدولة المدنية .. فنسأل عن باعث الرفض فيكون الجواب؛ لأننا نريد الدولة الإسلامية وهذا من حق الشعوب، ولأن الدولة المدنية برأيهم أخت العلمانية.

وهذا ردي على التعقيبات.

أولاً- نعم يجب أن تكون الحاكمية لله، ولكن فيما نص عليه الشرع، فالنصوص متناهية لكن الحوادث متجددة وغير متناهية .. فيمكن القول إن السلطة التشريعية يجب أن لا تصدر قانونا يخالف حكما شرعيا قطعي الورد والدلالة متفقا عليه ويكون هذا ثابت في دستور الأمة، وما عدا ذلك فإن السلطة التنفيذية مطلقة العمل بوحى المصالح المرسله حتى يقيدها نص شرعي صحيح .. وبالتالي لا يصح تسمية السياسة بالإسلامية لمانع شرعي برأيي، حيث يأبى الإسلام جعله واجهة لسياسات الدنيا التي معظمها مسير بالاجتهاد البشري القاصر، وليس كلها مقيدة بالنصوص، نقل ابن القيم رحمه الله أن شافعيًا قال للفتية المشهور ابن عقيل: لا سياسة إلا ما وافق الشرع. فقال ابن عقيل: السياسة ما يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي، فإن أردت بقولك (إلا ما وافق الشرع) أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع فغلط وتغليب للصحابه. ولو لم يكن إلا تحريق عثمان المصاحف فإنه كان رأيا اعتمدوا عليه في مصلحة الأمة، وذكر بن القيم أن الاجتهاد في السياسة يكون على أساس المصلحة وأن كثيرا من أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وأعمال الخلفاء الراشدين إنما قامت على المصلحة الشرعية فيمكن أن تتغير بتغير وضع هذه المصلحة⁽¹⁾ هذا النص المنقول عن ابن عقيل رحمه الله يؤكد أن سائر أعمال السياسة اجتهاد بشري، فلا ينبغي أن تعزى كلها إلى الإسلام فيحمل أخطاء البشر، فلا يقال هذا المشروع الدنيوي جاء من وحي الشارع، بل هو من وحي حاجات الناس، ولكنه غير مخالف للشارع فقط. وهذه هي الشريعة.

(1) (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية من 19' 20) عن مؤسسة الشيخ بن عثيمين.

قال أهل العلم في تعريف الإمامة: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا".⁽¹⁾ انظر في قوله (حراسة الدين) ولم يقل سياسة الدين للدنيا .. وفي الكليات الخمس (حفظ الدين) .. أي تطبيق أحكامه ثم قال (وسياسة الدنيا) يعني مطلقة حتى يأتي دليل يقيدها عندئذ يجب مراعاة الشرع.

قد يُعلن إمام الأمة الحرب أو السلم باجتهاده البشري المقدر للعدة والعتاد والمصلحة والمفسدة، وترجيح النصر فينتصر أو ينهزم، فإذا انتصر وجب عليه شرعا عدم التمثيل بالقتلى مثلا هذا هو دور الشرع .. وإذا انهزم فيحمل تقديراته وفريقه العسكري مسؤولية الهزيمة وليس الإسلام، ولا يوجد في الشرع أن الإسلام هو الذي يفكر للحاكم بطريقة آلية، فالله خلق لنا عقولا والدليل أن الكفار بحسن سياساتهم أبدعوا وأنتجوا وغلبونا وليس معهم الإسلام يفكر لهم .. لأن الدين حث على استخدام العقل، ولا تنتظر منه أن يعلمك أبجديات حياتك الابتكارية، وبالتالي (حفظ الدين) يكون معناه في تطبيق أحكامه في مظانها، وليس الدين هو من سيحفظ الحاكم من الخطأ الانتاجي أو السياسي، وليس هو من سيبنى ناطحات السحاب، ويمد الجسور وينشئ الصناعات المحورية، ولاشك أن التقوى والصالح مما يعين الناس على ما ليس في مقدورهم كإنزال المطر وإنبات الزرع والبركة في البنين، كما ورد في الذكر الحكيم .. وليس في الشرع ما يمنع الأخذ بقانون أي دولة في نظام المواصلات مثلا، إذا لم يكن فيه مخالفة وبالتالي لا يسمى هذا القانون إسلاميا بل هو قانون مواصلات وحسب.

وفي ظل الشعارات الإسلامية سيكثر ابتزاز الناس باسم المقدس، لأن مخالفته سيعني رفضه من حيث هو، فيتخرج الناس من مقاومة الظلم باسمه؛ وهذا ما تفعله الأنظمة الإيدلوجية التي تحكم باسم الله وتحمل الدين كل أخطائها .. وإنما هي شاهدة زور على دين بريء منها، وما أسرع ما سيتبارى أعداء الإسلام في جعل أخطاء البشر وقصورهم هي أخطاء الدين نفسه وقصوره .. ولا حكمه من رفع شعارات عمومية مثل (الإسلام هو الحل) الذي يوهم أن الإسلام سيأتي بمثابة شركة تأمين على الحياة وبنك أحلام المحاويج، وسيحكمهم بالخوارق الإلهية والمعجزات الربانية وبكلمة (كن) نصل إلى الفضاء .. مع أن دنيا الناس هو شأن الناس بالمقام الأول، ولن يتحمل أصحاب هذا الشعار نتائج فشلهم إن فشلوا بل سيتحملة الإسلام الذي حملوه مهمة بناء المدينة الفاضلة بمجرد وصولهم إلى الحكم.

وأن يحمل تنظيم اسم (الدولة الإسلامية) هل هذا الشعار كاف وحده لتقديم نموذج صالح للقياس .. بل لم يمنع من أن ترتكب (داعش) تحته الجرائم والفظائع، والقتل والتفجير والتكفير، ونجحت فقط في إبراز خواء العقل والفكر وفشل في تقديم مشروع نهضوي لحياة الناس بل وحتى مشروع تحرري

(1) [الأحكام السلطانية للماوردي: ص3].

واضح مع ذلك ولم تلقى هذه (الدولة الإسلامية) سوى التأييد والتعاطف من الشباب الجاهل الذي تلفت أنظاره وتلهب مشاعره مجرد أسلمة الشعارات بدون النظر إلى الجوهر ووقائع الواقع.

وهاهي (الدولة الدينية) لحركة طالبان تمنع الفتيات من التعليم وإنما يتحمس لها البعض من باب موروث الغيرة القبلية في خروج النساء، والإيمان بذكورية الحياة دون تأصيل شرعي وتوخي المصلحة العامة. وتسند الوزارات التخصصية لوعاظ وقادة مليشيات، فبحسب أحدهم أن يكون تقيا وأن ينجح في الحفاظ على الطابع الثقافي المحلي من لبس وعادات قبلية متوارثة، وترى أن هذا هو الدين، أو كل الدين .. وإن شئت هاهي الجمهورية (الإسلامية) الإيرانية اسمها إسلامي وعلى علمها لفظ الجلالة (الله) ولباس زعمائها إسلامي ولكنها تدمر شعوبا باسم الله، ومليشياتها تنفذ التطهير الديني باسم الحق الإلهي، وتمارس الاضطهاد على الشعب الإيراني فليس إلا ما يقوله المعممون وكل ذلك يجبر باسم الإسلام، وبسبب هذا الازدواج والانفصام لن يكتب لها الاستمرار لأن النفاق هو الذي يحكم والهزم مقلوب والسير معوج ولو تركوا الإسلام من زيف الشعارات لكان في عافية.

فخطأ أن يقال في حكم البشر، هذه إرادة الله أو أننا نمثل الله .. بل حكم البشر والبشر يخطئون ويصيبون .. وفي السياسات لغة التورية والمجاز والمجاملات الدبلوماسية .. وفيها الحروب بشتى أنواعها، فيدخل فيها الكذب .. والمراوغة .. وقول الشيء وإرادة نقيضه .. والعمل بالتقية الاضطرارية مع المحاربين .. فهذا كله ينبغي أن يسند إلى سياسة البشر وسياق حياتهم، وليس إلى الإسلام، حيث الشريعة مبنية على الظاهر، وتعمل بالحقيقة لا بالمجاز، ولا بالاستعارات ولا بالتوريات، فلا يصح أن يقال في الكذب والخداع والمناورة .. الخ إنه سياسة الدولة الإسلامية، فحاجة السياسة اضطرار ظرفي أحيانا لا يصح تحميله الشرع .. وقد سبق قول النبي صلى الله عليه وسلم حين كان يوصي قواده: " وإن حاصرت حصنا، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيك، فلا تجعل لهم ذمة الله، ولا ذمة نبيك، ولكن اجعل لهم ذمتك، وذمة أبيك، وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذمتكم، وذمة آبائكم، أهون عليكم من أن تخفروا ذمة الله، وذمة رسوله، وإن حاصرت حصنا، فأرادوك أن ينزلوا على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله، أم لا " (1) أي لا تحمل الإسلام ما قد يتعارض معه من تصرف بشري قاصر. وفي حديث تأبير النخل "أنتم أعلم بشؤون دنياكم" ولم نجد أن النبي المعصوم قد أطلق اسم إسلامي على شيء فيكفي أن الحياة تسير دون مخالفة لحكم من أحكامه، وبالتالي يمكن القول أن المطلوب هو الدولة المتدينة المتورعة عن تجاوز حدود الدين، لا الدول الدينية التي تدعي حكمها للدنيا باسم الدين في كل

(1) (رواه مسلم وابن ماجه واللفظ له).

شيء، وإلا كان يجب أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم إنسان نجح في خدمة الدنيا فكان أول من مد الجسور وأقام السدود وفكر للناس في الصناعات المعاصرة وكذلك بقية الأنبياء، فما هو مهمة الدين هو تعريف الخلق بما لن يعرفوه بعقولهم وهو مسألة (الغيب) (الذين يؤمنون بالغيب)، وثانياً ضبط الإنسان في حياته، من عقيدة، وعبادة، وشريعة، وسلوك، طبقاً لفطرة الله التي فطر الناس عليها، وما هو في إطار التحصيل البشري فهو متروك لهم (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) أي طلب منكم عمارتها بعد أن زود الإنسان بكل قدرات التسخير، نعم. الله تعالى وعد المتقين بالإعانة بالمطر، والرزق، والبنين، والنصر، ونحوه ولم يعدهم بالتفكير بدلاً عنهم في شؤون الدنيا، فالدين لا يفكر للدنيا، فهذا تعطيل لنعمة العقل القادر على اكتشاف نواميس الحياة وتسخيرها .. ولذلك تقدم الكفار بدون الدين لأن أدوات التقدم المادي متاح للجميع بأصل الخلق.

ثانياً- مفهوم مصطلح الدولة المدنية المتداول هو المصطلح العلمي الجامع للعدالة الاجتماعية والتسامح الديني، وهي موافقة لفعل النبي - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء من التسامح مع الأقليات .. وشملهم بميزان العدالة .. وعدم مصادرة حقوقهم أو التضييق عليهم .. وتعني تجنب قدسية الدين من الخط بأوضاع السياسة، والتحكم في الآخرين باسمه، لكنها تعترف بوجود الدين في حياة الناس وفعاليتها، وليس صحيحاً أن المدنية كالعلمانية، فالعلمانية إن كانت تنسب إلى العلم فهي لا تقبل إلا ما وافق الطبيعة المادية، وإن كانت تنسب إلى العالم، فالمراد عالم الشهادة ولا علاقة لها بعالم الغيب وسلطة الغيب وعالم الآخرة، فجعلت سلطتها فوق سلطة الدين، وتسعى إلى محوه لأنها لاتؤمن إلا بمادية المعرفة وتجعل السوق دينها والمتعة ربها.

ومن معاني الدولة المدنية أي الدولة المنظمة التي تلتزم بضوابط وقوانين تطوّر من حياة الناس عمرانيا وإداريا وسلوكيا، خلافاً للحياة البدائية المنفلتة التي يغلب عليها الفوضى وعدم الانضباط. .. وطبقاً لبعض الاستقراءات الحديثة فإن اسم المدينة يطلق على كل تجمع سكاني متعدد الأديان والفكر، في حين القروية تحمل معنى الوحدة الفكرية مع التعصب له، وعليها كان ينزل العذاب.

ولقد غير رسول صلوات الله عليه اسم (يثرب) باسم (المدينة) حين أسس دولة المسلمين الأولى، التي كان يقطنها غير المسلمين، ولعل في اسم المدينة إشارة إلى القبول بالتنوع وحفظ الحقوق للجميع، وبالتالي فهذا الاسم مستنده المسبوق لدينا، ولا شأن لنا بتأويل العلمانيين لمصطلح المدنية، إذا حرفوا معناها فلسنا صدق للمتلاعبين بالألفاظ، بل نحمل المدنية كما ألفناها وعرفناها من تأريخنا وسنة نبينا .. فإذا سموا عبادة الشيطان مدنية فهذا شأنهم، فليس المعجم السياسي حقوقاً محفوظة للعلمانيين حتى يضطر البعض إلى الانسحاب من مصطلح إلى آخر لأنهم وجدوا العلمانيين قد استحوذوا عليه.

ودولة مدنية تعني أيضا أن يكون حاكمها شخصا مدنيا لا عسكريا؛ لأن ثقافته ثقافة حروب تعلم فيها هدم الجسور وفتح القبور وإسقاط الأهداف، لا ثقافة مدنية تعلم فيها السلم وصناعة الحياة وبناء المرافق وتحقيق الأهداف .. وهل الإسلام بهذه المعاني إلا دين مدني حضاري لا وبري سطحي، ودين ابتكاري تحديتي، ومشروع مفتوح لإعمال العقل واستعمار الناس لبناء الحياة لا دين الجمود والكبت وقمع الحريات.

وأما أن اسم الدولة المدنية غير موجود في التاريخ كما أشار إلى ذلك مفكرون كالدكتور محمد عمارة فهذا لا ينفي وجوده على مستوى الممارسة، وثانيا ليس كل صيغة نافعة تحتاج لسبق في تاريخنا، فالديمقراطية جديدة بصيغتها الحالية وآلياتها فهل نرفضها؟ هل نرفض اسم الجمهورية لأن المسلمين لم يعرفوا سوى الملكية الوراثية (إن الحكمة ضالة المؤمن أنا وجدها فهو أحق بها).

****أخيرا.**

إن محبة الدين في يقيني تدعونا إلى هذا المصطلح العام، فلقد راجت ظاهرة المتاجرة بالدين، وإسناد الجرائم إلى لإسلام، وإسناد أفعال الشيطان إلى الله، ولا ينقص الإسلام أوصياء ولا أديعاء، فالحاجة تقتضي تخفيض سقف النفاق الديني، وعمل مصدات حمائية لقدسيته من المتمسحين والمتطعين والمتاجرين به، فإما أن يحولوه إلى مجرد خدمات إفتائية لجور السلاطين فيخلطوا مقاصد الخالق بمقاصد المخلوقين، أو يحولوه إلى مقاصل استباحية لجور العصيان والخروج المسلح، أو لدس المراكز الاستخبارية التي تنفذ أعمال الشيطان وتنسبها إلى الله.

إن هذا الدين لم ينزل مماسح لعبث العابثين، ولا سواتر حاجبة لجرائم المتهوكين، ولا يشرفه ترنيج الألوان السوداء بكلمة (إسلامي) فلينته البيع والشراء بالإسلام فليس ملكا لأحد، كما ليس مجرد رافعة للوصايات المتحكمة الذين أخذوا منه العمامة كعلامة للجودة، وقطنوا مكاسل المرجعيات الديكورية ليتخلوا عن الدفاع عنه، وينصروه إن نصروه بسيل من التوجيهات الفقاعية الاستعلائية المجردة.



أرفض الدولة العلمانية والدولة الدينية .. فماذا أريد ؟

يقولون دعوا الدين جانبا، نريد حكم العلمانية .. يكفيننا صراع الحركات الراديكالية السياسية المتعصبة .. فقد جربنا دعوات الهدم الطائفي والمذهبي، والفكري، ولم تقدنا إلا إلى الويلات والدمار .. والمخرج هو الحكم العلماني، الذي شعاره لاسياسة في الدين ولا دين في السياسة .. اعط ما لله الله وما لقيصر لقيصر .. من أراد المسجد فأمامه المسجد، ومن أراد الخمارة فليذهب يختمر .. (ولكل وجهة هو موليها).

لكني أرفض أنا العلمانية .. لماذا؟

أولاً- ينسى أصحاب هذا المزاج السياسي أن العلمانية وأن بدت محايدة دينيا إلا أنها هي أيضا دين .. فربها المتعة، وعبادتها ربط الذات بالم لذات .. وشريعته السوق .. وإن بدت رحيمة لا تقتل ولا تسمح بعقوبة الإعدام، إلا أنها تكرم القاتل فوق أنها تحتل شعوبا إذا اقتضت دنياها ذلك وإن لم تكن ذات دين .. وإن بدت لا تكفر ولا تُجّر إلا أنها تصنع أسلحة الدمار الشامل، الذي لا يترك مجالا للخلاف ولا للاختلاف؛ لأنها تقضي على كل شيء.

ثانيا- اجتاحت الساحة الإسلامية مؤخرا حركات عنفية باسم الدين، ولكن لا علاقة للدين بالجرائم حتى يقصى بسببها، فهي جماعات كثير منها وصولية؛ لكن لأن الدين هو المقدس الأكبر في المنطقة ذهبوا ليتمسحوا به حتى يكون لدعواتهم صدى، ولشعاراتهم شرعية شعباوية، ولو كانت العلمانية هي المقدس الأكبر لتمسحوا بها أيضا ولرتكبوا الفظاعات باسمها .. فهل إذا خرجت جماعات باسم الدين أو باسم المطالبة بالعلمانية ومارست القتل باسمه .. وسرقت باسمه .. وعاثت في الأرض فسادا باسمه، هل الدين أو مسمى آخر كالوطن يكون هو المسؤول عما تفعل؟ ويكفي زيف ادعائها أنها تخالف أبسط قواعده التي منها قتل النفس التي حرم الله بغير الحق، فوق أن من الجماعات ما تم إنشاؤها استخباراتيا من دول عظمى علمانية لا تؤمن بالدين وأقليمية طائفية فهي تفعل للضغط على الدول التي تريد وفي الوقت التي تريد، وقد رأينا كيف نشطت داعش في أفغانستان بعد طرد أمريكا منها، وكيف نشط التطرف في مالي بعد طرد فرنسا منها، وكيف اشتعلت داعش فجأة في العراق وسوريا واجتاحت مناطق واسعة ليتم تنفيذ تطهير عرقي ضد السنة باسم محاربتها وبعد إخلاء المناطق من أهلها تبخرت فلم نجد قوادا يحاكمون ولا أوراقا تتساقط ولا وثائق تنشر؟!.

ثالثاً- يمكن أن يحاسب الدين على المخرجات التي استنقت تعاليمها منه مباشرة، أي رجال الدين الشرعي لا رجال التدين الشوارعي، فهؤلاء مراجعهم غريبة الفكر، مجهولة الهوية .. تحاسب مخرجات معاهد الأزهر في مصر وجامعتها مثلاً، وجامع الزيتونة في تونس، والمعاهد العلمية في اليمن التي ألغيت بعد ذلك، والزوايا والأربطة، ومدارس إعداد الخطباء والمرشدين التي كانت منتشرة في القارات الثلاث وخرجت عشرات الآلاف من الطلاب العلماء العاملين، فهذه المؤسسات الدينية الرسمية لم تخرج أناساً عنيفين ولا متشددين .. بل أناساً أهل صلاح وعلم واعتدال .. ولقد كان لإغلاق بعض المحاضن الدينية وعزل الجيل عن تعاليم الدين الصحيح والفصل بين العلماء الحقيقيين والجيل المعزول، أثره الخطير في جرف مراهقين ملعوب بعقولهم باسم الدين، والدين منهم براء، لكنهم لم يعودوا يعرفون عنه من مصادر التلقي الصحيح، بل من أدياء التدين .. فكان من أسباب الإرهاب عزل المتدينين عن منهجه السليم، وقد فعلوا ذلك للأسف باسم تجفيف منابع الإرهاب، وباسم علمانية الدولة والتعليم، فساعدوا على تخليق بيئات ملائمة لتفريخ (الإرهاب) .. وترك الشباب غير المسلح بالعلم الشرعي وعلماء الاجتهاد عرضة لاقتراس جماعات صناعية مشبوهة.

رابعاً - الذي حكم المنطقة العربية بشكل عام منذ 100 أي من بعد انتهاء الخلافة العثمانية هو المنهج العلماني أكثر من المنهج المحافظ حتى الآن .. ولم تكن صيغ الحكم المحافظة كالهاشمية في اليمن، والأردن، والمغرب لتتلفع بالدين إلا لأنه برأيها يمنحها حقا إلهيا، وهو مسمى لا علاقة له بصحيح الدين .. وبالتالي لم تكن نموذجا صالحا للاحتذاء بها على مستوى تطبيق العدالة الإسلامية.

وما بقي من مشيخات كالخليج فصيغة الحكم المحافظة لديها كان مرده إلى التقاليد العامة الموروثة، التي مثل الدين جزءاً من هذه التقاليد .. أما الدين كمنهج في غير الأحوال المدنية، فلم تكن السياسة الشرعية هي التي تحكم، والدليل الثنائية الضدية معه ممثلاً بحجم الارتهان للدوائر غير المحبة للإسلام نفسه .. وما عدا ذلك فبقية الأقطار حكمها علمانيون يحاربون أخلاق الدين في قنواتهم ليل نهار، بعد أن تحولت العلمانية عندهم إلى دين ثابت وخيار مقدس .. لأن فيها مأمناً من رقابة الهوية الحاكمة للمجتمع، فصار مخالفتها شيء محرّم ومجرّم، وحكمت بالقوانين المخالفة للشرع في كثير من المجالات .. فانتشر العري .. وأنشئت مصانع الخمر .. وتعددت الفنادق التي تسهل العلاقات المحرمة .. وظهرت الفتيات إلى جانب الفتيان في علاقات تحكمها المراهقة والميولات الجنسية .. فهاهي ذي العلمانية حكمت بكل طاقتها .. ففيم أفلحت؟ لو كانت هي الوصفة السحرية للعيش الحضاري والمستقر، لما توحشت بتلك الدرجة في اللصوصية والاستبداد وعاشت تحت ظلها شعوب مطحونة تقترش الأرض وتلتحف السماء لنحو قرن من الزمن.

وأكثر الفظاعات في العالم العربي والإسلامي قام بها حكام لاعلاقة لهم بالتربية الدينية، بل منهم الشيوعي والاشتراكي، والعلماني، والليبرالي، وغالبهم كان معاديا للهوية الإسلامية .. فلم يصلح إقصاء الثابت الديني شيئا من حالهم ..

خامسا- لن يقبل أصحاب المزاج العلماني في دولنا الشرقية أن تحكمهم العلمانية لو علموا حقيقتها، فإذا كان جوهر معناها هو فصل الدين عن الدولة وإنهاء حاكميته في المجتمع، فإن عليهم أن يثبتوا إخلاصهم لها بترك بناتهم وزوجاتهم وأبنائهم يمارسون حريتهم المطلقة دون رقابة أبوية، إن علمانية الحكام في المشرق غالبا علمانية سياسية أما قانون المجتمع فهم ملتزمون به .. والعلمانية بمعنى الحرية الفردية إن تعهدوا بتسهيلها لبقية أفراد الشعب فإنهم غالبا من أشد الناس محافظة على أعراضهم، ناهيك عن أن يستسيغوا الإيغال في الشذوذ الجنسي الذي هو من ركائز العلمانية، إذن لن يقبل العلمانيون في بلداننا غالبا بالوصفة الكاملة للعلمانية، حتى في طقوس الزواج، والطلاق، والمواريث، ودفن الموتى، والعلاقات الأسرية .. إلخ فهي تجري بين النخبة العلمانية وفقا للشريعة .. لكنهم يرحبون بها في إقصاء الرقابة الدينية عن الحكم.

من هنا فأنا أرفض وغيري يرفض الحكم العلماني مع تفاوت النسبة واختلاف التعريفات .. لأن المقاصد العلمانية كثير منها ضد الفطرة وتهدر الكرامة الإنسانية وتسحق القيم، ويصبح الناس فيها عبيد أمزجتهم وأهوائهم، فلاضابط لهم سوى ذلك .. ولكنني في ذات الوقت لا أريد الدولة الدينية .. ولا الإسلام أيضا يريد بها برأيي .. كيف ذلك؟ وما هو الصحيح المطلوب؟

بدايةً. المراد بالدولة الدينية هو أن يحكمها رجال دين، فيكون هذا تخصصهم وهذه صفتهم .. وليس المراد برجل الدين المتدين، فقد يكون متدينا ولكن ليس رجل دين .. بل المراد برجل الدين هو المتخصص بعلوم الشرع أو المتخصص بالوعظ والإرشاد الديني.

وعليه فالدولة الدينية هو أن يُعين لوزارة الصحة رجل دين .. ولوزارة الصناعة رجل دين .. ولوزارة الزراعة رجل دين .. فهذا خلاف منهج الإسلام؛ لأن هؤلاء غير مناسبين في الأماكن غير المناسبة .. فرجل الدين ينفع في القضاء وفي الإرشاد .. وما عدا ذلك فلا يصح أن يحكمها إلا أصحاب التخصصات الدنيوية؛ لأن الحكم هو حفظ الدين وسياسة الدنيا .. وندرك من هنا لماذا طلب بنو إسرائيل من نبي لهم أن يجعل لهم ملكا (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهْمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...) (1).

(1) [البقرة 246].

فإذا كان المطلوب هو رجل الدين فهذا النبي كان أفضل دينيا من الملك وكان فيه الكفاية .. إلا أن هذا النبي لم يكن نبيا ملكا كما هو الظاهر كداود وسليمان ومحمد صلوات الله عليهم .. بل رجل دين وحسب إن صحت التسمية يفتي فيه، لكنه لا يجيد ممارسة سياسة الدنيا وتدبير شؤونها، ومنها أمور الحرب، لذلك بعث الله لهم رجلا عاديا هو طالوت، استطاع بمهارته للقيادة العسكرية والقتالية أن يحقق النصر للفئة القليلة على الفئة الكثيرة جالوت وجنوده.

وكذلك كان يولي رسول الله صلى الله عليه وسلم الأهمر في مجاله على الأتقى في الدين، فولي خالدًا وعمرو بن العاص، وأسامة بن زيد في مجال الحروب على أكابر الصحابة .. كما كان يولي الأعلم بالقضاء في القضاء على الأعلم في غير القضاء .. والأفضل في إمامة الصلاة على المفضل.

وعليه فالمطلوب ليس الدولة العلمانية ولا الدينية بل الدولة المدنية الملتزمة بحدود الله كما سبق في تأملة عن الدولة المدنية .. وهي التي تحفظ للناس دينهم كمنهج حياة في العقيدة، والعبادة، والشريعة، والسلوك .. وتصدر أحكام المحاكم عن قوانين الشرع .. ويلتزم الموظف بأوامر الله ونواهيته .. فالوزير إن فاتته الإحاطة بأمر الشرع فهو ملتزم في مجتمعه بعدم فعل ما يخالف الشرع، فوزير الصناعة مثلا رجل صناعة من الطراز الأول، لكنه لايسمح مثلا بإنشاء مصانع الخمر للمسلمين لكن يسمح بتعاطيه لغير المسلمين، طبقا للمرجعية الدستورية الملتزمة .. ووزير الصحة ما هر في مجاله، لكنه يرفض حرية الإجهاض طبقا لمرجع الهوية العامة .. ووزير شؤون المجتمع يطلق الحرية لأصحاب العقائد والديانات وممارسة طقوسهم طبقا لشرائعهم، لكنه يرفض حرية الإساءة لأي دين أو التهجم عليه ممن كان وضد من كان .. ويطلق حرية الرأي وحرية التجارة والتنقلات إلا ما فيه اعتداء وتجاوز على قيم الشرع، التي هي في خلاصتها حماية لحقوق الإنسان الحقيقية، وليس الحقوق المشاعية غير المنضبطة التي تتضمنها القيم العلمانية المنفلتة.



تمزيق المسلمين بلوثة الخلافة

مع إطلالة الدعوة المحمدية وقبل أن يصبح لها دولة، كان الدعاة وعلى رأسهم فائدهم محمد - صلوات الله عليه- هم الطرف المضحي لإقامة دعامة الدين وتوحيد شتات العرب التي أكلتها حروب الجاهلية .. كان يقول النبي لقريش بما معناه هذا الدين فيه عزمكم .. بمعنى أن هذا مشروع بناء وهدف مصلحي إن كان لكم توق إلى المصالح، لكن لم تتظر قريش ما فيه مصلحتها وتغيير واقعها بين الأمم، بل أخذوا يطاردون الدعوة ويعذبون أتباعها، فإذا كان هذا مع العرض بالسلطان لهم فإنهم لا شك سيكونون أبعد ما يكونون عن فهم هذا الدين وتحمل تبعاته لو أنها نظرت إلى وجودها وقد أصبح ضحية لوجوده أي هذا الدين .. فكيف لها أن تفهم أن قتلها قوة .. وأن في تشريدتها وحدة .. وأن في هدم بيوتها بناء وعمرانا .. وأن في هتك حرمتها عزة ومنعة.

وكيف يستطيع الخوارج اليوم أن يقنعوا المسلمين أن وجودهم وكرامتهم وشرفهم ضريبة يجب أن تدفع لعزة المسلمين، فأى عزة هذه التي تأتي من باب ذلهم واسترخا ص دمائمهم؟ كذلك فعل آبائهم من قبل فقد ذبحوا عبد الله بن خباب بن الأرت ذبحا على النهر وهو أعزل وهم ينشدون الخلافة العادلة .. وبقروا بطن زوجته وأخرجوا جنينها فعلوا ذلك وهم ينشدون الخلافة العادلة .. وخرجوا على الإمام علي الخليفة الرابع العادل وقاتلوه سعيا وراء الخلافة العادلة .. ثم قتلوه غيلة وهو في طريقه إلى المسجد كل ذلك باسم الخلافة العادلة، فأى خلافة عادلة هذه التي ستبنى على يد قتلة ومفسدين في الأرض؟.

وهذا ما يحدث الآن باسم إقامة (الخلافة الإسلامية) حيث تتسابق جماعة العنف الافتراضية على شرف تقديم المسلمين كقرايين ونذور من أجل تحقيق حلم وحدثهم، ثم ينتظرون منهم شكرهم والالتفاف حولهم .. تنتظر منهم ذلك وخارطة الطريق إلى الخلافة هذه صارت مفروشة بسجاد أحمر من دماء المسلمين .. ومحاطة بمهرجانات تفجير بيوتهم .. ومصحوبة بإخراجهم من ديارهم بغير حق .. وتبديد لمقومات اقتصادهم .. وتمزيق وحدثهم بالتكفير والتبديع وزرع بذور الفتنة .. وطمس معالم حضارتهم بهدم آثارهم .. ثم وأخيرا نصب مقاصل الموت بشنق آخر إمام مسجد، بأمعاء آخر عالم لا يوافق هواهم .. هذا كله يحدث باسم منفعة المسلمين ومصلحتهم .. فهل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا مع من هم كفار قبل التمكين وبعده؟.

ولأنهم يبتغون بكل تلك الجرائم والوحشية (وجه الله) من دون أطماع دنيوية فإنهم يشهدون العالم أن ذبح المسلمين والمستأمنين يتم على الطريقة الإسلامية وتحت شعار: (لا إله إلا الله محمد رسول

الله) لا تحت شعار دنيا ولا أطماع حاشا لله! .. وموثقة بمقاطع تبدأ بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) .. ومستهلة بتلاوة عطرة من آيات الذكر الحكيم .. ولا ينسون رفع أصبع التوحيد كشاهدة على صدق إيمانهم بالذي خلق المذبحين بالسكاكين على ملة الشيطان وجنوده، يذبحون أسرى ومستأمنين أحياء، أو يحرقونهم مكتفين وأصوات الخوارج هؤلاء تشق عنان السماء بالتكبير (الله أكبر).

ولا تكف الألسنة الوالغين في الحرمات عن ترديد أغنية جنة الخلافة الإسلامية ونعيم عدلتها .. ولشدة استعجالهم للخلافة اللحم يقدمون العربية قبل الحصان .. والأسماء قبل المسميات، فعندنا دولة إسلامية، وإمارة إسلامية .. وولاية إسلامية .. وبعضا الإرهاب تسوق المسلمين سوفا إلى جنة الخلافة الراشدة، ولكن من أبواب جهنم الثمانية مثل جنة المسيح الدجال .. بينما يحاربون الكفار الكترونيا فالكافر دوما عدو افتراضي .. يتم قتله بمقاطع فيديو ينصبون فيها سلاح أصبع السبابة أرض جو المرفوعة في وجه عابرات القارات .. ويحلفون بعضلاتهم البارزة وبصوتهم المسجل بعلامة تنغيم خاص (أقسم بالله العظيم) أنهم قد أعدوا للعدو الويل والثبور وعظائم الأمور .. فالسكاكين قد عدت .. وشفراتها قد حدت .. والأنطاع قد مدت .. مستدلين بالحديث المجازي لليهود في خضم الحرب النفسي في خيبر (لقد جئتم بالذبح) وعليه يصرون على لفظ (الذبح)، مع أن القرآن أسند الذبح للحيوان والنبي قالها مجازا لاحقيقة الذبح بالمدينة، كما يقال حدثت مذبحه أي مقتلة .. عموما لا بد يبشرون الأعداء بالذبح ولتبشر طائراتهم بالحرق وسفنهم بالغرق .. ثم يأتيهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ليتركهم في العراء كعصف مأكول، ولم ولن يجدوا أن يبروا بقسمهم إلا بين المسلمين فلا الأعداء قتلوا .. ولا المسلمين تركوا .. ولا الخلافة قامت .. ولا الفتنة نامت.

ويقيني أن دوائر استعمارية هي وراء هذه الكائنات المعنوية لتشويه العدالة الإسلامية في الحكم، حتى وإن ضربت لحاهم صدورهم، فأى خلافة هذه التي تنتظرنا على أيدي مشبوهين وقطعان من الأشباح المختبئة خلف أقنعة التضليل، وخلف أسماء مزورة وكنى مشفرة، وهويات منتحلة، تلفهم خرق سوداء، فهذه خلافة جماعات مافيا ومحترفي جريمة .. لا يشرف مسلم أن يحكمه أبو حرب .. وأبو وعيد .. وأبو مقصلة .. وأبو غضب .. يضربون في كل بلاد الإسلام باسم جهاد الكفار إلا جيوش أمريكا وإسرائيل فقد بقيت في أمن وأمان .. بل إنهم يقولون إن قتال المجاهدين الفلسطينيين هو الأوجب قبل قتال إسرائيل بحجة أنهم مخالفون!؟

ولو لم يكونوا عناصر مشبوهة فم يخاف هؤلاء المجاهدون في سبيل الله وإقامة الخلافة بالاختباء خلف هذه السياجات والأقنعة؟ أليسوا الله مضحين وفي سبيله مجاهدين وعشاقا للشهادة لا يخافون أحدا إلا الله؟ .. هل معرفة هوية رجل أنذر نفسه في سبيل إقامة هذه الغاية العظمى كثير عليها

.. في حين تدمير المسلمين رخيص عليها .. كثير عليها افتضاح هوية أفرادهم؟ .. قليل عليها فتح المقابر للأبرياء من مسلمين وغير مسلمين ودفنهم أحياء .. إذن إنهم يقتلون بالوكالة ويشوهون الإسلام بالوكالة، إن لم يكونوا هم أصابع الاستعمار المباشرة .. ولو ظهر هؤلاء الناس على حقيقتهم لوجدنا فيهم الضابط الإسرائيلي .. والاستخباري الصليبي .. والشبيح الشيعي .. وكل هؤلاء قد وجدناهم في صفوف داعش التي أطلقتها الاستخبارات، كما تطلق الفيروسات الوبائية ضمن أشكال حربها ضد العالم الثالث.

سيقول لك المتخلفون من الأعراب الدواعش .. أنتم تنظرون إلى الأمور بعيون عوراء .. تتبعون عوراتنا، وتسمونها فظاعات ولا تنظرون ماذا يفعل الغرب بنا؟ ويقولون أيضا أنتم تريدون القوة والوحدة في حين تفقون في خندق الكفار في محاربة إقامة الخلافة الذين تأمروا عليها؟ حسنا .. فانجب على هذه التساؤلات التبريرية.

أولاً- أيها الأشباح المقنعة من هو قدوتكم؟ هل هو محمد رسول الله أم أدولف هتلر؟ .. فلقد أودى رسول الله وأتباعه من قبل الكفار أشد الإيذاء وهم يحملون مشروع خلاص لأعدائهم لا مشروع تخليص عليهم، ولم يكن تعامل النبي القدوة حين يتمكن في معركة شريفة حتى مع من كانوا أكابر مجرميها سوى بأعلى درجات الحلم والتسامح، كثمارة بن أثال، وكعب بن زهير، وأبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنهم، ومن لم يؤمن كعبد الله بن أبي وغيرهم.

وأما قوله تعالى: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)⁽¹⁾ فذلك في الحروب الشريفة في مقام الفعل ورد الفعل، وهذا مالم تفعله خوارج العصر هؤلاء .. فأعداء المسلمين منهم في نعمة وعافية وستر، لن يمسوهم بسوء كما يفعلون بالأبرياء .. ثم على فرض أن أعداء الإسلام قد نضح إنأؤهم بما فيه من تجاوز لأخلاق الحروب فهل في الإسلام إناء ينضح بجرائم من مثل قتل الأبرياء والتمثيل بهم؟ واستباحة ما لا يحل من حقوقهم؟

إن غاية ما يمكن أن يقال في الخلافة إنها صيغة حكم كان للمسلمين في ظلها قائد واحد وكلمة واحدة ومصالح مشتركة وقوة مهابة، وأن إمكان إعادتها متحصل ولكن بصيغة اتحاد مثلا ويكون له قطبية مصالح مشتركة تحقق المعادلة اللازمة مع أقطاب أخرى بحيث تمنع تفردا وطغيانها كأمریکا وأوربا وروسيا والصين.

(1) [البقرة:194].

على أن العبرة لم يعد في الكم بقدر ما هو في الكيف فما ضر الكيان الصهيوني ألا يكون ضمن تكتل دولي وهو يتحكم في غثائية السيل من حوله .. وصحيح أن قوة هذا الكيان جاء من ضعف وحدة العرب والمسلمين أكثر منه قويا في ذاته إلا أن الصحيح أيضا أن اجتماع المسلمين في قالب حكم واحد ليس فيه الحل السحري لكل شيء .. إذ يتبقى قوة الإرادة وحسن الإدارة والتدرج في التخطيط وإدانة العكوف على سد ثغرات فشلها .. فيكفي أن تصورنا لوحدة اندماجية سيصعب معه تصورنا لحق جميع أفراد الدول بالتنقل بلا تنظيم .. فكم سينتقل إلى بؤرة الرخاء من مئات الملايين بلا ترشيد؟ وكم من مئات الملايين سيتوجهون إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج الذي ستغيب معه استطاعة الواقع واستحالة إقامة هذه الفريضة؟ .. فالحنين إلى حلم الخلافة وأمنيات الخيال البارد لا تكفي وحدها .. والأعمال الصببانية المعزولة التي تريد أن تبدئ وتعيد وحدها لا يكفي .. والإجابة على تساؤلات الواقع ليس مقرونا بنوع نظام الحكم وحده بدون توفير الإرادة والإدارة والتوجه العام كما سبق .. وهذا يحتاج إلى تثقيف عام وتقليم أظافر الاستعمار الذي يحول دون ذلك.

أخيرا: من حق أحداث الأسنان هؤلاء الممسوسون بلوثة خلافة مجردة من أي رؤية مبصرة، أن يحلموا بها، وأن يطالبوا بتحقيق حلمهم هذا، وأن يعيشوا يبشروا بها ويربوا أطفالهم على السعي لتحقيقها فليست الخلافة أو الوحدة أو الاتحاد .. أو إلخ وتحقيق القطبية للمسلمين بالشيء المنكر بل هي عز ومعادلة لنفع البشرية، ولكن ليس من حقهم أن يدفعوا المسلمين إلى جنتها عبر بوابات جهنم، وأن يقدموا نعيمها على أطباق من العذاب .. ولا أن يوحدوا المسلمين بتمزيق شملهم وبث الفتنة فيهم.



هل اتحاد المسلمين خطيئة؟

الخلافة الإسلامية تلك القطبية التي غيرت مركزية الرومان والفرس حق لكل مسلم اليوم .. إنها وعد الله الذي سيتحقق والقدر الغالب، ولكن بالتوافق لا بالجبر، بالحكمة لا بالعنت والتخريب .. بيد أن الورثة الشرعيين لامبراطورية الفرس والروم يحاربون هذه الفكرة اليوم باستماتة .. وعن طريق أقلامهم المأجورة يسمون الخلافة خرافة ويقصدون بذلك تاريخ طويل لأمة عاشت العظمة، وكمال العمران، والتفوق الحضري على غيرها .. وصوبوا نحوها مفردات القبح والهجاء لجعلها في عيون أجيالنا مما يستحيا منه وخطأ تاريخيا لا يجب أن يتكرر، وكيف تستقيم مواعظ الواعظين في فضيلة إضعاف القوي .. وتفريق المتفق .. وتمزيق المتحد؟ .. نعم من حقهم أن يخافوا من عودة المسلمين كأمة قاهرة .. وعلى المسلمين أن يزيلوا تخوفاتهم بأن الوحدة العامة بين الدول بأي صيغة من صيغ التكامل والتكافل ظاهرة إنسانية تنشأ وتنتهي، وليس اختصاص المسلمين بفتو التحريم المرفوع في وجوههم بالموقف البريء والمقبول .. فوق أنه يقف في وجه صيرورة التاريخ .. فالمؤشرات تقول إن المسلمين في طريقهم إلى استعادة موقعهم الطبيعي بين الأمم، وإن بدا ذلك في عيون البعض من رابع المستحيالات .. وذلك لأسباب عديدة منها:

- أن توحيد المسلمين دين (إن هذه أمتكم أمة واحدة...) وبقاء حالة التمزق مخالف لدينهم، وهذا الشعور يتعاضم ويزداد وثوقا .. إنها استجابة لكلام ربهم ولدعوة نبيهم: "كونوا عباد الله إخوانا" "مثل المؤمنين كمثل الجسد". "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" إنها عقيدة .. ونصوص مقدسة .. وفريضة شرعية وضرورة بشرية (سنشد عضدك بأخيك) وليس خيالا ولا شتيمة كما يسوق له كلاب حراسة الدول المهيمنة، التي نجحت في زرع بذور العصبية والقوميات وتسويق الكراهية بين المسلمين وأشعلت بينهم الفتن وعمدت إلى تشويه تاريخ وحدثهم.

- أن توحيد المسلمين مصدر عصمتهم - (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ...) ففي ظل اتحاد جامع تذوب القوميات وتنتهي العصبية الجهوية وتتوقف النزاعات .. لن يحتاج الكردي إلى محاربة التركي والعكس .. ولا الأمازيغي إلى كراهية العربي والعكس .. ولا الجنوبي إلى تنفيذ حرب انفصال عن الشمالي .. فبالوحدة والتكامل تتقلص الفوارق وتنسى الإثنيات نقاط افتراقها.

- أن توحيد المسلمين عامل مهم من عوامل الاستقرار .. يحد منبغي الأقوياء وتدخلاتهم واستفرادهم بالدول في حالة تشرذمها .. ومتى كان توحيد أمة متجانسة بالشيء الغريب؟ بل تفرقها هو الغريب .. فقد توحدت الأمم الأخرى في كيانات كبرى، ولم نجد من يحاكم وحدثها، أو ويدين تطلعاتها في تعزيز وجودها بين الأمم.

* فروسيا الاتحادية توحدت من جمهوريات مختلفة في العقائد واللغات وانتزعت بهذا التكتل من العالم الاحترام والتبجيل رغم اغتصابها لنحو (25) دولة إسلامية.

* والولايات المتحدة الأمريكية توحدت من (50) ولاية أمريكية في جمهورية قوية اندماجية واحدة، بأديان وأعراق مختلفة فحصلت من العالم على الإكبار والإعجاب.
* وتكتلت دول الاتحاد الأوربي من (27) دولة عظمى في وحدة غير اندماجية وهم أديان ولغات مختلفة .. توحدت هذه الدول وكلها دول غنية وثرية وقوية لتكون أغنى وأثرى وأقوى وهذا من حقهم وقد حصلوا على ما أرادوا.

* والدول التي تمنع وحدة المسلمين هي التي وحدت اليهود من كل الأعراق، وتسعى لإنشاء إسرائيل العظمى من النيل إلى الفرات يساعدها في ذلك بعض سدنتها من حكومات العار العربية.
لقد دمر العدو الحضاري للمسلمين وحدتهم وأزيلت الخلافة عام 1924 وزادوها تفتيتاً باتفاقية سايكس بيكو، وزرعوا وثنية تمجيد الأوطان وتقديس الأعلام، وبات الحديث عن وحدة المسلمين خيانة وطنية وهذا من السفة وخفة العقل .. وفي ذهاب قرن على واقع التشرذم كفاية في حق أمة عميقة الجذور متينة العرى، فليبدأ هذا الحلم بزيادة التنسيق، والتسويق، والتمثيل حتى يصل إلى مستوى الاتحاد الأوربي وفي ذلك خير كثير.

نعم سنتفق على رفض حركات العنف الاستباحية التي دمرت المسلمين باسم إقامة الخلافة، وقد نختلف على شكل توحيد المسلمين، فليس شرطاً أن تكون تحت مسمى (خلافة)، كما ليس شرطاً تحقيق الاندماج الكامل وتدويب المكونات في بوتقة كيان واحد، فالتنظيم بهدف المنافسة أفضل من الارتجال الذي قد يحدث انتكاسة ويأس، لاسيما في ظل وجود فواصل اقتصادية كبرى .. لكن ما لا يستطيع أحد في الدنيا أن يمنعه أو يدفعه هو حق المسلمين أن يتطلعوا إلى عودتهم موحدين، الذي لا محالة سيكون كقدر غالب وإرادة ماضية، وإن مجرد توفر حكام ذوي إرادة ومسؤولية مستقلي القرار كافٍ لكي تكون عندنا وحدة تضامنية وتكاملية فاعلة، وربما أعلى سقفاً من ذلك.

ومهما فعلت الأنظمة الدكاكينية الهزيلة، وبذلت دول المشيخات خائبة التقدير قصيرة النظر .. ومهما جندت فلول فارس المتطلعة إلى عودة إمبراطورية عبادة النار من أقلام مأجورة وكتابات موتورة فإن قوة كل هؤلاء وكيدهم لا يكفي لمنع حق أمة وتطلعها في وحدتها وتضامنها .. لن تقوم الساعة حتى تعود الخلافة الراشدة كما كانت على منهاج النبوة .. صدق الصادق المصدوق.



حِكْمُ سُلْطَانِيَّةٍ

- التفكير بالعضلات تخل عن شروط الإنسان العاقل لحساب الكائنات الغريزية .. فاختر مع شعبك أن تكون إنسانا.
- التدبير بالتفكير المتأنى يبدأ بحساب المقدمات لتجنب خسارة النتائج .. وكم من الحكام ضحية عواطف ملعوب بها فيضع نفسه حيث لا يجب ليضعه الدهر حيث لا يجب .. ولنا في نهاية من سبق عبرة فأين أمسوا، وأين أنت غدا؟.
- النظر إلى النفس بعيون الآخرين حاجة المحبين لأنفسهم لإزالة تشوہاتها .. والنظر إلى النفس بعيون الإعجاب بالنفس حاجة العاشقين لكامل زائف .. فالإنسان لا يرى عيوب نفسه لكن المغرور يحب زيف الكمال على أن ينظر للعيش بنقائص.
- كل حكم يصدره القاضي يخرج من نسختين، نسخة تتضمن حكما بحق القاضي نفسه، وأخرى تتضمن حكما بحق المتهم، فإن برأ القاضي البريء كان له براءة، وإن أدانته كان عليه إدانة .. فكيف بمن يحكم على الملايين بالأشغال الشاقة بلاذنب.
- أركان النطق بالحكم أربعة قاض، ومدع، وشهود، ومتهم، فمتى صار الحاكم واحدا في ثلاثة بطلت صفة المتهم، وانتهى الأمر إلى طرفين معتدٍ ومعتدى عليه، فلا اعتبار لحكم مختل الأركان .. فمن لا يحكم بالعدل فهو طرف معتدٍ لاغير.
- مهمة السلطان أن يعيش للشعب لا أن يعيش الشعب له .. فما يصنعه للناس ليس منحة منه لكي ينتظر حبه .. فعمله فرض وحبهم له فضل فلا يلزمهم ما لايلزم .. وطاعتهم له واجب ما كان في معروف.
- إذا كان الشعب مصدر السلطات كيف يعود الموظف ليخاير من وظفه فيما يملك؟ فيشترط عليه الرغيف مقابل الحرية، أو الاستقرار مقابل حكم الجبر؟ هذه خيانة لاتجبر بالمقايضة.
- إذا وصل الحاكم للناس الغذاء، والماء، والدواء، فليس كثيرا أن تصلهم بقية الأمانات .. أمانة الأمن .. وأمانة الحرية .. وأمانة العدل فذلك حقهم .. فحافظ الأمانات لا يصير لصا.
- دلت وقائع الدهر وتجارب الأيام أن أول سياج (غير العدل) لتحصين الظالم من عواقب ظلمه هو أول ثغرة يفتحها على نهايته .. إنها تدابير حائلة أمام ما لا يحول دونه شيء.
- يعزف الكثير ممن يحبون المجد الذاتي عن احتلال القلوب بقوة الحق، ويختارون احتلال القوالب بحق القوة .. فيرفضوه ويلفظوه، فيكون بلعنة التاريخ أجدر منه بطيب السمعة وحسن الأحذوثة.
- أول انتصارات الحاكم حين يقبل بالانهزام لإرادة الشعب على إرادته .. وأول هزائمه عندما يحاول هزيمة إرادة أمة هي من إرادة الله.

- ليس وزن الحاكم في كم يحكم من الناس .. ولا في كم يحكم من السنين بل في (كيف) يحكم .. وليست قيمته في كم أقواله بقدر ما هي في كم وأفعاله.
- ما أشقى من ينظر إلى قدرته على من تحته ولا ينظر إلى قدرة من فوقه عليه .. ومن ينظر إلى حساب أرباح الدنيا ولا ينظر إلى فاتورة حساب الآخرة .. ومن يعيش لحظته وينسى مآله.
- لا يهاب سلطان الحكم نخالات بشر يحكمها .. بل يهاب سلاطين فكر ومؤسسات نظام ، فاعلة لا مجرد متفاعلة .. تراه أمامها مسؤولا لا سائلا .. مأمورا لا أمرا.
- لا يربح الفاسد في نهاية المطاف ؛ لأنه نخر في القاعدة التي تحمل المجتمع ومتى سقط المجتمع سقط بسقوطه فيذهب ماله ويبقى عاره.
- سيظل الهرم مقلوبا حتى يصير الرئيس للشعب وليس الشعب للرئيس .. خادما لقضايا الشعب لا مستخدما إياها . . محتكما لمصالح الشعب لا متحكما فيها.
- الصمود هو أن يهدم العدو فتبني .. وأن يفرق فتجمع .. وأن يحاصر فتصنع ، ولا يكون الصمود بتخدي الموت البطيء..فذلك انتحار لا انتصار.

*والعلم أجمع:

- مسرّ نار الفتنة لا يحمل مشروع تسامح.
- نحّات الصنمية لا يحمل مشروع أمه.
- المتاجر باسم حراسة المقدسات لا يحمل مشروع الدفاع عنها.
- مُستقبل توجيهات الخارج لا يحمل مشروع استقلال.
- مصروع الشهوة لا يحمل مشروع بنا غيره.
- حفار القبور لا يحمل مشروع بناء القصور.
- من يعزف على وتر الموت لا يحمل مشروع الحياة.
- المُعتاش على الماضي لا يحمل مشروع بناء الحاضر.
- صانع الطبقة لا يحمل مشروع العدالة.
- باعث العادات السيئة لا يحمل مشروع المدنية.
- مانع الخير للناس لا يحمل مشروع التكافل.
- من يتمسح بكرامة الوطن لا يحمل مشروع كرامة المواطن.



ثالثا- مرؤى فى علاقات المكونات المجتمعية

الاختلاف تنوع وإثراء

الاختلاف ليس اعتداء فيجر إلى عدا .. بل قد يكون الرأي الآخر هدية يستحقها المرء .. فالناس تختلف زوايا نظرهم إلى الأشياء .. ويختلف سبق مهاراتهم إلى التعاطي معها .. فربما بنى الفرد تقييمه للشيء بناء على مقدمات خاطئة .. قادتته إلى نتائج خاطئة .. فيبني عليها مواقف خاطئة .. ويستمر عليها ولا يدري عن الذي يصنعه بنفسه وبالآخرين .. فإذا لم يسمع للطرف الآخر فاتته الحقيقة أبداً .. وراكم على نفسه ومن حوله الخسائر واستمر يدفع ضريبة الانفراد بالرأي .. ولو سمع من الآخرين ربما وجد عند هذا الحل أو جزءاً من حل، وعند هذا الجزء الآخر فتكتمل الصورة وتتوارد الخبرات التراكمية إلى بعضها .. وتتضافر الجهود وتخلق المعجزات.

أصحاب المال والأعمال يشتركون بالخبرات والأفكار بالذهب لتطوير مداخلهم المادية، وتحسين الخدمات الإنسانية .. وما انتهى إليه الإنسان من صنع (الطائرة) إلى هذه الدرجة الإعجازية على مستوى المواصلات كمثل لم يكن نتاج عقل واحد، ولا زاوية رؤية واحدة .. بل نتاج سلسلة طويلة من الوقفات الفكرية والتجارب العلمية الإنسانية المتعاقبة .. وكل عقل يضيف شيئاً جديداً، حتى طارت كتلة ضخمة من الحديد وعليها 700 راكب تنتقل في الجو بين الأقطار، فلو وقفت عند أو تجربة فاشلة لم تكن لتصل إلى هذا المستوى .. فلماذا يرفض صاحب السير الخاطئ في ثقافته أو مؤسسته أن يستقبل آراء ونصائح ومعلومات وأفكار الآخرين المجانية؟ فيطور من نفسه ويعزز من ريادة مؤسسته، ويتحاشى أخطاء قد تكون مدمرة؟ .. وأفضل من رأس المال المادي رأس مال فكر المرء .. وعلى تعدد الآراء نهضت دول .. وارتقت مؤسسات .. وصقلت سياسات .. وبالرأي الآخر يمكن تجاوز الكثير من الأخطاء المميتة.

ويمكن نذكر لتعدد زوايا الرؤى واختلاف أنماط التفكير قصة من الحرب العالمية الثانية حيث يذكر أنه كثر سقوط طائرات إحدى الدول، فاجتمع خبراء تلك الدولة فقرروا أن يدركوا الجزء من الطائرة الحربية التي تعود وقد اخترقته المضادات، ولكن النتيجة لم تتغير وظل سقوط الطائرات في تزايد مستمر، فاستدعوا خبيراً آخر، فقال انظروا الجزء الذي تعود الطائرة وهو سليم درعوه هو؛ لأنه لو أصيب لسقطت الطائرة ولما عادت، وفعلاً تغيرت النتيجة، لقد فُتح المجال لكل صاحب نظرة خاصة، ولم تعد العقول أن تجدها في أحدها، أو تظهر ومضة أو تراكم خبرة.

إن الواحد بمفرده عقل وهو مع غيره عقول .. وهو بمفرده خبرة وبغيره خبرات .. والحكمة تقول: إذا وجب أن يكون رأيي دائماً هو نفس رأيك فأحدنا زائد على الحاجة .. لذلك فالمسلمة الناتجة

عن قراءة مجموعة أثبتُ وأحوطُ لاستكمال زوايا الدقة من قراءة فرد واحد .. وإنما تصاب الجماعات والأحزاب والمؤسسات ومؤلفو المناهج بالعمق والتكلس عندما تحكم بمركزية التفكير .. فتستمر تجتر قراءة فرد واحد وتتنظر من زاوية نظر واحدة .. ويستمر العمق والجمود ومن ثم الفشل.

على أن المسألة تصبح أكثر جموداً وتعقيداً عندما يضاف عليها هالة القداسة .. فقد يستمر الخطأ بعامل القدسية مئات السنين، -وعلى سبيل المثال- كانت الجاهلية على حالة من الانسجام المجتمعي والتصالح العاطفي في مسألة عبادة إله من حجر .. صخرة ينحتها صاحبها ثم يصبح المنحوت إليها للناحت .. لأنه لا دور هنا للعقل .. لقد تم تعطيله من المجتمع كونه لا رأي مع مقدس .. ولو أتيحت الفرصة لمناقشة هذا الخطأ الاعتقادي لوقف العقل إلى جانب الرأي المخالف .. إذ كيف يصبح المصنوع معبوداً للصانع وهو الذي أوجده ولو شاء لحطمه بضربة واحدة؟.

ولذلك الإسلام لم يحجر على الرأي الآخر على الإطلاق .. حتى في أقدس المقدسات .. إذا كان المراد بالرأي الوصول إلى الحقيقة الغائبة لدى صاحبه وليس مجرد التجديف والإساءة .. فقد ترك الله تعالى لإبليس والملائكة وآدم حق المراجعة .. واستمع من الجميع وهو صاحب المطلقات ولا يزال يقول: (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا)؟⁽¹⁾ (ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين)⁽²⁾ (أم تأمرهم أحلامهم بهذا)⁽³⁾؟ (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)⁽⁴⁾ ومواضع أخرى.

وتأسيساً على ما سبق فليس صحيحاً أن ينتظر أحدنا من الناس موافقته في الرأي بالضرورة .. ولا حتى من ابنه أو صديقه .. فصديقك الذي قد يحوجك رأيه ليس من صدقك بل من صدقك .. ومتى ما وجد الشخص أنه يميل إلى أن يكون الآخرون صدى لرأيه، ونسخة مكررة منه، ويحظر معارضتهم له فهو ليس خادم فكرة بل خادم هوى .. ومتعشق استبداد ومسكون بأنانية قاتلة .. فتجفيف منابع العقول وطمس الرؤى من حوله يعني وضع خط سيره على نمط تقليدي مجترئ .. وبالتالي حصيلة غير مريحة من السلبيات .. التي قد توقعه في شراكات لاتنتهي.

ويمثل لهذا الجانب بمثال افتراضي لأحد الملوك المستبدين كان يعجبه أكل الجبن، فكثرت تخزينه في القصر وكثرت معه الفئران حتى ملأت ردهات القصر وأرواقته فاستدعى المستشارين، ولأنهم جبناء يخافون الملك ومنافقون يريدون عطاياهم تحاشوا قول الحقيقة وهو التخفيف من شراء الجبن؛ لأن هذا

(1) [الأنعام:48].

(2) [الأحقاف:4].

(3) [الطور:32].

(4) [البقرة:111].

سيغضب الملك فقالوا: استدعي لها القطط، فجاءت القطط وملأت القصر مواء وخربشات وفضلات وضح منها، فاستدعاهم مرة ثانية، فقالوا أحضر للقطط الكلاب، فجاءت الكلاب وملأت القصر نباحا وإزعاجا وفضلات، فاستدعاهم فقالوا: احضر للكلاب أسدا واحدا ينظف القصر منها، وفعلا جاء الأسد وقضى على الكلاب ولكن قضى أيضا على الملك وعلى مصالح مستشاريه، لقد هدا القصر وخلا من الجبن وساكنيه .. فقول الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، فما مصلحة حاكم ينزع إلى غش رعيته بالكذب وينزع إلى أن يغشه رعيته بالنفاق؟

وهناك من لا يروق له سوى سماع صوته هو والإنصات لهوى نفسه .. ومن ضمن المآخذ على أكبر طاغية يسجله القرآن هو الاستنثار بالرأي، (قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد)⁽¹⁾ فيسبق منطق الفرد تفكير الملايين، فهو يجرحهم بنواصيهم لا بعقولهم، ويلزمهم بلون واحد بدا له كأجمل شيء يراه الناس، فيما أنه يروق له فلا بد أنه يروق لهم وصالح للتعميم، وفي هذا استخفاف بعقولهم، وتجاهل لأذواقهم، وأحيانا لمصالحهم؛ ولأن أهون من مقاومة رأي الطاغية هو الامتثال له لدى آحاد الناس فإنهم يبادرون بإعلان متابعتهم وتزيين رأيه مهما كان، وقد وصم الله قوم فرعون لهذه الظاهرة المستلبة بالفسق قال: (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين)⁽²⁾ وهذا التجاوب مع هوى الحاكم يقوده إلى التمادي في الاستفراد حتى يصل إلى سقف الألوهية (ما علمت لكم من إله غيري) سواء قالها كما قال فرعون أو مارسها فلا فرق، ونظير (ما علمت لكم من إله غيري) .. ما علمت لكم من زعيم غيري .. ولا من قاضي حكم غيري .. ولا من عبقرى فكر غيري .. إلخ وبالتالي: (لئن اتخذت إله غيري لأجعلنك من المسجونين) .. صحيح أن مقاومة السير الخاطئ للعقل أحادي التفكير والرأي قد يقتضي دفع ضريبة، ولكنها أهون من ضريبة الذل التي قد تدفع للحاكم، أو رئيس الحزب، أو المدير المستبد .. فعلى الأقل تعبدنا الله في عشرات الآيات بفريضة التفكير، ولو لم يكن إلا أن الاستقلال بالرأي استجابة لنداء الخالق لكان في ذلك كفاية لأن تحترم العقول.



(¹) [غافر:26].

(²) [الزخرف:54].

انزهار صناعة الكراهية

إن ما هو أخطر من مقذوف ناري، يخرج من فم رشاش فيقتل من الناس فردا أو فردين أو مائة أو مائتين، هي كلمة الكراهية تقذف من فم مريض لتستقر في عقل ضحية هش، فيدمر ما فيه من معاني التسامح والإنسانية والأخلاق .. ويبنى ذلك الشلال المتدفق من الكذب اليومي في عقل الضحية طوبة من حقد، ولبنة من كراهية على الآخر، وربما انطلق بعد ذلك كائنا ملعوبا بعواطفه، يبحث عن هذا العدو الذي صنعه الإعلام، ليبدد ما في صدره من غلواء الغل، فيفجرها في وجهه بلا فهم ولا تفهم .. وإن أخطر من احتلال البيوت، والصالات، بل وغرف النوم بالجنود المسلحة؟ هو احتلال مساحات العقول الخاوية بحقائق مغلوطة عن مكون مجتمعي بريء يؤهله لمستقبل صدامي مرير لا مناص منه بدون مبرر سوى خطيئة الصراع على الكرسي.

وهذا يتم بسبب الخطيئة الأولى لهذا العصر، وهي كرسي الحكم واتصاله بأناس غير أسوياء، ساسة .. وكتاب .. ومعلقون صحفيون .. ومحاضرون في الفكر، يصنعون الكراهية لخلق بيئة مليئة بالجور والظلم وتصفية الحسابات السياسية والثقافية، وفي هذا الواقع المتموج بالخصومات وفرز المجتمع إلى مع وضد يطلق الحاكم حبل التجاوزات فيفتك ولا يعدم أن يجد من يقف إلى جانبه ولو من باب المكيدة والتشفي بعد تعميق الشروخات بين صفوف المجتمع، وفي ظل هذا المناخ المتشطي يكون ثمة ضحايا وعي، فما يصنع فاقد الحيلة وهو يفتح المذيع، ويشاهد الشاشة، ويقرأ الصحيفة، ويتنقل بين المنصات الاجتماعية، وهي كلها تضخ شلالا من التشويه الموجه أحادي المنظور بهدف التأثير السلبي على المتلقين سوى أن يركب الموجه ضد هذا الحزب أو ذلك أو هذا الفرد أو ذلك، فالخصومة الفاجرة لدى بعض آحاد الناس فوق قدرات استيعاب براءته ومع جهله بحدود الزيف السياسي لا يلبث أحيانا أن يصدقها، وقد يتعرض لدرجة من شحن الكراهية بحيث يتطوع لأن يكون أداة بيد الجلادين فلا يبالي على أي بريء وقع ليكون العقل الخطأ في المكان الخطأ.

في وطننا العربي وبخاصة منذ اندلاع الثورات الشعبية العربية لم تكنفي الأطراف المتصارعة باستكتاب محترفي جريمة الكذب، بل أطلقت للأسف جيوشا إلكترونية حربية متخصصة لغزو عقول القراء والمشاهدين، وقد اشتهرت بذلك أكثر سوريا، واليمن، ومصر .. هذه الجيوش الشيطانية، أو الذباب الإلكتروني، هي هاكل السياسيين الذي يدمر الأخلاق، ويغزو العقول .. ويطلق فيروسات العنف والكراهية وأحكام الإعدام المعنوي وربما الحقيقي على الناس بعضهم بعضا .. كله بسبب التوظيف الخاطيء للكلمة .. فالحاكم الديكتاتور أو الزعيم المتعصب يصعب عليه أن يسمي الحراك الشعبي مثلا

حراكا مطلبيا يمكن التفاهم معه، أو ينظر إلى الخصم السياسي أو الفكري كصاحب رسالة مشروعة طبيعية يبررها التنوع البشري، بل يستدعي عبارات الشيطنة ضد خصومة .. ويستخدم أقدر ما في المعجم من عبارات التخوين والتجريم .. وطالما الأمر كذلك فيعني تبييت الشر لمواجهة استئصالية ضد هذا المكون أو ذلك .. فحجم التهمة تشي بحجم الحكم ونوع التنفيذ الذي قرر أولئك الساسة استخدامه ضد معارضيه .. ولكن ليس قبل التمهيد بتحريض واسع ضدهم .. فازدهرت منذ ظهور الثورات العربية نهاية عام 2010 صناعة الكراهية في هذا القطر العربي ولغة التهديد بالإبادة والمحو .. ففدافي ليبيا يطلق شعار من زنقة إلى زنقة ومن دار إلى دار .. وعلي صالح اليمن شعار من شارع إلى شارع ومن نافذة إلى نافذة .. وجلوزة الأسد يرددون الأسد أو نحرق البلد .. والإعلام المصري يطلق على 51% من الشعب المصري انتخبوا مرسي أنهم غير مصريين ولا يستحقون العيش .. وظهرت السلطات العميقة التي أصيبت بلوثة انتقام مجنونة بعد تهديد مصالحها تدعو للضرب بالمليان .. والتحريض بالاستئصال والسحل، وقد ترجم ذلك أيضا على لسان مفتي مصر الأسبق (علي جمعة) الذي قال في حقهم طوبى لمن قتلهم وقتلوه .. كل ذلك أثمر عن قتل وحرق ما يقرب من 1000 أثناء فض جيش السيسي لاعتصام رابعة العدوية في 14/أغسطس/من عام 2013م وفي وسط موج الضخ الإعلامي الهادر تظهر نخالات المجتمع بوعي وبدون وعي تهتف للقتلة (تسلم الأيادي) لقد رقصت الرعاع على جثث نحو ما متوسطه ألف ضحية من أبناء جلدتها، أي سقوط أخلاقي بلغ بالناس، وهل الإخوان هؤلاء جاءوا من الفضاء .. لم يصيروا شياطين في أشكال آدمية إلا بسبب الإعلام المنتهين الموجه.

كذلك في حروب سوريا وليبيا واليمن تمت عمليات السحل والتعذيب والتقطيع وسلخ الجلود كما حدث من ثوار تعز ضد قناص حوثي عام 2015م، وتفخيخ الجثث بالألغام قامت بها مليشيا الحوثي، وجريمة زراعة البلاد بمئات الآلاف من الألغام، وتفجير وحرق مساجد المخالفين .. وفي عام 2017 تسجل منظمة "هيومن رايتس ووتش" ضد جيش خليفة حفتر ارتكاب جرائم حرب تشمل عمليات القتل والإعدام الميداني والتمثيل بجثث مقاتلي المعارضة بمدينة بنغازي شرقي ليبيا .. وفي السجون تغيب الأدمية وتبرزت طباع الوحوش الضواري حتى لم يبقوا معهم للشيطان متسعا للشر .. وذلك بسبب موجات التحريض والحقد واسترخاض الطرف الآخر .. ففي مطلع عام 2015 روع العالم بتسريبات لهلوكست سجون الأسد حيث وثق من أحد الجنود يدعى قيصر نحو 11 ألف ضحية للتعذيب سربها إلى الكونغرس الأمريكي موثقا بالصور صدر إثره قانون قيصر لحماية المدنيين .. تلاه مقطع لقتل جماعي لأبرياء من شبيحة الأسد وإحراق جثثهم سميت بمجزرة حي التضامن نفذت عام 2013 م وكشفتها

صحيفة الجاردين البريطانية في أبريل من عام 2022م. فعن دين من؟ وثقافة من؟ وأخلاق من؟ تصدر مثل هذه الممارسات الغابية المجنونة؟

إنه لا استقرار لأي شعب ولا بناء في ظل وجود برمجيات حزبية تأسس لكرهية مستدامة .. فجزء من الجهد سينفق للكيد والتربص، وجزء من المشاريع ستفشل وتدمر بسبب الكيد المستمر وشيطنة الآخر واستحلال دمه وماله .. بل وسيصبح مستقبل مجتمع مكهرب بالضغينة مجهول المصير؛ لأن الفرز الحاد سينتهي إلى لغة إما نحن أو أنتم .. نحن أو الطوفان .. لا يستع الوطن لكلينا.

وعن طريق الإعلام الرسمي والجيش الالكترونية هذه التي تدمر الأخلاق وتمزق النسيج الاجتماعي، وتؤسس لعيش مشغول بالمكائد الدعائية يكون المتصارعون قد قرروا التخلي عن مسؤولية تحقيق الوفاق المجتمعي .. والقبول بالآخر .. وإشاعة السكنية العامة .. وقرروا ملء الحياة بلغة الفناء واسترخا ص بعضهم بعضا .. بما فيها التهجم على دينهم ورموزهم .. والتضييق عليهم .. وصياغة موثيق استئنافية تصادر بموجبها حقهم في المواطنة والمساواة .. مثل وثيقة الشرف القبلي الذي صممها الحوثي عام 2015 م لتطهير الخصوم ونزع المواطنة عنهم.

وقد وجدنا من ثمار صناعة الكراهية هذا الوباء السياسي أن يقاطع الأخ أخاه في القرية الواحدة .. والأب يحارب ابنه في البيت الواحدة .. وقد يقتل أحدهم الآخر بدم بارد لأنه بالمحصلة صار خصمه في عقله المعطوب كافرا أو عميلا منافقا حلال الدم .. وبعضهم عاد ليقول لأبيه إن زواجه بأمه لم يكن شرعيا؛ لأنه ليس مبنيا على انتمائه الطائفي الصحيح، وقد حدثت الكثير من الاعتداءات على الآباء بالقتل من قبل أبنائهم في اليمن بسبب الانتماء السياسي والطائفي.

هذه هي الجرائم الأفتك بالمجتمع تغذيها عقول ملتائة بشهوة السلطة، أهدرت معها القيم .. وسمت الأشياء الجميلة للأسف .. وصارت ثقافة الكراهية هي الأصل بين المتحاربين.



تطوير العواطف باسم القضايا العليا

تعمدُ الحركات الوصلية إلى إلهاء ذوي الفهم القاصر بقضايا عليا براقعة تستهويهم فينساقون وراءها بدون تمحيص .. ففرق بين أن يكون لدى الفرد استعداد لقبول الرأي الآخر، وأن يكون لديه قابلية لاحتلال رأيه من قبل الآخر تحت تأثير الخدر الشعارتي وسحر الألوان .. بين أن يكون صاحب عقلية مسلحة بأدلة دفاعية وبين أن يكون نقطة فراغ قابلة للقرصنة بدون أي دفاع .. فليس من بأس أن يسلم الشخص لرأي طرف أفهم منه في قضية هي (موضع خلاف) طالما كان أقوى منه حجة، وأسد منطقا .. أو أن يسلم مؤقتا حتى يجد من الأدلة العقلية والنقلية والمشاهدة ما ينقض بها رأي مخالفه إن وجدت فيعود لرأيه السابق .. إنما المشكلة في الخواء والهواء الذي أجده أحد أكبر معضلاتنا، ويتركز في أبرز (شرائح ثلاث) تتكرر في كل زمان ومكان .. عندها قابلية للاحتلال في زمن تلاطم الأمواج الفكرية .. وتعدد الرجال الواقفين على أبواب جهنم .. تلك الشرائح هي التي يسهل تأجيج مشاعرها وتثوير عواطفها ومن ثم حرف مساراتها نحو التوظيف وهي:

- شريحة العقول المتصحرة غير المستصلحة .. الأرض البور أي (شريحة الأميين) المفوضين بالمطلق .. وهذه كثيرة الاستهداف من قبل الوصليين وقد سبق الحديث عنها.

- شريحة المتأثرين عاطفيا بأثار الصراعات المدمرة .. وصاروا يعانون من حالة احتقان قتالي ضد ظلم يعصف بالأمّة، ولكنهم يجهلون مصدره .. و ينتظرون أي مخلص لينخرطوا وراءه ضد الظالم الذي يراه المنقذ المنتظر، ولا يحتاج سوى إعلان اكتشاف العدو الحقيقي الذي هو وراء مآسي الأمّة .. وتتكون غالبا هذه الشريحة من أحداث الأسنان المراهقين غير المجربين .. الذين يقودهم وقود عواطفهم لا مقود عقولهم.

أما السياسيون الانتهازيون فيقولون لهم تكمن قضية الأمّة العليا في التخلص من الإرهابيين أو من جماعات (الإسلام السياسي) مثلا.

وتلك الجماعات السياسية المتأسلمة المتطرفة من جهتها تقول لأولئك العقول الخام، أساس مصائب الأمّة ومصدر خرابها هم السياسيون العملاء .. والشيعية تقول أول انتكاسات الأمّة جاءت من انتخاب أبي بكر في سقيفة بني ساعدة ولم يقبلوا بولاية عهد النبي لعلي الوصي .. فيرد السنة أن سبب هزائم المسلمين هي تحالفات الشيعة مع أعداء المسلمين على مر التاريخ.

وفيما يكتشف العلمانيون أن الإسلام هو سبب تخلف الأمّة يرد عليهم الملتزمون بأن تدخلات الغرب وأذنايبها في شؤوننا هو أساس مصائبنا، وأن المؤسسة الغربية الحاكمة هي حارس تخلفنا، بسبب استمرار وصايتها السياسية فهي تقف أمام كل ناجح حتى يفشل، وتقف خلف كل فاشل حتى يصعد

لستمر حالة الغنائية والفوضى والتبعية والارتهان .. من هنا فالتأثرون عاطفيا والمحققون قتاليا ينتظرون أي عابر سبيل ليدلهم على العدو الحقيقي المصدر الأول لفجائعتنا، فلا يحتاجون سوى اختيار نوع العدو لينطلقوا جاهزين للتضحية من أجل صلاح الأمة وإنهاء معاناتها، ولكنهم قد يُوظفون لأغراض انتهازية وصولية أخرى بعيدة باسم إصلاح بناء الأمة المهدم، فيصبح هؤلاء البنائون (كما ينظرون لأنفسهم) هم مشكلة إضافية بعد وقوعهم في فخ التوظيف الخاطيء تتطلب حولا إضافية مضاعفة .. وأحيانا قد يكون تحديد الطرف المسؤول جزئيا أو كليا عن ضعف واقعنا تحديدا صحيحا ولكن مؤشر التوظيف يذهب لغايات بعيدة لا علاقة لها بأصل الداء وسلامة الدواء.

- شريحة المتأثرين بتاريخ موروث من صراع فكري أو سياسي قديم، فهؤلاء يشعرون أنهم في حالة تدافع وحرب دائمة قابلة للاشتعال مع عدو مذهبي أو فكري متوارث .. فأصحاب هؤلاء المذهب أو المدرسة الفكرية يرون أن غصة حياة الناس، ونكبات الدين والدنيا في وجود هؤلاء المخالفين لمذهبهم، أصحاب الدين الجديد، الملتزمين بمعاكسة سير خطهم، فإذا ذهبوا يمينا تركوهم وذهبوا شمالا؟ ولو قد تخلصوا منهم لحدث الانسجام وانتهت التباينات، وحل الأمن والأمان .. ولكنك سنكتشف الخدعة الكبرى، عندما تجد أن غالب المشخصين لحقيقة داء الشعوب ودوائها لا يقدمون دراسات علمية شفافة قابلة للنقد تشخص الداء وتضع الدواء، بقدر ما يقدمون أنفسهم أنهم هم المخلصون الوحيدون وكفى .. وأنهم القدر المحتوم فلا صلاح ولا فلاح بغيرهم .. إنهم الترياق الوافي والبلسم الشافي، ولا بد للناس من أن تسير وراءهم في اتجاه إجباري واحد .. حتى إذا ما تداعت الجماهير للسير خلفهم سلكوا بهم مسالك الأنا وحظوظ النفس، ولا يصادف الجماهير في طريق السير المفوض سوى محطات وقود القادة .. يملؤون مساحات جشعهم وصحراء نهمهم .. ويضيع في خارطة السير عنوان الوطن .. لتبقى بطونهم هي الوطن .. والكعكة هي الحق الإلهي .. والمصالح هي الفريضة الغائبة .. والمنافع هي قضايا الأمة العليا.

والمشكلة أن شريحة التابعين المؤدلجين حين يقودها الدجاجة تميل إلى الاقتناع أنها على الجادة، لأنها تخلت عن وظيفة العقل وتركت لكبرائها مهمة التفكير لها .. والنطق بلسانها .. والتعبير عن مشاعرها .. حتى عندما يجد أحدهم صراعا بين صحوه العقل المتأخرة، وبين تلك الأفكار التي استسلم لها فإنه بقاعدة التفويض يقول في زعمائه: (هم الأعلم .. هم الأقدر على سبر أغوار القضايا وفهم غوامضها) .. نعم.هم الأعلم ولكنهم الأعلم أيضا أين تكمن مصالحهم .. فهم إنما ينتهزون خصوبة هذه المظالم أو تلك للدق على وترها وتهيج المشاعر لمشاريعها الخاصة .. وإزاحة الخصوم من أمامها .. ولكن باسم قضايا الأمة العليا.

انظر على سبيل المثال إلى قضية فلسطين المقدسة كيف صارت مجرد مطية من تجار الأوطان المزايدين بالمبادئ .. انظر كم سياسيين مهرجين وممثلي بطولات استغلوها للكسب السياسي الرخيص .. حتى قيل لو لم تكن هناك إسرائيل لصنع الطغاة إسرائيل، ولأوجدوها من العدم .. وذلك لما توفره للوصليين من مشجب مريح للالتفاف والتجيش لصالحهم .. ومن ترديد أغنية المقدس التي تقود إلى تهييج المشاعر وتثويرها، وتسرع من التكتل من أجل العبور إلى إسرائيل ولكن من مرفأ المنافع الخاصة إلى مرسى التجارات العامة التي تتلاشى عندها فورات الحماس .. لقد دمرت أوطان وانتهكت حرمان باسم فلسطين .. والعدو لم يمس منهم بقرصة نملة .. حتى قال الفلسطينيون نرجوكم لانريد تحريرنا على حساب تدمير المنطقة باسمنا .. نعم لا نريد ترك فلسطين كقضية أولى من ثقافتنا .. ولا نريد أيضا حكاما صفيقين يتباهون بعمالتهم لإسرائيل، ولكن أيضا لاينبغي أن ينساق الجهلة خلف المتاجرين بقضاياهم العليا .. وتفريغ شحناتهم في غير مكانها .. فيصابون باليأس والإحباط فليبتينوا من الصادق من الكاذب؟.

إن مأساتنا في نقاط فراغنا، التي يكفي معها حتى موعظة من مواعظ (الموسيقى الحزينة) تعتمد على ترنيم الصوت المؤجج للعواطف .. أو خطبة من خطب الحماس الملتهبة، أو أنشودة من أناشيد القنابل الفراغية للشحن العاطفي، لتجدها تتساق بدون وعي وراء جماعات قد تكون مجهولة الأمانة والعلم .. بل وأحيانا مجهولة الهوية في زمن تحكمه الأشباح .. فأسمائها وهمية .. ووجوهها مقنعة .. ومناهجها منعمة .. ومع ذلك لا تلبث أن تصبح عند هذه العقول المعطلة وبدون قيد أو شرط هي مالكة الحقيقة .. ومصدر المعرفة .. يعقد عليها مبدأ الولاء والبراء .. والمقاطعة الشعرية .. والمفاصلة المجتمعية .. وتلك الأصناف من المخدرات الفكرية والعاطفية لم تسجل بعد في منظمة الصحة العالمية مع أنها هي الأشد تأثيرا على تغييب العقل، وأفنك في تخدير المشاعر من تأثير المخدرات .. فهذه الأخيرة قد تغيب عقل صاحبها لساعات أما تلك ربما لعقود، وقد تقود عقاقير المخدرات إلى قتل صاحبها .. أما تخدير الفكر والعاطفة قد تقود إلى قتل أمم وإبادة شعوب دون وعي ولا إدراك، وهذا يحتم الكياسة في تمحيص الدعوات الصادقة من الضالة .. واختبار المصلحة الحقيقية من إطلاق هذا الشعار أو ذلك، فليُجال فيه النظر هل وراءه نيات بريئة أم أغراض دنيئة وشريرة؟

على أن من يبحث بحق عن عدو الجميع فإنه يكمن في كلمة واحدة وهو (الأناية) المفرطة وعدم المصادقية في إصلاح الأوضاع، التي تشترط التجرد من حظوظ النفس، وبالتالي عدم اللجوء إلى الخداع والتمثيل على الناس .. هذا هو العدو الحقيقي فساد طوايا النفوس وخبث مقاصدها.



تقليص قائمة المشتركات مع الآخر

تقيم الحركات الوصلية أو التنظيمات المليشوية الانتهازية محميات فكرية حول أتباعها المختطفين فكريا، المغيبين عن الحقيقة، من خلال عزلهم عن الآخر بسياجات عدة، منها تقليص قائمة المشتركات أو تصفيرها لحساب نقاط الافتراق بدل الاتفاق مع الطرف المناوئ، فيقتربون أكثر من خط اللعودة مع بعضهم البعض، لكي يضمنوا التمرس الانتحاري للأتباع بفعل المفاصلة التامة، وعدم وجود حالة من التسامح، وكثيرا ما يأتي هذا من أصحاب الأفكار العدمية، فلاسبيل للحفاظ على الاتباع إلا بعمل حجر فكري وعزلهم عن الآخر.

والمراد بتقليص قائمة المشتركات ها هنا أن ينقسم المجتمع المتجانس إلى قسمين أو أكثر .. وتكون هناك رغبة لدى قادة التفتيت في الوصول إلى المفاصلة مع بعضهم، إلا أن يخضع أحدهم لسلطة الآخر، أما أن يحدث بينهما اندماج ليس الواحد منها هو القائد على الآخر فلا، وذلك بفعل طغيان الفردية التي يصعب على كل طرف التنازل للغير، حتى قال الكاتب البريطاني انتوني ناتج: "إن مصيبة العرب هي في فرديتهم فلو دخل منهم خمسة في غرفة لخرجوا بستة أحزاب" وهذه الأنانية رغم نسبيتها إلا أن لها بقية باقية من الموروث القبلي القديم الذي كان يقوم على الندية والحدية، وجاء الإسلام ومحاها محوا وقد تفعل جينات الانتماء فتعود القبيلة إلى عاداتها القديمة.

من هنا ولكي توفر أي حركة استفرادية في بلداننا مشروعية وجودها فوق مشروعية وجود التفاهم والاندماج مع بقية المكونات .. ولكي تجد لها قاعدة جماهيرية مستقلة، رافعة لأهدافها .. تحارب من أجلها هي وحدها بعيدا عن الولاء الجمعي .. فإنها أي تلك القيادات تلجأ إلى تقليص قائمة المشتركات الوطنية، أو الدينية، أو الثقافية، مع المنافس إلى أن تصبح مع جماهيرها مستقلة الاتجاه والخصائص، فلا يجدون باعنا لترك تمترسهم خلف قيادتهم بعد أن يصبحوا أمة من دون الناس .. وبذلك تقيم سلطتها بعوامل بقاء مستقلة لا يذكر أتباعه بأخوة الإنسانية، والمواطنة، والدين، والثقافة العامة المشتركة مع بقية المواطنين .. ويكون ذلك بالتالي:

أولا - تضخيم الاختلافات البسيطة في العادات أو العبادات، لجعلها مبررا لعدم صحة الالتقاء مع الفكر أو الحزب الآخر .. ففتحت الاختلافات على مستوى الشعائر التعبدية .. والمناسبات الاحتفالية .. وينطبق عليها قاعدة خالف تُعرف .. وبضطدها تعرف الأشياء ووالخ .. فعلى سبيل المثال كانت بعض سلطنات جنوب اليمن المتجاوزة قبل الاستقلال ربما عمدت إلى مخالفة جارتها في إعلان بداية شهر رمضان ونهايته بتقديم يوم أو تأخير يوم، ذلك أن شعور الناس بعدم وجود فرق

جوهرى في العادات والعبادات بين السلطنات والتجمعات والأفراد قد يقوي لديهم الوحدة الشعورية بأنهم أمة واحدة، فلماذا الانقسام السياسي إذن؟ لكن الأنظمة والتيارات التي تخاف على سلطتها لا تأنس لهذا النوع من التفكير الوجداني؛ لكي يبقى له جماهير لها قضايا خاصة مستعدة أن تلتف حوله للدفاع عنها.

ومثال آخر يمكن تضخيم الفارق المذهبي بوضع اليمنى على اليسرى في الصلاة أو بالسريبة (الإسبال) فتهدر معها كل المشتركات وتوضع هي كلافطة طائفية تجد من يحارب في الإنكار عليها ويثير البلبة ووصم أتباعها بعبارات توغر الصدور الذي ينتج عنه الفرز الطائفي المهيم للتصادم والاقتتال ومن ثم جني الأرباح السياسية.

قال قاضي اليمن ومفتيها الراحل / محمد بن إسماعيل العمراني - رحمه الله - في محاضرة من محاضراته: يشتغل الناس بـ(حي على خير العمل) في الأذان أكثر من أكبر ركن في الإسلام، ومن أكثر الأسئلة التي تردني: هل هي بدعة أم هي من الأذان؟ فأرد بقولي: إنا لله وإنا إليه راجعون، عندما دخل المعز لدين الله الفاطمي مصر كان أول قرار له إضافة حي على خير العمل في الأذان .. وعندما دخل صلاح الدين بن أيوب مصر بعده كان أول قرار له إزالتها من الأذان .. وعندما دخل طغتكين بن أيوب إلى صنعاء كان أول ما قرر بإزالتها .. وعندما دخل المنصور عبد الله بن حمزة صنعاء كان أول قرار له بإعادتها .. وعندما جاءت الحملة العثمانية استقبله وفد مفاوض على تسليم المدينة إلى ضاحية صنعاء الغربية منطقة عَصِرٍ وعندما سألهم ما هي شروطكم؟ قال ابن واليها الزيدي رئيس الوفد: نشترط عليكم ترك (حي على خير العمل) في الأذان، فقال قائد الحملة: هذه اختلافات مذهبية لا نتدخل بها .. وعندما عاد المفاوض إلى أبيه وسأله ماذا اشترطت من شروط على الأتراك؟ قال: اشترطت أن يتركوا لنا حي على خير العمل .. فقال: قلَّ الله عقلك كان تفاوضه أن يعطيك (بلوك) عسكر ليكونوا في معيتك عند جني غلال أموالنا ويأخذ له حي على الصلاة .. وحي على الفلاح .. وحي على خير العمل.

فانظر كيف تحولت بعض المظاهر المذهبية إلى عناوين وماركات مسجلة، كل مذهب يعلم على مذهبه بعلامة مميزة من الدين، ليست هي الدين ولكن أخذت كسبيل للفرز الطائفي، والتناحر المذهبي، والتوظيف السياسي، حتى كان الناس إذا وصلوا إلى قرية أو مدينة انتظروا الأذان فإن قال المؤذن حي على خير العمل فهذه قرية تتبع إماما زيديا وإن لم ترد ضمن الأذان فهي تتبع الأتراك أو دولة سنية محلية.

ثانيا- إحياء رصيد الماضي من الصراعات والنفخ فيها .. لتوسيع الشقة .. وإيغار الصدور .. وإيجاد حالة من الاحتراب .. وطلب الثارات ليستمر العزل العنصري والطائفي قائما.

ثالثا- استخدام اللغة العدوانية غير المسؤولة مثل التجريم، والتخوين، والتكفير لأتفه الأسباب .. إلى أن يصل الأمر إلى استرخاص دماء المخالف، وأحيانا فتح المعجم السوقي لاستخراج ترسانة الشتائم وإرسالها حارقة خارقة في وجه المخالف .. وذلك من أجل إيجاد الشرخ ومسببات التناذب وتوسيع الهوة لمنع تفكير الأتباع في التقارب كذلك لإظهاره كأخط مخلوق منبوذ لا يصح البقاء ولا التسامح معه ناهيك عن موالاته .. لمن لم يعرف إعلام الحركة الانفصالية في اليمن التي مثلت محافظتين اثنتين من الجنوب اليمني تقريبا فقد تعرضت لانفلات لغوي ضد الشمال لنفس الهدف .. حتى حولت نقاط الاختلاف في العادات والعبادات بين محافظات الشمال والجنوب إلى شتائم ترددها ليل نهار مثل كلمة (زيود) (دحابشة)، وحين تقع أيديهم على العلم الشمالي وشعار الطير للأسف يدوسونه بأقدامهم وربما صمموا علما عملاقا ليضعوه على الأرض ويسيروا عليه بالسيارات، كما حدث في 2022/8/11م حينما دخلت الأحزمة الأمنية وقوات العمالقة التي شكلتها الإمارات إلى عتق عاصمة محافظة شبوة .. وتصرف كهذا موضوع في خانة الهمجية السياسية والانحطاط السلوكي، لأن العلم ليس مجرد قطعة قماش بل يمثل شعبا بأسره، والتصرف المسؤول هو طيه باحترام لاحترام الأمة والتاريخ الذي يمثله .. وحيثما وجدت باعة من الشمال والبساطين كانت تمارس ضددهم التعسف والمصادرة، وهي إنما تهدف من كل ما سبق في سياق تحقيق فصل المجتمع إلى شيين:

- تنمية معالم التغاير، وتعزيز روح الفرز المناطقي والمذهبي وإحيائه في النفوس بحيث يتذكر كل طرف بأن له خائصة المستقلة عن الآخر توشك أن تنسى، وأن ما يفرقهما ليس أقل مما يجمعها فيتعصب كل طرف لمعالم تميزه ويهيئه للانفصال النفسي، وفيه تذكير للجنوبيين بأن الجنوب كان شعبا آخر حتى على مستوى الاسم فقد بحثوا له عن اسم غريب وهو /الجنوب العربي/ لتعزيز رصيد الاختلاف على حساب نقاط الاتفاق .. وفعلت كابن عاق لشدة كراهيته لأبيه ذهب ينكر صلته به، ومع أنه بذلك يشتم نفسه إلا أنه يريد الوصول معه إلى حالة من التتكر التام، بحيث لو قيل له ابن لقيط خير من أن يقال له ابن فلان.. مع أنها مجرد تنوع وإثراء وتكامل لا تغاير وتضاد.

- إيغار صدر الطرف الآخر وجره إلى ردود أفعال مماثلة فيسيئ للجنوبيين بالمقابل فيزداد حدة الفرز ويكسب الانفصاليون زخما جديدا .. فيكون ذلك بمثابة إنهاء آخر عوامل الوفاق وإعلان استنفاد الوحدة كامل أغراضها .. ولا يعني ذلك نفينا لجرائم مارسها قادة شماليون هناك، غير أنها لم تكن حالة خاصة بالمحافظات الجنوبية.

رابعاً- المسارعة إلى تطبيق مبدأ المفاصلة الشعورية مع الآخر، مثل إعلان الولاء والبراء الذي يطبق على الكفار كما تفعل الحركات الراديكالية العنيفة لأن ذلك يحقق لها التالي:

- إيجاد الاعتقاد لدى جماهيرها بأنها وحدها على هدى، وأن الطرف الآخر أمة مستقلة، وبالتالي عدم جواز الاحتكاك به فينتهي مبدأ التأثير والتأثر .. بل وإهدار حقوقه الفكرية ربما تمهيدا لإهدار حقوقه المكتسبة إن لم يخضع لفكرها.

- عدم التعامل معه برحمة، كونه في حكم الكافر أو المنافق أو العدو اللدود .. وهذا بدروه يضمن تعزيز ولاء الاتباع لحركتهم الإقصائية .. لأن المبالغة في العنف يجر إلى ثارات دموية، والثارات الدموية تجر إلى ربط الفرد مصيره بمصير حركته التي يعمل تحت ظل حمايتها، فإذا ضعفت كان مصيره مهددا وأيا كان ولاؤه الفكري لها فسيثبت معها ويستमित في الدفاع عنها .. لأنه بذلك يدافع أيضا عن مصيره، حتى إن منهم من يمنح أتباعه حرية التنكيل بالخصم لكي يُفتح لكل تابع رصيد جرائم ورصيد أعداء، فيكون مستقبلة مهددا دوما مالم يحافظ على قوة الجماعة ودوام مستقبلها.

ولا ريب أن الجماعات والتكتلات لا يمكن تصور تعددها بدون وجود اختلاف، وهذه ظاهرة إنسانية متوقعة، ولكن المراد بما سلف هو جعلها مبررا لمحو الآخر أو شيطنته لإلحاقه بالقوة القهرية، وأقل ما يمكن أن يلتقي فيه الناس هي الأخوة الإنسانية، والاعتراف بحق الآخر في المواطنة الآمنة، من دون حالات تريبص وشحن والعيش على واقع احترابي مفتعل من صنع السياسات.



التعايش بين تنازع الولاءات

كل مجتمع موزع إلى وحدات صغرى وكبرى:

- تبدأ بالأسرة، والعشيرة، وتنتهي بالمجتمع العام.

- تبدأ بالثقافة، والمذهب وتنتهي بالدين.

- تبدأ بالقرية والمحافظة، وتنتهي بالقطر.

- تبدأ بالحزب وتنتهي بنظام الدولة وسياستها.

فمكونات أي مجتمع مثلما تتدرج فإنها تتعدد، من سلالية .. إلى فكرية .. إلى جهوية .. إلى سياسية.

ولعل الفرد يسير في الشارع ليجد المختلف لونا، وعرقا، وجهة، ولغة، ودينا، وسياسة، قال تعالى: (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم)⁽¹⁾ .. (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ...) ⁽²⁾ .. ولو اتفق اثنان في أغلب الخصائص فهل سيعني ذلك تحقيق التوافق التام بينهما والتعايش والانسجام؟

الجواب: هذا عامل توحيد مفترض، ولكن ليس صحيحا أن تضيق دوائر الاختلاف يسفر بالضرورة عن ائتلاف وتوافق، فقد يعيش الشقيق مع شقيقه في البيت الواحدة على دين واحد، وتصور واحد، ولكنهما قد يعيشان في حالة عدا، وصراع، وصرام، دائم.

لقد انفصل جنوب السودان عن شماله الذي يفترق معه في خصائص الدين واللغة، إلا أن الحرب بين قبيلتي التينكا والنوير الجنوبيتين اللتين تعودان إلى أصل واحد وجدّ واحد اندلعت بعد الانفصال، وكانت أكثر ضراوة من حربهم مع الشمال.

والأمة العربية من أكثر شعوب الأرض توحدًا في الدين، واللغة، والجغرافيا، ولكنهم ظلوا من أكثر الشعوب تباينا أيضا، وستجد أن الشيطان قد ينجح في تأسيس عداوة مستدامة بين أبناء القبيلة

(1) [الروم:22].

(2) [هود 118 - 119].

الواحدة، فيصور لكل فخذ أن قصة بدء حياتهم وإعادتها متعلقة بإزالة ذك الفصيل الآخر أو قهرة وتحقيق الانتصار العشائري عليه لإنهاء تشامخه ويدون ذلك التاريخ .. وتتداوله العجائز في أسمارها .. والنساء في أغانيها .. والشعراء في قصائدها .. وإنما هي انتصارات وهمية زائفة وبطولات استعراضية في غير محلها، فالانتصار الحقيقي هو على الجهل وإزالة حظ الشيطان منهم، وتأسيسه في الإيقاع بينهم كنماذج متعايشة .. وهذه أمريكا الشمالية، وأستراليا وغيرهما، مجمعة من كل الأعراق، واللغات، والأجناس، ولكنهما من أكثر بلدان العالم استقرارا وتعايشا .. إذن الأمن والسلام والاستقرار ليس متوقفا على إزاحة أصحاب هذا الفكر .. أو أصحاب هذا اللون .. أو هذه الثقافة .. أو تلك الجهة.

وخطأ محض وقصور في الفهم والتفكير، أن يقال كيف نعيش مع هؤلاء أو أولئك وهم يختلفون عنا لغة أو لونا أو مذهبا؟ فهناك قاسم مشترك أكبر من عادات الأقوام وطبائعها وتصوراتها، وهو (مشترك الإنسانية) ومبدأ القبول بالآخر .. الذي يخضع لمنظومة قوانين عليا مشتركة، تسيّر دفة حياة الجميع، من غير إقصاء ولا إلغاء.

ولقد أسس النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم- دولة الإسلام في المدينة على أول دستور ينظم العلاقات المجتمعية، وميثاق جامع يقوم على مفهوم التعايش المشترك بين الأفخاذ والعشائر من جهة، وبين أكبر مكونين للمدينة وهما المسلمون واليهود. ذكر ابن إسحاق في السيرة قوله: "وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار، ووادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم" ومما جاء فيها: "وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم" (انظر السيرة لابن كثير 321/2).

وبناء على هذا التسامح الفريد عاش المسلمون مع غيرهم من أهل الملل والنحل دون أن يتعرضوا لدينهم واختياراتهم، وبقيت الكنيسة والمعبد، بجوار المسجد، وجعل الله سنة التدافع باقية ليظل هذا الشكل من التنوع كمشيئة إلهية لاتنك: (... وَلَوْأَ دَفَعُ اللّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهَدَمْتُ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللّهِ كَثِيرًا (...)⁽¹⁾ .. ولم تمنع يهودية اليهودي الذين ذكرهم الله كثيرا في القرآن على سبيل الذم والتوبيخ، لم تمنع النبي من السؤال عنه وزيارته والقيام لجنازته .. والاستدانة منه .. والوفاء بالعهد له، حتى كانوا هم الذين ينقضون الميثاق .. والحكم له ضد مسلم خاطئ في قصة بني (أبيري) الذي ذكرها الله في 9 آيات في سورة النساء ابتداء من آية 105.

(¹) [الحج 40].

وإن إكراه الناس على تصور أو فكر أو اتجاه معين مرفوض دينياً: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)⁽¹⁾. (لست عليهم بمسيطر) (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) والمولى لم يقدر أقداره في خلق الناس مختلفين ليُلغى بعضهم بعضاً، بل ليعرف بعضهم بعضاً: (وكذلك جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)⁽²⁾.

وكل إثنية تتمحور حول فلسفة فكر معين ترى أنه الأهدى من غيره، ومحاولة نزعها منه بالقوة سيؤدي إلى ردة فعل مقاومة، إذ كيف تنتقل من الذي هو خير إلى الذي هو أدنى بتصورها، كما لا يخلو أن تطمع كل ذات ديانة أو مذهب أو حزب في تعميم بضاعتها على الآخر، وقد أعطى الإسلام طريقة الانفتاح بحيث لا تقوض أسس التعايش بين المختلفين وهو الجدل بالتي هي أحسن، فإن قبل الآخر وإلا (لكم دينكم ولي دين) (قل كل يعمل على شاكلته)⁽³⁾ (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)⁽⁴⁾ وروابط الإنسانية مع المخالفين هو الصيغة المشتركة .. ويفعل معه مبدأ التسامح والبر والإحسان إلى محسنهم، لقوله تعالى: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)⁽⁵⁾ وأحرى بالقول إن هذا التسامح إذا كان مع غير أهل ملة الإسلام واجب، فهو من باب أولى مع أبناء الملة الواحدة أوجب.



(¹) [يونس 99].

(²) [الحجرات: 13].

(³) [الإسراء: 84].

(⁴) [المائدة: 48].

(⁵) [المتحنة 8].

الاستبداد التنظيمي في ضوء قانون الاتجار بالبشر

مما جاء في تعريف الاتجار بالبشر: أنها عملية توظيف أو تجنيد شخص وإيوائه وإخضاع الضحايا للعبودية، لغرض استخدامهم أو تسخيرهم بهدف الانتفاع والربح .. الخ

وتجتمع العبودية الاختيارية عن طريق غسل الأدمغة مع العبودية القسرية عن طريق الاختطاف بجامع التسخير والتوظيف .. ويأتي من ضمن العبودية الاختيارية الاستبداد الحزبي والتنظيمي، وتسخير الأفراد لتأمين منافع فئة متحكمة في الأعضاء المغلوب على أمرهم .. ولذلك لا نخدعنا الأسماء والمصطلحات بل يجب التركيز على طبيعة التعامل ونمط الممارسة، فإذا وصل التحكم إلى حد افتقاد العضو المنظم للإنسانية في حق التفكير، والاعتراض، والمشاركة المبصرة، واختيار من يمثله، وأصبح مجرد منفذ آلي للأوامر فإنه يدخل ضمن قانون الاتجار بالبشر؛ لأن المصلحة توقفت عند فئة عصابية معينة تدير دفة الحزب أو الجماعة ولا مصلحة ظاهرة للمجموع.

فلا يوجد في عالم السياسة والحزبية والتنظيمية الإمام الحاكم بأمره الذي وحده يفكر ويوجه ويقرر بحجة أنه مفروض الطاعة، هو مفروض الطاعة في تنفيذ البرنامج المتفق عليه، فليس له حق التفرد بالرأي حتى في إعلان الحرب والسلم الكل يجب أن يشارك في اتخاذ القرار .. وهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يشارك أصحابه كبارا وصغارا في إعلان الحرب ومعرفة وجهتها وظروفها .. لأن الجميع سيطلبهم خيرا وشرا .. وحلوا ومرها .. ومنها بذل النفس. والجدود بالنفس أعلى غاية الجود .. أفترى يدفع القائد بالناس إلى حتفهم دون أن يكون لهم حتى حق المشاركة في قرار مصيرهم؟ .. فإذا كانت الشورى في أمور خطيرة كإعلان الحرب والسلم التي عادة ما تكون بين الكبار إذا كان ذلك متاحا في الإسلام للجميع فمن باب أولى في مسائل أهون من ذلك كاتخاذ قرار سياسي يتعلق بمصير كل عضو في حزب أو كل عضو في جماعة .. أو يمس مصير أمة بأكملها.

يقول المولى (... وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ...) (1) تُبْرَم المسائل العامة (على أمر جامع) على مجالس شورية (ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) وليس بتصرف فرد يملك نواصي أعضاء حزبه، ويقرر تحديد مصائرهم ويبرم ويقطع بدون رأي منهم. فالطاعة المطلقة لا تصح لغير الله تعالى .. ومنطوق الشرع في التربية القيادية (وأمرهم شورى بينهم) (وشاورهم في الأمر) .. ومنطوق الفرعونية في التربية القيادية (ما أريكم إلا ما أرى) (فاستخف قومه فأطاعوه) ..

(1) [النور 62] ..

وفي ضوء قانون الاتجار بالبشر فإن الطاعة العمياء بدون ترويض الأعضاء على مهارة التواصل الديمقراطي (الشوري) بين القمة والقاعدة صورة من صور جرائم الاتجار بالبشر التي منها تعريض فرد أو جماعة للتغزير مثل استخدام الخداع الفكري .. أو التأثير العاطفي بهدف توجيه مساراتهم، دون أن يكون لهم دور في إدراك منافع ومضار مآلاتهم .. وذلك بهدف المتاجرة بهم وبطاعتهم وبالتزامهم التفويضي لمصالح أنانية.

وفي الدول الديمقراطية تتدرج في كل حزب حلقات المشاركة .. وتقام ورش عمل سنوية لتقييم أداء الحزب .. يُدعى لها مراسلو وسائل الإعلام .. ثم تخرج بنتائج من أجل التغيير من حسن إلى أحسن .. لكن هنا يوجد فقط أرقام حزبية، تقام عليها قوانين مصلحة الفرد أو قمة من الأشباح غير المعروفين .. وإنما جاءت منكرات القتل والذبح والتفجيرات والغزوات الشيطانية من آفة السمع والطاعة العمياء .. وسوق الأتباع سوق القطيع دون شك ولا ارتياب .. ودون مناقشة ولا مشاركة في اتخاذ القرار من قادة أشرار يتلذذون بمتعة التسلط واستلاب العقول، وتوظيف قطاعان بشرية لأغراض ليس لهم فيها لا ناقة ولا جمل. وقد لا يعرفون عن قاداتهم سوى كُنَاهم وحدقات عيونهم .. ولذلك يأبى الإسلام سوق الناس بقاعدة (اغض عينيك واتبعني) الإسلام يشترط البصيرة في المشاركة ليكون ذلك ادعى للعمل بتقان وإخلاص، قال تعالى: (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) فمنهج هذا الدين (على بصيرة) ومنهج المالكين لعقول وعواطف أتباعهم (على غير هدى) والعضو الجيد عند القيادات المستبدة هو ذلك الآلة كاتم الصوت، الذي يمكن برمجته على تلقي الأوامر بدون وعي ليسهل استعماله بلا عائق .. ولذلك ما أكثر ما يمجذ المستبدون فريضة السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، دون تردد ولا شك ولا مناقشة ولا ارتياب .. لأن القائد (الملهم جدا، والعبقري جدا؟) والذكي جدا، ومبعوث العناية الإلهية) سيتكفل هو بمهمة التفكير لأتباعه .. وسيضطلع هو بمهمة النطق بألسنتهم .. وبمهمة التعبير عن مشاعرهم .. أما هم فمجرد كائنات مستلبة يتم تجميعهم في حاويات الطاعة لإعدادهم إما كمشاريع انتحارية .. أو مشاريع تجارية.

فإن كانوا يُعدون للانتحار فثمّ برامج عدمية تكره لهم الحياة وتزيّن لهم الموت وتمنحهم النعيم بعد الحرمان، فهناك فقط تنتظرهم القصور والأزواج أما في الدنيا فالقصور والمنافع حقوق محفوظة للكبار .. وإن كانوا مشاريع تجارية فثمّ برامج تقوم على التعليب، والتغليب، للقناعات وفن التسويق السياسي والمقايضات المصلحية .. وعليه تأتي التوجيهات القيادية التي تزين التفويض وتجمل (فريضة) الثقة العمياء .. تأتي على غرار "رجاء ثقوا في إخوانكم .. وأخلصوا النيات .. وأحسنوا العمل .. ولا تحرقوا السفينة بالسؤال ولا بكثرة القيل والقال .. الكبار أعلم من الصغار بكواليس السياسة .. لا تتركوا الجبل وإن رأيتم الطير تتخطفنا .. إذا رأيتم أن قيادتكم الحكيمة قد أخطأت

فاعلموا أن هنالك يكمن الصواب (!) .. لاتقيسوا نظرهم الثاقب بنظركم القاصر .. وأنها لحكمتها ونفاذ بصرها وعمق بصيرتها لا تبرم أمرا حتى تقيس أبعاده .. وتقدر أوزانه .. وتلم بأطرافه .. فאלله الله اطمئنوا ولا تنزعوا ثقتم عن أهل الثقة .. لاتتركوا رباطكم في ثغور معركة الطاعة فتختل الجماعة .. ويضطرب الصف .. وينهد البنيان" .. هذا كله من أجل الاستمرار في الحصول على رافعات بشرية صامته لفرد واحد، هو وحده مزود بجهاز معرفة واكتشاف مصالح الناس .. هو وحده المطلع على الأسرار والخفايا .. وغوامض الأمور والخبايا .. أليس هذا شأننا إلهيا لا يدعيه إلا من وضع نفسه موضع الذات الإلهية أما غيره فلا (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم)⁽¹⁾ .. وهكذا نربي في مجتمعاتنا كيانات عمياء، خرساء، تابعة مستلبة، تتلقى وجبات الأوامر الجاهزة من القمة .. فلا تعرف للمشاركة متنفسا .. ولا للحرية مسلكا .. فيشيع مرض الكبت الذي يسفر عن سلوك تسلطي عام .. وعلى التفويض المطلق الذي يقود إلى الاستخذاء، والانسحاب، وتقريخ عقول داجنة غير مبادرة ولا فاعلة .. بقدر ما تنتظر من يأتي يجرها بنواصيها إلى حيث يدري ولا تدري .. فلا تستغربوا إذا وجدنا حكامنا وقادة أحزابنا يقررون بمفردهم مصير حزب برمته .. أو مصير شعب بأكمله .. ويحولونه بسرعة الضوء من النقيض إلى النقيض .. والأتباع يصفقون له بحرارة ويتعبدون إلى الله بإلغاء عقولهم .. لأن القمة تعودت على الاستبداد دون مناقشة .. والقاعدة تعودت على الطاعة دون اعتراض. فلا تسألوا (أنى هذا قل هو من عند أنفسكم).

من هنا أي حزب أو تنظيم لا يمارس الطرق الشورية المنتظمة مع أتباعه يجب أن يحظر ويحاكم (بجريمة الاتجار بالبشر) .. وبجريمة تطبيع المجتمع على تجرع داء الاستبداد وتنشئة الجيل على استمراء التسلط والعبودية، وسوق المجتمع إلى دورات من الصراعات التي لاتنتهي بسبب النتائج الكارثية التي يستيقظون عليها من الاستبداد ولكن في الوقت الذي لاسبيل إلى إصلاحه بغير مزيد من الدمار فإذا عادوا لما نهوا عنه عادة دورة الحروب من جديد مالم يلتزموا مبدأ الشورى والديمقراطية وتكون مفروضة على الجميع.



(1) [الأحقاف:9].

القناعات الشخصية ومحاكم التفكير السياسية

كيف أصبحوا كباراً؟ نظروا إلى بلدانهم كمركز الحضارات يجب أن تستأثر بكل جميل موجود في الدنيا، لتبقى قبلة الانتاج الإبداعي .. وبه وصل سياسيو الغرب إلى أعلى درجات النضج في التفكير الحضاري .. وبعد أن أرسلوا المستشرقين لصوص الحضارات ومجبري ما استطاعوا من التراث العلمي العالمي باسمهم ومنذ نهاية القرن الثامن عشر وهم يتنقلون من بلد حضاري إلى آخر يجمعون تراثها العلمي فسرقوا آلاف الانتاجات البحثية التجريبية والتطبيقية ويكفي أن تعلم أنهم سرقوا نحو 30 ألف كتاب مفكر مسلم ونقلوها باسم أسماء غربية كما ذكر الباحث التركي المعروف (فؤاد سزكين) وهو ما يعني أن حضارتهم (بضاعتنا ردت إلينا) وأنها محصلة تراكم الإبداع الإنساني ككل، غير أنهم أحسنوا حيازتها وتوظيفها باسمهم، وبنظرتهم العابرة للقارات تفوقوا على غيرهم، ولا يفتأون يستقدمون إلى بلدانهم العباقر من كل أنحاء العالم .. حتى الأبرز تميزاً في الرياضة لا يتركونهم دون تقديم الإغراءات المطلوبة لجذبهم .. هكذا ليستمروا هم المركز .. وبقية العالم أطرافاً رافدة، ومجرد عالم مستهلك ومنبهر بالحضارة المبادرة .. يُسهّلون هجرة العقول إليهم من شتى الأجناس والأديان .. فيأتيهم العبقري الأسود والملون والمسلم والبوذي وعابد البقرة .. إلخ ليعطيهم خلاصة خبراته، ويتركون له لونه وشكله ودينه وثقافته يتمتع بها .. بل ويعطونه الإجازات الدينية اللازمة ليمارس شعائره كما يحب، ليست مهمتهم الاجتماعية كسياسيين أن يزيدوا عدد المسيحيين، فتلك مهمة المبشرين بقدر ما هي رفع سقف التراكم الحضاري واحتكاره .. فيما في الدول النامية يمثل نمط التفكير العصابي الفتوي للحكم مأساة الشعوب المتخلفة ومصدر معاناتها، ومنبت بلاتها .. فكثير من الأحزاب التي تصل إلى موقع المسؤولية .. وصارت معنية بحسن سياسة الدنيا كقاسم مشترك لجميع الرعايا بمختلف مذاهبهم وديانتهم، تتحول مباشرة لا إلى مصدر جذب للعقول البناءة من الخارج إلى الداخل، بل إلى عامل طرد وتشريد للعقول النافعة والمبدعة من الداخل إلى الخارج؛ لأن تلك الأحزاب ضيقة الأفق لا تأتي لتعمل لأمة؛ بل لتثبيت نفسها كتكتل عصبوي مؤسس على مبدأ أحادي التفكير .. إجباري الاتجاه .. ينتهي إلى دائرة مصالح الحزب الضيقة. وعلى المواطنين أن لا ينتظروا من مؤسسة حكم فئوية كهذه أن تملأ بطونهم بخيراتها .. وتجمل مظاهرهم بصناعاتها، بل أن تملأ عقولهم بأفكارها .. وقلوبهم بولائها .. ونفوسهم ببغض بمخالفها .. وقبورهم بأعدائها .. لقد وصلت إلى الحكم وليس في يدها ملف بناء وإصلاح .. بل وفي يدها مخطط سطو واستيلاء .. ومحو وإثبات .. فهي لذلك لا تساوّم بوجوب اتباع منهجها هي .. حتى ليصل الغلو ببعضها أن تتدخل للتفتيش في قناعات الناس وطريقة تفكيرهم .. ومحاكمة نواياهم .. والانشغال بإعادة صياغة عقولهم .. ومراقبة طقوس شعائريهم .. وأساليب كتاباتهم .. ومعجم ألفاظهم .. وشماعة ملابسهم .. وإنك لو اجد الهيايين والمنفعيين الذين

يجدون مستقبلهم بات في كف عفريت قد تحولوا إلى مزامير غنائية .. تسبح بفكر النظام الباطش، وننتهي على حسن توجهاته .. وتردد من محفوظاتها خطابات الزعيم الملهم .. لأن الفقر بات من أمامهم .. والقبر من ورائهم، فهم يفرون منه إليه لكي يتحاشوا طائلة التهمة بالأخونة، أو الدعسنة، أو الوهابية، أو الاشتراكية أو الشيوعية أو الجهورية أو إلخ . من هنا فالحكم في الدول المتخلفة لا يشترط في شاعلي الوظيفة العامة من هو الأحق بها، بل من هو الأكثر جسارة عليها .. من يتخلى عن أفكاره وقناعاته .. ومن هو مستعد أن يكون أفصح نفاقا .. وأكثر تغابيا .. يجيد قول سمعنا وأطعنا .. يعرف كيف ينتهي عن أخلاقه لا كيف ينهي عن أخلاقهم .. ولأن البناء والإنتاج الصناعي تعطل لصالح الإنتاج والبناء الولائي .. فإن دائرة الفقر تتسع لنتسع معها دائرة التدافع على النفاق .. وليزدهر سوق البيع والشراء للولاءات .. حتى تنتهي منظومة القيم ورصيد الأخلاق إلى واد سحيق .. وعندما يصبح يوم الناس أسوأ من أمسهم .. وغدهم أسود من يومهم ينشغل أصحاب الدنيا بالبحث عن أبواب النفاق الموصلة إلى حياة آمنة، لا عما يحمل من نفع للآخرين .. والحقيقة أن هذا النمط من الحكم لا يعدو كونه ظاهرة حربية وشكل من أشكال محاكم التفتيش لا نمط حكم .. ظاهرة حربية ترتكز على مستوى متدن ومؤسف من التفكير .. وحساب خاطئ ومنحط في التقدير .. غالبا ما يأتي في النهاية على الجميع بالتفتيت والدمار؛ لأن الثقافات المجتمعية المسالمة أيا كانت تعد مسافة حضارية .. ومحاولة تدميرها بالقوة العنيفة يعني العودة إلى الوراء .. وهذرا لمقومات بناء المجتمع .. وتخليا عن شيء اسمه مسؤولية؛ لأنها تحولت إلى الانشغال باحتلال عقول الناس .. واغتصاب هوياتهم وبأسلوب التدافع والإقصاء والتضييق .. وتنفيذ حروب عدمية فتوية ليس لله فيها رضا؛ لأن الله لم يرد من تحقيق الغلبة - إن تحققت حتى لأهل الملة - سوى إقامة الحجة على من صار تحت أيديهم .. وبالأدلة الظاهرة، والقوة الحسنة، وليس بإقامة محاكم التفتيش .. إن الله لا يقبل إسلام من حُمِلَ عليه حملا حتى يكون هو الذي حمله باقتناع .. حيث قال: (لا إكراه في الدين) وقال (لست عليهم بمسيطر) (وما أنت عليهم بجبار). (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)⁽¹⁾ ولا يكون الظلم سبيلا إلى العدل قطعا .. ولا الباطل سبيلا إلى الحق .. بل السبيل إلى العدل والحق بتطبيقهما في واقع الحياة .. ومن ذلك حسن سياسة الناس .. وحفظ الأمانات .. وأداء الحقوق إلى أهلها بصرف النظر عما في مكنونات نفوسهم .. ومنها عدم مقايضة أرزاق المواطنين بقناعاتهم وانتماءاتهم .. فالله خلق الخلق جميعا مؤمنهم وكافرهم وتكفل برزقهم جميعا قال على لسان سيدنا إبراهيم - عليه السلام -: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) .. قال الله تعقيبا على دعاء إبراهيم في تحديده المؤمنين بالرزق: فقال

(1) [يونس 99].

الله: (قَالَ وَمَنْ كَفَرَ ...) (1) .. أي ومن كفر سأرزقه .. نعم لم يخلق الله الكافر لكي يجره إلى الحق بيطنه أو بناصيته .. بل لكي يجره بعقله وقناعاته. إن مسألة حق العيش والحرية الشخصية لكل مواطن عناصر حياة مكفولة تسبق نوع الاتجاه .. فمن اقتنع بالعقل وآمن بالقلب تقبل الله منه إيمانه .. ومن جاء إلى الحق مستسلماً بالإكراه لا مسلماً بالرضا، باحثاً عن حقوق منهوبة وحياة مخصوبة، فليبوء ظالمه بسخط الله ونقمته .. ولتُعاد إليه منهوباته ولتُعاد إليه إسلامه .. فإن الله لا يقبل إلا ما في القلوب لا ما على القوالب .. ومُلك الله لا يزيد بإيمان مؤمن ولا ينقص بكفر كافر. وهذا النبي صلى الله عليه وسلم حين دخل المدينة وصيغت الوثيقة المدنية بين المجتمع المسلم والمجتمع اليهودي أقر لليهود بدينهم فجاء في الوثيقة: " لليهود دينهم وللمسلمين دينهم " بقوا في أمن وأمان يجادلون رسول الله في دينه، ويشغبون عليه .. يؤمن بعضهم أول النهار ويكفرون آخره ليشككوا المسلمين في دينهم .. ويحيون النبي —(السام عليكم)، يعني: الموت عليكم استهزاء بإسلام الإسلام، فكان النبي لايزيد عن أن يرد عليهم: وعليكم! .. وإذا أراد منهم شيئاً قالوا: سمعنا وعصينا بدل سمعنا وأطعنا، وينادون على النبي يا محمد: راعنا، يريدون من الرعونة يشتمون بذلك النبي، وليس بمعنى أمهلنا فأنزل الله: (مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعُ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) (2). ومع ذلك تركهم رسول الله يجادلون، ويشككون ويسخرون، ويحاربون بالفكر، إلا ما كان فيه تجريح وانتهاك للأعراض ككعب بن الأشرف الذي كان يشيب بنساء النبي فقد أباح دمه، عدا عن ذلك فلم يمسه بسوء صلوات الله عليه إلى أن نقضوا هم الوثيقة وظاهروا على المسلمين أهل الكفر في غزوة الخندق، وبذلك أشهروا سلاح الحرب والمواجهة وبحق الدفاع عن النفس قابلهم بنفس خيارهم.

تلك هي فلسفة الإسلام في القناعات، وليس من المؤمنين بهذا الدين من يستولي على دنيا الناس ثم لا يكتفي حتى يستولي على دينهم وعقولهم، وأفكارهم، وطريقة حياتهم بالترهيب والترغيب، فهذا جهنم دنياهم لا جنة حياتهم، ومن لديه حجة يريد أن يسوقها للآخرين فليتبع منهج الله: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) وليس منهج فرعون: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) (3).



(1) [البقرة 126].

(2) [النساء : 46].

(3) [غافر : 26].

حدود التسامح

أطلتُ الحديث في غير ما تأملتُ عن التسامح والتعايش مع الغير، بروابط المشترك الوطني أو الديني أو الإنساني .. ولكن هناك كيانات بالعودة إلى مرجعياتها ومنطلقاتها التي تستند عليها في التعامل مع الغير ليست صاحبة فكر متسامح، أي ليست طرفا صالحا للتنازل، فبالتالي لا يتم التعامل معها كجزء من النسيج الوطني المتجانس، فلا لقاء معها ولا تنسيق، ولا تكتيك مرحلي، كونها تكتلات عدائية حربية بفكرها الاستتصالي، فلا تسامح مع من يريد محو غيره من الوجود سواء المحو الفكري، أو الجهوي، أو العنصري، ولا تنسيق مع من يرى أن وجود غيره إلى جانبه مسألة خطأ غير مقبول، وأن الساحة لا تتسع لغيره، فهي مجال حرب فكرية وسياسية حتى تعدل فكرها، وبقاء الظهر مكشوفاً لها وفكرها مسمم بالعداوة باسم التسامح خيانة دينية، أو وطنية، أو تنظيمية.

فليكن التسامح مع المتشددين على أنفسهم في التدين، حتى وإن رأوا أنهم أفضل من غيرهم، ويرجون أن يكون كل الناس مثلهم فما من جماعة إلا وهي ترى نفسها أفضل من الأخرى، لكننا نصلي معهم في دار عبادة واحدة ونعذرهم في طريقتهم في التدين ولانوافق من يتهجم عليهم كونهم أحرارا في اجتهادهم، ومن أراد أن يحاورهم بالتالي هي أحسن فبدون تهجم بما أنهم لا يتحنون الفرصة لكي يحموا غيرهم فكريا وسياسيا وتنظيميا، أو واحدة منها.

أما التسامح مع حركة تهدف إلى استئصالك والقضاء عليك كالقاعدة وداعش مثلا، فالتسامح هاهنا يكون تقريبا بحق الآخر في الاجتهاد والتفكير وتنازلا عن حريته وعن طريفته في عبادة مولاه وحقه بالمشاركة في العمل والسياسة؟! كيف يكون التسامح مع من يربي أتباعه على تكفير الآخر وتقديره وتطهيره بل يجب الهجوم على وجودهم الفكري وقصفه بالدليل والحجة البالغة وتقنين حظر نشاطهم ككيانات خطيرة وذلك كحق مكفول في إطار الدفاع عن النفس.

كذلك يكون التسامح مع من يرى أن عليا رضي الله عنه أفضل من بقية الصحابة، وأنه كان أولى بالخلافة بعد رسول الله، وأن الإسبال في الصلاة أفضل من الضم، فهذا رأيه وتلك رؤيته، لكنه لا يعتدي على الآخر بشت موزة وسنة نبيه، ولا بتكفيره باسم الحق الإلهي، ولا بحظر حقه بالتعبد إلى الله طبقا لاجتهاده، ولا باستباحة دمه باسم القصاص للحسين فإن كان يحمل ويؤمن بأفكار كهذه فهو صاحب منهج حربي لا تصالحي فلا تسامح معه ولا لقاء ولا قبول بفكر استتصالي لا يؤمن بحق الآخرين في الاتجاه.

تتسامح مع بعثي أو ناصري أو قومي يرى أن الإسلام جزء من الهوية العربية، ويؤمن بحق التيارات الدينية في المشاركة والحكم، لكن شيوعي أو علماني يأبى الاحتكام للدين كهوية أمة ويأبى وجود الاتجاهات الدينية، فهذا أعلن عدم حق غيره في الوجود، فكيف تتسامح مع عدو متربص لو حكم لفعل بغيره فعل السيسي بالشرعية، وفعل الشيوعيين في جنوب اليمن بالعلماء فهؤلاء من الخطأ التسامح معهم وبرهم وودهم، بل يجب منابذة فكرهم العدواني في أي واد يكون التقارب مع بعيد منابذ، وعلام التسامح مع شمولي إقصائي؟

ويكون التسامح والمبرة مع المواطن اليهودي المدني الذي لا يهدد غيره كالعرب بالاستئصال، ولا أتسامح مع صهيوني يؤمن بأن فلسطين ملكه الخاص، وأن العرب من النيل إلى الفرات قوم محتلون، ويرى أي تعايش أو تسامح أو سلام إنما هو مرحلي تكتيكي إلى حين تحقيق النبوءات التلمودية وإقامة إسرائيل الكبرى .. فالتسامح مع فكر تأسس على مبادئ كهذه لم يتنازل عنها هو خيانة وتقريط ولا يسمى تسامحا ولا تصالحا ولا سلاما بل هو انتحار مجاني .. وهذا المولى تعالى يحدد حدود التسامح ويبين مع من يكون، فمن لا يقاتلك ولا يخرجك من بيتك ولا يحرض على محوك مثل هذا صاحب فكر سلمي متسامح .. فلا بأس من التسامح معه وبره حتى وإن كان كافرا، ومن يقاتلك فكريا ووجوديا لا تتسامح معه قال تعالى: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)⁽¹⁾.

ومن ليسوا على دين الإسلام وناصروا المسلمين العداء ولو قدر لهم أن يأتون من جهة ضعف المسلمين وعجزهم لفعلوا، فإن الواجب أخذ الحيطة والحذر منهم، حتى لقد شرعت صلاة الخوف التي تجمع بين عبادة الله والاستعداد للدفاع عن النفس من المتربص القريب، ولا يفرق الحال في الاستعداد عن المتربص البعيد لماذا؟ (... وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً ...) (2) (إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)⁽³⁾ ومن التقريط والغفلة حمل المتربص على غير محمل الجد، فلا شيء يمنع من الاستعداد أوليس المولى قد ندب المسلمين إلى ذلك وقال: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)؟.

(1) [الممتحنة 8 - 9].

(2) [النساء : 102].

(3) [الممتحنة 1 - 2].

لقد أعلن الغرب كل جماعة تحمل فكرا حربيا ضده وضد إسرائيل حركة إرهابية، يعني حركة معادية محاربة بما أنها تحمل فكرا متربصا وأي عالم أو داعية مؤثر يؤمن بقتال إسرائيل فقد أعطت أمريكا لنفسها حق قتلهم في أي مكان، فهي تستبيح سيادة الدول واستقلالها لأناس لم يقاتلوا في عقر دارها لكنهم يعطون أنفسهم حق قتالها أو قتال ربيبتها .. ومنه نأخذ أن الفكر المعادي اتخذته الغرب عدوا فكيف يتسامح مع من يعاديه ويحاربه. وأنا وأنت كيف تتسامح مع فكر يعاديك ولا يعترف بخصوصيتك أو يريد احتلال أرضك وقتلك كالصهيونية التي تقول إن قتل غير اليهود وحرق مزارعهم وهدم بيوتهم ومحوهم من أجل شعبه المختار مما يرضي الرب .. فالتقارب معهم خبال وخذلان وانحراف عن مبادئ الإنسانية العامة التي تقول إن عدوك ليس صديقك .. قد يقال إذا كان ذلك في حق الدول ومناهجها فكيف أفرق بين استنصالي ومتسامح على مستوى الأفراد؟

الجواب: عن طريق إيمانه بمرجعية متداولة يمكن محاجته بها، فمتى كان مؤمنا بأن وجود غيره إلى جانبه خطأ تاريخي، أو هو مجال ثأر وانتقام متى وافته الفرصة فهو مؤمن بزوالك، فمن ذا الذي يتنازل عن حقه في الوجود؟ لا تسامح مع مشنقة منصوبة .. ولا مع نصل مصلت .. ولا مع خنجر مسموم .. ولا يعني قولنا عدم التسامح مع فكر استنصالي يعني استباحته والترصد لوجوده، بل اللجوء إلى الدولة لحظر نشاطه وتجفيف منابع تغذية فكره، أو سجنه حتى يتبرأ من فكره العدمي ويعلن تخليه عنه .. فكل ذلك مكفول بمبدأ حق الدفاع عن النفس، وحماية المجتمع من انتشار فرق الموت وتنامي نار الفتنة، ويلزم مهاجمة مبادئه العدائية بالحجة والدليل، وتحذير الآخرين منها، ولا يقال مع استنصالي هو حر فيما يؤمن به، فليس حرا في أن يتصرف في الآخرين كما يشاء، والحرية التي فيها مصادرة لحرية الآخرين ليست حرية بل هي اعتداء.



صناعة الإرهاب

لماذا ليس في الصين إرهاب؟ .. ولا في اليابان إرهاب؟ .. ولا في الغرب إرهاب عموماً؟
وأعني به هذا الاتجاه السياسي العنيف؟ .. لماذا تركز الإرهاب في البلدان العربية والإسلامية؟

ليس الدين ولا ثقافة المجتمع هو مصدر الإرهاب .. ومن يعزي ذلك إلى طبيعة الدين والثقافة فهو ظالم ومتجن، السبب بالحقائق والأرقام هو ما سنقرؤه تالياً.

نعم خرجت حركات سياسية مناهضة للحكم في تاريخ العالم الإسلامي، وكانت غالب أسبابها سياسية، لم يكن للدين في بعضها إلا الشعار، إذا ما استثنينا حركات الخوارج التي نادى بالعدالة والشورى، وكانت في الواقع حركة إفساد لا إصلاح، وكفى بها فساداً قتلها لخليفة المسلمين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه-، ولقد قُضي عليها في القرن الثاني الهجري كحركة مسلحة.

ولقد حذر منها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أحاديث صحيحة ومتواترة .. والمسلمون على إجماع في انحرافها وفساد منهجها .. إذن فمن هو صانع الإرهاب بدرجة أساسية ومنشؤه، ومغذيه، ومتعهده، في عالمنا العربي؟ من هو الشيطان الحقيقي مصدر تهديد السلم العالمي مفرخ هذا الغول؟

الجواب: هو (الظلم) هو فساد الحاكم العربي اللعين .. هو ذلك الرجل غير المناسب الذي وضع في المكان غير المناسب .. الرجل فاقد الأهلية عديم المسؤولية .. فليس في الصين ولا اليابان ولا الغرب اليوم إرهاب محلي منظم؛ لأن هناك ببساطة طبقت العدالة .. فلماذا يرفض المواطن النظام العادل ويذهب يشيع الفوضى في أرضه وهو ينعم بالاستقرار والبناء والالتزام بالقانون؟

إن الذين خرجوا ينادون بالخلافة الإسلامية ومارسوا الإرهاب - وهو مرفوض قطعاً - خرجوا يبنشون فيها العدالة التي حرموا منها .. فكان أصل مطالبهم مشروعة (العدالة) ولكن بأساليب غير مشروعة.

ودعني اترك الحديث عن غياب العدالة في توزيع الثروة .. وغياب العدالة في تكافؤ الفرص - على أهميتهما- وأتوقف فقط عند غياب العدالة في حرية الفكر للجميع .. وانظر أي ظلمات مارستها الأصنام الحاكمة صناعات الإرهاب في هذا المحيط من العالم.

في بلادنا العربية حيث ديكتاتورية العلمانية وقف الحاكم مع العلماني والراقصة، وبوقفة التغريب المتهتكة .. واليساري، والليبرالي المتصهين، ومراكز الاستخبارات الغربية، وسمح لهؤلاء أن يمارسوا فكرهم وهوياتهم في العمالة الواضحة وشتم الدين، فحصدوا الجوائز، وتسمنوا أعلى المناصب، وسلطت حولهم الأضواء، وكانوا هم على الدوام الحاكمين المتحكمين، والوزراء والسفراء، فيما مورس ضد الاتجاه الملتزم منذ عهد ما قبل ثورة 52 المصرية وإلى الآن أشد أنواع المضايقات، والتعذيب، والقتل والتتكيل، ملئت بهم السجون، وأخذ زعماء العرب الصعاليك يتبارون في اضطهاد أحد أكبر مكوناتهم المجتمعية بدون سبب سوى نوع الاتجاه الذي اختاروه، فلم تكن تصدر تلك الازدواجية عن عدالة، بل عن تعسف وتقصد وازدراء، من مصر، إلى جنوب اليمن سابقا، إلى سوريا، إلى تونس، إلى الجزائر، إلى المغرب، وأخيرا إلى السعودية.

فالذي صنع الإرهاب، إلى جانب الأصابع الاستخباراتية الخارجية، هو العنف الرسمي والعنف الفكري المتجه نحو التيارات الملتزمة بشكل متواصل، مما خلق ردات فعل إرهابية مرفوضة.

فلنبداً بالحديث عن مصر مركز الثقافة العربية والتي بقي التعدد فيها سيد الموقف .. فقبل أن يكون هناك إرهاب ديني ظهر الإرهاب العلماني اللاديني والعنف الفكري الصارخ يستفز مشاعر المتدينين، ولنقل إن هؤلاء العلمانيين أحرار في طريقة تفكيرهم، ولكن هل كان الإسلاميون أحرارا أيضا في طريقة تفكيرهم لدى الحكام؟ سيجيب سياق الازدواجية على هذا التساؤل .. فطلائع العلمانية، من مثل قاسم أمين، هدى عشراوي، طه حسين، قبل أن يأتي المتأخرون نجيب محفوظ، ونصر حامد أبو زيد، وفرج فودة، ونوال سعداوي، والمستشار أحمد ماهر، وجيش ساقط من الإعلاميين والممثلين مارس هؤلاء التغريبيون حقهم في الفكر بحماية الأنظمة عن طريق ازدياد الدين الإسلامي ومحاربة بنية الثقافة العربية، فمثلا(هدى عشراوي) التي أبوها سلطان عشراوي عميل الانجليز وخائن الثورة العربية ضد المحتل، هدى هذه في العام 1921م وبعد عودتها من بريطانيا وفي أثناء استقبال المصريين لسعد زغلول، قامت بخلع الحجاب علانية أمام الناس وداسته بقدميها .. إن دوس الحجاب ليعد انتهاكا صارخا لحرية المسلمات المحجبات، وتحد لمشاعر شعب بأكلمه غير أنها ما لبثت أن كرمت بإنشاء ورئاسة الاتحاد النسائي المصري سنة 1927م ثم صارت رئيسة الاتحاد النسائي العربي عام 1935م .. لكن انظر في المقابل لامرأة ملتزمة دينيا هي عضوة الإخوان المسلمين زينب الغزالي التي أسست جمعية (السيدات المسلمات) في مقابل اتحاد هدى عشراوي، صدر قرار حكومي بحل الجمعية ثم اعتقلت في أغسطس 1965 وسجنت 6 سنوات تعرضت خلالها لابشع أنواع التعذيب وبطريقة يمارسها ضد امرأة سوى الجبناء سجلته في كتابها "أيام من حياتي". امرأة يفعل بها كل هذا لأنها ليست متصهينة .. ولم يشفع لها تشدقهم بحقوق المرأة.

طه حسين عميد الأدب العربي الذي مارس حقه في التجديف، فأنكر في كتاب (في الشعر الجاهلي) عقائد إسلامية ورد نصوصاً قرآنية .. حصل على الجوائز، ورأس مجمع اللغة العربية ثم عين وزيراً للتربية والتعليم 1971م .. لكن انظر إلى مواطن آخر وأعمى مثله، لم يكن منتمياً لأي جماعة دينية حين مورس ضده الحرب الفكرية إنه الشيخ/ عبد الحميد كشك أشهر خطيب منبر في العصر الحديث .. أمر الرئيس السادات بسجنه عام 1965م بسبب آرائه التي لم تحد عن نصوص القرآن وقال "رمينا الكلب في الزنزانة" وتعرض للتعذيب، ثم في عهد حسني مبارك منع من الخطابة نهائياً، فهل كان هذا عضواً في جماعة إرهابية وصاحب رأي تكفيري؟ قبل ذلك في عهد فاروق لماذا قتلوا زعيماً وطنياً صاحب فكر اعتدالي هو حسن البناء 1949م وهو لم يحرض على أحد؟ ولماذا حلوا جماعته وأغلقوا صحيفته قبل ذلك عام 1948؟ الجواب ذاته يتكرر إنه الاصطفاف إلى جانب التيار المتصهين والمعادي للفكر الديني، ففي هذه الأثناء كانت طلائع الإخوان الجهادية تقض مضاجع العصابات الصهيونية في فلسطين .. فلا بد من إنهائهم من الوجود .. ثم ماذا فعل بعد ذلك الزعيم عبد الناصر اليساري؟

في عام 1954م أمر بسجن 17 ألف مواطن في ليلة واحدة باعترافه؟ بعد حادثة المنشية وهي تعرضه لإطلاق رصاص قالوا اكتشفوا إن الجاني عضو في الجماعة، ويقتل عباقرة مصريين لا يحملون فكر عبد الناصر اليساري منهم: (عبد القادر عودة) صاحب أول تنظيم حديث للتشريع الجنائي في مجلدين، قتله لأنه ينتمي لهذه الجماعة السياسية، (يوسف طلعت) الملقب بجزار الإنجليز في القتال، أحد المجاهدين ضد الإنجليز وحرب فلسطين، ومثلهم (سيد إبراهيم قطب) المفكر الإسلامي الكبير المعروف وغيرهم مئات .. ما ذنب كل هؤلاء؟

إذا كان لهذه الحركة أخطاء ضد الأنظمة فإن للأنظمة ضدها جرائم .. يقولون إنه كان لها تنظيم سري .. ولم يشاءوا أن يربطوا ظروف وجوده بقتال المحتل الإنجليزي وإسرائيل بل ربطوه بالخطر على النظام، فقد كان يلزم فحص أدبياتهم المنشورة، وكتبتهم وإصداراتهم المتداولة هل تحمل هذه الجماعة بذرة الإرهاب المحلي وتحض عليه .. أم لا؟ ثم ما جريرة علماء اليمن الجنوبي الذين سحلهم العهد الشيوعي قبل الوحدة في الشوارع هل كان أيضاً لديهم تنظيم سري؟ .. ولماذا أيضاً صفت الثورات العربية السلمية بالعنف والقتل والإرهاب الرسمي؟ وتم التأمير عليها لو لم يكن بنية توجيهها ينتمي إلى تيار الهوية الوطنية وليس إلى الاتجاه الصهيونية الحاكم؟ وقبلها تصفية جبهة الإنقاذ في الجزائر .. وسل عن تصنيف نحو 99 من الجمعيات الخيرية الإسلامية ووصمها في دولة الإمارات بالإرهابية هل السبب أنها كانت إرهابية تصنع قنابل تفجير؟ وما وراء تفجير المساجد في شمال اليمن من قبل حركة مرضي عنها، وقتل العلماء وخطباء المساجد في عدن جنوب اليمن عن طريق مليشيا

الإمارات هل اكتشفوا تأمرا منها على أي نظام في وقت لم يعد هناك نظام؟ .. وفي حين تصل الجماعات المتطرفة إلى الحكم في الهند والنمسا والكيان الغاصب .. يزج بالاتجاه الديني المسلم في الوطن العربي إلى السجون والمشانق باسم محاربة التطرف؟!!

ثم وأخيرا في الوقت الذي يبشر فيه ليبراليون سعوديون وإماراتيون باحتضان صديقتهم إسرائيل عبر صحف رسمية مثل جريدة الرياض وعن طريق الكاتب (فهد عامر الأحمدى) الذي زعم أن اليهود أفضل من العرب والمسلمين، وآخر (خالد الأشاعرة) الذي دعا الله أن ينصر اليهود على الفلسطينيين، وفي الوقت الذي يظهر (ضاحي خلفان) الإماراتي يقول إن إسرائيل ليست خطرا على العرب، يظهر لهم أن الإخوان وحركة حماس التي تدافع عن الشعب الفلسطيني فقط هم الخطر على العرب ويجب إبادتهم، وفي الوقت الذي يصورون خالد مشعل وإسماعيل هنية وحركة حماس على أنهم إرهابيون يحاط سياح إسرائيليون بالاحتفاء والتكريم في الإمارات وتحتضنهم العائلات في ضيافات مفتوحة، وكان للسعودية النظام التائه وجبته الخاصة في التنكيل بعلماء الإسلام مثل د. سلمان العودة ود. علي العمري، ود. عوض القرني، ود. عبد العزيز الطريقي، ود. سفر الحوالي والشيخ محمد بن صالح المنجد. وغيرهم في المملكة العربية السعودية، هل اكتشفوا أيضا أنهم إرهابيون وضمن خلايا اغتيالات وانقلابات؟ أم أنه الحرب على الإسلام وأهله وحسب .. ثم يقولون ما سبب الإرهاب؟ .. ومن أين جاء الإرهاب؟ .. ومن الذي فقس الإرهاب؟ ونسوا أن أحد أهم مصادر الإرهاب هو الظلم والطغيان من حكام ماسونيين لا يمثلون أمتهم بل يمثلون بها ويمثلون عليها.



سياسة ضرب المكونات بعضها بعضاً

كان الناس ولا يزالون قبل فرعون وبعده شيعاء، أليس هو القائل : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)؟ أي أنها طبيعة إنسانية وقال: (وإن من شيعته لإبراهيم) .. فالناس يظنون بصمات مختلفة في زوايا الرؤى والأفكار، مثل اختلافهم في أشكالهم وألوانهم، والله تعالى لم يرد أن يكون كل فرد أو كل جماعة نسخة من الآخر إذا ما اتفقوا على أسس التسليم له، كما نجد في مذاهب الاجتهاد الإسلامية، وكما جعلنا الله شعوبا وقبائل .. إذن ما معنى أن فرعون جعل أهل الأرض شيعا إذا كانت الأشياع والأقوام ظاهرة إنسانية؟! سؤال مهم ومحوري.

أراد فرعون وهو الحاكم الذي يجب أن يكون عادلا مع الجميع أن يضع خطة للتخلص من الخطر الذي يتهدد مكانة (فرعون الإله الحاكم المطلق)، فقد بدا الخطر عن طريق هزيمته أمام أدلة موسى وحججه الرسالية القاهرة .. ولم يجد أجدى خطة في رأيه ورأي كل الطغاة حتى يوم الدينونة من تفتيت مكونات المجتمع وفرزه إلى شيع .. إلى خونة ووطنيين وإلى (مع) و(ضد) ليضرب بعضهم بعضا، وهذا الفعل يأتي بعد الاستعلاء على كل شيء، بما فيها القوانين المنظمة لصلاحيات الحاكم قال تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا أَهْلَهَا شِيَعًا ...)(1).

وكان بديهيا أن يستغل كثرة شعبه ويصور المصريين كضحية يدافع عنها من تأمرات أقلية خائنة وخطيرة، وكان بدهيا أيضا أن يدق هو وإعلامه وملؤه على وتر القومية ونفخ روح التعصب وإشعال الحمية الجاهلية من أجل أهدافهم النفعية الخاصة .. ولم ينسوا أن يجمّلوا للمصريين دين فرعون الذي يستهدفه موسى بدعوته: (قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَى)(2).

وهذا التهويل الإعلامي وتضخيم العدو وخطره يتكرر مع المستبدين في كل زمان ومكان .. مع أن الحديث عن شخصين هما موسى وهارون وعن أقلية صغيرة مضطهدة كما قال تعالى: (... يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (3) فكيف لهم أن يخرجوا شعبا بأكمله من أرضه؟ لكنه لما أراد إخراج موسى وقومه والتخلص من خطرهم جعلها للشعب المصري ضربة استباقية، ليربح لقب البطل القومي ويربح الملك والتسيد مجددا .. ومضى في خطته

(1) [القصص : 4].

(2) [طه : 63].

(3) [القصص : 4].

فبعث إعلامه الرسمي إلى المدن والقرى لشيطنة هذه الأقلية، وبث الشائعات وتحريض شعب مصر عليها لتوسيع الشرخ إيفاع الفتنة : (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ) (1) .. ولم تظهر مسألة مصلحة فرعون الشخصية والسادية في هذه الحملة الإعلامية المنظمة، بل مصلحة المصريين وحسب، فهم الذين تحاك ضدهم المؤامرات، وتحيط بهم الدوائر، وهم الذين سيخسرون دينهم وطريقتهم المثلى، مع أنه في واقع الأمر لا ناقة لهم في الموضوع ولا جمل، فالدين ليس دينهم بل هو من اخترعه وجعلهم يعبدونه بدلا عن الآلهة كما تقول الروايات .. فالمعركة معركة هو .. والدين دينه .. لكنه وجه الأحداث بشكل جعل من الشعب هو المعني بها بدرجة أولى، أما هو فقد تقمص دور الحامي حمى شعبه من الأخطار المحدقة المدافع عن مصالحهم .. ولقد نجح في تمرير هذه الحيلة وأغرى صدور الأكثرية على أقلية تعيش تحت حكمه، وتحقق له ما أراد، فصار الناس يقتتلون في الشوارع .. هذا من شيعة هذا .. وهذا من عدو هذا .. وبعد أن هيا الرأي العام لكل الاحتمالات وصل إلى الهدف النهائي وهو إباحة دم مواطن مثل خطرا على حكمه: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ) (2).

وبهذا التصرف العبثي غير المسؤول صار فرعون في الأرض من المفسدين (إنه كان من المفسدين) وهذه مفارقة، إذ حري بالحاكم أن يكون مصلحا لشؤون العامة والخاصة لا مفسدا لها .. مجمعا لا مفرقا .. بانيا لا هادما، ولكنه داء الملك ومرض التسلط، الذي يعمي ويصم، ويترك صاحب النفسية الفرعونية الضعيفة يستبيح كل شيء، حتى مبدأ المصادقية مع من يحكمهم فالرائد لا يكذب أهله، لكنه يستخدم الكذب بالطول والعرض ولا يستحي من محاكمة التاريخ، وتعاور ألسنة الأجيال بالقدح والذم.



(1) [الشعراء : 53- 56].

(2) [عافر : 26].

شرح تخريب المجتمعات في القرآن الكريم

قسم الدكتور/ عبد الله النفيسي خبير العلوم السياسية الهرم السياسي لنظام الحكم إلى أربع طبقات .. الأولى: الطبقة الحاكمة .. والثانية: الطبقة الساعية إلى تثبيت وجودها في السلطة المقربة من الحاكم (الملاً بالمصطلح القرآني) أو الدولة العميقة بالمفهوم الجديد .. والطبقة الفلقة وهي المتقفة الساعية للإصلاح .. وكل من الطبقة الثانية والثالثة تشكل النخبة في المجتمع .. والطبقة الرابعة هي الطبقة المغيبة .. وهي القاعدة المجتمعية أو العامة، الساعية لتحسين الأوضاع المعيشية وحسب، والتي تقيس عدالة الحاكم بمستوى الرخاء المعيشي، ولك أن تسميها (عدالة السوق).

ولكن ما يهنا هنا هي الطبقة الثانية وهي طبقة الملاً وهم يشبهون سحرة فرعون في السعي للمكاسب والمناصب قبل أن يبلغ الحق مداركهم، قال الله تعالى: (... قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) ⁽¹⁾ طلبوا الأجر في مقابل هزيمة معارضي الحاكم فأغراهم بشيء إضافي يسعون وراءه أيضا وهي المناصب (وإنكم لمن المقربين).

ووجه شبه آخر هو تزيين أعمال الحاكم التي توافق هواه، وتقبيح صورة الطبقة الثالثة طبقة الإصلاحيين التي تسعى إلى تفعيل القوانين الضابطة واللاجمة لاستئثار الحاكم ومنظومة الحكم التي منها رجالات الدولة وأعيان البد .. فهم على صراع تاريخي مع قوى الإصلاح والتغيير، لأنهم يريدون إطلاق التخوض في الحقوق العامة والخاصة دون رقيب ولا حسيب فهم في كل زمان ومكان يرفضون دعوات تعديل الوضع الذي يؤمن لهم الكسب غير المشروع، فغالبا ما يكون وصولهم إلى مستويات عليا في الدولة بطرق غير قانونية، إما بالنفاق، أو المحسوبية، أو الرشاوى، أو مجرد الثقة فهؤلاء على تضاد مع المعايير وتكافؤ الفرص .. ومن معاني الملاً في المعاجم "الذين يتمثلون في النواب" أساس البلاغة(2/223) فستجدهم أول من ينبري للطبقة الثالثة يدافعون عن سياسة الأمر الواقع ويدعون السدانة والعكوف على حراسة النظام من تطفل المتأمرين والوصوليين.

كيف فضح القرآن أدوار هذه الشريحة المجتمعية وتآمراتها السلبية؟.

تحدثت عنهم عشرات الآيات باسم (الملاً) كأبرز شريحة تتصدى لدعوات الأنبياء وتحرض على طردهم أو قتلهم .. فهم المُسَوِّقُونَ لِلَّغَةِ الْعَدَائِيَّةِ الْفِتْنَوِيَّةِ، من تسفيه، وتضليل، واحتقار، وازدراء، وتهديد، بالطرد والتكيل للمستضعفين وقتل الأنبياء .. فمتى جاء دعاة الهداية والعدالة والإصلاح

(1) [الأعراف: 113-114].

حاربوهم .. ولقد كان الله تعالى يرسل النبي إلى قومه، فيأتي خطابه شاملاً (يا قوم) فيتصدى له من قومه هذه الطبقة الفاسدة المفسدة .. (المأ) لا حظ دوماً (قال المأ من قومه) ولا توجد آية تقول (قال قومه) بل قال المأ.

فحين دعا نوح قومه: (قال المأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين)... وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ...). وحين دعا هود قومه: (قال المأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) .. وحين دعا موسى فرعون وأتباعه: (قال المأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم) .. وحين دعا شعيب قومه: (قال المأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك ...) .. وحين دعا محمد قومه صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء .. أول من وقف له هم هذه الفئة من النخبة عتولة قومه وأكابر مجرميها: (وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى آهَاتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ) (1) .. (قال المأ من قومه) (وانطلق المأ منهم) أي من قومه .. إذن ليست الشعوب الغالبية المغيبة هي من تحارب مبدأ التغيير؛ لأنه لا رأي لها، هذا أولاً. وثانياً هي تعيش حالة التفويض للمأ جهلاً وخوفاً وتفويضاً .. فيتصدر شريحة المأ المتساندة كل مشاهد الحرب ضد دعوات الخير التي تتضمن العدالة والمساواة على رأسها تعاليم السماء، ولا يكتفون بالتصدي السلمي لمخالفهم بل يلجؤون لتحريض الحاكم عليهم الذي يجد هو مصلحته في الاصطاف مع هذه الشئلة الفاسدة: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْنَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكَ وَعَالِهِتْكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) (2).

والنتيجة (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ...) حتى لتتوسع حدود التآمر على المعارضين إلى درجة التصفية الجسدية كما جاء في قوله تعالى: (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يمشى إلى المأ يأمرون بك ليقتلوك فأخرجني لك من النصحين) (3) .. إنهم أكابر مجرميها الذين لا يتركون وسيلة إلا واستخدموها ومنها المكر كما قال الله: (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون) (4) .. ولا يزال المأ حتى عصرنا هذا هم طلائع السوء في الغالب، وسدنة المعابد، وحملة المباخر، منهم المنافقون، ومنهم العملاء، ومنهم المزينون للسلطان أوجه الشر، وهم في النهاية اللصوص والفاقدون

(1) [ص: ٦].

(2) [الأعراف: 127].

(3) [القصاص: ٢٠].

(4) [الأنعام: 123].

والمستأثرون بخيرات الأمة ومصالحها .. وهنا سؤال مهم لإجابة مهمة: بما أن المأ في كل المجتمعات هي أس البلاء فما هو الحل معهم؟

الجواب: إن الذي أنهى فساد النخبة في الدول المتقدمة ليس إنهاء هذه الشريحة كطبقة، فهم لا يزالون هناك كظاهرة إنسانية لن يخلو منها أي مجتمع .. كما أن محاولة تغيير طرائق تعاملها لن يأتي بطائل حيث كانوا مصدات قوية أمام المصلحين؛ لأن مواقعها تدفعها لاستغلالها كلوبي نفعي تساندي .. والإنصات لدعوات التصحيح سيعني نهاية حكمها وتراجع دورها.

إن إنهاء دور هذه النخبة التخريبي إنما يكون بتحويل المجتمع كله إلى (نخبة) عن طريق رفع مستوى الوعي ولا يرتفع مستوى الوعي إلا بالتعليم .. بهذا يصبح طبقة موازية قادرا على رقابتها، ومنحه صلاحية تغيير أفرادها عن طريق الانتخابات ومعنى الانتخاب أي اختيار الأكفأ والأصلح والأنزهر، ولكن يلزم أن تكون النخبوية قد اكتسبها المجتمع من الوعي الحقوقي بصورة أخص فلا يكفي نخبوية علمية مع جهل بالحقوق، فقد نجد مجتمعات متعلمة لكنها خانعة بسبب جهلها بالقوانين المنظمة للحقوق والواجبات .. أضف إلى ذلك اكتساب ثقافة التغيير عن طريق الفعاليات الحقوقية المختلفة .. وأن يكون لديها مبدأ مهم جدا وهو مسألة التضحوية والإصرار على التغيير متى أرادت كضريبة لازمة أحيانا لتحقيق التوازن .. فكثيرا ما يراهن الحكام على عامل الوقت وتسلل الملل إلى روح المقاومين للانحراف .. على أن تكون المعارضة سلمية ضاغطة ومزعجة ولكن غير هادمة ولا مستقوية بالخارج المتربص فالمنكر لا يغير بما هو أنكر .. بهذا يتحقق التوازن بين طرفي المجتمع، وينتهي الفارق بين نخبة حاكمة وعتائية محكومة، وسترتفع درجة التهيب من مجتمع مناضل ويرتفع مستوى الاحترام لشعب واع .. إن وراء كل مسؤول ملايين من الأعين المسلطة ضوؤها على حركات وسكناته، فمتى أخطأ تبدأ محاسبته على كل الصعد، ويأتي التأديب سريعا .. فبالمجتمع النخبة يتم احتواء المنظومة الحاكمة والسيطرة عليها .. وما لم يعل أي مجتمع من قاع التبعية والاستلاب، سيظل يسلم مقاليد أمره لنخبة حاكمة متسلطة لا ترحم.

* الكرامة بين النخبة والعامية.

تعيش النخبة في عالمنا الثالث أزمة إخلاص أكثر من أزمة وعي .. فيما تعيش العامة أزمة وعي أكثر من أزمة إخلاص .. فعندما يتناهى إلى مسامع العامي أن دينه أو عرضه أو سيادة أرضه باتت مهددة بالخطر أسرع ما يتجهز للتضحية بالنفس بصرف النظر عن مدى إدراك من يوجهه أو كيف يوجهه فأزمة الوعي أيضا مهلكة.

وعندما ينتهى إلى مسامع النخبة أن ماسبق مهدد بالخطر .. يتصامم الكثير منهم وشعاره: (اللهم لا أسألك إلا نفسي) .. فلايهم من حكم أو من تحكّم بقدر ما يهم أن يبقى في منصبه إن كان مسؤولاً .. أو يبقى له راتبه إن كان موظفاً .. أو تبقى له تجارته إن كان تاجراً .. فالنخبة غالباً كائنات آكلة أكثر منها كائنات عاقلة .. دافع مواقفها معدتها أكثر من ضميرها .. لذلك تجدها متفاعلة مع الأحداث لا فاعلة فيها .. متأثرة بها لا مؤثرة فيها .. مائعة في مواقفها ضبابية في مبادئها .. وتفسير ذلك أن استعداد أحدها الداخلي لأن يكون مستخدماً ضد الشعب أكثر من استعداده لأن يكون خادماً للشعب .. فلا يقض مضاجعها مصلحة المجموع فتسهم في بنائه ومستعدة لأن تضحي من أجله بقدر ما يهملها الدوران حول فرديتها ليستمر بقاؤها وتشبع غريزة الأنا فيها .. في حين العامي لا يزال يمثل رصيد الشرف، والغيرة، والأنفة، والعفة، والحفاظ على السيادة غالباً .. فالكثير الكثير من العوام لا يمكن مساومتهم بالمال ليخون أحدهم دينه أو أمته أو يفرط بوطنه .. وليس كذلك الكثير من الطبقة العليا فهذه المفردات أصبحت بالنسبة لهم قديمة ومستهلكة .. والمفردة الأكثر جاذبية عندهم هي فقط (مصلحة الذات) .. فكم من الأمراء والمسؤولين والمشايخ والوجهات تاجروا بأمتهم وفرطوا بقضاياها العليا مقابل توافه؛ لأن رُقي تفكيرهم تآكل، ورصيد ضميرهم تبدد مع بريق الدنيا وأضواء السلطة .. وتناقفوا فيما بينهم ألا شرف مع مصلحة .. حتى تراحموا على أبواب الخيانات وتدافعوا على أرصفة الارتزاق إلى أن صار بعضهم يتباهى أن له امتداداً خارجياً، فلم يعد معنى العمالة عندهم سوى دعم من قوى عظمى لا معدى عن الخضوع لها .. وربما شعر أحدهم بالاعتزاز أن يقال هذا رجل أمريكا .. أو مدعوم من بريطانيا .. أو على اتصال بفرنسا أو .. وإنما هو خائن لدينه جاسوس على أمته وأداة استعمالية رخيصة .. ملء بطنه من فراغ ضميره .. والتواء سيرته من لؤم سريرته .. وصفاقة وجهه من جذب عزة نفسه.

* أخيراً.

إن هذه النخبة نكبة في عالمنا العربي اليوم، وبوضعها الحالي لا تمثل شعبها بقدر ما تمثل به وتمثل عليه .. ولا انعتاق حتى تُغيّر أو تتغير، وتتخلى عن التمحور حول حظوظ نفسها أو الجهة التي ينتمي إليها الفرد الصفوة، لنتجه الهم نحو المجموع فتتوسع دائرة النشاط، ويتعمق الشعور بتحمل الأمانة تجاه لجميع فيطال الخير كل فرد، وإلا بقي الوضع مختلاً غير مستقر يسير من سيء إلى أسوأ.



من وراء إشعال الحرائق في المنطقة؟

جاء الاستعمار الأجنبي إلى المنطقة فاستقبلته أدلاء من بقايا سلاطين مندثرة، وبعض رجالات قبائل منتفعة، ودكاكين علمائية تسترزق بفتاوى حسب الطلب، وثلة من صرعى وهج الحضارة الغربية وفتنتها، وكان شعار الواحد من المشايخ الذين يعينهم وزير المستعمرات حينها (اللهم لا أسألك إلا نفسي) وإنما هو يحمل هم بطنه، ويتقن رسائل الولاء والطاعة وفن الالتماس التي ترفع لطلب مكرمة صاحب العظمة المحتل، ولا ينسى قفلتها بلازم (خادمكم المطيع) فكانوا يبادق في رقعة الشطرنج واللاعب خارجي .. ولا تزال هذه الثقافة تطحن واقعا من حيث لا ندري، وهي نتيجة طبيعية فللاستعمار مراحل أربع كما أشار إلى ذلك الدكتور النفيسي في إحدى لقاءاته .. العنف .. التجزئة .. التغريب .. الإلحاق .. وكل هذا حدث.

ولم يكن الغازي يحتاج لكثير من الوقت ليجد تلاميذ مخلصين لخطه وثقافته، فتشكلت نخبة الليبراليين والعلمانيين حبره الذي يسود الصفحات في تمجيده .. وبهذا خلت الساحة من قاعدة مقاومة إلا ما كان من علماء الأمة ومجاهديها، أمثال (عمر المختار) في ليبيا و(عبد القادر الجزائري) في الجزائر و(عبد الكريم الخطابي) في المغرب، و(عز الدين القسام وأمين الحسيني) في فلسطين و(محمد أحمد المهدي) في السودان .. وكان تيار الليبراليين الذي صار يحمل معنى التغريب وأمركة المنطقة يشكل طلائع الاستعمار .. وأدلاء مسيرة فرنجة المنطقة .. ومكرسي واقع التبعية والإلحاق .. وأصوات الدخيل المزينة للناس محاسن تواجهه سواء على مستوى السلطة أو النخبة، وهؤلاء هم بقاياهم ومخلفاته إلى اليوم، وصدق أبو الأعلى المودودي رحمه الله في مقولته المشهورة: "المسلم وحده هو الوطني، وليس أحد أولى منه بهذه الصفة، لأنه الامتداد الحقيقي لثقافة الوطن وأمجاده، وغيره ممن لا يحملون هذه الصفة، هم غرباء عن هذا الوطن ومن مخلفات الاستعمار" عنى المسلم هوية وثقافة وليس بطاقة واسما.

وفي أثناء موجة التغريب التي حمل همها الليبراليون إبان الاستعمار ظهرت حركات إسلامية تدعو إلى التمسك بالهوية (مقابل ثقافة الاحتلال) وبمنهج وفكر مجتمعي اعتدالي .. ليس فيه نزعة الغلو والتكفير .. بقدر ما فيها نزعة التحرر والاستقلال من تلك الجماعات ما سبق ذكرها .. ومنها تلك التي شاركت في تحرير فلسطين عام 1948م مثل حركة (الإخوان المسلمون) التي كان قد ظهر على أيديها بواد الانتصارات على الدولة اليهودية .. فأوعزت يومها بريطانيا إلى عملائها الليبراليين بحل هذه الجماعة التي شكلت تهديدا جديا على مصير إسرائيل، فحاربها الليبراليون كما يحاربون

حماس اليوم ككلاب حراسة تعهدت بحماية إسرائيل .. ففي أثناء حرب الإخوان التحريرية في فلسطين وفي مساء الأربعاء 8 ديسمبر 1948 أعلن رئيس وزراء مصر النقراشي باشا في زمن احتلال بريطانيا لمصر أعلن قراره بحل جماعة الإخوان ومصادرة أموالها، واعتقال معظم أعضائها وتم اغتيال مؤسسها حسن البنا .. وفي هذه الأثناء اغتيل النقراشي قيل على يد أحد أعضاء هذه الجماعة، وهي القصة التي ضخمها الليبراليون ولا يزالون يبكون على النقراشي العظيم الذي قتلته جماعة الإخوان وجعلوها كدليل على (إرهاب الجماعة)، وفعلوا تماما كما فعل فرعون الذي قال لموسى في قتله أحد الفراعنة (وفعلت فعلتك التي فعلت) ونسي أنه أبو كل الفعلات وأمها، وأنه إذا كان موسى قد قتل فردا منهم بالخطأ، فقد قتل فرعون أطفال بني إسرائيل من قبل أن يأتي موسى .. واضطهد رجالهم .. ثم بعد انقلاب العسكر (والعسكر العلمانيون والليبراليون هم أسانذة الانقلابات في المنطقة وليس الإسلاميين يا أبواق الأمريك، لاترعبوا الحكام الأميين الذين توشون في آذانهم ليل نهار بالزور والبهتان).

أقول بعد انقلاب العسكر على الملكية في مصر استمرت بصمة الحكم الاستعماري محافظة على هوية المحتل التخريبية فنكل العلمانيون بالجماعات الدعوية السلمية .. وتفنن العسكر في تعذيب قادتها وأعدموا مفكريها شنقا .. لأن الغرب لا يحب أن يزاحم عملاءه أي توجه وطني ملتزم بالهوية.

ومارست العلمانية الفاشية في سوريا الأسد، وليبيا القذافي، وعراق صدام، وتونس بورقيبة و بن علي، كذلك جنوب اليمن الشيوعي أبشع صور التعذيب والتكيل والمطاردات ضد العلماء والجماعات الملتزمة المعتدلة، من علماء، ومفكرين، ودعاة كما يحدث اليوم بالنسبة للعلماء المجاهدين غير المطبلين لحكام الجور .. وفي ظل هذا الظلم والإرهاب الرسمي ومصادرة حق الإنسان في التفكير والتنظيم والعيش الآمن في أرضه الذي ظل مكفولا فقط لدعاة التغريب، والتخريب، والصهينة .. ظهرت حركات عنفية متشددة كردة فعل متوقعة .. صنعها الظلم .. ورباها القمع .. وذاها التسلط .. فجير الليبراليون تلك الجماعات المتطرفة على الحركات المعتدلة .. ولم يدينوا أنفسهم بصناعة الإرهاب بسبب ممارساتهم الطاغوتية ضد الآخر .. بل حملوا تيار الاعتدال مسؤولية ظهور العنف .. وأدرجوه ضمن قائمة الحركات الإرهاب كإخوان .. وعمدوا إلى تجفيف منابع التدين باسم تجفيف منابع الإرهاب .. وإنما هدفهم تفريغ الساحة من الحاضن المعتدل .. ويتركوا الموجة المرتدة نحو التدين (كظاهرة عالمية عامة) تتجه نحو قراصنة العقول من أشباح مقنعة مشبوهة .. وأسماء كنى وهمية تتبع دوائر استعمارية خفية تزيد المنطقة اشتعالا.

ورأي أن ألمانيا والنمسا تصرفتا بمسؤولية حين سمحتا للتيار النازي وأمريكا للانجليين المحافظين والهند لحزب بهارتيا جناتا، وكل الدول التي لديها تيارات متشددة قومية، أو دينية، أو عنصرية متطرفة واعترفت بها وتركتها تمارس نشاطها وذلك لكي تقرأ أفكارها وتراقب حركاتها وتدمجها في المجتمع، ويتم امتصاص حماس فكرها مع الزمن بدلا من محاربتها وإغائها فتناجاً للعمل في الظلام ويستفحل شرها ويزيد وضعها تعقيدا .. لكن الاستشارات الغربية تقول لعملائها البدائين في المنطقة المغسولة أدمغتهم أن الحل مع هذه الجماعات هو دائما في التصرف الجنوني والأحمق ضدها، لكي تظل المنطقة دوارا مواراة في كفها .. فيلجأ الحكام إليها دوما لفك عقدها ودس أنفها في كل صغيرة وكبيرة ليستمر بقاء عملائها.

على أن تيار الهوية الملتزم والمعتدل الذي يصمونه الآن بالإرهاب أثبت أستاذية عالية في المعارضة السلمية أثار في ثورة الربيع العربي إعجاب العالم .. خرج بصور عارية يردد سلمية سلمية .. ويبث الأناشيد الوطنية .. ويحافظ على ممتلكات الشعب ويحرسها .. ويلتف مع بقية المكونات في تجانس منقطع النظير ينشد التغيير والعدالة الاجتماعية وبطريقة شعباوية مثلت انعطافا في ثقافة الانقلابات الدموية، التي كان ينفذها العسكر ولم يقل أحد على العسكر إنهم إرهابيون .. فخرج للتيار السلمي حكام من فصيلة أكلة لحوم البشر وبطرائق غابية تسيء إلى سمعة الكائن العربي، فهذا يدهس المتظاهرين بالمجنزرات، وهذا يخرج كالمجنون يردد سنبحث عنكم زنقة زنقة دار .. وآخر سنحاربكم من شارع إلى شارع ومن نافذة إلى نافذة ويوزع على أفراد حزبه الأسلحة إلى كل حارة وقرية؟! .. وآخر يحرقهم في الميدان ويبيد أطفالا ونساء وشيوخا مسالمين وينثر لحومهم في الشوارع والأرصفة، وآخر يقتل منهم ما يفوق نصف المليون .. وما بقي من حجر على حجر كملتها أموال الليبرالية الخليجية المصدرة للديكتاتوريات، فدمرت بأموالها ما تبقى من مقدرات المنطقة .. ولم يكن لتلك الشعوب من جريمة سوى مطالبتها بالتغيير والحرية والمساواة .. ثم يقول العلمانيون الإرهابيون حفاظات المسالح الغربية انظروا ما فعل الربيع العربي بالمنطقة!!! انظروا ما فعل الإسلاميون بشعوبهم؟ .. ألا لعنة الله على الكاذبين.

ولكم تشعر بالتمزز والغثيان من هذا الطابور الغنائي الليبرالي الساقط أخلاقيا على قنوات تفلنت حتى من منظومة القيم الصحفية والمهنية، تحرض ليل نهار على الاستبداد والقتل والتصفيات السياسية لخصمائها من المواطنين الضحية .. وتشيطان شريحة واسعة من المجتمع وتصورها كمصدر كل الشرور في حين صارت إسرائيل وصار الاستعمار الذي يقتلنا ليل نهار في العراق، وسوريا، وفلسطين، وقبلها الصومال، والشيشان، والبوسنة، وكوسوفو، والحبل على الجرار صار في إعلامها منبعا للسلام ونموذجاً للإنسانية ومثالا للرحمة .. والإرهابيون فقط حماس والإخوان وجماعات في

موقع الدفاع عن النفس .. فأى إرهاب فكري وانحدار أخلاقي هذا الذي وصلت إليه أبواق الصهيونية في عالمنا المنكوب؟..

كانت المكونات ولا تزال تدعو إلى التعايش مع هذا الطابور الليبرالي العلماني، فظهر أنه ممرغ بأحوال العمالة حتى الثمالة .. فاجر في خصومته .. كافر بهويته .. سافر في عمالته .. مسرف في كل شيء .. ويات بفاشيته السياسية والإعلامية أحد أهم روافد الإرهاب وأحد أهم أسباب العنف الذي أشعل الحرائق في المنطقة .. وبالتالي لا يمكن أن تشهد المنطقة استقرارا وهو كالسوس الذي ينخر في عظامها، وينهش في لحمها ويضرب بمعوله في كيانها .. والذي أراه أن الليبراليين منافقون جواسيس ولا حاجة للبحث عن مواطن الخير في منافقين مردوا على النفاق بل يجب فتح مواجهة فكرية معهم وفضحهم .. ونشر قوائم العار منهم .. ومحاربة أدوارهم المشبوهة .. والتحذير من سمومهم وشبهاتهم .. إنها معركة استقلال حاسمة لا غنى عنها.



المشكلة في جوهر المشكلة!!!

كثيرا ما تنتسح رقعة أي مشكلة سياسية أو اقتصادية بسبب ترك مناقشة جوهرها ومقدماتها، والالتهاؤ بدلا من ذلك بمعالجة أعراضها ونتائجها .. وكلما تمادى الناس في تجاهل أصل أي مشكلة جسيمة أسفر ذلك التجاهل عن مشاكل عرضية عديدة .. فيزدادون انشغالا بمدافعة تداعياتها الحياتية .. ومواجهة آثارها المجتمعية والسياسية والإخ، وينسون صانعها الذي يختبئ خلف حالة الإرباك التي تركها.

وقد يذهب طابور الجواسيس للبحث عن لاعبين ثانويين فيها، فيبرزونهم على أنهم أصل البلاء ومنبع الشقاء .. ولايؤدي ذلك إلا إلى مزيد من تعقيد الأمور وابتعادهم عن العنوان الأساس .. ثم وفي خضم التغابي عن محاسبة الرأس الحقيقي وميول النخبة إلى إثارة السلامة من قول كلمة الحق، وبحث العامة اللاهث فقط عن تقليل خسائرها ينشأ التفكير الأناني والفردى ويتوحش الناس ويكون شعار كل واحد (اللهم لا أسألك إلا نفسي) فيساعد هذا الاتجاه الفرداني على تعميق المشكلة وتحقيق المسبب لأهدافه، ولو قبلوا بمبدأ التضحية وقالوا كلمة الحق لقيض الله لهم من يرفع عنهم اللأواء لأنهم بذلوا الأسباب.

في حرب اليمن بعد دخول الحوثى صنعاء عام 2014م، جرت أحداث لا يمكن تفسيرها بالإقليمية بناتا، فهذه دولة مجهرية هي الإمارات تتصرف في المنطقة كدولة عظمى، ففي اليمن تحتل الموانىء والجزر وتسيطر على المنافذ البحرية الدولية، وتنشئ مليشيات غير قانونية وتفتح السجون والمعنقلات، وتنفذ حملة مسعورة من الاغتيالات .. وسلطة صنعاء التي لم تحصل على الاعتراف من قبل أحد ولا تزال مليشيا تفخخ الملاحة البحرية، وتضرب الموانىء ذات النشاط الدولى، وتفجر الاحتياطي النفطى العالمى بصواريخ اسكود أو على الأقل تتبنى تلك الأنشطة الحربية .. كل هذا وكأن شيئا لم يحدث لدى ما يسمى بالمجتمع الدولى، مع أن أمريكا احتلت العراق 2003 بسبب اجتياحها لدولة الكويت، واحتلت الصومال عام 1993م بسبب القبض على زعيم مشاغب هو الضابط محمد فرح عديد، لكنها لم تقدم حتى احتجاجا أو تصدر قرارا دوليا ضد الأطراف اللاعبة على الأرض، مما يعنى أن الإمارات والسعودية والحوثى هم عرض لجوهر المشكلة وهي تغيير خارطة المنطقة سياسيا وفكريا من قبل دول احتلالية هي أمريكا وبريطانيا وإسرائيل وفرنسا كما صرح بعض المحسوبين على نظام الإمارات، غير أن ثمان سنوات والحديث عن نواتج منبع المؤامرة لا على أصل المؤامرة .. والصحيح أن لا تترك الدول المتآمرة في حالة كمون سياسى تختبئ خلف الأحداث، لا بد

من الشغب الإعلامي عليها وإقامة الفعاليات والمظاهرات في الساحات وتعريتها في المحافل الدولية وسيجد هذا الشغب روافد دعم مختلف من قوى يهملها فضح المعتدي الأول، طالما ووجدت حاملا شعبيا وزخم مقاومة، قد يقال (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) هذا صحيح فالأطراف اللاعبة على الأرض هي المسؤولة عن أفعالها تجاه القانون، لكن لا يوجد قانون بما أن النادي الاستعماري الإرهابي هو الذي يمسك بخيوط اللعبة فلا بد من تجريب الضرب على رأس الأفاعي بدل أذيالها.

ومثال محلي على التوهان في حل القضايا .. في إحدى فترات حكمه قرر نظام علي صالح في اليمن حكر توريد القمح عن طريق المؤسسة الاقتصادية الحكومية، ولأنها سلعة أساسية تمس الجميع عزت الأوقات، وحدثت أزمة شديدة في العرض، فانصرف الناس إلى تحميل السماسرة، والوكلاء، والوسطاء، مشكلة قلة الضخ ووجود طوابير طويلة على أبواب فروع المؤسسة، وتركوا الحديث عن القرار الخاطيء الذي لا يعالج بغير تصرف جماعي رافض، حتى صار الحصول على شراء كيس قمح ظفرا كبيرا يستحق المسؤول صاحب التسهيلات الجانبية تقبيل يده ورأسه، وذكره بالمحامد وصنائع المعروف، مع أنه جزء من الفساد، فانشغل الناس بمعالجات أعراض المشكلة وتركوا النظر في واجبهم إزاء جوهرها.

على أنه قد يتدخل المسؤول صانع المشكلة نفسه للتخفيف من أعبائها على كواهل الناس .. فإذا فعل ذلك تحول في نظر السذج إلى بطل عظيم .. وبالمؤمنين رؤوف رحيم .. وما يلبث أن يصبحوا مدينين له بالفضل .. فينبرون يدافعون عنه وعن أخطائه، مقابل تأريخه الحافل بمواقف الفضل عليهم .. فلولاها لكانت الأوضاع أشد كارثية وأشد مأساوية .. وبذلك يكسب مرتين: المرة الأولى بتحقيق مآربه من الربح أو زرع الفتن .. والثانية في استثمار فضله هذا في كسب المزيد من المحبين والمعجبين .. وعلى هذا المنوال تستمر اللعبة الخاطئة ويستمر معها خبال الشعوب الجاهلة .. لذلك نجد يوسف - عليه السلام - يعيد إخوته إلى أصل المشكلة عند محاسبته إياهم دون ذكر أعراضها الجانبية، فليست الأعراض هي مجال التصحيح بل أساس المشكلة لكي لا تتكرر ويعلم المسبب الأول أن المساءلة ستطاله ولن تلهي الناس أعراضها .. فلم يحدثهم عن تسببهم في تعريضه للبيع في سوق النخاسة .. ولا عن استرقاقه ولا عن سجنه وبلاءاته .. بل قال لهم: (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)⁽¹⁾ يجب محاكمة الخطيئة الأولى وإدانتها .. وعندما كاد الله له في ضم أخيه إليه بقصة سرق صواع الملك، وطلب منه إخوته أن يأخذ أحدهم مكانه أعطاهم درسا في معاقبة صاحب

(1) ليوسف [89].

الذنب الحقيقي لا سواه: (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَالِمُونَ) (1) .. فليس من الحكمة أن يعاقب البريء بجريرة ذنب آخر .. (إنا إذن لظالمون) .. إنه ظلم للإنسان الخطأ بالعقاب الخطأ .. وظلم للنفس بأن ذهبت بعيدا ولم تعاقب مصدر المشكلة .. ونجد في القصة نفسها يوسف الصديق - عليه السلام - لا يسكت عن أصل مشكلة إيداعه السجن .. مقابل رشوته بإطلاق سراحه وشرف مقابلة العزيز، لم يجعل ذلك منه من الحاكم، فإهاء معاناة الضحية ليس فضلا من الجلال، بل هو ما يجب أن يحدث .. لذا رفض الخروج من السجن قبل العودة إلى فتح ملف القضية ومعرفة من وراء مظلّمته حتى يُبرأ من التهمة أمام المجتمع، ولم يخرج ويقل ما أجلّ فضل العزيز وأوسع حلمه! (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) (2) .. وهكذا أجبر عزيز مصر على محاسبة النسوة اللاتي تسببن في متاعبه وأهمها خطيئة محاولة الإغواء .. والله تعالى إذ يذكر عموم قوم صالح أنهم كذبوا المرسلين؛ (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ) (3) لا يتجاهل النص القرآني تسعة رهط كانوا الطليعة في الفساد: (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) (4) .. ثم يحدد من التسعة رأسهم وأشقاها (إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا) (5) وهو (قدار بن سالف).

إذن لا بد للشعوب من غرما يحاكمون ويدانون على أخطائهم في حق شعوبهم؛ ولا بد من مستمسكات ومضبوبات أخطاء سببية، فتكرار الانتشغال بالأعراض وترك أصل المشاكل ومنشئها وتكرار تجاوز الصفحات وعدم المحاسبة، وتكرار مقولة كثر الله خيره وغيره أسوأ منه، ونبدأ صفحة جديدة، وجدلية غض الطرف عن طلائع الفتن، ومشعلي الحرائق يفاقم الأوضاع .. ويميع القضايا .. وينزع منهم هيبة الدولة والقانون .. ويجرئهم على مزيد من التجاوز .. قد يقال فانه يقول: (... وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (6) والجواب كالتالي:

أولاً- هذا في حق أفراد، أما حق الشعوب فمن ذا الذي يملك أن يعفو، ونحن نجد في الدول المتقدمة كيف أنهم لا ينسون محاسبة المسؤول ويبقى ملفه مفتوحا دون أن يغلق إلا بالقانون.

(1) يوسف [79].

(2) يوسف [50].

(3) الشعراء [141].

(4) النمل [48].

(5) الشمس [12].

(6) آل عمران [134].

وثانياً- العفو شيء وإدانة المجرم شيء آخر، حيث إن تركه بريئاً فيه فساد في الأرض وتشجيع ذوي النزعة الشريرة على التمادي في الشر لأن العقاب في نظرهم لن يطالهم يوماً .. بل إن السكوت عن أهل الباطل يجعلهم يظنون أنهم على حق، وهذا من حيث المبدأ العام ولسياقات المواقف الفصل.

وثمّت سياسة يمكن أن نسويها سياسة سرعة الاحتواء، فأبي ذنب يرتكبه أي مسؤول في الدولة مهما بدا الذنب صغيراً أو حتى شخصياً فلا ينبغي أن يترك دون مساءلة .. لأن المسؤول ليس ملك نفسه وبخاصة السلطان، وقد حدث في نهاية شهر يوليو من عام 2018م أن أحد الهواة في فرنسا صور مقطعاً لأحد رجال الأمن التابع للرئيس الفرنسي (إيمانويل ماكرون) ورجل الأمن هو (اسكندر بينالا)، صورته وهو منتحل صفة رجل الشرطة، ويضرب بعنف أحد المتظاهرين السلميين .. فخرجت الصحافة لتضع رئيس البلد الجديد في أول وأصعب امتحان يواجهه؟ وهو كيف يكون في حرس الرئيس شخص بهذا الدرجة من السوء؟ ثم من أعطاه بدلة الشرطة؟ وكيف يجرؤ على انتحال رجل الشرطة المسؤول وحده عن التعامل مع المتظاهرين؟ صحيح أن الحملة لم تخلو يوماً من دخن العنصرية، كون الحارس الشخصي من أصول عربية، ولكن الصحيح أيضاً أن شدة الرقابة المجتمعية في أي دولة متحضرة تبقى متواجدة وحاسمة بحيث تجعل الحاكم يتحسس خطي قدميه أين سيضعهما، قبل أن تزلزلا فيسقط وتسقط معه الأمة في الهاوية.

ومحور ما سبق هو في الخطأ الرسمي الذي يمس الملايين وليس لأحد الحق أن يعفو سوى القانون، أما في حق الأفراد فيمكن معالجة أساس المشكلة كأخوة يوسف، كما يمكن تجاهلها وتجاهل أعراضها والعفو من الطرف المتضرر لأنه حر في حقه الشخصي، وذلك متى وجد أن في إثارتها أضراراً يفوق تجاوزها، ولنا في ذلك مسترشد من موقف النبي صلى الله عليه وسلم مع كعب بن زهير بن أبي سلمى حين جاء مسلماً معتذراً من إساءته لرسول الله بعد أن كان قد أهدر دمه، وألقى بين يديه قصيدة البردة، وكان من ضمنها إنكار إساءته للنبي وأن ذلك من طرف الواشين، فلم يفتح النبي صلى الله عليه وسلم ملفه ويذكره بقصائده التي تعج بالإساءات رداً على إنكاره، فأعاد نشر الإساءات إساءة لناشرها، وهذا يضاعف من المشكلة ويوقع الجميع في حرج والرجل جاء مسلماً معتذراً، فلم يكن من النبي صلوات الله عليه سوى أن يعدي تلك الأغاليط، ويضع عليه برده كناية عن رضاه وعدم مسه من أحد بسوء.



الوطن الموجود والوطن المفقود

أفصح من ينطق بكلمة (وطن) هي الشعوب المشردة التي ليس لها وطن يحمي وجودها .. وطن تمارس فيه حريتها وتشعر فوقه بالأمان .. وطن يمنحها الأرض المجانية لكي تبني عليها دارا يكنها .. ويمنحها الأرض التي تحرثها فتزرع وتثبع .. ويمنحها الوظيفة التي تعناش من خلالها .. وأخيرا يمنحها القبر المجاني الذي تواري به سوءاتها.

الوطن أغنية مقدسة يرددها البسطاء .. ويتبارون في التعبير عن رصد أنفسهم كقرايين في محراب طاعته .. ولكنهم أي البسطاء يعيشون في ملعب الوطن كالكرات في أقدام اللاعبين .. فالذين أثروا من خيرات هذا الوطن واستباحوا مقدراته هم المراد بهذا الوطن المفدى في نهاية المطاف .. هم الراقصون الحقيقيون على نغم الوطنية .. وهم الكاسبون من وراء اسمه السحري .. فهم يقدسون الوطن جدا لأنه يسبغ عليهم بالنعم ويعود عليهم بالمكاسب والأرباح .. وباقي العوام مسخرات بأمرهم لتحقيق أهدافهم الخاصة، فباسم مصلحة الوطن قد تحصد رؤوس المواطنين ظلما .. وباسمه تصادر حقوقهم .. وباسم الوطن تمتلئ بالمظلومين المعتقلات .. وتضرب عليهن الضرائب الجائرة، ويعيشون جوعى بائسين .. فما هو الوطن ليت شعري إن أصبح المواطن قربانا يذبح في محراب طاعته؟

ولقد درج الناس على التسليم الثقافي بأن من حق الوطن أن يأخذ من المواطن كل شيء دون أن ينتظر منه أي شيء فـ(كلنا فداء الوطن) .. و(من أجل الوطن سنبدل الغالي والرخيص) .. فحبه يقتضي أن يأخذ دون أن يعطي .. فإن جاع المواطن فلكي يغتني الوطن .. وإن صودرت حريته فلكي تحفظ للوطن حريته وكرامته؟ .. وإن مات المواطنون في مواطن الفداء فلكي يحيا الوطن .. فمتى صار التراب أكرم منزلة وأعلى قيمة ممن يسير عليه؟ إنما هو العنوان الخطأ ليتنازل الناس عن حقوقهم لمسمى اعتباري اسمه (حب الوطن) الخدعة التي يُضحك على عقول البسطاء بها.

وأنت إذا بحثت عن وطنية الظلمة أصحاب العروش والكروش والقروش .. فستجدها فقط خلف المؤثرات العاطفية .. والمناسبات الوطنية التي تهيج المشاعر .. ستجدهم يحتفون بالوطن ولكن في العيد الوطني .. والوقوف له عند ترديد النشيد الوطني .. وإعطائه التحية عند رفع العلم الوطني .. ستجد الوطن لدى المسؤولين عند إلقاء الخطاب الوطني .. وعند إيقاد الشعلة .. وحين تكريم الجندي المجهول .. لكن الوطن الحقيقي إذا اقتضت حاجتهم لبيعه لأي عابر سبيل فسبيبعونه ولو بالتقسيم المريح .. فالاستقلال عند الكثير منهم كذبة كبرى .. والسيادة سلعة معروضة على أرصفة النخاسة .. فمن الوطن إن لم يكونوا هم الوطن؟ وهم بذلك أحرار في أنفسهم (الوطن) يبعونها أو يحفظونها.

وأمام البسطاء الذين يحبون الوطن من طرف واحد شواهد كافية على أن الحاكم في الدول المستبدة هو الوطن .. فهو الوطن حين يمنح نفسه حق التصرف به كيف يشاء دون حسيب ولا رقيب، ولا مرجعية وطنية لاجمة لإرادته .. هو الوطن حين تكون كلمته أعلى من كلمة شعب بأسره .. هو الوطن حين يجدون تحت صورته مكتوبا (نعم للوطن) .. (كلنا في حماية الشعب) .. (نموت وتحمي البلد) (تحت أمرك يا وطن) (يحمي الشعب) حيث أصبح الزعيم هو الوطن .. وهو الشعب .. وهو الثورة .. والكل مسخر لحمايته وحماية مصالحه .. إنه الوطن الموجود .. والوطن الحقيقي هو المفقود ولا تصدق غير ذلك.

في الدول المتحضرة أصبح الحديث عن الوطن مقرونا بالتوسع من أجل المواطن .. فالحديث هناك عن مواطن يعيش في الأرض لا تعيش الأرض فيه .. عن إنسان له حقوق مثلما أن عليه واجبات، لكنه محور الحديث .. وموضع الرعاية والاهتمام .. وعليه يجب تحويل المسار في بلداننا نحو المواطن .. ثم المواطن .. ثم المواطن .. ولا يلغى المواطن لافتة اسمها الوطن .. ذلك أن حماية الوطن إنما هو لصالح المواطن .. وتطويره تطوير للمواطن .. وليس التشبث بمصطلح الوطن في كل الأحوال بدل المواطن سوى تهرب من المسؤولية وخيانة مفضوحة.

ومن الوطن المقدس بات الناس يسلكون القفار .. ويقطعون البحار .. ويخاطرون بأرواحهم لكي يجدوا في الغرب وطنا يعترف بإنسانيتهم وحرمتهم وكفائتهم .. مع أن ذلك البلد الغربي ليس وطنهم الذي ولدوا فيه لكنهم سيحمنونه ويدافعون عنه إن اقتضى الأمر .. لأنه وطنهم الذي اعترف بوجودهم ومنحهم حقوقهم .. فما يفعلون بالوطن الأم وقد صار سجنهم الكبير؟ لذلك قبل أن تسمع من مسؤول مواعظ عن واجباتك في حماية الوطن أسأله عن واجباته في حماية المواطن .. وقبل أن يحاسبك على بخلك، حاسبه على سرقاته .. فالمواطن هو المخدوم وليس المستخدم .. وهو الهدف وليس المستهدف.

وفي فلسفة الإسلام خلق الله الأرض ووضعها وذلكها للأنام ولم يخلق الأنام للأرض فقال: (والأرض وضعها للأنام) ⁽¹⁾ (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا) ⁽²⁾ (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا) ⁽³⁾ .. وما لم يجد الإنسان على هذه الأرض أو تلك منافعها، تركها وبحث عن غيرها (ألم تكن

(¹) [الرحمن:10].

(²) [البقرة:29].

(³) [الملك:15].

أرض الله واسعة فتهاجروا فيها⁽¹⁾ لأن الإنسان هو الأكرم المتسيد على الكون أينما وجد كرامته ذهب يلتمسها، وليس عبدا للأرض.

وكم استحي من الله عندما أجد منشدا أو مغنيا جائعا يُنصّب الوطن كأفضل موجود في الوجود فينسب إليه الرزق ويقاضيه بالعبودية .. فأصبح بهذه الصنمية لنا رازق جديد ومعبود جديد .. لذلك لم يجدوا في هذه الأوطان ومنها سوى الذل والفقير؛ لأن العناوين خاطئة والمبالغات الشركية كاشفة للسوءات .. ونسوا أن إنتاج الأوطان في بلداننا العربية كانت حاجة احتلالية في المقام الأول لتمزيق الشعب الواحد إلى شعوب، صنعتها اتفاقية وزيري خارجية فرنسا وبريطانيا سايكس وبيكو، فزخر فوها للشعوب اسما ورسما ومجدوها فصارت في الخيال كالمقدس، ولك أن تتصور لو أن مقاطعة في أي قطر عربي انفصلت عن بقية المقاطعات، لن تحتاج لأكثر من سنة حتى يصبح وطنا مقدسا، يدرس في المناهج ويكي تحت علمه ونشيدته الوطني الوطنيون المخلصون، وسيصبح الولاء للوطن الكبير خيانة وطنية تستحق أقسى العقوبات، مع أنه الوطن الخطأ وإنما ساهمت في وجوده ظروف زمنية، وهكذا شطروا الوطن العربي وشطروا المشطر بعد ذلك وصارت مقدسات وطنية عليا.

نعم الدفاع عن الوطن جزء من الدين، وأن يقتل المسلم دون ماله وأرضه فهو شهيد .. وبذلك وردت النصوص القرآنية ونصوص السنة قال تعالى: (... قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ...) (2) سمي الله القتال عن الديار والأموال في سبيل الله، وعن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن ظلم من الأرض شبرا طوقه من سبع أرضين» (3) والأرض فيها المال، والديار، والأهل، والدفاع عن كل ذلك في وجه المعتدي غريزة فطرية تدافع عنه كل المخلوقات صغيرة وكبيرها، لكن كون الوطن ملكها لا كونها ملكا للوطن، كونه وطنا اصطلاحيا لا قديريا .. كونه قضية حقيقية لا مجرد شعار للمستبدين تمارس باسمه الموبقات .. وإطرا مجتمعيا للتعايش، لاسجنا كبيرا للاضطهاد .. وحقوقا وواجبات، لا أغنية سحرية للنهب ومصادرة المكتسبات؟



(1) [الجاثية:13].

(2) [البقرة : 246].

(3) رواه الإمام أحمد وأبو يعلى.

فلسفة الحروب

- الحروب تعني الانصراف من بناء القصور إلى حفر القبور.

- من تعشق الحياة إلى تمجيد الموت.

- من فن الاتصال الإنساني إلى مهارة الافتراس الغابي.

- من مقود العقل إلى وقود العاطفة.

** الحروب ابتعاد عن رياح الآمال إلى عواصف الآلام، وإلى ظلام يحجب الرؤية عن دروب السالكين .. فلا يدري الفرد إلى أين ستقذفه الأمواج المتلاطمة .. وعلى أي مرسى ستخط به قوارب النجاة.

- الحروب تنتهي معها حالات التفكير في الرخاء إلى حالات التفكير في البقاء .. ويتحول معها الإنسان من كائن عاقل إلى كائن غريزي مفترس .. ويتغير معها إيقاع الحياة من تغريدات الصباح المشرق إلى معازف الجنائز المخيفة .. ومن الأفراح إلى الأتراح .. ومن الحب إلى الكره .. ومن الصدق إلى الكذب .. ومن الاتفاق إلى الافتراق .. ومن الائتلاف إلى الاختلاف .. ومن الحقائق إلى قلب أوجه الحقائق .. ويتحول أحسن خبر فيها إلى:

* تم هدم ونسف .. بدل تم بناء وتشديد.

* تم قتل وأسر .. بدل تم تأهيل وتخريج.

* تم زراعة حقول ألغام فردية .. بدل تم استصلاح حقول زراعية.

- الحروب تعني حالة انعدام التوازن في التفكير .. وانحراف في زوايا الرؤية .. فقد يُنفق عليها - أي الحرب - جبال من الذهب والفضة؛ لأن طرفاً من المتحاربين سطا على ما في يد الآخر من متاع يسير.

والتاريخ البشري حافل بالأمثلة على ظلمها وظلامها. قال زهير:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم * * وما هو عنها بالحديث المرجم

فبسبب ناقة رميت بسهم فاختلط لبنها بدمها استمرت حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب 40 سنة.

وبسبب قرار مجنون بإلغاء اتفاقية الحدود بين العراق وإيران عام 1969م أصبحت الحدود ساخنة لتندلع الحرب بين الدولتين لمدة عشر سنين من سنة 1980 إلى 1988م .. خلفت نحو مليون قتيل وخسائر مادية تقدر بنحو 400 مليار دولار.

وبسبب مقتل وريث العرش النمساوي (فرديناند) وزوجته بسراییفو عاصمة البوسنة والهرسك، نشبت الحرب العالمية الأولى من 1914 إلى 1918م خلفت نحو 9000000 تسعة مليون قتيل، وهدمت المدن ودمرت المصانع وأحرقت المزارع .. وهيات للحرب العالمية الثانية التي استمرت من 1939 إلى 1945م وذهب ضحيتها نحو 73000000 ثلاثة وسبعين مليون إنسان بحسب بعض التقديرات.

- الحرب قد تبدأ بظلم ولكنها قد لا تنتهي بعدالة .. تبدأ بسبب ولكنها قد تنتهي بسبب آخر.

- قد يراد بها تغيير منكر ولكن قد تأتي بما هو أنكر.

- الحرب يمكن لأي طرف إعلانها بقرار، ولكن قد لا يكون بيد أحد توقيفها بقرار .. بدايتها معلومة ونهايتها مجهولة .. يعلنها أناس يعرف بعضهم بعضا، وضحاياها أناس لا يعرف بعضهم بعضا.

لذلك كان أهم اعتراض الملائكة على استخلاف آدم في الأرض هو القتل: (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) ⁽¹⁾ لأنه لا شيء يستحق أن يقتل من أجله الإنسان، ولا مبرر مادي يسترخص قيمة أكرم ما في الحياة. ذلك (أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعا)⁽²⁾.

أفلا يمكن للبشرية كما أبدعت في صناعة الموت، أن تبدع في إيجاد خيارات تقاضي أخرى تريح فيها العدالة والحياة؟.

(¹) [البقرة:30].

(²) [المائدة:32].

سيرد علينا أصحاب نظريات التزاحم البشري أنه لا علاج لكثرة البشر المطردة بغير التقليل المستمر من تضخمهم، أكان بالحروب أو بإطلاق الأمراض الوبائية؟.

ونرد عليهم ونقول بدلا من الانشغال بتطوير فنون الموت، فلتطوروا من موارد الحياة .. بتجديد وتنويع المواد الغذائية .. بتحسين البذور وتخصيب الأرض، باستصلاح الأرض البور، بتطوير الصناعات التحويلية .. فالذي خلق هو الذي رزق .. خلق يدين ورجلين لقم واحد .. والرزق لا يمكن أن ينفد ما حرك الإنسان يديه وأدار عجلة فكره (وفي السماء رزقكم وما توعدون* فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون)⁽¹⁾.

نعم في ظرف واحد تكون الحرب إنسانية ومشروعة، وذلك في حال وقع اعتداء وحل ظلم أي ظلم لا يمكن منعه ولا دفعه بغير الحرب، حينئذ (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)⁽²⁾ (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون)⁽³⁾ وتلك هي الحرب الاضطرارية لا الاختيارية والشر الذي لا بد منه.



(¹) [الذاريات:22-23].

(²) [البقرة:194].

(³) [الشورى: 39].

الربيع العربي وحصاد الثورة المضادة

قالوا: جاءت الثورات العربية لقلب أنظمة الحكم؟ والصحيح أنها جاءت لتعديلها، لأنها أصلاً مقلوبة، ومظاهر قلبها في أنها عائلات تحكم وشعوب تخدم .. تمثل الغرب وتمثل بالعرب .. رؤوس النفاق ورموز الشقاق اتفقت على الاختلاف فيما بينها وعلى الاتفاق مع عدوها، زعماء النكبات والمواقع وأبطال الموبقات السياسية بلامنازع .. يضاجعون الشيطان من ستين عاما كما قال الدكتور النفيسي، لا خير في أحدهم وإن رأيتهم يتمسح بأستار الكعبة .. ففيم البكاء على أصنام متحجرة؟ .. الفاسد والعميل عندهم محترم حتى تثبت أمانته .. والصالح الوطني متهم حتى تثبت خيانتة .. هكذا كان هرم الحكم في دنيانا مقلوب الوضع يا تاريخ، ولغته ثنائية ضدية رسمتها معطيات الواقع.

فما الذي جرى؟ كان الأفراد والحكام أنفسهم قبل ظهور الثورات العربية يتسابقون في تحبير عبارات الهجاء ضد التشرذم والفساد وضد الواقع العربي المتردي .. كانوا يتبارون فيما بينهم برمي كرة التخوين والتجريم في مرمى بعض بهدف الظهور كزعماء تحرر .. كانوا أفصح من نطق بكلمة العدالة والسوق المشتركة والدفاع المشترك وشعب عربي واحد من المحيط إلى الخليج .. وإنما هم يضربون الحقن التخديرية ويرسمون الأحلام الوردية لتستمر الشعوب تقعات على الأوهام.

ومن المفارقات أن تجد مسؤولاً في نظام مستبد إذا سئل عن حق الشعوب في التعبير عن مطالبهم، رد بأن ذلك في الشعوب الغربية الشعوب الواعية، التي تعرف كيف تعبر عن نفسها وتصيغ رسائلها السياسية بطرق سلمية فتبني لا تهدم .. وتجمع لا تفرق .. ويعني بذلك أنه يؤيد الاحتجاجات ولكن البناء وأهلاً وسهلاً .. قبل الثورات العربية كان العرب يتوارون خجلاً من الشعوب الأخرى وهي تتساءل: ما لهؤلاء العرب لم تتحقق لهم غاية .. ولم ترتفع لهم راية .. أموات غير أحياء .. حكامهم لعب وشعوبهم يعبدون من غلب .. هل ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة حتى لم تعد تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا؟ وكانت النخب وعلى رأسهم الليبراليون والعلمانيون يعيرون الشعوب العربية على تلبذ حسها .. وقابلية الاسترقاق لديها .. ويشبعونها مقارنة بالشعوب الغربية الحية التي تخفض وترفع وتسقط حكومات، وتساهم في تحديد مسارات السياسة واختيار القادة .. هكذا كان الوضع .. حتى إذا ما أنست الشعوب العربية من نفسها الرغبة في قول كلمة (لا) وارتأت أن تمارس حقها في التعريف بنفسها كشعوب موجودة .. وحتى إذا ما نهضت لنشدها العدالة وتغيير الواقع الخطأ وبالطرق السلمية الحضارية التي تفوقت فيها على المعارضات الغربية .. هاهنا هاج الزعماء المزعمين وماجوا وأرعدوا وأزبدوا، وتوعدوا شعوبهم بالويل والثبور وعظائم الأمور .. وقصفوا

الثورات الشبابية اليائسة بفتاوى التكفير قبل التفجير .. فيالها من شعوب جاحدة كفرت بولي النعمة بعد إيمان .. وجحدت بعد إحسان .. واجتمع علماء السلف بقيادة الصلف مع الليبراليين حملة المباخر وسدنة المعابد يقابلون لغة السلم والصدور العارية بآلات الحرب والضرب بالمليان .. وكما كان الأمر مفاجعا وموجعا حينما وجهوا المعدات العسكرية الثقيلة التي انتزعت قيمتها من لقمة عيش المواطن إلى صدر المواطن وأطلقت لتنتشر الخراب وتنسف المدن .. وكلما سقطت الدماء وتهدم البناء، وحاصرت الدولة العميقة الشعب فعزت الأقوات واشتدت الأزمات قال أزالام الحكم المحنط لدهماء الناس:

- ألم يكن الناس في أمن وأمان محقونة الدماء مصونة الأعراض وألم تكن المدن معمورة آمنة مستقرة والخدمات متوفرة قبل الثورة المشؤمة؟ .. هل هذه هي الثورة التي تحدثت عن السلم والوئام والبناء والتطوير؟ هل رأيت منها سوى سفك الدماء ونشر الخراب؟ .. وبدلا من أن يردوا عليهم بل أنتم أصل الخراب وصناعه .. يرد الرعاع بلسان حالهم:
- نعم. لم نر من ثورتهم هذه سوى الخراب والدمار لقد كنا بأمن وأمان والوضع مستقر والدقيق في السوق والغاز في المحطات وو إلخ حتى دمروا كل شيء .. وتعض الطبقة المغيبة التي تحكم على الأشياء بقانون السوق على أصابع الندم وتحتسي كؤوس العداء والكراهية لثورات أرادت تحريرهم من واقع الاضطهاد، إنها قاعدة الغنائية التي لاتفقه الواقع ولا تستطيع قراءة المستقبل، حتى لشدة الشحن والتحريض وجدنا في اليمن من يوجه سيارته بسرعة انتحارية نحو الشباب المتظاهرين السلميين لكي يدعس بها ما استطاع منهم، ووجدنا من يأخذ الألف والألفين الريال لكي يقنص ما استطاع من الشباب البريء الذي ما قطع شجرا ولا هدم حجرا وكل مطلبه إما اعتدلت وإما اعتزلت.

إن التفكير السطحي للمواطن الأمي للثورة هو أن تمطر عسلا وسمنا من أول شمس يومها .. وتنتج خبزا آليا في الرصيف لكل محتاج .. وتتحول إلى جمعية خيرية تطرق عليهم باب الهبات والمساعدات وترخص الأسعار .. وفي غمضة عين وانتباهتها تغير الوضع من حال إلى حال .. مالم فبعد أسبوع ستجد من يسألك هيا أين جنتكم الموعودة؟ مع أن أي ثورة لا بد وأن تخلف إرباكا في الخدمات واضطرابا في الأسعار بل وتوقفا لبعض المشاريع لا سيما أن تكون في دولة بلا مؤسسات .. وتحتاج لوقت لتضميد الجراح وتسوية الأوضاع السياسية، لكن دهماء الناس غير مستعدة لدفع أي ضريبة ولا تعرف المقايضات السياسية .. ولو نجحت الثورات التصحيحية، وبنيت على مؤسسات ثابتة وعناصر وطنية كفأة، وقوانين محاسبة سريعة لكان بدهيا أن تضع أول أقدامها على أول مدارج السمو وتصعد منصات معارج الرقي والرفاه .. وما لذي يمنعها أن تحقق كل سبل الرفاه وما من أرض إلا وحبا الله سكانها من الخيرات ما لا يُحْدُ ولا يُعْدُ إذا ما وجد الإنسان المخلص؟.

وعلى كل حال هاهي تجربة الحاكم المستبد بقيت واستمرت في العالم العربي، فلا تخافي أيتها الشعوب المغيبة عقولها الملعبوب بعواطفها .. فشلت الثورات العربية فماذا جنيتم من تثبيت الدول العميقة بفضل الثورة المضادة؟ .. فهذا حاكم سفاح وعدّ شعبه أنه سيصبح بعد ستة أشهر من انقلابه أم الدنيا .. فبينتلغ مليارات من رشاوى الديكتاتورية هو وفريق حكمه، فلا يجد الشعب على يديه سوى أنه يسير من السوء إلى الأسوأ يبيع جزر بلاده ويتخلى عن موارد مائه وتراجع العملة الوطنية يوماً بعد يوم .. حاكم مستبد آخر قال علي وعلى أعدائي طرد الثورة وشتت عناصرها وأتى بثالوث الجوع والفقر والمرض .. ثم سبحان الله يحفر قبره بيده وكان استقواؤه على شعبه بمن وضعوه على مقصلة النهاية المفجعة .. حاكم آخر بقي يحكم على تل الجماجم قال: إن هناك ثمانية مليون حاضن للمعارضين، ويستحقون عقابه فنفذ فيهم فضائل حكمه الديكتاتوري .. وأباد نصف المليون وهجر الباقي وأحل محلهم بيادات المستعمرين وباع وطنه وشعبه للأجانب .. وهاهو خبال الديكتاتورية العربية في ممالك الحاكم المالك لا الملك .. شعوب لا يجرؤ الفرد فيها أن يرسل لمعارض تهنئة عيدية .. وإذا تلقى منه اتصالاً أو رسالة عبر خدمات التواصل الاجتماعية، خاف من أن يرد عليها؛ لأنه قد يكون مراقباً .. شعوب ممتهنة لا يجرؤ الفرد فيها أن يضع إعجاباً على منشور أعجبه إذا كان لا يعجب ولي الأمر .. فكلمة (like) صارت جريمة .. هذه هي فضائل الاستبداد تمارس هوايتها بكل حرية .. وهاهو قانون الاستبداد يحكم ب15 سنة سجن لمن أبدى التعاطف مع عربي شقيق يبغضه الحاكم .. وليس كذلك الحب الجارف لدولة صهيونية معادية التي يحبها .. فهنيئاً للشامتين نعمة سحق ثورات التصحيح .. وبقاء التسلط وتعزيز واقع الفقر وتبديد مليارات الشعوب الغنية .. فما الذي ربحتم!؟

وها هو ذا بطل الثورة المضادة شيطان العرب يبرهن على أهداف ثورته الشريرة بمزيد من تجويع الشعوب وتركيعها وتحويل الأمة إلى وطن مستباح لمحتل كان قد بيئس أن يعود إليها مجدداً، لقد مهد له النغل بأمواله الضخمة وحرك أطماعه في اليمن بعد أن تركها خراباً، فظهر أنه لا يجيد من المسؤولية إلا ما أجاد قبله أبو رغال من دور في هدم الكعبة، وظهر أن دولته لا تعرف من مهام الدولة إلا ما تعرفه الشركات الأمنية المستأجرة من القتل والتدمير والاعتقالات والخطف مع فرق أن تلك الشركات تأخذ على جرائمها وهذه تدفع .. إنها الدولة الوظيفية حفاظة الصهيونية في المنطقة وشخبوطها الرجيم .. فأبي الثورتين أيها العرب على حق وأي الفريقين خير؟



قانون الثنائية الضدية

إن اكتمال الشيء ووجود معناه من الذرة إلى المجرة لا يتم إلا بالتقائه بوضده .. فسالب مع موجب يساوي اتحادا .. والتماثل بين طرفي القطبين يؤدي إلى التناظر كما هو معلوم .. والحياة مركبة على الشيء ونقيضه .. وافترض التطابق في كل شيء كمن ينتظر إعادة بناء الكون بقوانين جديدة.

ومن عجيب خصائص هذه الحياة أن متعة الشيء قد يرتبط بوضده .. يسري هذا على الماديات والمعنويات .. فلولا مرض البُغض مثلا لم نحس بمتعة الحب وجماله .. ولولا آفة الظلم لم نعرف نعمة العدل وأهميته .. ولولا صفة القبح لم نلحظ قيمة الجمال ورونقه .. ولولا التعب والظمأ والجوع والألم أيضا لبحث الناس عن سبل التخلص من حياة استنفدت أغراضها وفقدت قيمتها .. فبالتعب نعرف قيمة الراحة ومتعتها .. وبالظمأ نعرف قيمة شربة الماء ولذتها .. وبالجوع نعرف قيمة لقمة العيش الناشفة وهناها .. ولولا ذلك لكانت الحياة إيقاعا أحاديا رتيبا بلامعنى .. تصور دعوة تأتيك لوليمة عامرة بألوان الطعام والشراب وأنت شبهان ريان ليس لشيء منها مسلك هل ستشعر بلذة الأكل والشرب؟

ومن الثنائية الضدية الأمل النابت وسط أشواك الألم .. لذلك لا تستغربوا إذا سمعتم أن معدل وفيات الانتحار بسبب كثرة النعم أكثر من الانتحار بسبب قلة النعم .. فالذي لم تتعدد سبل النعم من حوله يعيش متعة خيال التخلص من حالة الافتقار أولا .. وثانيا يعيش متعة التملك وأمل الصعود إلى أعلى .. إنه يعيش سعادة اللقاء بحبيب لم يأت بعد .. ومتعة سماع كلمة عذبة لم يسمعها بعد .. ومتعة طعام شهوي لم يتناوله بعد .. ومكانة مرموقة لم ينلها بعد .. ولا يريد أن يغادر الدنيا قبل أن يلتقي بمحوباته (فما أضييق العيش لولا فسحة الأمل) .. أما المترف الذي صار كل شيء بحوزته فقد أفلس بنك آماله .. وتراجعت متعة حيازته لأشياءه .. فمع الوقت خف بريقها وتوارى وهجها .. ونزلت من مرتبة الجماليات إلى مرتبة العاديات .. فكثرة معايشة المألوف يميت الإدراك .. هب أنك حصلت على أجمل التحف والصور التي تسر الناظرين وتثمل العقل بسكر الجمال في فرادتها وحسن نظمها وجمال زخرفها وأقمت لها معرضا في منزلك كم من الوقت سوف تستمتع بالنظر إليها؟ لن يكون طويلا ولن تذكر أن لديك شيئا ثميناً جدا نسيته إلا حينما تدعو ضيفا لزيارتك فيستوقفك كثيرا في معرضك الذي أقمته وهو في حال من الاندهاش والذهول وأنت تعجب من تعجبه لشيء لم تعد تلقي له بالا .. فجمال المألوف يتآكل .. ومالم تمدك الحياة بأسباب سعادة إضافية لم يسبق لك تجربتها نضب معين حياتك وقلت في عينك معانيها .. وبحثت عن طريق التخلص منها إن لم يكن لك هدف أسمى، وهي عبادة

المولى التي قد تغير المعادلة لأنها إلى جانب رضا الله تعدك بجنة ليس من خصائصها الثنائية الضدية وعامل الملل.

لذلك تجد كثيرا من رعايا الدول المرفهة يقضون إجازاتهم لا في النوادي الليلية التي سئموها .. ولا في المنتجعات السياحية التي هجروها .. ولكنهم يبحثون عن السير في الغابات المخيفة، والضرب في الوديان والصحاري القاحلة، وفي بالهم أنهم سيتعرضون للمتاعب والصعوبات والجوع والظمأ وربما وحشة الطريق وخوف السابلة، إلا أن ذلك عندهم هو المطلوب؛ لأن واقعا كهذا من شأنها أن تبعدهم عن اللذائذ التي فقدوا جمالها فيبحثون عن سبل تجديدها باعتزالها وتجريح أنفسهم مرارة الحرمان (وحب شيء إلى الإنسان ما منع) ومن ثمَّ تجمل في نفوسهم تلك النعم التي فقدوها.

وقد يكون في تعرُّض الشخص للشيء السيء فرصة لمعرفة قيمة الشيء الحسن وتجميله في حياتنا، والذي يمر بالأسوأ يسهل عليه استيعاب الأقل سوءا .. وفي القرآن الكريم ملمح إعجازي في هذا الجانب في غاية الإبهار حيث يقول المولى في غزوة أحد التي كُلم فيها المسلمون: (فأتاكم غمًّا بغم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم) ⁽¹⁾ .. في المعجم العربي (الثواب) يعني المكافأة وهو ضد العقاب .. فكيف صار الغم وراء الغم ثوبا من الله لعباده وسببا لعدم حزنهم؟ وهل الحزن أصلا يأتي إلا قرين الغم؟ إنه لأمر ملفت حقا لولا المعنى الذي ذكرنا .. وهو أن المصائب والآلام يرقق بعضها بعضا .. فحين بلغ الصحابة رضوان الله عليهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُتل نسوا الهزيمة وقتلهم وانخرطوا في معالجة صراع النفس مع حجم المصيبة التي ألمت بفقد حبيبهم، ثم جاءت البشرية العظيمة أن النبي لم يمت فنسوا كل أحزانهم وعادوا فرحين مستبشرين كأن لم تقع بهم هزيمة .. وذات الشيء لولا المصيبة الثانية لبقينا نعيش ألم المصيبة الأولى .. فتأتي الثانية وقد تكوّن أخف فتكون سببا لنسيان الأولى، وتعود إلينا الابتسامة، ونستأنف نشاط حياتنا من جديد.

وكمثال من الواقع لو تلقى شخص نبأ وفاة أعز الناس إليه في حادث سير مثلا لكانت المصيبة عليه عظيمة، والرزء شديدا .. ولكنه لو تلقى خبرا جديدا أن العزيز عليه لم يمت بعد، وأنه لا يزال في العناية المركزة لفرح فرحا شديدا .. عجيب!! كيف جاء الفرح الشديد من وسط الحزن الشديد وبخبر لم يكن فيه سوى الوجد .. جاء لأن أعز الناس إليه لم يمت بعد .. وفرح لأن تعرضه فقط لمصيبة أقل أزال من نفسه مسمى مصيبة وتحولت إلى سعادة بدل حزن .. ولو جاء الخبر من أول وهلة أنه في العناية المركزة لحزن، ولكن المصيبة الأشد رقت الأخف منهما حتى صارت نعمة .. وهذا هو معنى الثواب في الآية وترقيق المصيبة هو معنى قوله: (لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما

(1) [آل عمران : 153].

أصابكم) .. ثم تأمل كيف سيعيش متعة الأمل بشفاء حبيبه .. حتى وهو يغرق في الديون ربما ويسهر ويتعب في الاعتناء به .. ولو كان حبيبه معافى ولم يتعرض لحادث من أساسه ولم يخسر في علاجه الوقت والمال لم يعيش هذه اللحظات، ولن يستمتع بلحظات سماع تماثله للشفاء، سبحان الله (وأنه هو أضحك وأبكى)⁽¹⁾.

من هنا فالسعادة نسبية فليست دائماً بما تملك .. بل وبما تأمل أن تملك أحياناً .. وأحياناً بما لم تخسر ما تملك بعد تعرضه للخسارة .. وأحياناً بالخسارة الأقل لما تملك وقد أوشتك أن تخسره.

ونحن هنا لا نقول هلموا لنصنع المشاكل لكي نستمتع بحلها .. ولا تعالوا نستجلب المصائب لكي ننعم بمتعة الشعور بانصرافها .. بل نقول إذا جاءت فلنصبر ونبحث عن الخير من ورائها .. فما من محنة إلا ووراءها منحة .. قد لا تكون مجرد الفرحة بزوالها بل وأيضاً بنيل الثواب عند الرضا والصبر على ما قضى .. واكتساب مهارة ترويض النفس على مواجهتها وامتعة اكتشاف قوانين حلها والتغلب عليها .. وبضدها تعرف الأشياء .. قيل لأثرى رجل ياباني كيف وصلت إلى أفضل الحلول للمشاكل الاقتصادية قال: من كثرة تواجدها .. لقد امتلك مهارة تجاوز العقبات فحاز قصب السبق وتجاوز بذلك غيره.

نخلص إلى نتيجة مهمة .. وهي أن انتزاع جمال الحياة وامتعتها .. وتنويع إيقاعها .. وتجديد صور ألوانها .. واكتشاف الكثير من نواميسها الذي يأتي من الارتباط الشرطي بين الشيء وضده .. ومن تلطيف السيء بالأسوأ، هي صفة من صفات الحياة الثابتة التي لا تتغير، وهي قانون مضطرد يسري على كل مظاهر حياتنا .. فالذي ينشأ على الملعة الذهبية يتقلب في أعطاف النعيم ولا يكاد يلقى أي صعوبة معيشية لأنه لا تحوجه حاجة إلا وهي في متناول يده فلا تظن بالضرورة أنه أسعد منك ربما كان تسيبجه بوسائل النعم والرفاه سبب تعاسته ونضوب معاني حياته.



(1) [النجم : 43].

الثنائية التقابلية في الفكر

ينسحب قانون الثنائيات الضدية أو الثنائية التقابلية كما سبق في التأمل السابقة على الفكر وعلى السياسة أيضا .. كون التقابل شاملا لكل شيء وهو المسمى في المصطلح القرآني الزوجية: (ومن كل شيء خلقنا زوجين) قال: (من كل شيء) لكي تبقى الوجدانية لله وحده، ليس له كفؤا أحد .. فلا توجد صفة الكمال لغير الله .. بل كل ما عداه يتصف بصفة الافتقار إلى الغير .. فلا يكون كاملا إلا بطرف آخر تلتقي خصائصهما فينشأ عنهما خصائص الحياة الكاملة .. فصاحب النظرية أو المذهب، وكذا الحاكم أو القائد يحتاج إلى الثنائية التقابلية، وهو ترك الطرف المخالف الذي يعكس بمرآة فكره عوار ما عنده فيصلحه .. ومتى ما استقل أحدهما برأيه فقد عاقب نفسه وأتباعه بحرمان الرؤية المبصرة .. وحجب عنه هدية النصيحة المجانية .. فالفرد أحادي القطب يظل مفتقرا إلى تمحيص ما بحوزته بما عند الآخرين .. وهناك في حق الفرد مسألة الإغلاق، فلو أريت شكل دائرة مقبوبة، وقيل لك ما هذه الرسمة؟ ربما قلت مباشرة: دائرة، فعقلك الباطن أغلق الشكل، مع أنها فقدت بالثقب تعريف الدائرة التي يجب أن تكون مغلقة، وهكذا قد يستمر معك خطأ الإغلاق في أشياء كثيرة في الحياة لمجرد النظرة الانطباعية التي في الذهن حتى تجد من ينبهك على قصور نظراتك.

ولا تقف المسألة عند حقيقة الافتقار لوجود الآخر، بل إن لكل فرد منا بصمات مستقلة لا يمكن أن يحكم بها غيره .. وهذه حقيقة إعجازية فلا يمكن أن يتطابق اثنان في كل شيء حتى التوائم .. ليس فقط على مستوى اختلاف بصمات البنان بل وبصمة الصوت .. وقزحية العين .. وملامح الشخصية .. وأسلوب الكلام .. وطريقة المشي ثم وأخيرا نمط التفكير .. وزوايا النظرة .. وتلون الطباع .. ونوع المنطلقات الدافعة للأفعال التي تبنيها ظروف الفرد الخاصة وميولاته ونظرته .. ولذلك يوم القيامة يعرف الناس بشفراتهم المستقلة وليس بالهوية الدنيوية كالبطاقة قال تعالى: (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) (يعرفون كلا بسيماهم) فللمجرمين بطبيعة أفكارهم وميولاتهم شفرات يعرفون بها وللمؤمنين شفرات يعرفون بها.

ولو طبقنا هذا على تنوع الأنماط البشرية الخاصة لوجدنا أن لكل فرد أسلوبه الخاص .. وهو ما يعني أن أماننا مجالا لتنوع الآراء حتى بعدد بني البشر .. وليس من باب المبالغة بل هي حقيقة كحقيقة اختلاف البصمات العضوية، وحديثنا هنا عن المجالات الاجتهادية والأسلوبية وليس عن الحقائق العلمية كالرياضيات، والفيزياء، والنصوص المقدسة المحكمة، كالقوانين، فهذه قواعد محكمة ثابتة، بل حديثنا عن كل ما هو مجال اجتهاد ونمط أسلوب الذي هو من طبيعة عمل المفكر والقائد ..

لذلك نحن بحاجة إلى تعدد الأفكار وتلاقحها لكي يسفر ليس فقط عن الوصول إلى الحقيقة .. بل وعن توليد أفكار جديدة من خلال دمج الأفكار بعضها ببعض.

وللتمثيل لو جمعنا في واحة جميلة واحدة 100 أديب ومفكر كل واحد أفضل من الآخر تمكناً وأدباً ودرايةً، ثم أعطينا كل واحد ورقة وقلمًا، وطلبنا من كل فرد أن يعبر في 20 سطرا عن جمال الطبيعة. سنحصل على 100 أسلوب و100 رؤية، و100 منطلق في النصوص المقدمة .. ولا يمكن أن يتطابق اثنان في كل شيء في النص التعبيري .. وكل هذه الأنماط، والأساليب، والرؤى، والمنطقات، نحتاجها لاستخراج أجمل ما فيها ونحصل على أجمل ما عند كل فرد منها .. بخلاف لو جمعنا 100 عالم رياضيات وأعطيناهم مسألة حسابية لخرجوا كلهم بنتيجة واحدة .. ودوما حديثنا عن الإنسان الذي يجتهد ويظن أن فكره كل شيء، وأن باستطاعته أن يستغني بعقله دائما عن رؤى وأفكار الآخرين .. بل وأن يفكر هو للآخرين فيستغنون برأيه عن آرائهم واجتهاده عن اجتهادهم .. والحقيقة متى ما ألزمهم بذلك فقد حبسهم بنمط مخلوق واحد وعقل واحد .. فليترك الأمر مفتوحا لمن يأتي بحجة أقوى .. ونظرة أوثق .. وتعليل أصوب فتتغير بها المواقف، ويُعلم أن في القضايا الاجتهادية أبوابا لا تغلق وفضاءات لا تحجب .. وأن كل فرد غير معصوم يخطئ ويصيب ويؤخذ منه ويترك عدا الأنبياء .. ولذلك كثرت عبارات الترحيب بالرأي الآخر من علماء يدركون ضعف بشريتهم قال الشافعي رحمه الله: (رأبي صواب يحتمل الخطأ ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب) وقال الإمام مالك: (كل إنسان يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر) وقال الفيلسوف الفرنسي فولتير: (قد أختلف معك في الرأي ولكنني على استعداد أن أموت دفاعاً عن رأيك) لأن الرأي الآخر مطلوب في أحوال شتى.

والناظر في المنهج القرآني يجد هذا البعد السياقي بوضوح، فمع أن النبي - صلى الله عليه وسلم - تأتي حقائقه من صاحب المطلقات، إلا أن المولى تعالى يعلم نبيه التواضع، فوضع مبدئية احتمال صوابية وجهة نظر الآخر رغم حتمية انحرافه فقال: (وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) أي مبدئياً لا يوجد حكم مسبق بأن أحدنا على خطأ .. والآخر على صواب، بل لا يخلو واحد منا أن يكون رأيه صائباً، والآخر رأيه خاطئاً، أو أن نكون جميعاً متفقين في الرؤية ولكن خان أحدنا الفهم، أو الأسلوب، أو التعبير .. فلن نصل إلى مكن الصواب إلا عن طريق الحوار وانفتاح كل منا على الآخر .. ولو جاء النبي صلوات الله عليه بأحكام جاهزة لانتهى مبدأ الحوار وسدت منافذ الاتصال الفكري، وإنما هو الحكم والتنفيذ، وكيف سنقام على المخالف الحجة؟ .. لذا بدون الانفتاح والإثراء لا يمكن أن تُبنى الحضارات أو يزدهر العمران .. وبدون الحرية ومنها حرية الرأي والتفكير لا يمكن أن تكتشف الطاقات والمواهب وابتكار الجديد .. ووضع إضافات تواصلية على ما انتهى إليه القديم .. وكم من الناس ماتت أفكار جميله معهم خافوا على أنفسهم من تسلط الناس عليهم واتخاذهم موضعاً للتندر

والهزاء، أو التصميت والتبكييت فحرم الناس من نور أفكارهم وإشراقات إبداعهم .. والذي يستبد بالرأي كمن يلزم الآخرين بالغاء عقولهم وتغيير زوايا نظرهم والتخلي عن رصيد تجاربهم .. وقد أشار المولى تعالى إلى أن طبيعة الخلق البشري لا يمكن أن تفضي إلى بصمة تفكير واحد ورأي واحد .. إلخ (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم).

ويبقى ثمَّ فرق بين الاحتفاظ بالرأي لصاحب الرأي، وبين المخالفة لمجرد المخالفة، والمعارضة لمجرد المعارضة .. وفرق بين إعمال النظر في مسائل الاجتهاد التي هي أوسع من أن يحاط بها وبين ما هو ثابت ومحكم لا يختلف فيه اثنان.



من على الحق؟

أن تتوه في خضم النظريات الدينية المتلاطمة، والمذاهب المنتشعبة ويلتبس عليك معرفة الحق من الباطل، فأمامك ضابط مهم لا تُعفى من مسؤولية جعله دليلك لمعرفة سبيل الرشاد .. إنه الاستهداء بحجة الله على الإنسان وهو أن تأخذ بصحيح العقل وصريح النقل كقاعدة استدلال .. فتعرض بضاعة المذاهب المعروضة على ميزان الأدلة والبراهين: (... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (1) وعمل مقارنة بينها ثم ما وافق الحجج والبراهين خذ به، فتخلي مسؤوليتك أمام خالقك .. لاسيما حين يتزاحم أهل الأهواء على المتاجرة بالدين، وتسليع رموزه لغايات وصولية، مستغلين رصيد عاطفة الناس تجاه رصيد فكرهم، حيث يصبح التخلي المطلق للغير عن ملكات الإدراك تفريطا بالذات، وانحدارا من خانة الكائن المختار إلى سلك الدواب المسخرة التي لا تملك من أمر نفسها شيئا.

- آليات التمييز:

قد تعتمد بعض التيارات التي تتاجر بالدين إلى تخدير عقول الدهماء وأسر عواطفهم ببريق من الخطاب الديني اللامع، وعن طريق تبني قضايا الأمة العليا التي تمثل أمانى الجماهير وتلهب حماسهم .. فمحكها حرية الرأي فيها .. ومدى قبولها بمناقشة أفكارها .. فإن انتهجت أسلوب الفرض والإملاء .. وقيادة أتباعها نحو اتجاه إجباري واحد دون نقاش، وواجهت خطاب العقل بخطاب التهديد والتخوين فذلك أول دلائل الضعف والإفلاس.

ذلك أن منهج الأنبياء والمصلحين يقوم على قناعة المؤيدين واستنارة بصيرتهم قبل إقناع المخالفين : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ...) (2) قال (على بصيرة) ولم يقل على عمى، وإنما تأتي طاعة الأوامر بعد القناعة والارتضاء لا مجرد الإرضاء .. فبعد الاقتناع لا جدال: (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ...) (3).

ومن أجل مظاهر الشراكة الفكرية بين القائد وأتباعه ما نجده في منهج الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، فكان ربما ألقى الأخبار عليهم في صورة الإنشاء، فيسألهم كثيرا مثل (أتدرون من المفلس؟) (هل تدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟) (هل تضامون في رؤية الشمس ليس بينكم وبينها حجاب؟) (ما تعدون الصرعة فيكم؟) وغير ذلك كثير .. فيعدل بالأخبار إلى الاستخبار ليردوا عليه بقولهم: الله ورسوله أعلم .. فلماذا يسألهم وهو الذي ينزل الوحي؟ جواب

1 - [البقرة: ١١١].

2 - [يوسف: ١٠٨].

3 - [الأنفال : 6].

ذلك: هو فتح الاتصال الإنساني الحواري بين الملقى والمتلقي وإعطائهم فرصة لإدارة عجلة أفكارهم معه، ويجعلهم كما لو كانوا شركاء في تععيد القواعد، وليس مجرد أدوات تنفيذ عمياء دون احترام رأيهم.

وكثيرا ما نجد في القرآن الكريم إجابات على تساؤلات المجتمع المسلم .. (يسألونك عن .. قل ... ومثلما أن الخطاب القرآني منهج منفتح على الأتباع هو أيضا منفتح وبصورة أوسع على الغير من أهل الأديان الأخرى ودعوة لاتنقطع لنقاشهم : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (... انتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) (1) (... قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) (2) (... إن عندكم من سلطان بهذا أنقولن على الله ما لا تعلمون) (3) إنه يطالب الآخر أن يبرز ما لديه من أدلة .. ومن كتب .. ومن علم؛ لأنه الحق فلا يخشى زاد الباطل .. ولا أدلته المتدرجة .. يدعوه للجدال والحوار .. ويطارده بالأسئلة على نحو أسلوبي فريد: (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق)؟ (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا)؟ (أمن خلق السماوات والأرض)؟ (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه)؟ حتى يضع المخالف حين لا يملك أن يجيب في زاوية من العجز الفاضح والإفلاس البين .. إذ لن يقاس ضعف الضعيف ولن يظهر باطله إلا بمواجهته وامتحان فكره بالسؤال والجواب .. قال تعالى: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) (4) فالحق يعلو ولا يعلى عليه: (... فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ...) (5).

وبدون هذا الإجراء الجدلي سيظل كل صاحب راية صاحب حجة في نظر نفسه، حتى تتسلف حجته وتقوض من أركانها قال ربنا: (... لئنأ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ...) (6) لتأمل جيدا في الآية فهناك سعة لطلب المحاجة وهم الرسل عليهم السلام، فإذا لم تقم على المدعويين حجة الله فهم على حق في عدم الإتياع حتى وهم على ضلال.

من هنا نجد أن الله تعالى وهو الحق وقوله الحق يفتح عشرات السياقات الحوارية بين ذاته العلية والملائكة، وبينه وبين إبليس، والكفار، وأهل الكتاب، حتى المستحقين للنار يوم القيامة يأتون يجادلون

1 - [الأحقاف: ٤].

2 - [الأنعام: ١٤٨].

3 - [يونس: ٦٨].

4 - [الأنبياء: ١٨].

5 - [الأنعام: ١٤٩].

6 - [النساء: ١٦٥].

عن أنفسهم (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها)⁽¹⁾ فلا يعذبهم الله بعلمه بل بعدله .. فقد كان يكفي علمه بضلالهم ليعذبهم ولكنه يقيم لهم محكمة العدل الإلهية للمجادلة فتستمر خمسين ألف سنة ليأخذ كل فرد حقه في عرض أدلته وإلقاء حججه، دون قمع ولا حجر (فوربك لنسألنهم أجمعين) والله لا يسأل عن جهل - تعالى عن ذلك - بل يسألهم ليقرروهم بذنوبهم، فيطول الجدل حتى إن المشركين ليطمعون في عدل الله فينكرون شركهم بالله: (... بل لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ...) ⁽²⁾ ويشفعون إنكارهم بالحلف أمام الله: (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ⁽³⁾ لما يرون من إنصاف الله لهم وإنصافه في السماع منهم .. وإن أحدهم لينكر شهادة الملائكة وشهادة الشاهدين ويرد الصحف المكتوبة، فيسأله الله : فمن تريد أن يشهد عليك؟ فيقول: لا أقبل شاهدا علي إلا من نفسي، فيعطيته الله هذا الحق الذي لا يتكرر في غير محكمة العدل الإلهية فيختم على فيه لتشهد عليه جوارحه بما فعل، قال الله تعالى: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ⁽⁴⁾.

وهذا علي رضي الله عنه لم يحكم على اليهودي الذي ادعى ملكية درعه بعلمه، وإنما حكم عليه بعدله وبضابط الأدلة والحجج، فلو حكم بعلمه للوى عنقه وأخذ حقه عنوة، لكنه وهو الخليفة احتكم للقاضي فصدر حكم شريح القاضي بأن الدرع درع اليهودي لعدم وجود أدلة إثبات لدى الخليفة، قائلاً إني والله لأعلم أن الدرع درعك يا أمير المؤمنين لكن البينة على من ادعى، فيقبل الخليفة حكم قاض يعمل تحت إمرته .. فكم من مهدر للعقول اليوم، ومستهتر بمناهي الحوار المنصف، وناسف لأدلة اليقين بل وراذل لكلام رب العالمين! فلا وزن عنده لدليل، ولا اعتبار لبرهان يسوق الأتباع سوق البهائم السائمة، فهو الدليل .. وهو الحجة .. وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. قوله وحي منزل .. وقضاؤه فصل محكم .. منتهجا في ذلك منهج فرعون: (... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) ⁽⁵⁾ فهل هداهم سبيل الرشاد؟ (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى) ⁽⁶⁾.

1 - ومنه نأخذ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقم الحد على عبد الله بن أبي في حادثة الإفك وأقامه على حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وهم مؤمنون، لأن عبد الله بن أبي إن لم يقر هو بالولوغ بالإفك لا يكفي علم الله حتى لا يكون علم الله حجة للناس في زمان لا وحي فيه قياسا على أن الله لم يكتف بعلمه يوم القيامة حتى يقرر الكافر بذنوبه ويقوم عليه الحجة بالأدلة. وثانيا ليس بعد الكفر ننب، فلو أقيم عليه الحد لكان ذلك تطهيرا له والتطهير لا يكون إلا لمؤمن ولا يقام الحد إلا على مكلف ويعاقب إن كان مستأمنا بعقاب نقض العهد .. وليس على هذا اتفاق .. ولا يستقيم قول من قال أن النبي ترك حده حتى لا يتعصب له قومه، فقد ورد أن ما أهلك من كان قبلكم أنه كان إذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد وإذا سرق الشريف تركوه" والله أعلم بالصواب.

2 - [غافر: ٧٤].

3 - [الأنعام: ٢٣].

4 - [يس: ٦٥].

5 - [غافر: ٢٩].

6 - [طه: 79].

﴿ هَوْلَاءُ خَوْنَةٌ فَلَا تَكُونُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾

يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (1)

الأمانات كثيرة والخيانات كثيرة، وأول الأمانات أمانة الدين الذي هو رأس مال الإنسان ومكون ضميره، ومنهج حياته، وفلسفة تصوره، فإذا خانته المسلم كان خيانة ما دونه أيسر، وإذا كان الإنسان في الدول المتقدمة يحرص على عدم خيانة القانون، فالدين قانون ورقابة إلهية وثواب وعقاب، وأحرى بالمؤمن ألا يخونه.

ولكن عند النظر إلى الوثيقة المجتمعية النازمة لمكونات المجتمع فإن ثمة أمانات يشترك فيها المسلم وغير المسلم وبالتالي فإن:

المحافظة على نظام البلد أمانة والتفريط فيه خيانة.

والمحافظة على المال العام أمانة وإهداره خيانة.

وإسناد الحقوق إلى أهلها أمانة والتفريط فيها خيانة.

وإعادة الودائع إلى أهلها أمانة وسلبها خيانة.

والتزام الصدق في القول والعمل أمانة .. والتغريب بالناس وتضليلهم خيانة.

** شخص يتجاوز إشارات المرور .. أو يتجاوز أدوار الآخرين في الحصول على حصته .. أو يتجاوز الأنظمة بالتحايل والرشى لأخذ ما ليس له بحق .. فهو خائن لا يصح أن يمكن من رقاب الناس.

** شخص يرمي بالقمامة أمام بيوت الآخرين ويجب أن يكون فناؤه نظيفا .. أو يستخدم سبور الماء العام بإسراف وفي بيته يقنن ويقتصد .. أو يقود سيارة الملك العام فيتجاوز بها كل المحظورات ولا يبالي ما يصلحها مما يفسدها، وحين يقود سيارته يكون محافظا عليها ويتعهد صيانتها .. مثل هذا خائن لا يصح أن يمكن من رقاب الناس.

(1) [الأَنْفَال: 27].

** شخص يَظنُّ بما تحت يده من حقوق الناس ليمطلبهم، ولا يعطي كل ذي حق حقه .. وبدلاً من ذلك ينفق عليهم بصرف الوعود الكاذبة والأمانى الخادعة .. والتلاعب بالألفاظ .. وتزويق العبارات وهو يعلم أنه كاذب وممثل .. مثل هذا خائن لا يصح أن يمكن من رقاب الناس.

** شخص يفتات على النفخ في أبواق النفاق، ويهدر كرامته وهو يتمسح بالأبواب العالية ليتمكن من ولوجها، ويمارس طقوس الولاء لها، ليحصل على منفعة خاصة لا يستحقها .. مثل هذا خائن لا يصح أن يمكن من رقاب الناس.

* وحوصلة ناتج هذه الظواهر الخيانية: هو أننا قد نشاهدها ونعايشها صباح مساء، ولا نعرف أنها خيانات، ولا أنها علامة على الخيانات الكبيرة التي قد تطال شعباً بأسره، فيما لو قدر لأصحابها أن يتولوا قيادات عليا.

من هنا مؤشر خطير على قصور الفهم وضعف القدرة على قراءة الأشياء أن تجد أحداً من هؤلاء المستهترين بالتزاماتهم يحصل على ترقية ليتولى على رقاب الناس فتجد ضحاياهم القادمين تصفق له بحراره، وتتسابق على تهنتته ولا تسأل نفسها كيف يولّى علينا كهذا وهو خائن للأمانة؟.

* فهذا الخائن لأنظمة المرور مثلاً، الذي يقود سيارة الملك العام غير المجرمة ولا المرقمة، ويتجاوز بها الإشارات، لأنه في منأى عن القانون، لم يصبح بعد في ثقافة الناس خائناً بنفس درجة الخائن الكبير، بل ربما ظنوه وظن هو نفسه أنه يفعل ذلك لإبراز كم هو محظوظ على غيره وقد صارت تحت يده ملكية عامة يفعل بها كيف يشاء، والناس لا يتمنون إلا أن يصيروا مثله ويفعلون فعله، وليس في نظرهم خائناً لهم.

إن الخيانة عند دهماء هي تلك التي يسميها النظام وإن كان النظام نفسه خائناً .. فيشترطون أن تكون الخيانة بحجم الوطن، أي أنهم يحكمون على حجم الخيانة لا على تطبع الفرد بالخيانة .. أما الشرع فإنه يقطع يد السارق على ما يساوي قيمته ببيضة المحارب، أي خوذته أو ربع دينار ذهبي، فهو في العقوبة كمن سرق السبيكة، فليست العبرة في حجم السرقة بل في السلوك، فالشريعة تهدف لإنهاء السلوك المجتمعي بعقوبة رادعة تبدأ من الانحراف الصغير.

إن الذي يلتقط هاتفا سقط ولا يعيده إلى صاحبه، أو يعدُّ النقود ويجدها زائدة ولا يعيد الزائد إلى صاحبها، أو يحاول تتويه صاحب المتجر ليمطله بعض نقوده، أو يدس يده في حقيبة ليأخذ قلماً ببضعة

أفلاس متسقطا سرقتهم .. هذا وذلك كلهم لصوص وخونة خانوا الأمانات، إذ لو وقعت يد أحدهم على المليون فأحرى ألا يتركه إن كان قد ضيع أمانته وباع كرامته فيما هو أقل من ذلك بكثير.

وقل الشيء ذاته على من ينجح طالبا يعلم أنه فاشل .. أو يفشل طالبا يعلم أنه ناجح .. أو يمنح فاشلا منحة دراسية وهناك من هو أولى وأحق بها منه هؤلاء أيضا خونة.

وعليه كم بيننا من خونة .. وكم بيننا من لصوص .. وكم بيننا من ميولات خيانية نشاهدها كل يوم .. فهل نسهم جميعا في محاصرتها والتقليل منها؟ أم أن الثقافة ستبقيها في خانة الشطارة والذكاء وتمشية الحال، حتى يقبض الله بجيل ليس فيهم بقايا أهل التيه .. وإلى ذلك الجيل كم تبدو الشقة بعيدة.

فإذا وجدت من يشتم اللصوص وهو نفسه غير مؤتمن على حقوق الآخرين، أو يتسخط من الظلم والاستبداد هو جبار في بيته أو في صفه الدراسي مثلا، أو يصم المسؤولين بالعمالة وهو يزدرى هويته ولغته وثقافته .. إلخ فهؤلاء لو وصلوا إلى الحكم لن يكونوا إلا مثل أولئك، فالطبع هو الطبع، وكل أبناء بالذي فيه ينضح .. ولو انحرفت الطائرة عن خطها سنتيمترا واحدا ستنتهي في رحلتها إلى هدف بعيد لا علاقة له بخط سيرها المرسوم.

ونظير ذلك المجتمع الذي يهولك بأنانية أفراده ومخاتلة بعضهم بعضا، وشيوع نفاق الضعيف فيهم للقوي، وسكوتهم على التظالم فيما بينهم والاستقواء .. إلخ فلا تصدق هجاءه لحاكم يزيده فحشا على فحشه .. إن مجتمعا طغت فيه الخيانات وضيعت الأمانات لن ينتج غير الخونة غالبا إلا أن تقع معجزة، ويخرج من بين كومة القش بذرة صالحة.



لماذا أجهر بالسوء؟

أحب الجهر بالسوء من القول في ظلمة وقعت بها الأمة، وليس التنفيس عن كواتم النفس بالاعتداء ولا التشهير .. بل بالحقائق والأرقام والحجج الظاهرة، فمن روادع الطغيان الإزعاج بالحق .. ومطاردة المجرم باسمه وفضحه برسمة .. لماذا ندب الله إقامة الحد على العاصي أمام طائفة من المؤمنين إلا للردع وتعويق التمادي في الحرمات.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس خروجاً على الحاكم ولا دعوة لفتنة، بل عدم استماع الحاكم إلى الحق فيه مخالفة لعقد مضروب بين الحاكم والمحكوم "فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها" ومخالفة الحاكم لميثاق الاسخلاف يعد خروجاً منه على الشعب، وليس في توقيفه عن تجاوز الحد خروج عليه، فكيف قلبت المفاهيم وحرقت المقاصد؟

لذلك كل صاحب كلمة هو أمين على الكلمة الشريفة متى وجد تجاوزاً للحق عن عمد وسبق إصرار ليس مجرد أخطاء اجتهدية من راع لا يرعى رعيته بكلمة الله يجب أن يعمد إلى الشغب الفكري والسياسي، المعززة بالحقائق والأرقام واللغة المسؤولة والراقية، وإن كان في الراعي من سوء فليجهر به، لأنه سوء يصيب المجموع فخطره متعدد لا قاصر، ومن حق الأمة أن تدافع عن نفسها وتسمي الأشياء بمسمياتها، والجهر بالسوء مكفول للمظلوم (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا)⁽¹⁾ وهو كل ما أملكه ويملكه أي مواطن عربي تجاه جور السلطان .. فلانقوى قوتي على الرد بمثل ما يفعلون .. بل على الرد بلفت أنظار المقننين متى وجدوا وتحريض ما بقي في الناس من كوامن الخير .. والشدة مع الظالم في حال الظلم منهج قرآني ثابت قال تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ...) ⁽²⁾ والمواقف الضبابية والمائعة مع حاكم ظالم تضليل له ومد له في الغي، ورسالة سلبية تجعل الخطأ في عينيه صواباً .. وإني لا أشهر بفعل وقع خطأ .. بل بأناس صاروا خطيئة لا يصدرن في خبث طويتهم عن ضعف كيد الشيطان .. بل عن مكر كُبار .. يهدف إلى كتم أنفاس شعوب بأكملها بسلاح كاتم الصوت .. ومسلسل الموت البارد في ساحات التحرر .. من رابعة العدوية .. إلى ساحات سوربة الذبيحة .. إلى ليبيا الجريحة .. إلى صنعاء التي تتعرض لتأكل الدين ولدنيا ونبض الحياة وصبغها باللون الواحد .. إلى شبح الأشباح المقنعة في عدن التي يختبئ تحتها عدو غادر غير شريف .. يقص حياة العزل في

(1) [النساء : 148].

(2) [العنكبوت : 46].

دياجير الليل المظلم .. والشوارع المقفرة .. ثم يفر إلى فنادق خمسة نجوم .. وقد اختلطت أسماء فريق الإرهاب الغادر الممول عربيا بين إبراهيم، ودحلان، ومايكل، وعبد الله، وجوليان .. وكثرت توقيعات عقود تصفية الأمة وجوديا ودينيا، مع شركات الموت، التي بدأت بتفجير المسجد، إلى تطهير إمام المسجد، إلى التدمير المنظم لذات التدمير، والقتل لذات القتل، نحن نعيش في مملكة الشيطان التي طغى فيها الشر وصار ما كان في الفضيلة والعدل أبعد من الخيال هو الوحيد الممكن .. ثم إلى هوة الصدمات الفكرية والثقافية ضد الأمة والصدمات الذيلية في المقابل التي أذهلت العدو بكم الرخص الذي يتحلى به عمالقة في امتهان شعوبهم ومحو ثقافتهم، وكائنات مجهرية تتصاغر في عزة شعوب أعدائهم وإحياء ثقافتهم، وليس ثمة أصدق مثال في ذلك من قرني الشيطان في أبو ظبي والرياض اليوم.

إنهم الأحرار الذين قالوا للإرهاب الرسمي ارحل بأستاذية الشعوب الراقية .. والصدور العارية .. وثقافة إصلاح المسار السلمي دون أن يقطعوا زهرا .. أو ينزعوا حجرا أولئك الأحرار يُرحلون الآن ليس إلى المنافي بل إلى العالم الآخر .. هم الأحرار وليس لصوص النصوص الذين يلوون أعناقها لخدمة الباطل .. وليس النخالات التي تسكر بزبيبة وترى أن خير حكامها من ليس منه شر وإن لم يكن منه خير .. ولم يخسر صاحب كلمة حق في وجه سلطان جائر على الأقل إن عاش عاش حميدا وإن مات مات شهيدا، وإن الأمة لم ولن تهض إلا بروح الثورية وثقافة التضحية وإذا كانت الشعوب المتحضرة مجال اقتداء في تحضرهم فهم أمنع الناس من ظلم سلطان، وأجراً الناس على رفع صوت الرفض في وجه مسؤول وقح لم يعرف حدود مهنته .. فإما أن نكون في نظر التاريخ شعوبا صانعة للتخلف، أو شعوبا صانعة لحكام يصنعون التخلف، أو شعوبا رافضة للتخلف تتوق إلى المجد وعند لا بد أن تثبت مهارتها التضحية في هذا المجال كما تثبت الشعوب الأخرى الحرة التي صنعت حكامها ووجهت مساراتهم.

ولقد رأينا أي نوع من الحكام الشوش يحكمون خير أمة .. ولو لم يرنا الطغاة الآن مدى خبث نفوسهم .. ومبلغ وضاعتهم .. ومدى انحرافهم عن منظومة قواعد الأخلاق الإنسانية .. بل وجهلهم السياسي وخفة عقولهم .. وضحالة فكرهم الإداري .. لشكينا في أنفسنا وفي ثوراتنا .. ولكن كل يوم ترسل شمس البرهان خيوطها لتكشف ما لم يكن في الحسبان .. ولتقول لنا إنهم من السقوط حدا بحيث لو سئل الشيطان عنه لقال: (إني كفرت بما أشركتموني به إني أخاف الله رب العالمين) .. لذلك أحب الضجيج وإن لم ينفع اليوم فسيفع غدا .. وإن لم تظهر نواتجه فإن لصاحب الحق مقالا يجب أن يرفع .. ولصاحب الفكر في شرف الكلمة مندوحة عن الرصاصة فيجب أن تسمع .. وما أنا وأمثالي

على ذلك بملوم: (وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)⁽¹⁾.

وفي البدء كانت الكلمة، وبالقرآن قال ربنا: (فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)⁽²⁾ هناك من الظلمة مفتولي العضلات من يقطفون بكل برود رؤوس ضحاياهم ولا يرف لهم جفن .. ولكنهم متى سايفت الكلمة قيمتهم الاعتبارية أمام الأنظار وصرعت إنسانيتهم بأوصاف التوحش، وسياط التأنيب والتفريع انهزموا وارعوا .. وكم من الأبرياء تم تغييبهم لغياب صوت المصلحين، ولو كان ثم شريحة مثقفة في عداد الأحياء لتعاوروا بأنيابهم لحوم المعتدين وطاردهم إلى أضيق الجحور دون أن يخرجوا من غرف نومهم .. وعندما رفعت وسيلة إعلامية مأساة مظلوم وقع على شخص واحد هو صحفي عربي من الجزيرة ضج لها العالم وباتت قضية كونية ينام الناس عليها ويستيقظون .. وأطاحت برؤوس .. وتبارى تجار القضايا لمزيد من ابتزاز حكام الجور .. ولوحوا بفتح مزيد من ملفات رصيد المظالم لمزيد من الإذلال .. ولي الذراع .. ونهب ما بقي في أيديهم من أموال .. وعاش الظلمة أيامهم السوداء وتمنوا لو يخلقون هذا الرجل من جديد بما يملكون: (...وَوَطَّنُوا أَنَّهُمْ مَانِعُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا...)⁽³⁾ و"ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي" .. تحصنوا بكبريات الدول .. وقدموا رشواهم للأعداء لكي يتآمروا على الأصدقاء، ويضطهدوا الأقرباء، فلم تتفهم أموالهم ولا صفقات القرن .. لا القدس مقابل الملك .. ولا هيئة الأمر بالمعروف مقابل هيئة الترفيه .. ولا المليارات مقابل السكوت بل تبخرت كل هذه الصفقات .. وطفت على السطح قضية رجل واحد وقع عليه الظلم؛ لأن العالم سلط عليها الضوء، فكانت هي القشة التي قصمت ظهر البعير .. فكم من المظالم التي يشيب لهولها الولدان لو أخذت حقها من الاهتمام لما بقي طاغية .. فمحض خطأ أن يسكت الساسة باسم السياسة .. ويصمت الفقهاء باسم فقه الواقع .. ويستخذي الأفراد باسم ضعف الحيلة: (... وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)⁽⁴⁾ .. وإنما يختلف الإنسان عن الحيوان بأنه كائن ناطق قادر على التعبير، فإن لم يوصل للناس القول فهو كالدابة أبكم: (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم)⁽⁵⁾ إنها مقارنة بين رجل عي اللسان لا يملك القدرة على توصيل رسائل نبذ الظلم وبين آخر يأمر بالعدل وهو على طريق

(1) [الشورى:42:41].

(2) [الفرقان : 52].

(3) [الحشر : 2].

(4) [القمان 17].

(5) [النحل:76].

مستقيم، وخص الرجال لأنهم معنيون بدرجة أساسية بالمدافعة والصبر على البلاء في إنهاء واقع التجبر.

أوليس من صفات المؤمنين في الإسلام عدم الخضوع للبغي: (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) (1) والانتصار بالكلام نصف بين تبعات الصمت الذي قد يجر إلى تماد أكبر وبين تبعات رد الفعل بمثله، وخائن لشرف الكلمة من يرى أمرا لله فيه مقال ثم يصمت، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمرا لله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله: ما منعك أن تقول فيه؟ فيقول: ربي خشيت الناس، فيقول الله وأنا أحق أن تخشى" (2). قال الله: (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا) (3).

وقال تعالى: (ولقد وصلنا لهم القول) ومنه نأخذ إيصال الكلمة بأي وجه، فيمكن البدء بإرسال الرسائل بالتلميح، فإن لم ينفذ فبالصريح، وتحل اللعنة على من لا ينهاى عن المنكر، كما حلت على بني إسرائيل (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) (4) قال (عن منكر فعلوه) نسبه إلى الجميع مع أن الذي فعله بعضهم لكنهم بجريمة الفعل وجريمة الصمت باتوا سواء في اللعنة .. ومن يقل ليس لي ظهر. فما يفعل بالظهر؟ فمن استقوى بغير الله أوكله الله إليه، ومن استقوى بالله نصره (ولينصرن الله من ينصره) ولقد وجدنا مصلحين وسياسيين ورجالاً بلد كتموا أنفاسهم بأنفسهم، ولو قالوا كلمة الحق لسمع منهم، ولكن آثروا الصمت على مظالم تحدث، فدفنوا أنفسهم أحياء فما وضع الله لهم القبول عند حاكم ولا محكوم، وتركوا القليل من الناس يواجهون مصير الثبات .. ورفع الصامتون شعارهم الاستخذائي (السكوت درءا للفتنة) فتأزمت الأوضاع .. ومضى الشر في استفحاله من السوء إلى الأسوأ .. فجاءتهم الفتن تطل بقرونها إلى عقر دارهم بعد أن عصفت بالأمة .. فمنهم من طرد .. ومنهم من سجن .. ومنهم من قتل .. ولو قاموا بدورهم لسلموا وسلم الناس: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ) (5).



(1) [الشورى : 39].

(2) رواه أحمد وابن حبان وغيرهما.

(3) [الأحزاب: 39].

(4) [المائدة : 78].

(5) [هود 117].

مربعا - مرؤى فى الإسلام والسياسة

محاربة الإسلام باسم الإرهاب

(الحرب ضد الإرهاب) عبارة أراد بها النادي الاستعماري المنافق الحرب ضد (الإسلام) بينما الممارسات الإرهابية ضد الإسلام والمسلمين أخذت معنى (حق الدفاع عن النفس) علما أن بعض الحركات العنيفة التي وضع عليها (صناعة إسلامية) وخاصة (داعش) هي الكذبة الاستعمارية الجديدة التي صنعتها بعض هذه الدول بالإضافة إلى الكيان الغاصب وبعض الدول المحلية، وهي امتداد لكذبات تاريخية سوغت لاستباحة أمم وثقافات .. فالذين احتلوا أمريكا بكذبة (أرض الميعاد) واحتلوا الجزائر بكذبة (ضرب الداي حسين القنصل الفرنسي بالمروحة) واحتلوا جنوب اليمن بكذبة (سرقة سكان عدن للسفينة البريطانية الغارقة دريا دولت)، واحتلوا فلسطين بكذبة (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)، واحتلوا العراق بكذبة (الأسلحة الكيماوية) هم أنفسهم الذين يسوغون تدخلاتهم اليوم بكذبة الإرهاب.

فكلمة (الإرهاب) كذبة صناعية لحرب الإسلام والمسلمين .. فيكفي أنهم أبوا إلا أن يظل معنى (الإرهاب) مصطلحا مائعا وحروبه شبحية تشمل كل شيء .. قد تظهر له عناصر هنا وهناك تسمى نفسها جهادية ولم يكن المجاهدون في كل زمان ولا مكان يختبئون أبدا تحت أقنعة تنكيرية، ولا يتسترون بأسماء وكنى وهمية .. فمم يخافون؟ .. هذه العناصر الشبحية تنتشط عندما يحركها الممول الخارجي، فتفجر أكثر ما تفجر بين المسلمين، وتغتال علماء المسلمين، وتكفر عموم المسلمين، وقد تقدم التسويغات اللازمة فتقوم بأعمال إجرامية من أجل مزيد من التضيق على المسلمين .. وبه يتم التضيق على منابر الدعوة، وطرد الخطباء وإغلاق بعض المساجد، وحظر الأحزاب الملتزمة، وإغلاق الجمعيات الخيرية ومدارس التحفيظ والمؤسسات التعليمية الإسلامية والطبية ووالخ وكله تحت هذه الكذبة الكبيرة، مع أن أعمال الإجرام يمارسها مسلمون وغير مسلمين والدليل التنكيل بالمسلمين في الهند، والصين، وبورما، وفلسطين، من منطرفين شعبيين ورسميين .. ولم يقل أحد أن تلك ممارسات إرهابية إلا أن توظف سياسيا .. فربطوا الإرهاب بالإسلام تحديدا .. ثم صاروا يتحدثون عن (الإرهاب الإسلامي) .. ثم طوروه إلى (الإسلام الإرهابي)!!! فالمراد بالإرهاب هو الإسلام وبالتالي المطلوب هو رأس الإسلام، الدين الذي علم أتباعه ثقافة مقاومة الاستكبار وهذا أول موجبات النقمة عليه .. وفي الغرب شاع مصطلح (إسلام فوبيا) أي: الخوف من الإسلام فتجاوزوا مصطلح الإرهاب الإسلامي إلى الإسلام .. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهاء الخطر الأحمر الشيوعية السوفيتية .. واحتواء الخطر الأصفر الشيوعية الصينية، أعلن الغرب أن حريهم ستتجه نحو الخطر الأخضر الهوية الإسلامية وبكل وضوح.

وصدرت في سياق الحرب الحضارية بين المسلمين والغرب مقالات وكتب تعرض على محاربة الإسلام والمسلمين، كخطر يهدد الحضارة الغربية مثل كتاب: (صراع الحضارات) لصاموئيل هنتجتون .. وكتب أخرى وصحف ملتأثة بكرهية الإسلام فيها كل شيء من البلطجة والسوقية والإساءة للرموز إلا لغة العقل والإنصاف والمسؤولية المهنية .. أضف إلى ذلك آلاف الأفلام الأمريكية التي يديرها يهود وتصور العرب والمسلمين على أنهم الخطر القادم الذي سيقضي على الغرب.

وتتبادل دول الكفر هزلية الإساءات لدين مليار ونصف مسلم باسم مكافحة الإرهاب، فما أن تهدأ عاصفة تصريحات مخمورين من ساسة ومفكرين ومنشورات صحفيين عرايا من قيم تسترهم وتخفف من وقاحتهم، حتى تظهر عاصفة أخرى في دولة أخرى .. فمن الدنمرك، إلى النرويج، إلى فرنسا، إلى السويد، إلى الهند .. إلخ وتعجب أن تجد خلف الكثير من الأحداث نظام عربي شيطاني فاسد يدعمها بالتحريض والمال هو نظام بني زايد في الإمارات الذي اختار الانتصار لحضارة الشذوذ الذين انتهوا من نشر دعاة الكائنات العدمية إلى مطالبة العالم بترسيم الشذوذ كزواج شرعي بعد أن نشروا كل ألوان الفساد، ولم يجدوا مصدا رادعا ومؤثرا سوى دين الفضيلة لذلك وجهوا نحوه سهام حربهم وحراب ألسنتهم ولكن بلغة الكذب الرخيص والتجني المفضوح.

لماذا يخافون من الإسلام؟

إن هذا الدين لم يعد خطرا على الغرب كدين خليق بنفخ روح المقاومة والجهاد (إذا ما استثنيا خطره على إسرائيل). فالخطورة القتالية على الحضارة الغربية صارت نسبية جدا، بالنظر إلى الخلل الكبير في توازن القوى لصالح الغرب، وبما لا يترك مجالا لأدنى شعور بالخوف من أمة هزيلة .. وثانيا لأنهم يدركون أن غاية الفتوحات الإسلامية إنما كانت لإيصال دعوة الإسلام وهذا ما صار ممكنا اليوم وبدون قتال .. بل المراد وبكل تأكيد هو الخطر الثقافي والديني على الحضارة الغربية الذي صار الإسلام ينتشر هناك بصورة لا يمكن دفعها ولا منعها .. فرسموا خطتهم لتجفيف منابعه ولكن تحت هذه الكذبة (الإرهاب) .. وعن طريق الطعن في مبادئه وتشويه رموزه، ومحاولة إسقاط قدسيته من نفوس أبنائه .. وفي المستقبل لن يقبلوا بمؤسسات تخرج أفرادا ملتزمين دينيا يجمعون بين كونه روحا ومنهج حياة .. ولا مانع أن توسع من دائرة الدروشة الدينية التي تقدم الدين كمجرد طقوس روحية كالجماعات الصوفية، أو جماعات دين ولي الأمر، وسلطان شريعة السلطان كالجامية والمدخلية .. وستعمد إلى مضايقة ومحاربة أي دولة مسلمة قوية، ومنظمة تعتر بدينها وإن بالنفس الطويل.

وربما حدثونا عن حرية المساجد والعبادة في الغرب موجودة، ويرعونها وأحيانا ينفقون عليها! وهنا يلزم التنبيه إلى أن بعض التفجيرات المشبوهة التي تحدث هناك هي التي تغذي اليمين المتشدد الذي سيضطلع بمهمة خطة الاندماج التام للجاليات الإسلامية في المجتمعات الغربية وتآكل هوية الجيل الثاني والثالث لأبناء المسلمين، وأما المساجد فقد دشنت فرنسا مرحلة إغلاقها وألغت التراخيص لعشرين مسجدا بعد مقتل نحو 80 فرنسيا في مدينة نيس بدعسهم من قبل سائق من أصل مغربي عام 2016م، وهو عمل مدان ومجرم بطبيعة الحال.

وما يقال عن المؤسسات الدينية من أنها تغذي التطرف والغلو ونزعة العنف! فيقيني أنهم يدركون بما يمتلكون من قدرات بحثية هائلة أن عزل هؤلاء الشباب المتطرفين عن دينهم هو الذي سيصنع منهم عناصر خطرة على مجتمعاتهم قبل الغرب .. بل لقد أصبح هذا الإجراء أكبر مصدر لتغذية الإرهاب .. وأوسع باب لدخول جهنم العنف وانتشار الفلتان التربوي وشيوع الفوضى .. لأنهم أي ضحايا الفكر العنفي بعد أن أصبحوا منقطعين عن التوجيه العلمي المعتدل من الراسخين في العلم، صاروا عرضة للاستغلال وتصفية الحسابات .. والتوظيف الرخيص من تجار الحروب وأرباب الفوضى ولكن تحت يافطة الدين والتدين .. وعلى مر التاريخ لانجد طلاب علم يقتدون بعلماء أو مؤسسات دينية ذات مراجع علمية تستند على أمهات كتب الإسلام قد خرجوا إرهابيين (حراة) وانظر مخرجات المعاهد الدينية وجامعة الأزهر والزيتونة ومدارس تخريج الخطباء والوعاظ ومدارس تحفيظ القرآن خرجت مئات الآلاف علماء معتدلين ومواطنين صالحين .. ولم تكن الخوارج الغالية تخرج إلا من مناطق يغلب عليها الجهل والامية التي يسهل تجنيد أناس لا حظ لهم من العلم، وإنما تحرك فيهم العاطفة وتوظف النصوص توظيفا خاصا بحيث تخدم أهداف عصابات استباحية خارجة على صف الأمة وهذا معروف على مدار التاريخ .. لذلك من مصادر تفريخ الإرهاب وأسبابه الرئيسة الجهل بالدين وليس دراسته والتعمق فيه.



طلائع الانهزام

تبتعث الأمم والشعوب أبناءها إلى الدول المتحضرة لكي يأخذوا منها علمها، وتجاربها، وخطوات بناء حياتها .. وتقتضي الأمانة الرسالية والشروط التعاقدية أن يعود الطالب إلى بلده ليبنى لا ليهدم .. فما أنفق عليه من الأموال هو لكي يعود ويضع لبنة من لبنات الحضارة وتلك هي كل القصة من ابتعائه.

غير أن كثيرا من نواتج الابتعاث تصب في خانة لم تخطط لها الدول الشرقية المتراجعة عن الركب .. ولم تنتظرها الشعوب الجاهلة المتعطشة للعلم النهضوي والتجريبي، ألا وهي جدلية تغيير الهوية .. وإعادة تعديل القوالب بدل إصلاح القلوب .. فتوقفت ثورة التطوير عند إصلاح نظام العادات والعبادات .. عند تغيير الوجهات الفكرية .. وتعديل طريقة الأكل والشرب .. وتحديث أسلوب الحديث .. وابتكار تكنولوجيا التقاليع وموضات اللبس .. وأخيرا تجديد دور عمرو بن لحي مورد الأصنام للعرب لكي يعبدوها من دون الله، هذا هو ما ينقص المسلمين لكي يصنعوا ويزرعوا .. وهكذا كثيرا ما تتحرف بوصلة المثقفين التغريبيين ويتضخم الفارق في شعور بعض الحدائين بينه وبين مجتمع متخلف حضاريا من حوله، فيعيش ملتاثا بهوس الغرور والتعالي عليه .. حتى لا يجد بعضهم من هو كفاء لمنازلته سوى المقدسات، فيعلن الحرب عليها باسم إعادة قراءتها ولكن بالمقلوب.

وهذا النوع من المثقفين الاستعراضيين حين يتطاول أحدهم على مقدسات أمة بأكملها، يرى أنه جاء كمخلص لأمة تدراكها الله به ليهديهم من قبس نوره وصوت تنويره. أليس هو المتعلم المثقف مبعوث العناية الحضارية؟ ولسان حاله يقول إنه جاء ليمحو المفهومات القديمة والبالية .. ويجدد الرؤى، ويزيل ران الغشاوة من عالم عاش في فترة انقطاع من رسل الحضرة، فلا يحوج هذا العالم شيء كرجل الخلاص مثله.

وبدلا من تقديم مشاريع إنتاج وتصنيع، يبدأ التغريبي بسل حسام فكره، ليتحدى توجيهات أهل السماء قبل أهل الأرض .. ويدخل في جدلية علمنة نظام الحكم، ويدعو إلى عزل الدين عن السياسة .. وفي جدلية إعادة فلسفة الحياة والكون يدعو إلى ترك الغيبيات والظفر بما أمكن من الماديات. ويخوض مغامرات استكشافية للتاريخ، فيكتشف كم كان ماضي مجتمعه فاسدا، فيدعو إلى محاكمته والتبرؤ منه وقطع الحاضر بالماضي.

ويذهب كعالم آثار ينقب في تراث (الكتب الصفراء) بين هلالين؛ ليكتشف كم كانوا متخلفين عندما يلتقط من ثنايا مؤلفاتهم ظن بعضهم أن الأرض مسطحة وساكنة مثلا .. فيدعو إلى الدخول للنقدم من بوابة حرق هذا التراث لكي تدور الأرض وتصبح كروية! ويدعو بالمقابل إلى تقفي خطى ثقافة أهل الحضارة التي فصلت الدين عن الدنيا، والسير وراءهم حذو القذة بالقذة.

وبهذا يكون المنقذ هذا قد فتح على مجتمعه بابا جديدا لتكريس واقع التخلف، بإدخالهم في جدل بيزنطي حول تغيير أفكارهم، وأنماط حياتهم كشرط لأخذهم بأسباب التمدن .. تماما كذلك الولد المراهق قاصر النظر، ساذج التفكير الذي يشترط على والدته المريضة أن تجيد لغة أهل المدينة، وتحسن لبسهم، وطريقة أكلهم، كلازم من لوازم القيام بإسعافها لتلقي العلاج في المدينة، حتى لا يبقى هو وأمه عرضة للتندر .. فلا أمه استطاعت إنتاج نفسها على الطريقة المدنية، ولا هي التي تلقت العلاج وكسبت صحتها؟

كثير من الحداثيين يتركون علاج أمتهم من مرضها الحقيقي كالفساد .. والاستبداد .. وسوء التدبير .. والعمالة، والتخلف التكنولوجي يتركونها لتستمر في أداء طقوسها التدميرية، وينصرفون لإضافة عوائق نهوض جديدة، والدخول في حروب البدء والإعادة، وإعادة التعليب والتغليب لهويات الناس ومعتقداتهم، ووضع علامة (صنع في الغرب) على منتوجنا الفكري .. فينقسم الناس إلى جبهتي إلهاء متناحرة؛ وليسفر مشروعه الحضاري عن مزيد من الخبال، ومزيد من التيه في رحلة الاستكشاف الحضاري ببوصلة منحرفة.

إن مثل هؤلاء للأسف ليسوا طلائع تطور، بل طلائع انهزام .. وليسوا مشاريع حضارية بل مشاريع حظائرية، ومعاول هدم لا رافعات بناء، فغاية ما يجيدون التفكير فيه هو استقدام فضلات الشارع الغربي ونفاياته لكبّها في الشارع الشرقي، فالسير في الركاب عندهم يبدأ من نزع الحجاب .. وتحضر المجتمع يبدأ من عرض النهود والقود، ومن الأكل باليمين إلى فريضة الأكل بالشمال .. ومن السلام عليكم .. إلى good morning .. ومن حسنا إلى ok .. ومن مسمى القيم الحميدة، إلى مسمى التقاليد البالية .. ومن كلمة (الله) إلى مصطلح المينافيزيكا.

إن المطلوب من المثقف والباحث هو اكتشاف قوانين التقدم، في نواميس الطبيعة والمورث المهاري للأمم .. في الإدارة، والزراعة، والتصنيع، وتكنولوجيا التعليم، وليس في البحث عن ميولات القلوب الإيمانية، والتفتيش في الأمزجة الثقافية .. وتحويل دور المثقف من رافعة بناء مفترضة إلى دبابنة صدام مع الهويات .. ومدفع قصف للمقدسات.

وحرب رجال الدين للتحديث ومقاومتهم للتحضر كان هناك في الغرب، حيث كان رجال الدين يحرقون الباحثين والعلماء والمكتشفين ويكفرونهم ويحرقون كتبهم .. أما هاهنا فرجال الدين يفتونك أن من فرائض عبادة الله فريضة العمل والاجتهاد، فاعمل واجتهد واعف نفسك من عواصف التحكم بالعواطف.

كم أنفقت الأنظمة العلمانية، والاشتراكية، والشيعية والعلمانية والليبرالية في منطقتنا من الوقت، وكم أهدرت من الإمكانيات، بل وكم سفكت من الدماء وتركت من المآسي وهي تحاول تحضيرنا من بوابة تقريب شَبَهنا بالإنسان الغربي فكرا وسلوكا، فمضى قرن من الزمن وهي تغير أمرجتنا، وتلوي أسننتنا، وتكثط جلودنا، وتلوي أعناقنا، لتكون النتيجة عالما مفلسا أشبه بالمشخ، وحالنا كقول الشاعر:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ** فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

إن الشعوب أيها العلمانيون التغريبيون ليست حقول تجارب للحصول على تقليعات مدنية فارغة .. وليست أجهزة ميكانيكية يمكن تحديث برمجياتها الذوقية والثقافية، وتغيير قواعد بياناتها عن طريق مهندس حظائري متخلف فهم التحديث في جملة من توافق الأنماط وتناظر الأشكال بين الغرب والشرق .. فلم يصمم الشرق ليكون غربا، ولم يصمم الغرب ليكون شرقا .. فالشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان .. فليبق التغريبي الثقافات والأديان لأهلها .. وليترك الخلط بين داعي التقدم وداعي اللاهوت النصراني، فالمسؤول عن تغيير هوية المسلمين هم المبشرون وبابوات الكنيسة، فعلقوا إن شئتم الصُّلبان واعتمروا القلنسوات، وتنازلوا عن شرط الحصول على التكنولوجيا مقابل خسارة الثقافة، فالتكنولوجيا طريقها العلم والانتاج وهو مالم يحل دونها حائل.

ولم نبعد عن الصواب إذا قلنا إنكم إحدى أكبر معضلاتنا اليوم، ففي حين تدخلون شعوبكم في فتن تلهيها عن نفسها، أنتم مجرد ظاهرة إزعاج وإلهاء .. وربما أدوات تتكلم لكي تقبض، أسننتكم طويلة وأيديكم قصيرة .. تقومون بدور فرق العزف الموسيقي التي تجيد الغناء للغرب على وتر التقدمية، وتزدرون أنفسكم وتبصقون في وجوهكم وليتكم قدمتم شيئا لأمتكم .. كل جهود أحدكم هو إنتاج مصطلحات التخلف، واختراع تكنولوجيا التوصيف التي تصف الآخر بالعقول الظلامية والمتحجرة، في حين هو عبء على المجتمع، ورقم إضافي في خانة القوى الفائضة، تفتش عنه في قائمة المنتجين، فتجد إنما هو أحد الأيدي الآكلة .. يأكل أكثر مما ينتج .. ويأخذ أكثر مما يعطي .. يتفوق على غيره في فصاحة الأقوال لكنه في بلاغة الأفعال وخانة التحضر العملي مجرد رقم بلا عقل مفكر ولا مشروع واضح .. فهو يمثل أزمة توصيف مهني .. بل وأزمة تشخيص نفسي .. كونه

يعيش حالة انفصام واغتراب ثقافي مستمر .. رأسه مطروح في الغرب ولسانه يثرثر في الشرق، يجيد لعن الظلام ولا يعرف كيف يضيء شمعة .. ينهض كل صباح يتأفف من حاله ويبحث في معجم الشتائم عن مفرداته الهجائية ليشتتم عالما هو جزء منه يتأفف من لون ثقافته وموروث هويته .. فليت شعري أيها التغريبي إن لم تطق شكلك، وهويتك، وثقافتك وتاريخك وتراثك، أفترى الغير يطبقونك ويقبلونك؟. غاية ما هنالك أنهم يريدون تجريدك من مقومات حضارتك .. لتصبح مسخا مذنبذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .. قد تأخذ من مؤسسات مشبوهة القليل ولكنك تخسر ذاتك، وتعرضها لمعادلة عدمية في معيار الربح والخسارة.

لقد كان العلمانيون الغرب صادقين مع أمتهم، لم يعجبهم واقع تخلفهم المادي فهجروا الكنيسة حين هجروها بعد محاربتها إياهم لا ليتحولوا إلى مجرد ظاهرة صوتية بل إلى منصة إقلاع حضاري، فاشتركوا في البناء والانتاج والاختراع، وتوقفوا في صوامع التأمل عند كل جديد .. وحين كانوا يتكلمون كانت منصات إطلاقاتهم عبر المجالات العلمية، والدوريات المتخصصة .. عبر معامل التجارب وغرف عمليات الاستكشافات، لا عبر قنوات التهريج والإثارة وشب نار الفتن، يطلون وبأيديهم فرجار التخطيط .. وتلسكوب الفضاء .. وميكروسكوب الاكتشاف لا أقلام التهريج وميكروفونات اللعن والطعن كما يفعل قوى العلمانية الفائزة في بلادنا.



الغرب وخنزيره .. والإسلام

تمت أديان تمتهن كرامة الإنسان في طقوسها، كذلك التي تقوم على إيلاء الجسد وتعذيبه في إرضاء الإله .. وأديان تنزل بمقام الإنسان إلى ما دون الجمادات والحيوانات فيخضع أتباعها إما لحجر صنعوها بأيديهم أو لحيوان مسخر بأيديهم، كالبقرة، والفئران، والقرود، والخيول .. والقائمة طويلة، فيقدمها في التبجيل والتمجيد على الإنسان، حتى إن ما يقارب من 60 ألفاً من البشر في دول غربية تحولوا إلى كلاب، أو قل تقمصوا أدوارها ووظائفها لأن الكلاب هناك تحظى باهتمام فاقت مكانة الإنسان .. وأديان تبني مراسيم طاعة آلهتها على جمع النذور والقرابين، من الأتباع الفقراء لصالح الكهنة، الذين ينشئون إمبراطوريات مالية على حساب قوت عيش المسحوقين الجهلة، ويحصلون مقابل ذلك على مزيد من التجهيل والتغفيل الذي يمارسه أولئك السدنة عليهم وتغيب وعيهم، وتعميق روح الانهزام والخوف من أساطير القوى الخفية والشريرة المزعومة .. وأديان تعبد الشيطان وأديان ملؤها الغرابة والعجب إلا أن هذه الأديان لم نسمع في حدود علمنا أن مصلحين محليين قد نهضوا لازدراءها، وروادا برزوا لتصحيحها، كما نجد طلائع الاستعمار الفكري في بلاد العرب والمسلمين الذين برّوا أقلامهم، ونشروا أعلام حروبهم ضد الدين الإسلامي بخاصة.

لم نقرأ لكاتب هندي مثلاً مدعوماً من الصهيونية العالمية يسخر من دينه ويناضل من أجل إزالة فكرة التبرك ببول البقر .. لم نجد هناك بطلاً يحرر الإنسانية من دين متخلف، كما نجد عندنا أبطالاً وفرساناً في ميدان الوقاحة الفكرية يخرجون من وقت إلى آخر للاستعراض ضد دين مليار ونصف مسلم.

ولم نسمع ببزدي يفود طائفته بدعم من الكونجرس الأمريكي لتحريرها من عبادة الشيطان .. أو سلطت منظمة (راند) عليها الأضواء .. ولا بكاتب شيوعي لامع وظفته الأمم المتحدة للتخفيف من طقوس اللطم، والطعن، والجلد، والزحف على البطون كالسحالي والنباح كالكلاب، والتطيين، والتطبير .. لم نسمع متطوعين لهم صلة بمؤسسات احتلالية دولية انبروا للطعن في تلك الطقوس وفي مسألة النقية، والمتعة، والخمس، وضحكة الاستنار، وتلقفتهم القنوات الرسمية الممولة والصحف واسعة الانتشار ليتبجحوا ويستعرضوا عضلاتهم التنويرية ويدعون للتخفيف عن أتباع هذه الدين من عبء الجبايات على الأقل .. ومسح عقولهم وامتهان كرامتهم.

لم نسمع أحداً من أهل هذه الممل قد حصل على الجوائز الغربية لأنه سخر من هويته كما حصل الروائي المصري (نجيب محفوظ) على جائزة نوبل على روايته (أولاد حارتنا) الصادرة عام 1967م

التي أسقط فيها سير الأنبياء تهكما وازدراء، وكالطاهر بن جلون الفرنسي من أصل مغربي الذي حصل على جائزة غونكور الفرنسية العالمية عن روايته (ليلة القدر) المنشورة عام 1987م لأن فيها ازدراء بالإسلام .. وكسلمان رشدي البريطاني من أصل هندي الذي احتفت به العواصم الغربية على روايته السوقية الرخيصة (آيات شيطانية) المنشورة عام 1988م الذي نال فيها من شخص سيدنا محمد وبلغه مسفة لا مسؤولة.

لم نسمع أن الغرب فتح مراكز بحثية ممولة لمفكرين علمانيين يهاجمون الديانة اليهودية المحرفة بثقافة العنصرية تزعم أن اليهودي ابن الله وأنه فوق البشر وخلق الله الخلق في محبته ويسخرهم لمصلحته والعالم مجرد (جوييم) أي مخلوقات مسخرة للركوب على ظهورها، لم نجد شيئا من ذلك كما نجد إمكانيات سخرت لليبراليين عرب من مثل منزوع الهوية (سعد الدين إبراهيم) صاحب مركز ابن خلدون في مصر الذي يكرس دراسته ومنشوراته في الحرب ضد الهوية الإسلامية .. ومراكز أخرى منتشرة .. بل إن مجتمع النفاق الغربي يعاقب من يتهم على الفكر الصهيوني التلمودي المتعصب، أو من يكتب مشككا في الأرقام الخرافية لقتل اليهود في محارق الهولوكست الألمانية على يد هتلر .. أو حتى من ينتقد مجازر إسرائيل كمجزرة صبرا وشاتيلا الذي انتقدها المفكر الفرنسي المسلم (روجيه جارودي) الذي واجهه الإعلام الغربي بالمقاطعة وحجب مقالاته عن النشر، وقد كان يتسابق على منتوجاته وإجراء اللقاءات معه إلى أن تعرض بعد ذلك للمحاكمة عام 1998م والسجن لمدة عام مع وقف التنفيذ على كتاب ألفه يشكك فيه في أرقام ضحايا الهولوكست .. وكل من ينتقد جرائم صهيونية رفعوا عليه سيف معادات السامية، لينتهي مصيره إلى المقاطعة والتشويه، والتضييق، وأحيانا السجن .. وبذلك تنتهي تشدقات الغرب حول أكذوبة حرية الفكر .. وليس التشجيع والإشادة والتمويل إلا على من يتهم على الإسلام ولقد وقفت المؤسسات الغربية المختلفة عام 2006م متضامنة مع الرسام الدانماركي (كورت فيستر جارد) صاحب الرسومات المسيئة للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، وقامت العديد من الصحف الغربية بإعادة نشر هذه الرسوم، كما قامت العديد من المؤسسات بتكريم رسام أساء إلى رمز مليار ونصف إنسان، وبشكل نتن ومخز، دون الشعور بخجل من تدنيس سمعتهم في احترامهم للآخر واحترام قانون تجريم ازدراء الأديان.

• لماذا يكرهون الإسلام؟

إنه لمن غير المفيد التذمر من معايير الغرب المزوجة تجاه قضايانا، إذ لو نطقوا لقالوا نحن نحارب الدين الذي هزمننا وينفخ في روح أتباعه حب المقاومة لكل أشكال التبعية .. فبفضل هذا الدين كُنِس الاستعمار الحديث وقد كانت منطقتنا منذ عهد الرومان مستعمرة على الدوام، إما من قبل الفرس

أو من قبل الروم، حتى جاء الإسلام وغير المعادلة ومنح الشعوب المستضعفة حريتها .. وبهذا الدين عادت روح المقاومة ضد التبعية الغربية فبعد 100 عام من إسقاط الخلافة ومنهج التغريب يعود الشعب التركي ليقول أنا مسلم، وهويتي الإسلام ويعود روح تضامن الشعوب كأن شيئاً لم يحدث .. وبهذا الدين تحدت المرأة المسلمة دعوات التغريب فبعد 100 عام من ظهور (قاسم أمين) موظف الاستعمار البريطاني وإصدار كتابه (تحرير المرأة) عام 1899 يعود الحجاب وتتقهقر خطط التغريب لصالح الهوية المستقلة .. وبهذا الدين تتقلب الحسابات ضد محاولة امتصاص الشرق من رموز التيارات الإسلامية، فبعد استقدامهم للذوبان في الحضارة الغربية إذا بالغرب نفسه يتحول إلى الإسلام .. وهذا هو سبب كرههم للإسلام وتجنيد الخنازير الضالة من أبناء هذه الأمة لمحاولة النيل منه وتشويهه؟

- يجب مطاردة فكر هذه الحيوانات الضالة التي تعتنفها المؤسسات الاستعمارية، ودحر شبهاتها ومحاكمة أفكارها بتعريفها ونشر أوساخها على حبل الغسيل .. فلا شيء في هذا الدين يدعو إلى الخجل .. فكيف يخجل من يقول ربه واحد ولا يخجل أسياد العملاء وهم يقولون ربهم ثلاثة في واحد؟.
- كيف يخجل من يقول كتابه المقدس واحد، ولا يخجل من يقول كتابه المقدس أربعة مؤلفات في واحد؟.
- كيف يخجل من يدعو إلى العفة والحجاب ولا يخجل من يدعو إلى زواج الرجال بالرجال والنساء بالنساء ومن يطلق ملايين المواقع الإباحية لنشر الدعارة في العالم؟.
- كيف يخجل من يعدد بالضوابط الشرعية وينجب بالطريقة الشرعية، ولا يخجل من يعدد بلاسقف عن طريق المخادنة وينجب نصف المجتمع بالسفاح فينشأ الناس بلاهوية ولا مرجعية أسرية بلا أب وأحياناً بلا أب ولا أم فيرضع من الثدي التشرذم وينشأ في حضن دار الحضانة؟
- كيف يخجل من يدافع عن أرضه ومقدساته ولا يخجل من يحتلها ويعتدي عليها؟
- كيف يخجل من حصيلة حروبه كلها لا تتعدى رقم المليون ضحية ولا يخجل من تعدى في حربين فقط 120 مليون ضحية.
- ثم وأخيراً إذا كانت الخنازير الضالة لا تخجل من خلع هويتها وتقمص هوية الغير، كيف يخجل من يتشبث بثوب كرامته ويدافع عن شخصيته واستقلال هويته؟.



العلمانية بين تقييد المطلق وإطلاق المقيد

القيم في حياة الناس والشعوب إما مطلقة غير مقيدة بقانون كالمقدسات والحرّمات .. أو مقيدة بسقف كالحريات .. والعلمانية بما تحمله من مضامين ومعطيات تهدف إلى إحداث العكس .. (فصل الدين عن المجتمع) حيث تجعل بحكم القانون العلماني ما هو في الناس قيم مقدسة وثابتة، تجعلها قيمة نسبية محكومة بقيمة الحرية الشخصية، التي أصبحت هي القيمة العليا بدل المقدسات .. ولذلك أطلقوها ولم يقيدوها بشيء .. حتى مقولة (أنت حر مالم تتجاوز حريتك الآخرين) لم تعد دقيقة كما سيأتي.

إن التصور العلماني يقوم على أساس أن الحياة (فرصة واحدة لا تتكرر) جاءت اعتباطية بلا نظام ولا ترتيب من أحد .. ولا امتداد أخروي جزائي فيحسب له حسابه .. لذلك من معاني العلمانية أنها مأخوذة من العالم الذي ننتمي إليه وبالتالي لا تؤمن بعالم آخر غيبي لا نراه فجننتها هنا ونارها هنا .. من هنا برزت شعارات علمانية ذاتية المنزع من نحو (دعه يمر) .. (الغاية تبرر الوسيلة) .. (الحياة فرصة لا تتكرر).

وربما تم تعريفها من هذا المنطلق على أنها دين السوق، تقوم على مبدأ تسليع الحياة لتوفير المادة التي تؤمن الحصول على المتعة المادية .. وبهذا تحولت العلمانية نفسها إلى دين أرضي شهوي، يحارب الدين السماوي الذي يقيم مبدأ التوازن بين المادة والروح .. وسيظل هذا الدين المادي المتعي في عدااء دائم مع مثاليات الدين السماوي ففي العلمانية سلطة الحرية الشخصية فوق سلطة الله، والأسرة، والمجتمع .. فالشخص مالك نفسه، حر في التصرف فيها، حر بترتيب حياتها، حر باختيار ما يرى فيه سعادته وترك ما يرى فيه شقاوته، بل وحر أن ينهي حياته متى أراد.

وفي العلمانية القائمة على الفردانية فسحة للاختيار مقارنة بالعلمانية المتغولة التي عادت الدين بحدّة وانتهت إلى خيار إجباري عنوانه الانحراف عن كل مألوف، وبضغط دولي، وتمويل مؤسسي، وتوظيف سياسي، وبخاصة منذ فوز الديمقراطيين في أمريكا بقيادة الرئيس جون بايدن فإن الإلحاد، والزواج الشاذ (المثلي)، ونشر المخدرات، والتحول الجنسي لغير داع، وحرية الجنس (المشاعية) والإجهاض بات مطلقا غير مقيد بل وعنوان المرحلة، فتم قلب الهرم الفطري رأسا على عقب.

العلمانية الفردانية أطلقت القيود المجتمعية لصالح الفرد، وتركت أمامه طريقا مفتوحا لا يقيد أسرة ولا دين، لكن إذا اختار الخير أيضا فهو حر، فأن ينجح الوالدان في تربية أبنائهما على الالتزام

الديني فهما وأبناؤهما أحرار في ذلك .. لكن أن يأتي فتى أو فتاة تشتكي من تقييد والديها لحريتها الشخصية بسلطة الدين والأبوية الأسرية فهناك الحرية الشخصية ستكون هي الحاكمة لسلطة الأبوين كونها فوق كل السلطات .. وأن يتم تجاوز هذه السلطة لحقوق الأبوية فأمر فرضه عنوان الحرية التي يتعدى حق الآخرين .. بل إن الأمر تطور في هدم سلطة الأسرة إلى حد مصادرة الأبناء، ففي مطلع العام 2022م عمت العالم ضجة بسبب استيلاء (السوسيال) مؤسسة سويدية شبه رسمية على آلاف الأطفال من بين أحضان آبائهم، ووفق إحصائيات بعض مواقع النت فإن ما يتم اختطافه يصل إلى نحو 28 ألف طفل كل عام واستهدفت الجالية الإسلامية بدرجة أساس، وذلك بحجة أن الأطفال المخطوفين شكوا إليهم اضطهاد أولياء أمورهم، وربما نزعوا الطفل من بين أبويه وهو يصيح ويظل يبكي على فراق أسرته مدة طويلة لكنه لا يبعد إليهم، بل يتم الدفع به إلى أسرة تعيد تربيته بمبالغ عالية وتنتهي علاقته بأسرته.

هذه هي العلمانية، علمانية قراصنة وقطاع طرق، تصور لو أن دولة قررت مصادرة آلاف المنازل، أو السيارات، أو المعارض التجارية، أو فصل عشرات الآلاف من الموظفين بدعوى مخالفة القانون أو الإهمال دون محاكمة ولا تعويض، هل تظل هذه اسمها دولة أم عصابة من اللصوص؟ فكيف بمن يخطف فلذة كبد الإنسان من بين يديه ويصادره باسم الحفاظ على حقوق الطفل؟ .. يعني هذا الغريب المعتدي سيكون أفضل من والد الطفل وأحن عليه من أهله؟ .. كان يكفي استدعاءات وتحقيقات فإذا تأكد وتكرر اضطهاد الطفل كأن يكون الأب مختلا عقليا مثلا هاهنا يمكن إصدار حكم محكمة بضمه إلى أسرة أخرى.

أما إذا بلغ الولد السن القانونية التي تبيح له الاستقلال عن أبويه فذلك حق له مكفول في جميع الدول، ولذلك الكثير من الأسر المسلمة في الغرب نكبت في أبنائها، فما أن يصل الفتى أو الفتاة سن الاستقلال القانوني حتى يفاجئ والديه بقرار الانفصال عنهما واختيار طريقه الخاص، إما بالإلحاد أو بالتنصر أو بالإنجاب خارج الزواج أو بأي شيء أراد، وتنتهي العلاقة كعلاقة طاعة الوالدين التي فرضها الإسلام، وعلاقة صلة الرحم وعلاقة التوارث .. فالعلاقة الأسرية هناك علاقة تفقيس وتقريخ واعتلاف، حتى يقوى ساعد الفتى ويشدد عوده فيلوي ظهره لأسرته كما تفعل السباع في الغابة دون التزامات أسرية أو أخلاقية إلا متى عَنَّ للفتى خاطره أن يتذكر والديه في أعيادهما بباقة ورد، مع اختلاف في درجة المحافظة .. فماذا جنى المجتمع الغربي من العلمانية الفردانية وترك ضوابط الدين؟ لم يجن سوى التيه .. فالقوانين الاجتماعية هناك متحركة غير ثابتة لأن مصدريتها غير مقدس كالدين، بل كل شيء نسبي .. والأمر متوقف على فكر الحزب الذي يستولي على السلطة، فالجمهوريون في أمريكا محافظون وعندما يصلون إلى السلطة فإن القوانين الاجتماعية تأخذ مسار دين جديد يختاره هذا

الحزب، وبعكسهم الديمقراطيون فكل تقليعة انسلاخية يختارها الشيطان ستظهر في شكل قرارات وقوانين، فلم يبق معهم سوى سن قانون بزواج المحارم، ماذا بقي من القيم؟ المشاعية فككت الأسرة .. والإجهاض صادر حق إنسان حي في الحياة .. والإنجاب خارج الزواج أودى بالكرامة الإنسانية فصار نحو نصف المجتمع لقطاع بلا هوية، والمثلية طاعون جنسي أربك التصورات وصدم موازين العقل واليوم يشكون من جذري القروود الذي نتج عن هذه الظاهرة التي من الصعب تصورها بين الحيوانات.

أما ثابت الإسلام فقد بقي ثابتا، والقيود النازمة لم تطلق وتفكك كالغرب .. والصورة الإنسانية لم تتغير نمطها وتتحول إلى حياة المسوخ، وبقيت الأمة الإسلامية مصاغة بصياغة واضحة وممتعة ومحبوبة من نظام الأسرة المترابطة .. إلى نوع العلاقة بين الأخ وأخيه .. إلى مفردات الحياة وفلسفتها .. إلى الوحدة الشعورية بوحدة عالم ذي خصائص مميزة .. بدونها تنتهي الأمة إلى فراغ كبير، فبأي شيء يمكن ملؤها؟ هل بثقافة الغرب العلمانية التائهة؟ ستنمزق عرى قطبية الفكر الواحد .. ليعود الأمازيغي إلى ثقافة قوميته السابقة، والفرعوني إلى الثقافة الفرعونية، والسبئي إلى سبئيته، والآشوري إلى آشوريته، وسيبقى التغريبيون يغنون للغرب، فلا بقوا عربا ولا صاروا غربا، وسيكون الإنجاز العلماني الوحيد هو التفتيت؛ لأن الدين لم يعد هو الفاعل بل تعددت فاعلية تقلبيات الأحزاب والهويات المختلفة .. وبالعلمانية ينتهي مقدس الأرض والعرض، لذلك تسابق العلمانيون العرب إلى بيع فلسطين وعرض المقدسات للبيع في سوق التحف الأثرية، بل وتسابقوا إلى الاصطفاف مع العدو الغاصب ضد العرب والمسلمين، وتسابقوا إلى تفتيت بنى الشعوب العربية لصالح دوائر الاستعمار لأن الدين لم يعد عندهم رادعا .. وهكذا يترتب على إطلاق قيود الدين تداعي بناء الفرد إلى الأسرة إلى المجتمع .. علما أن الدول المسيحية حين عزلت الدين لم تبق في فراغ بل عادت إلى القوانين الرومانية، وإلى أين سيعود العرب بدون الإسلام؟ لم يكونوا قبله شيئا مذكورا، كان الأوفر حظا في التحضر إما تابعين للفرس أو الروم حتى جاء هذا الدين وأعاد ترتيبهم ليصبحوا في المكانة الأولى ويوصفهم (خير أمة أخرجت للناس).



دروشة الدين

كان في الارتباط الشرطي عن (حافظ القرآن) في أذهان الناس لزوم أن يكون هو ذلك الأعمى العاجز، أو صاحب أي إعاقة، أو العاقل عن العمل، فيكون القرآن مصدر دخله يتكسب منه فيقرأ كيفما اتفق ويقاوم على قراءة المصاحف لذوي الموتى لإهداء ثواب قراءتها إلى أرواحهم.

وكان في الارتباط الذهني أيضا عن عالم الشرع لزوم أن يكون واحدا من اثنين:

الأول- إما ذلك الفقيه الدرويش المتدين المتكسب بعلمه، المتحلي بحلة العلماء وأولياء الله الصالحين، المتنقل بين البيوت والقرى للحصول على استضافات توفيرية نظرا لانقطاعه عن العمل الحر والشريف، أو لإجراء عقود النكاح وتقسيم الموارث .. أو القارئ للقرآن التالي للأدعية المأثورة فوق القبور .. أو ذلك الذي يحفظ التعاويذ ويكتب التمام لقضاء الحاجات .. أو وكيل الشريعة ينتقل من محكمة إلى أخرى .. أو ذلك المكتبة الخاصة (في إرشيف الذاكرة) لمن أراد أن يستفيد من محفظاته، والحصول على فتاوى الأحوال المدنية، من طلاق، ونكاح، وموارث، وغسل الموتى والصلاة عليهم .. وقد سبق هذا في ثقافة الناس حين الاتجاه نحو التخصص في التربية الإسلامية فغالبا ينظر إليهم كلاجئين نحو التخصص الأسهل الذي هو ملاذ اليائسين من دورهم في الحياة والمتعثرين في المراحل الوسطى والأقل نسبة علمية؛ لأنه لا دور للدين في الحياة برأيهم .. فصار تخصص الفاشلين .. وملاذ العاطلين .. هكذا أصبح يقيم الوضع.

النوع الثاني- أن يكون عالم الشرع هو ذلك المقرب من الحاكم الذي يفتتح حفلاته بالقرآن الكريم .. ويصلي به في المناسبات .. ويدعو لاسمه في المنابر .. ويجري المقابلات الإعلامية التي يحض الناس فيها على طاعة ولي الأمر، التي هي من طاعة الله، فيشرعن أخطاءه ويضفي عليها صفة الحق والعدل.

وبالمحصلة فعلماء الشرع صار معناهم في أذهان البسطاء، أنهم تلك الشريحة الثانوية الذين يأخذون بعلمهم أكثر مما يعطون .. وتسد فم أحدهم الكسرة والكسرتان، مقابل الآية والآيتين وتنتهي القصة .. فزهدوا الناس في علوم الشرع حتى صار الناس يعيشون أمة دينية مخيفة فلا تكاد تعثر على مفت حقيقي واحد في الشارع في حين تجده ملئًا بالتخصصات الأخرى.

والواقع أن عالم الشرع ليس مجرد قوى فائضة يمكن الاستغناء عنها .. ولا مجال تبرك وتمسح يمنح الآخرين البركات، وإنما جاء هذا التصور من أن الكثير منهم انحرفوا عن مسئوليتهم العامة إلى مجرد تقديم خدمات عامة بحسب الطلب .. فهمشوا من دور الدين وفاعليته في عمارة الأرض ..

وحطوا من قدر أنفسهم فصار غيرهم يشغل الساحة بالحق وبغير الحق .. أما هم فحاجة العجائز، أكثر منهم حاجة أمة بأكملها .. (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ...) (1).

وصحيح أن السلطات رفعت التافهين وخفضت النابهين، سواء في علوم الشرع أو غيره .. ولكن الصحيح أيضا أن على حامل مشاعل الهدى أن يرتفع بمستواه إلى مستوى مقام ما يحمل، وأن يعيش بين الناس بعزة نفس فلا يضع نفسه موضع المتسولين، وبجراحة حق كولي أمر المسلمين الواجب طاعتهم قبل الحاكم .. ليأخذ ما آتاه الله بقوة: (... خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ...) (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ...) (... فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ...) فلا يدع الباطل ينتفش، ويعلو بصوته على الحق، بل يقمعه بقوة منطق وبلوغ حجة: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ...) (2) إما أن يفعل ذلك وإلا فالأولى أن يبتعد عن هذا الطريق .. فحمل العلم ليس طريق العجزة والفاشلين .. فمن يحمله بضعف فقد حمل نفسه وزر خوره، وعجزه، وجريرة كتمانته للحق .. (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) (3).

على أن العالم الذي صار واجهة علمية ثم يبيع دينه بدنياه يكون جرمه بحجم أمة؛ لأنه قدوته، فإن أساء عرضها للهلاك، وإن أحسن قادها للخير.

ولا يزال الظلمة يستقوون بعلماء (فتاوى بلا حدود) .. لتمرير باطلهم، لذلك فوزر عالم الضلال والإضلال مضاعف، بوزر معصية ترك الواجب وبوزر معصية شهادة الزور، ذلك أنه يشهد بموقفه أن الباطل هو الحق، وأن الحق هو الباطل .. ثم وزر هلاك الناس من ورائه. (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) (4).

ولا نعني بالضرورة أن يشكل العالم ثنائية صدامية مع الحاكم، أو مع تيارات الهدم بل تشكيل ثنائية توافقية مع رسالة إصلاح الناس بالكلمة الحسنة .. وشرح موقف الشرع من قضايا الخلاف بين فئات المجتمع .. فإذا التزم الظالم الحق بعد ظلمه، أو الضال بعد ضلاله، أو الحاكم بعد حيفه شكر العالم صنيعه وكان له خير معين .. وإن أبى نصحه بالكلمة الطيبة، وإن لم يمتثل للشرع، أظهر للناس

¹-[سورة اعراف: 176]

²-[سورة انبياء: 18]

³-[سورة البقرة: 159]

⁴-[النحل : 25]

موقف الدين وأقام عليه الحجة، وأخلى عن نفسه مسئولية البيان: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ...)⁽¹⁾.

وإن من المؤلم أن نجد بعض مرجعيات أهل الضلالات والبدع، قد شغلوا الفراغ الذي تركه أصحاب الحق وحملوا قضايا الأمة العليا ليس لنصرتها بل لاستغلالها لأنفسهم فوقع في حبالهم بعض السذج وصاروا يقارنون ضجيج مواقفهم التي هي في الواقع تمثيلية مع مواقف أهل الحق الاستثنائية. إن العلماء ورثة الأنبياء .. ولا يكفي أن يكونوا صالحين في أنفسهم، بل ومصلحين لأمتهم، فهم حملة أمانة الكلمة الحقة .. وما يأتي خراب الأوطان إلا عندما يغيب مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يجب أن يضطلع به العلماء .. إلى ذلك فإن أمانة الكلمة يجب ألا توظف لغير وجه الله تعالى، وإقامة ميزان العدل فلا تقال في مصلحة حزب، أو جماعة، أو مذهب، وإلا كان ذلك متاجرة بالدين وشراء بآيات الله ثمنا قليلا.

وأخيرا يتحتم الإشارة إلى أن ثمة علماء ربانيين همشتهم الأنظمة وضيقت عليهم كل مسلك، وسجنت منهم وقتلت، كما همشت دور الدين نفسه، غير أن الظاهرة التي تدعو إلى التوقف عندها أن الكثير من هؤلاء إنما حدث لهم ما حدث لأنهم رفضوا انتزاع مواقف منهم مخالفة للشرع، لكنهم برأيي لم يعيشوا أكبر من الخوف في مراحل دعوتهم، لم يعرف عنهم الصوت المسموع، فتعرضوا لإبتلاء الثبات على الحق وليس لابتلاء المبادرة في الحق، فلما أمن الشر جانبهم أتى على مؤسسات العلماء ومنابرهم واحدة تلو الأخرى وهم، وإذا ظهر العالم الجريء فردا كالشيخ عبد الحميد كشك، والدكتور محمود شعبان، والشيخ سفر الحوالي، والدكتور سلمان العودة، والدكتور عبد العزيز الطريفي رمي في السجن ولم يبال به أحد باله.



¹-[سورة آل عمران: 187]

المعارضة في الإسلام

أول معارضة يشهدها الوجود كانت في معارضة عدو الله إبليس الله خالقه، ولا تستعظم هذا لأن الله يدلنا على سننه بذاته، ولم تكن معارضة احتجاج وحسب كما فعلت الملائكة، بل معارضة امتناع ورفض، إنه امتناع إبليس عن السجود لآدم بأمر من الله؛ لأنه رأى بكبره أن آدم لا يستحق هذا التكريم، وعجبا لهذا المخلوق فلئن لم يكن آدم يستحق ذلك بنظره أفلم يكن الله يستحق الطاعة بعظمته؟

لكنه أي إبليس خبير فاختار، فلم يكن مجبرا على الطاعة كالملائكة، فاختار أن يستجيب لنوازح كبره وغروره عن أن يستجيب لله تعالى، فعل ذلك راضيا بثمن حرية الامتناع هذه، وهذا الثمن هو استحقاق عقاب الله بطرده من رحمته ونيل عذابه .. وهذه بحد ذاتها صورة من صور الحرية (حق الاختيار) فاختيار جهنم حق مكفول لمن يريد، وعلى رأسهم إبليس (لَأْمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) (1) لقد مال إبليس إلى التجاوب مع نزعة الكبر والحقد والحسد لآدم وذريته حتى وإن كان مقابل ذلك عذاب خالد .. وباله من اختيار لا يقبل به سوى المجانين ومشوشي الإدراك بفعل مرض الكبر والغرور.

ثم إن إبليس طلب من الله أن يمنحه خاصية البقاء في معارضة إرادة الله الكلية في صلاح بني آدم وإدخال من قدر عليهم من النار، فقبل الله طلبه ذلك: (قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ) (2) .. وتعهد بتشكيل ثنائية ضدية بحيث لن يألوا جهدا في إغواء ذرية آدم، وإبعادهم عن طريق الله ومنهجه .. ويعطيه الله حقه في هذه المعارضة الشيطانية .. لماذا؟ لأن الله له الحجة البالغة .. وكيد الشيطان أمامها ضعيف .. ولن يذهب وراءه أحد لقوة حجة عنده، بل لهوى في نفس من يتبعه، ولذلك قال: (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) (3) بمجرد دعوتي لكم لبيتم ولم تعملوا أفكاركم (ما كان لي عليكم من سلطان) أمر عجيب أنه فقط يزين لصاحب الهوى هواه ويجمله في خاطره، فغضب الله عليه بعصيانه له وتحدي إرادته، أما البشر فلن يتبع خطواته إلا الغاؤون أصحاب الموافقات النفسية مع إغراءاته: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) (4).

(1) [ص: 85].

(2) [الأعراف 14 - 15].

(3) [إبراهيم: 22].

(4) [الحجر 42].

وما أريد أن أصل إليه مما سبق هو أن مسألة مسايفة العقول المخالفة لصاحب السلطة، وتصميم الآخر بالقوة القهرية، وشيوع الحكم المطلق بدون وجود أي رأي مخالف هذا وضع لم يرضه الله تعالى لذاته العلية، وهو الذي حُكِّمَهُ حق .. وقضاؤه عدل .. وصاحب الفضل المطلق .. وأرى من خلال محدود علمي القاصر أن قبول هذه المعارضة الإبليسية من المولى كاختيار يعود لسببين:

الأول- بما أن منهج الله يمثل الخير ومنهج الشيطان يمثل الشر، فإنما تبرز قيمة الخير أكثر ويظهر فضله أوضح بوجود الشر إزاءه، وهذا متحصل فقط بوجود هذه المعارضة .. لذلك ما هو مطلوب هو التقليل من مظاهر الشر، أما إنهاؤه تماما فغير ممكن؛ لأنه مرتبط بطبيعة الاستخلاف.

ثانيا- تكمن أهمية وجود معارض مخالف سواء بالحق أو بالباطل، هو توفير الإجابات الشافية على التساؤلات المنطقية القلقة أو التي تبدو منطقية وتحتاج إلى معرفة الإجابة عليها، فالمعارض في النهاية يضع تساؤلاته والبقية تنتظر سماع الجواب .. ذلك أن خضوع الكائنات العاقلة لصاحب السلطان على ضربين: خضوع تسليم وقهر .. وخضوع رضا واطمئنان، فأن يخضع الناس للحاكم عن رضا بفهم مقاصد أفعاله، خير من أن يجرحهم وراءه إلى حيث يريد ولا يريدون.

ولم يكن شيء ليمنع الملائكة من أن تطيع الله في شيء لم تستوعبه عقولها، وهو السجود لمخلوق لم ترى فضله عليها في شيء .. لكن أفضل من طاعة التسليم والقهر هو التسليم عن قناعة ورضا، لذلك فتح الله معها أيضا باب المحاجة في سر خلق آدم وسر تكريمه لكي تقبل عن رضا وتسليم.

والشيء ذاته للغاية ذاتها يحدث في حوار الخالق مع عباده من الجن والإنس، فيكفي أن نجد في القرآن الكريم طرفي حوار أحدهما هو الله تعالى، والثاني أحد مخلوقاته، لتتكرر الصيغة الحوارية في القرآن (قالوا) (314) مرة .. (وقالوا) بوجود الواو (61) مرة، ليكون المجموع (375) للطرف الآخر .. في مقابل (قلنا) (26) مرة .. (وقلنا) بالواو 5 مرات بمجموع (31) هي صادرة من الله .. ومنه نجد أن فرصة الحديث للطرف المحكوم أمام الحاكم الأعلى كانت أضعافا مضاعفة، هذا ناهيك عن وجود آلاف الصيغ الاشتقاقية الأخرى لمكونات رسائل الاتصال بين طرفي الحوار، مثل (يقولون، قلتم، قيل، قولوا) .. الخ .. هكذا يفتح الله مع مخلوقاته باب المراجعة والاتصال المنطقي (إن لم نقل باب الحوار) لعقائد الأحكام والتوجيهات في أذهان المتلقين، فيخلو التواصل من علاقة صامتة بين طرف ملق أمر وطرف متلق مأمور، وإن جاءت التوجيهات الإلهية أحيانا بدون تفسير؛ فلأن ذلك نوع

من العبادة وهو القبول القائم على مطلق السمع والطاعة، إلا أن الأصل هو التوجيه المفتوح ولذلك كثير قول: (يسألونك .. قل).

وإن هذا المبدأ الحوارى المحايد ليصل درجة من الإنصاف بحيث يضع الله فرضية أن أحد الطرفين على حق والآخر على باطل دون أن يحدد من هو، حيث قال: (وإننا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين)⁽¹⁾ أهدنا على حق، والآخر على باطل، ولم يقل نحن الذين على الحق؛ لأن هذا حكم ينهى فكرة الحوار، إذ ماذا بقى من لزوم لمحااجة بعد إصدار الحكم؟ فلا بد من هذا البعد العادل حتى يقبلوا بمبدئية الحوار ومن ثم تقام عليهم الحجة (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة)⁽²⁾.

وإنك لتؤخذ بالدهشة وأنت تجد المولى تعالى يصف فرعون بالطغيان، والكبر، والاستعلاء، وادعاء الربوبية، وقتل أطفال بني إسرائيل إلى غير ذلك ثم يقول لموسى وهارون: (فقلوا له قولا لينا)⁽³⁾ فلماذا القول اللين مع من وصفه الله بكل نقيصة؟ الجواب يكمن فى اختلاف الموقفين، فانه حين يتحدث عن حقيقة سلوكه فإنه يصفه بما هو عليها، لكن فى سياق الحوار لا يستقيم سرد إدانات الطرف المحاور ورميها فى وجهه؛ لأن ذلك ينقل المتحاورين من طاولة الحوار إلى منصة القضاء وإصدار الأحكام النهائية، وهذا يقطع حبل التواصل، وقد جاء وصف القول هنا باللين وهو ذلك الذى لا يجرح فيؤدى إلى استغلاق العقل والعاطفة عن السماع، وهذه المنهجية يجب أن يسير عليها الدعاة فى دعوتهم لتحقيق أهدافها.

وإن المعارضة فى الفكر الإسلامى لتستمر كمبدأ ثابت حتى يوم القيامة، فانه إذ يحاسب الكافر على ذنوبه، ويحضر أمامه كل أشكال الأدلة، يأتي الكافر ليجادل عن نفسه ولايسلم، حتى قيل مما قيل فى التفسير، إن العبد ليقول: يارب إن الملك قد زاد على فيما كتب" فيرد الملك: (ربنا ما أطغيتة ولكن كان فى ضلال بعيد)⁽⁴⁾ حتى إن المشركين ليقسمون أمام الله أنهم لم يكونوا مشركين: (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتُهُمُ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)⁽⁵⁾ .. إنهم يصلون إلى أعلى سقف فى الحرية وهى حق الإنكار وأمام من لا تخفى عليه خافية .. ورغم هذا التماذى فى اللجج والإنكار، وردّ كلام الله والشهود، إلا أن الحكم العدل لا يصمّتهم .. ولا يقمع حرّيتهم فى الدفاع عن أنفسهم، سواء بحق أو بباطل (حتى يتبين لهم أنه الحق)

(1) [سبا:24].

(2) [الأنفال:42].

(3) [طه:44].

(4) [لق:27].

(5) [الأنعام 22 - 23].

(1) وحتى يقرهم بذنوبهم وبقوم عليهم الحجة .. وهام اليهود يعارضون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المدينة ويجادلونه ويجادلهم، ومتى أظهر عليهم الحق ولم يقبلوا تركهم وما أرادوا ولا يرغمهم على التسليم بقاطع الأدلة، حتى بما تقوله كتبهم، حتى ينقضوا هم عهدا أو ينووا غدرا فعندئذ يكون الحسم لل سيف الذي اختاروه.

وكان رسول الله - عليه الصلاة والسلام - يعلم بمعارضة المنافقين له، ويعلم أسماءهم ولا يعلم بعضها، لماذا هذه التعمية؟ لأن معارضتهم بما أنها لم تتحول إلى معارضة مسلحة، ولم تتعدى الرأي الشخصي إلى هدر حقوق الآخرين في مواقفهم ومعتقداتهم، فلا حاجة إلى إنزال كشف بأسمائهم لجميع الصحابة وللنبي نفسه، فأن يكون للإنسان رأي مخالف وإن أبطن الشر وأراد بذلك الغدر، فإنه يظل خارج حدود الضبط القانوني، فالناس لا تحاسب على نواياهم، حتى يظهر على السطح ضررهم فيكون الحكم على الظاهر، وهل إن سجنهم أو نكل بهم كان له ذلك ضمينا بإنهاء ظاهرة مخالفتهم حتى في طوايا نفوسهم؟ .. ومن ذا الذي بيده أن يقلب قلوب الناس وأن يحمل من يحب على ما يحب وإن لم يحب؟.

إن بقاء الاتصال المعرفي بين الحاكم وما في نفوس المعارضين خير من قطعه فيضطروهم إلى العمل السري الذي لا يمكن معرفة مآلاته ومخاطره .. وقد عارض الصحابة معارضة اطمئنان لبعض آراء رسول الله، مثل اختياره للمدينة كساحة حرب مع قريش، فأنزله الشباب على رأيهم في الخروج إلى أحد .. وعارضوه في صلح الحديبية، ولم يأمر متبعيه بسجن أو قطع رؤوس مخالفيه، بل تركهم وذهب وحلق رأسه ليتحلل بذلك من الإحرام، فتابعوه وانتهت بذلك المعارضة .. ولم ينزل القرآن بتقريعهم بل نزل يبشرهم بالفتح .. وعندما علمت الأنصار أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد صنع لها شيئا لنفسها في إعطاء قبيلة غطفان ثلث ثمار المدينة، مقابل أن ترجع عن حربها للمسلمين في غزوة الأحزاب، كرأي رآه لهم لا أمر من الله، راجعوه في هذا الرأي وقالوا: إن كان إنما هو رأي تراه لنا فلم نكن نعطيهم غير القرى وليس لهم منا إلا السيف .. وراجعوه فيما ظنوه انحيازا لقومه حين أعطى المؤلفة قلوبهم غنائم غزوة حنين، وأوكلهم لإيمانهم، فلم يقمع رأيهم، بل وقف فيهم خطيبا، فذكرهم بنعم الله عليهم، ووضح لهم مبررات ما فعل، وأنه هو والأنصار قد اختاروا الآخرة على الدنيا .. ثم لما لم يتعد قولهم (الله ورسوله آمن) جعل يلقنهم هو حججهم للرد عليه - سبحانه الله - يقول لهم ألا تحببون؟ قالوا وما نجيب يا رسول الله؟ الله ورسوله آمن. قال: أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم .. ألم تأتينا طريدا فأويناك .. ومكذبا فصدقناك .. ومخذولا فنصرناك؟ يعلمهم كيف يدافعون عن أنفسهم

(1) [فصلت:53].

ويقولهم حجته مقابل حجته بلا تردد، حتى وإن كان رسول الله .. وذلك لكي يسهل إبراز ما بقي في نفوسهم من العتب، فيفنده دون أن يتركه حبيس الصدور يتلاعب به الشيطان فيقول على لسانهم كل ما يفترض أن يقولوا، هكذا المعنى المستخلص، وإن لم يفعلوا ذلك حفظا لعلو مقام نبيهم في نفوسهم، وتأكيدهم بثقتهم به، واعترافا بفضل الله عليهم.

إن من مألوف الحياة السياسية عند الحكّام الأسوياء أن الناس لا يمكن أن يتفوقوا على رأي جامع في عدالة حكمهم، فلا بد من وجود الساخطين .. تلك طبيعة الحياة .. وإن الله تعالى ليقرر أن المنكرين لربوبيته أكثر من المؤمنين به، حتى وإن حرص النبي على أن يكون العكس (وما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين)⁽¹⁾ أي ليس أكثر الناس بمؤمنين حتى وإن حرصت على جعلهم كذلك، وقال: (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)⁽²⁾ (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله)⁽³⁾ .. فإذا كان ذلك مع من خلق فقدر وملك فقدر وأعطى وأسدى، ومع من يسقيهم ويطعمهم، ويقلب قلوبهم ويتحكم في نبضات نفوسهم، فكيف مع حاكم مخلوق يخطيء ويصيب، وله حساد و منافسون، ومتضررون من وجوده؟ كيف ينتظر التأييد على إطلاقه، وكيف ينتظر أن تخلو حياته من مخالف؟ .. هيهات! فقط في حالة واحدة يمكن أن يعيش دون سماع معارضة وهي أن يستعمل كاتم الصوت والأنفاس ويحول بلده إلى سجن كبير فلا يسمع منه إلا صدى الثناء والمدح وإنما هو لعنات واقع مقلوب.



(¹) [يوسف:103].

(²) [هود:17].

(³) [الأنعام:116].

مشروعية وجود جماعات دعوية بين المسلمين

في جلسة مقيل تطارحنا الأفكار وتواردت الخواطر إلى أن انتهينا فيها إلى مسألة مشروعية تكوين جماعات إسلامية .. فانبرى أحد الزملاء لتأصيل الظاهرة وتوصيف وجودها وقال بأن لاشيء ألحق الضرر بالإسلام كهذه الجماعات التي سمت نفسها دعوية وصحوية وإسلامية، والتي تتحدث باسم الدين ونحن والحمد لله مسلمون وصاحون ولا نحتاج إلى من يعلمنا الإسلام ولا إلى من يصحينا، وإنما هي فتن وبث الفرقة والاختلاف .. فهل لوجود هذه الجماعات الدعوية مشروعية على الأقل وسط المسلمين؟ وهل إن وجدت يصح جمعها بين السياسي والدعوي أم أنه خلط وتوظيف للدين؟

انطلاقاً من النصوص يكمن الرد على هذا الرأي على النحو التالي:

بداية نقول إن للجماعات الإسلامية أخطاء تحدثنا كثيراً عنها في تأملات سابقة، وصحيح أن أسماء بعضها لم يكن مؤصلاً تأصيلاً سليماً بحيث يتحاشى الاستفزاز ويخرج عن العموم، فتكون مسمياتها بين المسلمين نحو إرشادية، وعظية، وبين غير المسلمين دعوية، تبشيرية مثلاً، إلا أن وجود جماعات خاصة تعنى بأمور الشرع ليس ابتداءً في الدين، بل هو موجود دعا وندب إليه الإسلام .. قال تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ...) (1) قال (ولتكن منكم أمة) أي: جماعة، وفعل المضارع المقترن بلام الأمر (ولتكن) صيغة من صيغ الأمر وهو هنا للندب .. أي يلزم وجودها فيكم، وقال: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (2) .. وقال: (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) (3) دعا إلى نفور طائفة أي تخصص في شؤون الدعوة لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

فالملاحظ أن النصوص تتحدث عن جزء من كل، حيث قال: (منكم) (منهم) والأمة والطائفة (جماعة) .. وتفيد ندب هذه الجماعة والتفرغ لهذا الأمر، والأمر موجه للجميع وهو ما يعني أنها مهمة المجتمع المؤمن بتخصيص فرقة، وليس شرطاً كل الناس؛ لأن هذا مستحيل ومتعذر، والسبب أن منهم التاجر، والترابي، والمجاهد، والمزارع، والصانع، والإداري وهكذا .. لذا قال: (وما كان المؤمنون لينفروا كافة).

(1) [آل عمران: 104].

(2) [السجدة: 24].

(3) [التوبة: 122].

وأما المصطلح هل يسمون جماعة دعوة .. أو جماعة إخوان .. أو جماعة سلفية .. أو جماعة شرعية؟ .. فالمصطلح القرآني تناول كلمة الوعظ، والدعوة، والبلاغ، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا لَآ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ...) (1) سماه وعظا وقال: (... وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ...) (2) وقال: (... فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ...) (3).

أما مصطلح الدعوة فقد ورد في قوله تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ...) (4). (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...) (5).

ونجد لمصطلح التبليغ أصلا في كلمة يبلغون: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا) (6) ويمكن أن تُسمى (جماعة) كون القرآن سماها أمة وطائفة وتعني جماعة من الناس.

فلا إنكار إذن على وجود جماعات دعوية متخصصة ومنظمة في التوجيه والإرشاد والدعوة إلى الله بين المسلمين وغير المسلمين، وليس بالضرورة أن يكون الداعية عالم شرع، فقد يكون داعية ولكن ليس عالما مفتيا، فالعالم راسخ في علوم الحلال والحرام ومرجع إفتاء، لكن الداعية يقرب الناس إلى الله، يقوي إيمانهم بالتأمل في آيات الله .. وبالترغيب والترهيب، بالحث على السلوك الحسن، كالوفاء بالعهد .. وأداء الأمانة .. وترك الخيانة .. وترك الربا .. وحفظ الجوار .. والتسامح بين أبناء المجتمع .. وغير ذلك كثير .. وينبغي على الداعية أن يكون فقيها بالدعوة ولغتها وظروفها، ولعلي قد فصلت في ذلك في كتابي (لغة الخطاب الدعوي) الصادر عن مجلة الأمة القطرية برقم (143) لعام 1432هـ .. وإنما قد يكون إنكار المنكرين في خلط السياسي أحيانا بالديني، وهناك من يحتج بأن السياسة جزء من الدين، والحقيقة أن السياسة إذا كانت جزءا من الدين فإن الدين ليس جزءا من السياسة، بل هو أكبر من يوضع في واجهات الدعاية السياسية، فالسياسة لها طرقها أحيانا التي لا يصح أدعاء أنها من الدين، ولا يكون للدين دور إلا في منع تجاوز المتفق على حرمة أو المتفق على وجوبه، أما اجتهادات البشر فقد تصيب وقد تخطئ وقد سبق معنا حديث وصايا النبي لقواده .. ولا يعني أن من الخطأ تكوين أحزاب ذات مرجعية دينية، بل الصحيح أن تكون الهوية هي قاعدة جميع

(1) [الأعراف 164].

(2) [النساء 66].

(3) [النساء 63].

(4) [يوسف 108].

(5) [النحل 125].

(6) [الأحزاب 39].

الأحزاب، ولكن الخطأ في توظيف الدين للدنيا، والصحيح أن الأحزاب ذات المرجع الديني إذا دخلت معترك السياسة فعليها أن تؤصل تصرفاتها تأصيلاً لا يخالف الإسلام لكي لا تلحق به التشويه وتكون عبئاً عليه، فإن ألجأها السياق السياسي إلى الاجتهاد فيما لا نص فيه وهذا كثيراً ما يحدث لأن قضايا الدنيا غير متناهية، فلا تدعي أنها تصدر عن حكم الشرع، بل توضح للجمهور أنها تجتهد فيه برأيها.

وإذا أصبح الداعية مشهوراً، وله جمهوره من كل المكونات، فيفضل في حقه أن لا ينخرط في العمل الحزبي والسياسي؛ لأنه سينظر إليه كمثل لحزب لا ممثل لمرجعية هوية عامة، وربما صعب عليه الفصل بين التوجيه الديني والالتزام الحزبي .. وربما نظر إلى جمهوره ومحبيه كمكسب حزبي ورافعة مصلحة فيوعظ حين يوعظ وناتج جهده في كم كسب من الأصوات الجديدة فهو بشر في نهاية المطاف، ومن الناس من حرموا مواعظ داعية كان بحجم أمة، ثم تورط في عملية الاستقطاب فظهر الطرف الآخر يشطنه ويتهمه باتخاذ الدين معبر وصول لأهدافه الحزبية.

وقد وجدنا منابر وعظية تحولت إلى دعاية حزبية مفتوحة لهذا الحزب أو ذلك .. والنص القرآني يشدد على التجرد الدعوي أيما تشديد: (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (1) أي أجر كان وأي منفعة كانت .. (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) (2) لذلك إذا عني أي حزب بالجانب الدعوي والإرشادي فذلك من حقه، ولكن أرى ضرورة فصل الجانب السياسي لأي حزب ذي خلفية دينية عن الجانب الدعوي؛ للمحاذير التي سبقت ولأن الجانب السياسي الأصل فيه أنه برنامج عملي خدمي وشروط العمل والخدمة إنما هي الخبرة والالتقان بالمقام الأول وليس الدين بلاخبرة.



(1) [يوسف 104].

(2) [الجن : 18].

مركز "اعتدال"

في المملكة العربية السعودية - حماها الله لحماية الحرمين وأبقاها لخدمة المسلمين آمين - تم تأسيس مركز "اعتدال" لمحاربة التطرف الديني .. متزامنا مع إنشاء هيئة الأمر بالمنكر المسمى (هيئة الترفيه) كأنما خلق الله هذا الشعب للتسالي .. وألعاب السيرك .. وحدائق الأطفال، وكبير عليه الانخراط في برامج بناء أمة وتأسيس مجد .. حتى صار اليهود بلغة السخرية يقولون: عندكم مال وعندنا عقول، تعالوا نجمع أموالكم مع ذكاء العقل اليهودي لكي نحسن إدارته، وليكن تحت شعار (مال بلا عقل لعقل بلا مال) أو (المال الغبي مقابل العقل الذكي).

المهم عود على بدء .. أول إنجاز دشنه مركز (اعتدال) هو محاربة حركات (الاعتدال) ليصبح المركز تيارات اعتدال من طراز جديد .. وفرق غنائية من الحروف الإسلامية الثلاثة (السين، والشين) يتوسطهما حرف (الصاد) حروف الهمس، والصفير، والتفشي، وليس فيها شيء من الشدة والجره فولاة الأمر طال عمرهم لا يحبون الشدة في النصيحة، ولا يحبون الجرهم بالسوء، وأبعد منها لا سمح الله الحروف الانفجارية، ما لنا وللانفجارات .. وهذا هو المطلوب في مركز اعتدال، فالاحتجاج السلمي يجب أن يكون من الرعية للراعي على انفراد وبالهمس لبقاء أسرار ولي الأمر طي الكتمان، وما عدا ذلك لا يجب أن يسمع من المواطن إلا سمّ طال عمر .. حاضر سيدي ومولاي .. ما يفعله سموكم عين الصواب .. لن يجري الله على يديك إلا كل خير .. لغة وسطية بين الجهرية والرخوية .. وسط بين تعبير الإنسان الحقيقي والروبوت.

وبمركز اعتدال سنحصل على ولي أمر محدث ليس من المحادثة بل من التحديث .. ولي أمر يرفض الغلو رفضا باتا ولي أمر وسط بين الدف والزمر والعصير والخمر .. وسط بين هيئة النهي عن المنكر وهيئة الأمر بالمنكر .. وسط بين الكفر والإسلام .. وأخيرا وسط بين البيت الأبيض والأسود.

ولمركز اعتدال روافد عدة نقول فيها بحروف مسموعة ولغة مسجوعة إنها وسطية الصوفية القبورية والسلفية القصورية فيجتمع لها شرك القبور وشرك القصور .. وللصوفية تجليات خاصة توازن فيها بين الهز العرفاني والعشق السلطاني .. فلأنها تؤمن بوحدة الوجود فإنه لا فرق عندها بين عابد ولا معبود .. كلهم في محراب التعبد سواء .. هؤلاء فعلا دينهم دين حق لا دين ملحق .. ولو قد عرفت الشعوب فضلهم ما احتاجت إلى هيئات ترفيه .. إذ يمكن جمع الدين والدنيا بعبادة الرقص

الجماعي .. فتقضي للجميع الحوايج بالطواف حول القبور مع الاختلاط والسفور .. فمن شاء فليترك ومن شاء فليتمتع .. ومن وسطيتهم وقوفهم وسطا بين سلاطين العروش و دراويش القروش، فقد قايسوا الحكام بتشليحهم للشعوب مقابل إنزال البركات على الدراويش وتفريغ الجيوب.

ومن قائمة الاعتدال المتبقي أيضا جماعة وسطية بين وجوب تغطية المرأة للحدود وإباحة المحرمات للحاكم بلاحدود .. بين الزنا لمدة نصف ساعة على البث المباشر وبين ممارسة كل الموبقات والمنكر .. فانتقلوا بذلك من الالتزام باتباع السلف إلى الالتزام بابتداع الخلف .. شريحة اعتدالية أخرى تم افتتاحها تحت عنوان (المفكر الإسلامي) طابور ارتزاقى آخر .. يُعنى بإعادة تحديث الدين .. ومن أدوارهم الدفاع عن الدين من تلوين الدنيا .. عن طريق حفظه في ثلاجة باردة بعيدا عن تناول الإرهاب .. وقد قطعوا شوطا في تحديث خطاب الدين وصاروا وسطا بين الخشونة واللين .. وقربوا البعيد وبعدوا القريب فلم يعد فرق بين الرجل والمرأة لا في النعومة والخشونة ولا في البطن والصدر والسوءة .. ودعوا إلى الدفع بالعنصر النسائي للصلاة بالناس وتسئم منابر الخطب المنبرية .. وتذكير الناس بجمال صنع خالق البرية .. والصلاة بالناس بتلاوة إذا قرأت خفقت لها القلوب .. ومتى ما ركعت زغلت لها العيون .. وإذا أعطت دروسا في الجوامع انضم لها الشباب المراهقون من الشوارع .. شريحة الاعتدال الأخيرة هي شريحة الإنسان غير الناطق .. أي المواطن الذي لا يرى لا يحسُّ لا يتكلم، فوسطية هذا الكائن (الدهماء) تكمن في أنه لا هو حيوان ولا هو إنسان، من حيث إن الحيوان إذا خاف نطح ورفس .. وإذا جاع مضى وافترس.

والإنسان إذا تألم تكلم لكنه حالة بين الحالتين، تراه تقول إنسان .. تكلمه تقول حيوان .. ومركز الاعتدال هذا لا يختار حين يختار .. فهو لا يقبل في العضوية إلا كائنا مسخا لا موقف له فيعرف .. ولا مبدأ له فيؤصف .. كائنا مصيِّرا لا مخيِّرا إذا اختار طريقه فقد انحرف وبات معتديا لا معتدلا .. لأنه (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) .. فالمواطن الصالح هو الأيكم الكلُّ على مولاه أينما توجهه لآياتي بخير .. والمواطن الطالح هو الذي يأمر بالعدل ويسير على صراط مستقيم .. ولكي يصير الشعب العربي كله معتدلا جاء مركز اعتدال هذا وركز على الأبحاث الفضائية لكشف أداء طقوس الطاعة من أجل الحفاظ على وحدة الجماعة .. واهتم بعلم الهندسة الوراثية في تشريح الشرائح .. من إرهابي بقراءة الملامح .. إلى خارجي بإسداء النصائح .. فهؤلاء هم الخطر الماحق والطوفان الساحق.

هذا المركز التقدمي ربما أعطى نتائج للعرب عن شر قد اقترب .. فيجتمع فورا لا وزراء الصناعة ليصنعوا .. ولا وزراء الزراعة ليزرعوا .. بل وزراء الداخلية ورؤساء الأجهزة

الاسآبارفة هؤلأ فحزرون لفرءوا أأنة آماعفة .. هف أأنة مكافآة الإرهاب لا مكافآة الفقر والفساء .. وآبال المعلوماء آول مهءاءات السلطة وآقوفة الآواسفس والشرطة .. وآانسفق مع الإنآر بول لآسلفم الإرهابففن لا مع المنظماء الآولفة لرعاة المنكوبفن.



﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾

في زمن الجد تصيح اللغة المائعة قريية من معنى الاستسلام، فلا يرتفع الحق ورأس صاحبه منحن .. وصوته منخفض .. وحروفه متقطعة .. وخطواته متعثرة .. هذا الصنف هو الطرف المقابل لثنائية العاملين في الحقل الدعوي، إما لغة خشنة جافية خالية من عنصر المنطق، أو لغة مائعة مترددة تحاول أن تثبت أنها متصالحة مع أي شيء لكي تتجنب المواجهة المباشرة. وما هو مطلوب في واقع الأمر هو قول كلمة الحق بصوت مسموع مع حجة بالغة .. فليس العمل للإسلام شتيمة ولا تهمة، بل هو أرقى المراتب: (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين)⁽¹⁾ .. إن المؤمن الحق لا يهزم ولا يستحي من مكون ضميره ورأس ماله .. مهما تضافر الأعداء للنيل منه .. أو حاولوا تلطيخ صورته بالنقائص .. وبرزت مخالب الشر تريد أن تنبش في أصله الثابت .. مهما تعدد جبهات مناوئيه .. وجندوا من الرجال الواقفين على أبواب جهنم ليمارسوا الأعمال القذرة باسمه لتشويهه .. مهما أنفقوا من الأموال، ونشروا من الكتب والأفلام، والمواقع لبث السموم والشبهات .. فلا شيء يمكن أن يقنع المسلم برمي نفسه إلى العراء بلاهوية.

وإن هذا الدين لباق لأنه صدى الفطرة السليمة .. ويمثل الحقيقة الإلهية مقابل أضاليل الشيطان .. ليس هذا ادعاء ولا اعتداداً مجرداً .. بل هو كذلك بالحجة القائمة المقترنة بالتحدي (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين).

إن الإسلام لثابت ولكن بثبات أهله المنخرطين في سلك الجنديّة للدفاع عنه على هدى وبصيرة وعلم يقارعون الحجة بالحجة .. فإذا ما كان له رجال تكسرت السهام وتقهر اللئام .. (... وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّضْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً)⁽²⁾.

ولكن فقط أين أهله المدافعون عنه؟ هذا هو السؤال .. عندما كان للإسلام من أمثال أبي حنيفة، والشافعي، كانوا يسحقون شبهات الفلاسفة والدهريين .. ولكن أين علماء الإسلام اليوم؟ فيأماً أناس سلكوا مسلك العلم الشرعي أو انتظموا في سلك الدعوة إلى الله انتهى مآل غالبهم إلى واحدة من حالات

(1) [فصلت:33].

(2) [آل عمران 120].

كل حالة أسوأ من الأخرى .. لن أتحدث عن علماء فتاوى بلا حدود .. فقد سبق الحديث عنهم ولكن عن علماء التزموا الصمت إزاء هجمة غير مسبوقه لاجتثاث الدين.

فمنهم العالم المحترف لمواجهة قضايا الشرع في الأحوال المدنية والعبادية .. فليس على أحدهم من جناح إذا لم يكن معه من العلم سوى باب الطلاق والنكاح .. ولا إلى غيرها حاجة إن لم يعرف من العلم سوى صفة قضاء الحاجة .. ليتترك الدنيا برمتها لأهل الدنيا .. أما هو فمن أهل الدين .. وإذا سئل عن حاكم ظالم أو تولى الكافرين من دون المؤمنين أو فساد المفسدين قال: يا بني ماليش في السياسة .. وعليك بخاصة نفسك .. ونعوذ بالله من ساس يسوس ونجانا الله من غوائلها .. نفس شعارات العلمانيين دع ما لله الله وما لقيصر لقيصر .. وهل المطلوب يا مولانا أكثر من النصيحة التي ممكن أن يبادر بها حتى البابا من روما كهدية مجانية لأي صاحب سلوك منحرف .. لماذا صار هؤلاء المعممون أكثر جبنا وخوفا وتزلفا لذي سلطان؟ وهم يحملون رسالات الله، والله يقول: (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله)⁽¹⁾.

إن الفكر الصامت أو الفكر الملتئم فكر مشبوه يصير وجوده بلا شرعية؛ لأنه متردد في مزاحمة الآخرين كونهم الأقوى وإنما البقاء للأقوى والأصلح، وبالنتيجة هذا الفكر المتواري سيظل غير صالح للتعاطي الأدمي في نظر الناس وحقه المطاردة والتهميش، فإذا كان رجاله يرون أنه لا يستحق التضحية فلماذا يكون حماس غيرهم عليه أشد؟.

ومنهم العلماء الكبار والباحثون المتضلعون حسبوا أنفسهم في قوالب القيم الاعتبارية، فلأن أحدهم ترقى في العلم حتى بلغ ذروته فعلى الناس أن يتحملوا عناء الصعود إلى أحدهم، فمن يملك مهارة الاتصال به والوصول إليه فليكن ذلك .. وليطرح سؤاله بعبارات التوقير والتبجيل .. ليرد هو بعبارات منظومة وإقاعات مسجوعة، ورسميات محاطة بلغة أهل الوقار .. ومالم يصعدوا إليه فلتنزل بالناس النوازل ولتعصف بهم العواصف .. لن يبادر بعمل شعباوي متواضع فيه تخل عن برج مولانا الشيخ فيواسي الضعيف .. ويعين المسكين .. أو يرد شبهة على مجموعة عبر التواصل، ويقارع بما حمل من علم أهل الباطل .. لا. بل سيبقى ذلك الإنسان المتخشب .. ثم لن يبرح يشكو من أن الناس لم يعودوا يحترمون الدعوة، وأولي العلم، ولا يقصدونهم إلى مداركهم، لينهلوا هم من فيض علمهم الراكد في برك الوقار .. يعني القضية توقفت عند حق الاحترام والتعظيم كمهمة أساسية، فإذا كان الناس عازفين عن التوجه إليهم فشلت خطة العالم مع الجاهل؟ .. بينما رجال على أبواب جهنم فرغوا

(1) [الأحزاب:39].

إن في هذا مخاطر على الدعاة .. فلماذا لبت شعري ونثري يختارون طريقا لا يخلو من مخاطر؟ والله يقول: (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك) .. فهل الدعوة والدعاة مجرد شركة تأمين على المخاطر؟ فمن يتحدث باسم الدين عليه أن يتحمل ما قد يصيبه وأن يكون بحجم المهمة قويا بقوة الحق، قال المولى في غير موضع: (... خذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (1).

إننا في زمن لا يفسح الطريق إلا لصاحب الحضور القوي المشفوع بقوة الحجة .. ولا يحترم إلا من يطلب من الآخرين احترام مبادئه .. فإذا قدم نفسه كطرف غير واثق من نفسه .. متردد في تقديم بضاعته عامله بمعياره .. وإنه ليحترم المشاكس صاحب الحق الذي يفرض نفسه ويمتلك الجرأة الأدبية مع الآخر.

ولا نعني بالجرأة الإسفاف في الطرح .. أو انعدام اللباقة في الحوار .. أو التفتيش من الآخرين، بل المراد الإلحاح في الحضور المنفتح .. والطرح الفكري القوي مع تغليف المضمون بجماليات الشكل اللفظي الخالي من الغلظة والجفاء .. والصبر دوما على ضريبة فرض النفس واحتلال المكانة اللائقة بمقام الرسالة التي يحملها.

والناس يتساءلون .. أين العلماء؟ لو قام العلماء بدورهم ما حدثت في عالمنا العربي كل هذه الأحداث؟ .. والجواب العلماء مفرقون بين متكسب راكن إلى الذين ظلموا، أو متحزب يتاجر بالدين لتقوية حزبه، أو متعصب يدعو إلى طريق طائفته .. أو مستخذ شعاره اللهم لا أسألك إلا نفسي .. وكل هؤلاء علموا ولم يعملوا فهم كالحمار يحمل أسفارا تشبيهه الله لعلماء بني إسرائيل (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)(2).



(1) [البقرة 63].

(2) [الجمعة 5].

﴿ اللّٰهُ ﴾ الولاء والبراء في الإسلام ﴿ اللّٰهُ ﴾

1- ما هو الولاء والبراء؟ .. وما حكم من يوالي غير المؤمنين؟

الولاء: هو المحبة والنصرة والطاعة، ولا ينبغي أن يكون إلا لله ورسوله والمؤمنين، وهو أصل من أصول العقيدة، فلا ولاء لمنافق، ولا لكافر سواء محاربا كان أو غير محارب، إذ لا يجتمع الإيمان مع حب الكافرين ونصرتهم على ضلالهم، ولا يسمى خضوع الأقليات المسلمة لقوانين بلدانهم غير المسلمة التي يعيشون فيها ولاء، بل تطبيقا للقوانين التي هي بمثابة عهود مواطنة متفق عليها ويجب الوفاء بها طالما لا تتعارض مع مبادئ الدين .. ولا مانع من إجراء معاهدات صلح مع المحارب منهم .. أو تبادل مصالح متكافئة مع غير المحارب، بل وبرهم ومعاملتهم بإنسانية إن كان في ذلك تأليف لهم وإبراز سماحة الإسلام، قال تعالى: (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُفَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)⁽¹⁾ .. وليس تبادل المنافع مع غير المؤمنين فيما لا ضرر فيه، أو الإحسان إليهم ولاء لهم، إذ لا يدخل فيه معنى الحب لهم ونصرتهم، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعامل معهم بالدينار والدرهم، ويكرم وفادة من وفد إليه منهم، مثل وفد نصارى نجران، وكان يحسن إلى جيرانه من غير المسلمين، ويقدم مع أهل الكتاب الذميين عدل الإسلام كما نجد من إنصاف القرآن الكريم لذلك اليهودي (زيد بن السمين) في تسع آيات من سورة النساء تتلى إلى يوم القيامة .. والبراء: لغة هو البغض والتنزه والتخلص والعداوة .. والبراءة من الكافر على صورتين:

أ- الصورة الأولى: الكافر والمنافق المحارب الذي أقيمت عليه الحجة فأبأها، كما قال الله: (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ)⁽²⁾ (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)⁽³⁾ ثم أبدى عداوته ومنابدته لله ولرسوله وللمؤمنين، فيجب بغضه والتبرؤ منه ومنابدته، إذ لم يعد مجال دعوة، ولا موضع رجاء وإنما هي المواجهة مقابل المواجهة .. كقوم إبراهيم عليه السلام الذين دعاهم وأبأه آزر فكذبوه ورموه في النار، بعد أن بطلت حجتهم، ونكسوا على رؤوسهم قال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ

(1) [الممتحنة: ٩-٨] ..

(2) [طه: ٥٦] ..

(3) [الأعراف: ١٣٢] ..

دونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ (1) ... وكالبراءة من قريش وعدم مودتهم بعد أن أصروا على حرب الله ورسوله والمؤمنين، وقاتلوا المؤمنين في دينهم وأخرجوا الرسول وإياهم من ديارهم كما جاء في أول سورة الممتحنة: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) (2) .. يدخل في ذلك أقرب الناس، فلا ود له على محادثة: (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...) (3) .. ذلك أن دين الله هو رأس مال المرء .. وفلسفة وجوده .. وقرين خلوده .. إنه فوق العلائق المنتهية .. والمنافع العارضة .. وفوق الأهل والعشيرة الزائلين، فمن حارب دين الله فقد حارب لازم المؤمن، وعماد كينونته، فلا تنازل عن شيء منه، ومن تنازل عن ما هو معلوم من الدين بالضرورة، مفرطاً فيه فقد ارتد عن دينه قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنْظِيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ) (4).

ب- الكافر غير المحارب .. وهذا يكون البغض لكفره وليس بغض ذاته، ولا يصح حبه في نفس الوقت فلامحبة إلا لمؤمن، بل وضعه موضع المطموع في إيمانه والمرجو له الخير .. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الولاء والبراء موضوع خطير ومتداخل وحمال أوجه، مما يخلط فيه الناس خلطاً شديداً، ويحملة البعض أحيانا محامل فوق ما يحتمل، فلا فرق عنده بين كافر محارب وغير محارب، بل قد يطبقه على المؤمنين المخالفين له في الفكر أو المذهب .. وحملة البعض على المقاطعة المادية والشعورية، فلا يرى علاقات مع غير المحارب، ولاتبادل منافع، ولا يرى مخالطتهم كنبى الله نوح عليه السلام الذي شملت دعوته العلن والسرى، ولا يرى ضيافتهم بهدف تأليفهم كما فعل النبى محمد ونبى الله إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهذا غلو وإفراط ومخالف لمنهج الأنبياء صلوات الله عليهم .. ولذلك يجب التفصيل في هذا الباب ومعرفة نظر أهل العلم والاختصاص، فبسبب توظيف مبدأ الولاء والبراء توظيفا مصلحيا أحيانا أو بسبب فهمه فهما خاطئا، ضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض وربما بنوا عليه فتاوى التكفير واستحلال الدم، وآخرون فسروه بالسيف مقابل فريضة الدعوة وإقامة

(1) [الممتحنة: 4].

(2) [الممتحنة: 1].

(3) [المجادلة: 22].

(4) [محمد: 25-26].

الحجة وانتفاء موانعها، فليس إلا الإسلام أو السيف، فهدموا بذلك مثالية صبر الأنبياء وتسييسهم للنفوس، واتبعوا طبائع نفوسهم الخشنة فضلوا وأصلوا.

* موالاة الكفار بحبهم ونصرتهم:

كما سبق فإن الإسلام يحرم تحريماً قاطعاً موالاة الكفار موالاة دينية ينعقد عليها حب ما هم عليه ونصرتهم على ضلالهم؛ لأن ذلك يعني التحول من دين إلى دين؛ ومن جماعة إلى جماعة، إذ لا يتألف المختلف في قلب واحد، فحب من يخالف الإسلام والمسلمين ونصرته على ضلاله سيعني أنه على الحق وما عداه على باطل وهذه ردة جلية .. قال تعالى في موالاة اليهود والنصارى: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم). فاليهود والنصارى (بعضهم أولياء بعض) (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) (والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وذات الشيء لا يمكن لكتابي أو كافر أو منافق أن يوالي المؤمنين، أي يحبهم وينصر دينهم؛ لأن العقيدة لا خلط فيها بل تحول عنها .. ولا يدخل في هذا نصره من وقع عليه ظلم منهم فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة"⁽¹⁾ فإذا كان النبي حجيجه يوم القيامة فبالقياس لزمته نصرته في الدنيا .. وإذ قد اتفق العلماء على أن الحب لا يكون إلا للمؤمنين فإنه لامعدى من منطقة الثالثة لصنف الكافرين غير المحاربين .. منطقة بين الحب والبغض فإن بغض فكرهم وكفرهم لا يقتضي بغض ذواتهم، إذ سيقضي تمنى زوال الخير عنهم ودخولهم النار، وعدم حب المصلحة لهم ودخولهم الجنة، وهذا مخالف لمنهج القرآن وكيف والأنبياء وفي غير ما موضع كان شعارهم في خطاب الكافرين: (يا قوم إني أخاف عليكم) فكيف يخاف على من يبغضه؟ ولم ترد آية واحدة تذكر أن الله يبغض الكافرين، بل ورد أنه لا يحب الكافرين، ونفي حبهم لا يستلزم بغضهم، إذ لو بغضهم ما أنزل لهم الكتب ولا أرسل لهم الرسل ليدخلوا الجنة .. وكيف يستقيم واجب دعوتهم فصلهم بجدار من الكراهية والبغض؟! كما يجب طاعة الوالدين الكافرين في معروف، قال تعالى: (وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ...)⁽²⁾ وبرهم وحب الخير لهم لا يعني حب ما هم عليه فهذا من الولاء، كل ذلك حث عليه الإسلام عدالة منهوتأليفاً، وإقامة الحجة (.. لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ...)⁽³⁾.



(1) (رواه أبو داود 3052).

(2) [لقمان: ١٥].

(3) [الأنفال: ٤٢].

2- من هم المؤمنون الواجب مولاتهم؟

حدد الشرع لمن تكون موالاة المؤمن ومن تجب محبته في الله ونصرته الله. وقد فصل القرآن الكريم هذه المسألة لأهميتها، حيث ينبني عليها مفاصلة، وبلغة العصر اصطفاً وتمايزاً.. فبدأية جاءت نحو 35 آية تقرن الولاء ومشتقاته بالله، وهذا هو الغالب الأعم في القرآن الكريم، إما بذكر وجوبها له أو بنفيها عن غيره.. وفي سورة المائدة جاء الولاء لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين بعد الولاء لله، قال تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) (1) ويعني الولاء لله ورسوله كما سبق في التأمل السابقة أي محبتهما ونصرتهما، وحب من يحبهما وبغض من يبغضهما، فلا ود لمن حاد الله ورسوله. ومن مولاتهم العمل بكتاب الله وسنة رسوله، وهذا محل اتفاق، ولعل الخلط كائن في صنف المؤمنين الواجب توليهم وشروطهم.

أولاً- ليس المحبة والنصرة إلا للمؤمنين الملتزمين بإقامة الطاعات وإحياء شعائر الله من عقيدة، وعبادة، وشريعة، وسلوك، فهؤلاء من يجب توليهم.. فعلام يوالي المؤمن عاصياً مقيماً على معصيته أو فاسقاً مجاهرًا بفسقه؟ والله يقول: (وَكُرِّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) فلا يجتمع في قلب مؤمن حب الله وحب من يحاربه، ولكن عدم حبهم لا يعني بغضهم وحرابهم كما سبق.. بل إذا أمكن تأليفهم للخير فتلك عزيمة رغب فيها الإسلام.. أما من حاد الله ورسوله منهم فحكمه التعامل بالمثل، أي معاداته وبغظه ودفع شره بالمقدور عليه.

كذلك فبم نصرته فرد منحرف السلوك، أو جماعة مخالفة لأصول العقيدة، أو حزب معاد للدين مثلاً لا ينتمي شعورياً إلى منهج عموم المؤمنين؟! فالدين إنما يوجب موالاة من تمسك به وأطاع خالقه، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر.. قال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (2) هذه صفات المؤمنين الذين (يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) فمن أحب الله وجبت محبته، ومن نصر دين الله بالحكمة أو أودى في الله، واستتصر المسلمين وجبت نصرته.. وليس نصرته على باطل بسبب نوع من الانتماء الدنيوي فهذا ليس لله.

(1) [المائدة: 56-55].

(2) [التوبة: 71].

وكيف نعرف من تجب موالاتهم؟ الجواب: تجب محبة ونصرة عموم المسلمين، أما آحادهم فقد سبق قول الله بالحكم على الظاهر لا على السرائر، كما جاء في آيتي المائدة والتوبة السابقتين .. وفي قوله : (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) لم يقل الذين يصلون وحسب، فالصلاة أخص من إقامتها، وإقامتها تشمل إحياءها أيضا في البيت .. وفي المؤسسة إن كان مسؤولا .. وفي الأمة إن كان سلطانا .. ثم قال (وهم راكعون) تخصيص للعام، فقد يقيم المرء الصلاة في غيره لكن هو نفسه لا يصلي، فذكر الخاص بعد العام يجلي ذلك قول الله: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)⁽¹⁾ لم يكتف بقوله وأقيموا الصلاة ولكن خصصها بقوله (واركعوا مع الراكعين) أي أقيموها في غيركم وفي أنفسكم.

ومن صفات المؤمنين الواجب موالاتهم إلى جانب ماسبق، الهجرة والجهاد في سبيل الله مثل نصرته المستضعفين في فلسطين، وبورما، والإيغور في الصين، والهند، وأينما وقع عليهم الظلم، ومن الجهاد، الجهاد باللسان، والجهاد بالمال، والجهاد بالسلح، فإذا كان في عونهم دفعا للأذى وجب ذلك على كل مسلم قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...)⁽²⁾.

يتبين مما سبق أن مَعَدَّ الولاء هو الله ولرسوله، وللمؤمنين المحددة صفاتهم بالأوثق قربا من الله القائل : (إن أولياؤه إلا المتقون).

ولا يُعَدَّ الولاء والبراء بسبب اختلاف مذهبي، أو حزبي، أو تنظيمي، أو عشائري، أو عرقي، فهذا كله تعصب جاهلي، وتوظيف خاص ليس لله فيه قليل ولا كثير .. روى الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : " وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله " حصر وقصر الحب لله، فلا قربة لله بحب أحد إلا في ذات الله. فإذا وجدت المؤمن يؤدي ما افترض الله عليه، حافظا لأحكام كتاب الله وسنة رسوله، عاملا بمقتضاهما متفقا معك في أصول الدين، فقد وجب حبه في الله وموالاته. ولا يضر الاختلاف في فروع الدين التي هي محل اجتهاد العلماء، فتلك سنة إلهية حيث يقول: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين* إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ...)⁽³⁾ وقال: (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات).

(1) [البقرة: 43].

(2) [الأنفال: 72].

(3) [هود: 118-119].

كما أن وقوع المؤمن في معصية بشرية تائب عنها، أو نافس على دنيا منافسة مشروعة وأحب المصلحة لنفسه في غير ما معصية حتى وإن كان يؤمُّ المسلمين في الصلاة لا يلغي محبته في الله بحجة عدم اتفاق صلاحه مع خطأ غير قاذح لأنه بشر يخطئ ويصيب، ولا يبغض في الله ويطبق عليه الولاء والبراء، إلا من تضافرت الأدلة على أن شره بات أكثر من خيره .. وأنه يؤذي الآخرين أو يتاجر بالتدين لمآرب خاصة، ولو أدركها بغير الدين لتترك التدين، ويعرف أنه كلما تعارضت مصلحته مع الشرع ترك الشرع وانحاز لمصلحته، فهذا دجال يظهر خلاف ما يبطن، ولكن الحب في الله هاهنا والبغض في الله لا يعني ترك مناصحة المنحرف من آحاد المسلمين، فإن أقام على شره حورب شره.

وإن حدث نزاع دنيوي بين المؤمنين فلا ينفي عنهم أيضاً مسمى الإيمان ولا يصح البراءة منهم بسبب الدنيا فانه يقول: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ...) فسامهم المؤمنين، فالتدافع على الدنيا لا بد كائن والاختلاف في الاجتهاد سنة ماضية، ولو كل من يخطئ يطبق عليه مبدأ الولاء والبراء ما بقي مستحق لها. هذا كله طبقاً لمنطوق الأدلة، ووقفاً عند محدداتها، واستقراء لشروطها، وفوق كل ذي علم عليم.

ثانياً- لا ولاء للمنافقين الذين والوا اليهود والنصارى بعد أن حذرنا الله منهم كثيراً، وما سبق من بسط مؤامراتهم على الإسلام والمسلمين واستهزائهم بالدين لا يدع مجالاً للشك أن في مولاتهم مخاطر جمة وفيه ردُّ لكتاب الله الذي قال: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُواً ولَعِباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) (1).

فلا ولاء لمن عقد المحبة والنصرة للكافرين، بأن جاراهم في دينهم أو لادينييتهم، وتشرَّب قلبه بحب ما هم عليه، وعادى الله ورسوله والمؤمنين، ولانصرة له على باطل ولقد صار منهم بقوله تعالى: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) وقوله: (ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ..) (2) ومن هم الذين غضب الله عليهم؟ إنهم اليهود .. وهل ثمت موالاة أكثر من التطبيع الجاري مع اليهود الغاصبيين من زعماء مزعومين والسير معهم في طريق الحرب على الإسلام والمسلمين؟ .. هؤلاء (ما هم منكم ولا منهم) هذا كلام الله ولا حاجة أمضى من كلام الله .. وما بقي بعده مسلك لعلماء كالحمير تحمل أسفارا، علماء محفوظات تستظهر متونا تحرفها عن مواضعها حسب هوى الحاكم، وتسوق بها الباطل أرضاء لسلطان الأرض وإن كان فيه سخط لسلطان السماء،

(1) [المائدة:57].

(2) [المجادلة:14].

فكيف يوظف دين علم أتباعه رفض الضيم في تكريس واقع الاحتلال والاستبداد؟ "إن الدين الذي لا يقاوم محتلا، ولا يزعج محتكرا، ولا يقاوم مستبدا، ليس ديننا، إنما هو وثن من الأوثان" (1).

على أن عدم موالاتهم لا يعني أيضا تغيير منكرهم بما هو أنكر منه، مثل الدعوة إلى فتنة عنفية، وبما من شأنه زيادة الأمة تقنيا فهذا مسلك آخر لا علاقة له بالتبرؤ منهم، وللمسلم في قول كلمة الحق متسع، وحال وسط بين صمت العبيد وإشعال نار الخراب.



(1) مقولة تنسب للشاعر الفيلسوف محمد إقبال.

تفخيخ النصوص الباطنية بمنطق الدمار الشامل

من لا فت الأنظار أن تجد الكثير من الديانات قد اتفقت على تقديم نفسها ورسالتها كدين داع للمحبة والسلام، بصرف النظر عن انعكاس ذلك على الواقع وعدمه، فنجد (بوذا سدهتار) يتحدث عن (الحب العالمي) .. ونجد في الهندوكية أن من طُرِق الوصول للهدف الروحي (الحب) .. ومما اشتهر عن الدين المسيحي مقولة: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر) و (المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة) .. والإسلام تحيته السلام .. والله هو السلام .. وتنتهي الصلاة فيه بالسلام.

عدا ديانتين وُجد أنهما لا تقدمان نفسيهما إلا كمشروعى ثأر وانتقام ومصدر كراهية، هما:

أولاً- التراث اليهودي، الذي يذهب الفكر الاستعلائي فيه إلى عمق فلسفة العلاقة الإنسانية بين اليهودي (ابن الله)! - بزعمهم - وبين غيره من البشر .. ففي أدبياتهم كالتلمود تمجيد لفكر تدمير القرى كاملة .. وحرق المزارع .. وذبح المواشي .. واستئصال النسل .. وحتى كل ذي نفس .. ليرضى الرب وإنما خلق الله البشر في محبتهم .. وأن كل شيء لهم مباح (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل)⁽¹⁾.

وثانياً - التراث الباطني الذي تتلخص رسالته الإنسانية حول فكرة مسيطرة وهي فكرة الثأر والاستئصال لعدو أسطوري مقابل سلالة أسطورية مقدسة هي (آل البيت)، هذا العدو تم صناعته من طرفهم دون علم الطرف الضحية وهم (أهل السنة) كون أهل السنة يحبون أهل البيت، نساء النبي وعليا، وفاطمة الزهراء، والحسنين رضوان الله عليهم وكافة أبناء علي وبعضهم يغفلون فيهم كالشيعة .. ولكن ربما الحاجة إلى الثأر السياسي والانتقام الشعبي لامبراطورية فارس قد ألجأهم إلى هذا الاضطراب الذي ينافي الواقع، وينافي العقل أيضا .. ثم جعلت النصوص الباطنية هذا الثأر دينا يؤدون بموجبة طقوس الكراهية وترديد الوعد والوعيد صباح مساء .. فأطلقوا على بقية المسلمين النواصب .. وتترجم إلى مناصبة أهل البيت العداة؟!.. وذهبت تأسس النصوص الدينية الباطنية لقصة مفصلة تالدة ومعرفة ثأر خالدة بين طرفين: أحدهما: حاز على الفضل كله وهم الشيعة فهم الخاصة وهم مذهب أهل الحق ؛ كونهم يحاربون في صف أهل البيت بقيادة الحسين بن علي الذي يحبونه "ويحشر المرء مع من أحب" .. وآخر حاز على السوء كله وهم العامة أي أهل السنة كونهم يحاربون في صف

(1) [آل عمران - 75].

يزيد بن معاوية ضد الحسين؟ وبالتالي من هو شيعي فهو في صف الحسين وسيحشر معه .. ومن هو سني فهو في صف يزيد وسيحشر معه ؟؟ .. رغم أن زمن المعركة تفصل بين الفريقين المتحاربين نحو 1378 عاما .. لكنهم يغذون فكرة استمرارها بالشحن المتواصل، ويكثر من الاستمتاع بتريدهم هذا التصنيف الصناعي الرغبي الذي يطرب عوام الشيعة فيجرون المقارنة بين الخاصة والعامة .. ومذهب أهل الحق ومذهب أهل الباطل .. بين أنصار الحسين وأنصار يزيد .. وهذا يشعرهم دوما بمزية الوقوف إلى صف الطرف الأفضل في مقابل الطرف الأسوأ، فهم على الدوام يعيشون نشوة هذا التصنيف الخرافي العجيب وسلوة الحشر مع أهل البيت .. مع أنه ببساطة تقسيم زخرفي ذهني لا واقع له من وقائع التاريخ فعلي والحسين رضوان الله عليهما قتلتهما الشيعة وعلي والحسين لن يحشر معهما إلا من كان على هديهما من التوحيد ومحاربة الوثنية وهدمها فالمرء مع من أحب وأجلى مظاهر الحب والإتباع، إن المحب لمن يحب مطيع، فأهل الحق هم الباقون على ما كان عليه علي وأبناؤه، وأهل الباطل هم من انحرفوا عن سيرته وسيرة نبيه صلى الله عليه وسلم .. لكن ومع ذلك ما أكثر ما تسمع أغنية شيعة أهل البيت .. مدرسة أهل البيت .. محبي أهل البيت .. في مقابل ترديد موال النواصب .. أنصار يزيد .. أعداء الحسين .. أبناء معاوية .. سلالة بني أمية .. أبناء آكلة الأكباد .. ووو إلخ .. وعلى كثرة ترديد هذه الطرائف، فإن عامة أهل السنة لا يكادون يعلمون شيئا عن هذه القصة .. أي قصة العدو من طرف واحد، والوقوف إلى جانب يزيد ضد الحسين .. ولا أنهم مهددون بالذبح انتقاما للحسين - رضي الله عنه - .. وأنهم وذراريهم على موعد بمأساة درامية وهي ذبح تسعة أعشارهم كما تقول قصة المهدي المنتظر الذي اختفى منذ 255هـ وينتظرون فقط خروجه من (كهف الستر) سرداب سامراء لممارسة طقوس هذا الثأر المنتظر .. وتصور الأسطورة التراثية الاثناعشرية هذا الرجل الثأري بإنسان غريب شكلا وفكرا وممارسة .. حيث يظهر عريانا تحت قرص الشمس وينادي الله باسمه العبراني .. (اللغة اليهودية) ويتبعه من قوم موسى أي من يهود .. فيقتل تسعة أعشار الناس .. وينفذ في العرب وذراريهم الذبح .. ويأتي الحرم فيهدمه .. ويغير الإسلام بشريعة داود (أي باليهودية) ويغير الكتاب بكتاب آخر غير القرآن.

يقول المجلسي أحد رواتهم: "إن من علامات ظهور المهدي أنه سيظهر عاريا أمام قرص الشمس"⁽¹⁾ وقال النعماني أحد أبرز علمائهم في عبرانية المهدي: "إذا أذن الإمام دعا الله باسمه العبراني"⁽²⁾. ويتبعه من قوم موسى أي اليهود .. روى الشيخ المفيد قال: "يخرج مع القائم عليه السلام

(1) (حق اليقين، لمحمد الباقر المجلسي، ص347). عن الإمام الرضى عليه السلام.

(2) كتاب (الغيبة) للنعماني.

من ظهر الكوفة سبعة وعشرون رجلاً من قوم موسى .. (1) أي يهود .. ويحكم باليهودية وبلغى الإسلام .. ويبدل الكتاب بكتاب جديد، قال الكليني: " إذا قام قائم آل محمد - عليه السلام - حكم بحكم داود وسليمان" (2). وعن أبان قال: سمعت أبا عبد الله - عليه السلام - يقول: " لا تذهب الدنيا حتى يخرج رجل مني يحكم بحكومة آل داود" .. وفي كتاب الغيبة للنعمانى "فوالله لكأنى أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس بأمر جديد شديد، وكتاب جديد، وسلطان جديد من السماء" (3).

إذن المسألة هي طمس دين الإسلام واستبداله بالديانة اليهودية مما يشير إلى أن أصل التشيع منحول من اليهودية، وأنه امتداد للفكر السبئي الذي أسسه عبد بن سبأ اليهودي الصنعاني، أو دعنا نقول يتنوع مصدر الدين اللطيف هذا من أكثر من جهة كما قال بعض مراجعهم المعاصرين مثل آية الله كمال الحيدري وآية الله حسن الموسوي وحسين المؤيد الذي هجر التشيع وعاد لدين الله أن الدين الشيعي مجمع من اليهودية والنصرانية والمجوسية .. وبدهي أن يمتلئ دين هذا أصله بلغة الاستئصال للمسلمين ففي كتاب بحار الأنوار: " إن الله بعث محمداً رحمة، وبعث القائم نقمة" (4) القائم يعني المهدي (المنتظر) .. وروى المجلسي عن أبي عبدالله أنه قال: " إذا خرج القائم لم يكن بينه وبين العرب وقريش إلا السيف" (5) وفي رواية: " ما بيننا وبين العرب إلا الذبح". وفيه " إذا خرج القائم قتل ذراري قتلة الحسين بفعل آبائها" !!! وفي أشهر كتبهم: " لو يعلم الناس ما يصنع القائم إذا خرج لأحب أكثرهم ألا يروه، مما يقتل من الناس" (6). ويقول المفيد: " إذا قام المهدي هدم المسجد الحرام ... وقطع أيدي بني شيبية وعلقها بالكعبة وكتب عليها هؤلاء سرقة الكعبة" (7) .. وفي كتاب الغيبة: " لا يكون هذا الأمر حتى يذهب تسعة أعشار الناس" (8). وفي رواية حتى يفنى ثلثا الناس .. وفي كتاب بحار الأنوار: " ما لمن خالفنا في دولتنا نصيب، إن الله قد أحل لنا دماءهم عند قيام قائمنا" (9).

وكما رأينا فهذه النصوص تم تفخيخها بمنطق الفناء .. وهي تمثل فكراً فاشياً وإرهاباً دينياً .. وتحريضاً مع سبق إصرار على تنفيذ تطهير إثني وديني لأمة بأكملها من قبل الفرس وتصفية

(1) الإرشاد للمفيد الطوسي عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله (ص 402).

(2) الكليني في كتاب الحجة من الأصول في الكافي الجزء الأول ص (397/398).

(3) عن أبي جعفر الغيبة للنعمانى ص 107 (البحار 354/52).

(4) (بحار الأنوار 315/ 52) عن أبي جعفر.

(5) (بحار الأنوار 355/52).

(6) (بحار الأنوار 354 /52).

(7) (الإرشاد للمفيد ص 411 وأنظر الغيبة للطوسي ص 282).

(8) (الغيبة للنعمانى ص 146).

(9) (البحار 376/52).

حساباتهم مع الفاتحين بأثر رجعي، وهذا ما لمسناه من طريقة حرب الشيعة للسنة في العراق وسوريا الذي اتسم بالعنف وقتل قرابة المليون نسمة بلارحمة، وفيه مخالفة صريحة لقواعد الدين الإسلامي الذي يأبى تحميل طرف بريء جريمة طرف آخر خطأً إن كان في دخول الفرس الإسلام على أيدي الفاتحين وإطفاء نارهم خطأً .. كما أن هذا الفكر الشاذ المشحون بنصوص الثأر والكراهية، يجب أن يجرم دولياً لا سيما أنه معزز بخطاب الواقع التحريضي وبمراسيم ومهرجانات كراهية منحطة وغير مسبوقة في تاريخ البشرية، حيث تبث نحو 200 قناة ليل نهار لتوصل للغة الدم والثأر .. وفي هذه اللوثة غير الطبيعية تهديد مباشر لمنظومة الأخلاق وقيم العدالة الإنسانية، ومعاني الرحمة والتسامح، ولم يؤسس على ثقافة الاستباح وقتل الأطفال وبقر الحوامل كما تقول قصائدهم في الحسينيات .. ثم ما عسى أن يبقى لهذا المهدي طليعة الشر والفناء من فضل إذا أصبح في النصوص أشراً من الأعداء الدجال، إن لم يكن هو نفسه الأعداء الدجال فربما اختلط عليهم الأمر بين صفات المهدي الرجل العادل الذي هو موجود أيضاً في تراث أهل السنة، وبين صفات المسيح الدجال، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر. من مات منهم فلا تشهدوا جنازتهم ومن مرض فلا تعودوهم وهم شيعة الدجال وحق على الله أن يلحقهم بالدجال"⁽¹⁾ والدجال يظهر من أصفهان وأصفهان بإيران.

ثم تأمل جيداً في مغزى تغيير الدين وهدم الكعبة عن طريق أناس يهود موسويين فمن وراء هذه النصوص إن لم تكن الأصابع اليهودية؟ لاسيما أن مسألة ولادة محمد بن الحسن العسكرية (المهدي المنتظر) هي أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة، فلا يوجد للعسكري ابن، ولم يعرفه أحد سوى أربعة سموهم الوكلاء، حيث ظهر من بطن أمه واختفى فجأة، وهذا يدل على أنه شخصية وهمية صنعت لتنفيذ أهداف سياسية شعوبية ثأرية .. وكيف يكون التقريب مع مذهب يتحين فرصة إلغاء الآخر من الوجود وإلغاء الشرائع المحمدية بشريعة اليهود؟! .. عذراً لا متسع للمجاملة هذا كلامهم وهذه كتبهم فأمتنا مثخنة بالدماء من أساطير سطرت وتدفع المنطقة الآن ضربية السكوت والمجاملات والخوف .. هاهنا يكون تنقيح التراث في اللغات العدائية من أوجب الواجبات .. كما نرفض لغة التكفيريين لقتل الشيعة لكونهم شيعة فهذا إجرام ولغة غاب كلها لا تمت للإسلام بصلة.



قصة (نريد بن السمين اليهودي) في القرآن الكريم (1-2) ﷻ

كان (طعمة بن أبيرق) منافقا من حي بني ظفر من أهل المدينة، معلوم النفاق وكان إلى ذلك سارقا سرق من دار (قتادة بن النعمان) الأنصاري درعا وكانت الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق يتسرب من خرق في الجراب حتى انتهى طعمة إلى داره، فلما تبين أن الدقيق قد دل عليه خبأ الجراب عند رجل يهودي يقال له: (زيد بن السمين) فالتمس أهل الدرع درعهم عند طعمه بعد أن مضوا على أثر الدقيق في الطريق، فحلف بعدم علمه بذلك، فاستمروا في تتبع الدقيق حتى وصلوا إلى بيت اليهودي، فقال دفعها إلي طعمة بن أبيرق، فخاف بنو ظفر الفضيحة من فعل صاحبهم، فجاءوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يجادل عن صاحبهم، أي يدفع عنه لما اتضح من وجوده عند اليهودي فهم رسول الله أن يعمل بالقرينة الظاهرة ويقطع يد اليهودي كما في رواية بن عباس .. فرسول الله صلوات الله عليه لا يعلم الغيب وإنما يحكم بالظاهر .. فمن ذا الذي سينقذ هذا اليهودي المسكين من إقامة الحد عليه؟ الجواب : لم يكن غير (الله) تعالى، صاحب العدل المطلق، فنزلت في حقه تسع آيات تبرئه وفي واحدة من أعظم قصص العدالة في التاريخ.

وقبل أن نستعرض الآيات العجيبة المليئة بالعتاب للنبي والتهديد والوعيد للجاني وقومه، لايفوتنا التذكير بأنه كان ليهود المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حروب واختلاف فكري وعقائدي كبير، كما هو معروف، وكان لهم بالجملة مواقف خيانات، ونقض عهود، ومظاهرة لكفار قريش على المسلمين من أجل القضاء على الإسلام، وربما قال أحدنا إن كل يهودي متهم حتى تثبت براءته، ولئن تحمل عقوبة فهو بها جدير، أو ربما قيل لقد كان في نزول جبريل عليه السلام كما كان ينزل في وقائع كثيرة الكفاية لتنبية النبي في شأن يهودي لم تقم عليه العقوبة بعد .. أما أن ينزل قرآن في شأن مخالف وفيها عتاب لأكرم الخلق على الله، وفي أعظم كتاب يتلى إلى يوم القيامة فإن لذلك لبعده ورمزيته ودلالته الخاصة.

إن المولى تعالى ليقرر بذلك قاعدة تفرق بين الاختلاف الفكري أو السياسي .. الخ وبين تطبيق مبدأ المساواة في العدل على الجميع، فأن يكره هذا أو ذلك نظام الحكم أو يحبه فذلك شأنه، ويجب أن لا يحول ذلك دون أخذ حقوقه كاملة غير منقوصة، فهو مواطن تشمله العدالة، وهو في ظل حكم دولة عادلة لا في حكم غاب يحكم بغير قواعد .. ثم لو كان الوضع متعلقا بغير هذا اليهودي المستضعف ربما كانت حظوظه في الدفاع عنه من الضغط بتكثيره سواده ولحن الحجة والتضليل أكثر من حظوظ

فرد وسط أكثرية، لذلك نزلت هذه الآيات لتؤكد أنه لافرق بين قوي وضعيف ولا بين قريب وبعيد في ميزان الإسلام .. فمثلما أنزل الله آيات تبريء أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها زوج رسول الله كذلك نزلت آيات تبريء يهوديا وقع عليه الظلم والاستضعاف، فلربما قيل إنما نزلت الآيات في حق بيت النبي لأنه الحاكم .. لكن هاهي تنزل في حق يهودي محكوم مستضعف.

إنه دين الإسلام .. ومنهج القرآن .. وسيرة خير الأنام .. وصحبه الكرام . إنها الرحمة التي أرسل بها النبي الكريم إلى العالمين بما فيهم العدو نفسه قال تعالى: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا عَدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (1).

وقال: (.. وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ ءُوفُوا ذَلِكُمْ وَصَىٰكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ) (2).



¹- [المائدة:8]

²- [الأنعام:152]

قصة (نريد بن السمين اليهودي) في القرآن الكريم (2-2)

في التأمل السابقة ذكرنا فحوى قصة اليهودي (زيد بن السمين) الذي كاد به المنافق (طعمة بن أبيرق) وقومه بنو ظفر، وطلبهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجادل عنهم أي يبرئ طعمة عملاً بقرائن الإثبات وهي وجود الدرع في بيت اليهودي .. ودونك الآيات فليس بعد بلاغة كلام الله بلاغة .. ولا بعد عظمة بيان الله عظمة .. نتلقى جلال العتاب من فوق السبع السماوات بخضوع قلب .. وسكون جوارح .. وإطراق فكر .. يقول المولى: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولما تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً * ولما تجدل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوأناً أثيماً * يستخفون من الناس ولما يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً * هأنتم هؤلاء جدلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن جدل الله عنهم يوم القيمة أم من يكون عليهم وكيلاً) (1) إلى أن يقول: (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً) (2) وإلى آية (113).

عندما عرف بنو أبيرق (حي بني ظفر) وهم قوم طعمة بفعلة صاحبهم بادروا إلى الرسول يقولون اعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك .. ولما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدرع وجدت في بيت اليهودي، قام فبرأ ابن أبيرق وعذره إلى رؤوس الناس، وهم بإيقاع العقوبة على اليهودي، فأنزل الله هذه الآيات المليئة بقيم عدالة سماوية فوق الوصف، وإنه ليجلي من عظمتها أكثر تلك المسافة التي تفصل بين الطرف المستهدف بالعتاب والتوجيه وهو خير خلق الله من جهة، والطرف المستهدف بالإنصاف وهو يهودي ذمي يعيش مواطننا تحت حكم النبي صلى الله عليه وسلم من جهة ثانية، فرغم البون الشاسع بين الطرفين إلا أن الآيات قد جاءت في أعلى درجات الصرامة في إنصاف هذا الذمي، وتحذير النبي من أن يكون للخائنين خصيماً، أو يجادل عن الذين يختانون أنفسهم، فيحيد بعدم التحري عن إقامة الحق المنزل وإنصاف المظلومين .. وإنما يكون العتاب شديداً أن يكون من الخليل لخليله، فيحمل على الخطأ البريء عتاب الخطأ العمد، حرصاً عليه من أدنى زلل يقع فيه، نظيره أخذ موسى برأس أخيه هارون عليهما السلام يجره إليه حين عكف بنو إسرائيل على عبادة العجل، في حين ترك السامري مصدر الشر والفتنة دون أن يفعل به شيئاً، لأنه أوكله إلى نفسه الأمانة بالسوء، ولأنه ليس بعد الكفر ذنب، إذ لو عاقبه لكانت له كفارة (وبالتالي لا معنى لصرف العتاب عن النبي إلى غيره كما حاول بعض المفسرين).

1- [سورة النساء: 109-105]

2- [سورة النساء: 112]

وتمّ بعد آخر عدلي مهم من العتاب، وهو أنه لا يوجد أمام العدالة كبير ولا صغير، فإذا كان الله جل وعز قد عاتب نبيه في يهودي فمن ذا الذي يستتكف أن يسمع كلمة الحق من رئيس أو سلطان أو زعيم، ومن ذا الذي يترفع بعد رسول الله عن سماع النصيحة؟ فذلك من ليس له في شرع الله وهديه حظ ولا نصيب، وإنما يمتحن صدق الحاكم من كذبه بمدى خضوعه وتذللته لميزان العدالة على نفسه كما يحرص أن يقام على غيره، أما إذا كان ظالماً فهو في خانة المرشحين للهلاك (فَقَطِّعْ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)⁽¹⁾.

وبالمحصلة: فإننا كمسلمين حين نقول إن دين الإسلام دين الرحمة والعدالة فإن مستمسكاتنا من الشواهد يشمل النظري والتطبيقي العملي، وإن سلاحنا حين المجادلة عن ديننا يكون باستدعاء هذه الحجج الظاهرة والمواقف الباهرة فلا يبقى غير أبناء ملتنا يتشامخون علينا بالعدالة المجترأة.. كما إن هذه الأدلة حجة على حكام الظلم والجور الذين شمل ظلمهم كل شيء فعليهم أن يعيدوا قراءة كتاب ربهم ويقتدوا بسيرة نبيهم حتى لا يكونوا فتنّة للذين ظلموا فيضاعف عليهم عذاب ربهم يوم القيامة.



¹-[سورة الأنعام 45]

خامسا - مرؤى فى العلاقة مع الآخر

الجيل الرابع من الحروب وسياسة أمريكا المفجعة

من المهم إدراك خصوصية سياسية أمريكا المفجعة، فهذه الديمقراطية المبهرة في الداخل تقوم بنية تفكيرها المصلحي على مبدأ (الإحلال) .. أي إحلال وجودها محل نفي وجود الآخر، فقد نشأت على أنقاض شعب .. وانتصرت على أنقاض مدن .. وخططت لمصالح على أنقاض دول.

أما الشعب فشعب الهنود الحمر كما هو معروف الذي قتل منه نحو 120 مليون نسمة وهناك تقديرات بمئات الملايين وفي غضون 150 عاما، وأما المدن فهيروشيما وناجازاكي، وأما الدول فتلك التي خططت أمريكا وتخطط لإنهاء مركزية الحكم فيها، وإنهاكها للوصول إلى مرحلة الدولة الفاشلة ومن ثم التحكم فيها، وذلك عن طريق ما أسمته بالجيل الرابع من الحروب أو "الحرب اللا متماثلة"، وهو المصطلح الذي استخدم لأول مرة في عام 1989 م من قبل فريق من المحللين الأمريكيين، من بينهم المحلل الأمريكي (ويليام ستركس ليند) لوصف الحروب التي تعتمد على مبدأ اللا مركزية .. حيث لا يلتقي فيها جيشان وجها لوجه، كما هو الحال بالنسبة للجيل الأول حرب السيف، والجيل الثاني حرب الأسلحة النارية، والجيل الثالث الذي اختلف عن سابقه في اعتماده أكثر على سلاح الذراع الطويل كالحرب ضد العراق .. بل الجيل الرابع من الحروب هو أن يحارب العدو نفسه بنفسه ويمرر بأدواته المحلية الإرادات المتعلقة بمصالح (أمريكا وإسرائيل) المتشابهتين في ظروف النشأة، والأهداف، والأساليب .. وقد نشرت مجلة السياسة الدولية في أغسطس 2017 وجريدة إيلاف الالكترونية في مايو/2016 وغيرها من المصادر تحليلات حول هذه الحرب ذات الوسائل القذرة وما ترمي إليه من أهداف وما تخلفه من آثار ظهر منها ما نعيشه اليوم والتي يمكن إجمال أهدافها ووسائلها على النحو التالي:

أ- أهداف الجيل الرابع من الحروب:

- تصفير الكلفة العسكرية المادية والبشرية لأمريكا وإن أنفقت شيئا في سبيل ذلك، فسيعود عليها في شكل بيع أسلحة ووضع يدها على مقدرات تلك الدول بعد ذلك بصورة أو بأخرى.

- إنهاء مظاهر قوة الدول وسيادتها التي تصدر قراراتها من واقع مصلحتها فتصبح قراراتها رهنا بمصالح الخارج وليس مصلحة شعبها على رأسهم أمريكا وإسرائيل.

- إيجاد دول هزيلة وبمثابة أسواق استهلاكية تحتاج لحماية الدول الكبرى، فتكون دول ذيلية تابعة لاتملك قرار نفسها تنفذ أوامر أمريكا في توجهاتها، وفي قمع من يعارض وصايتها أو يعارض العدو الصهيوني بحجج واهية.

- تجنب آثار الحروب التقليدية التي تخلف عداء للدولة المحاربة وتجنب معارضة مواطنيها في الداخل .. فأمرىكا لا تظهر وهي تدير المعركة من الخلف سوى فاعل خير تتحدث كثيرا عن الضحايا وحقوق المضطهدين فتتدخل وبعض الدول الحليفة لها لفض النزاعات وإنما هي تغذيها وتمدها بعوامل البقاء.

ب- وسائل هذه الحرب:

- إنشاء مراكز بحوث فكرية بتمويل أمريكي للبحث عن الأورام الاجتماعية كالتباينات، العرقية، والطائفية والحقوقية، لنفخها وتضخيمها وتداولها عبر الإعلام الدولي وتلميع رموزها ومنحهم الصفة الحمائية الدولية كناشطين حقوقيين ودعاة تحرر.

- تدويل هذه الملفات الحقوقية، وملفات الأقليات، وجعلها ملفات ضغط سياسي، يقود إلى حصار اقتصادي وتكنولوجي، بحيث تقوى الجماعات المعارضة وتحصل على المعونات والتسهيلات بمختلفها، في حين تتعرض الدولة إلى الإنهاك والتآكل البطيء فكل يوم تضعف الدولة وتزداد المعارضة قوة.

- إطلاق حروب غير مرئية عن طريق إشاعة الفوضى والقلق وضرب المنشآت والمؤسسات وتشكيل الحركات المقنعة العنيفة، والتشكيلات السرية، ذات المطالب الغامضة، والتمويل الخفي والمشبوّه.

- إقحام الجيش في مواجهة مع العصابات المشكلة والنزوات الخارجة وإنهاكه في حروب طويلة ومختلفة.

- استخدام مجلس الأمن للتلويح بالبند السابع في وجه النظام العنيد، واستخدام الجمعية العامة لفرض حلول ووقائع جديدة على الأرض، كطريقة لحل النزاعات، وتكون هي التي خطت لها الدوائر الاستعمارية القديمة الجديدة.

- تدمير الجيش الوطني أو تراجع دوره لصالح الميليشيات المشكلة، كما نجد ذلك في لبنان، واليمن، والعراق، وليبيا التي باتت ذات متاريس جهوية وطائفية وصار عندها العدو الأول محليا لم يعد أشد منه عدوا قتلاه في النار وقتلاها شهداء في الجنة، وبهذا يستمر تمزيق النسيج الاجتماعي بتعميق حالة الشعور بالقهر والتربص بين الأعداء في الوطن الواحد.

وقد تركت هذه الإستراتيجية نجاحاتها كما يقول الخبراء في تفكيك الاتحاد السوفيتي، ويوغسلافيا.

وفي بلاد المسلمين أفلحت في إيجاد حروب سياسية كالصومال وليبيا. وطائفية كالعراق، واليمن، وسوريا .. وحروب جهوية كشمال السودان مع جنوبه واليمن شماله مع جنوبه .. كما أفلحت في وجود حروب أثنية كأفغانستان بين العرقيات المختلفة.

ج- تجنب الوقوع في شرك هذه الإستراتيجية الجهنمية:

يقرر الخبراء والمحللون أن لا أمريكا ولا غيرها هي قدر الشعوب، ولا يمكن لدولة أن تحدد مصائر الأمم، ولكن لأن هذا النوع من الحروب يستمد أساس وجوده من ظروف الداخل فإن تجنب وقوع الدول في شركها يكمن أولا وقبل كل شيء في (تحقيق العدل والمساواة) .. وإنما تتخلق بؤر المعارضات في بيئات حكم رخوة غير ذات مناعة في العدل .. وإنما تتور الثورات عندما تجد في جدار بنية العدالة السياسية قشرة رقيقة تسمح باندلاعها .. وحيثما وجدت دولة عادلة وجدت الاستقرار، وحيثما وجدت دولة تمارس الظلم والاستبداد وجدت عوامل الانهيار متوفرة وسريعا تقتحمها فيروسات الدوائر الاستعمارية وتقضي عليها، ولنا فيما يحدث بسبب جراحات ديكتاتوريات العالم العربي خير شاهد.



أنسنة الغرب قبل فوات الأوان

منذ عهد النهضة والإنسان الغربي محتك بالآلة .. مشغول بسباق المادة .. يتفنن في ابتكار سبل الرفاه الغريزي .. وكان ذلك على حساب تآكل القيم الإنسانية لديه، فالشرف، والكرم، والمرجعية، الأسرية .. الخ على مستوى الفرد .. وقوانين العلاقات الدولية على مستوى الحكومات باتت التزامات أخلاقية معيقة أمام صيحة (الحياة فرصة لا تتكرر) (اشبعوا الذات بالملذات).

فهذه حضارة المادة بدأت بها وستنتهي بها، ومن بوابة الغنى والثروة وتحقيق الرفاهية والمتعة انطلقت الحكومات الغربية في التعامل مع الشعوب الأخرى بتوحش وانعدام ضوابط القيم التي حكمت الإنسانية عبر قرونها، فصنعت كل الأساليب القذرة لانتزاع ما في أيدي الغير وكان شعارهم (لا أخلاق مع مصلحة) واحتلوا العالم كله عسكريا ولا يزالون يحتلونه بالوصاية .. فتخمة الغربي من فقر الأفريقي .. واستقرار معيشتهم من اضطراب حياة الآسيوي .. وتقدمه الصناعي من استنزاف سواه.

فلم يكن الإنسان الغربي متميزا بذكائه بقدر ما كان بلصوصيته، التي بها صنع الحضارة الحديثة والرفاه الغربي المتقدم في كل شيء، بنوا أنفسهم ولكن على حساب غيرهم، فلقد سرقوا تلالا من الذهب من العالم الجديد (أمريكا) بعد وصول الملاح الإيطالي كريستوفر كولومبوس عام 1492م ومن أفريقيا بعد عبور فاسكو دي جاما الملاح البرتغالي رأس الرجاء الصالح في نفس القرن، فأصبحت القارتان هما عنوان الثروة وكنوز الذهب، لقد وجد غزاة العالم الجديد الهنود الحمر يبلسون الذهب رجالا ونساء⁽¹⁾، وبينون الأهرامات من الذهب⁽²⁾ فبدأت شهية نهب الثروات فقد "كان على كل هندي تجاوز عمره الـ14 عاماً جمع كمية معينة من الذهب للإسبان كل 3 أشهر، وإن لم يفعل كان عليه مواجهة العذاب الذي يصل إلى بتر الأطراف"⁽³⁾ وقد يأسرون زعيما فلا يطلق إلا بملء حوض من الذهب. ووجدوا في الجبال السوداء (بلاك هيز) 1868م مناجم لا تحصى فهجروا سكانها رغم اتفاقيات عدم اعتداء على السكان الأصليين بعد حروب كثيرة، وفي 24 يناير 1848 بدأت حمى الذهب في كاليفورنيا مع اكتشاف جيمس مارشال الذهب في بعض مجاري الأنهار في الولاية⁽⁴⁾ فأغنوا وأثروا وظهرت الشركات كما ظهرت الأكاديميات التي تدرس وتتفقد المزيد من الاستكشافات للمزيد من ثروات العالم، واتسع الطمع في احتلال العالم حيث "بدأ الاستعمار بالمعنى الحديث أو

(1) ذكر ذلك المفكر اللبناني جورج صليبيا في مقابلة معه عبر قناة ثمانية في اليوتيوب 2023/3/8

(2) موق إسلاميون.

(3) موقع <https://m.youm7.com>

(4) ينظر موسوعة الويكيبيديا.

الإمبريالية في القرن الـ15 تزامناً مع «عصر الاستكشاف» بقيادة البرتغاليين، ثم بالاستكشاف الإسباني للأمريكتين وسواحل إفريقيا والشرق الأوسط والهند وشرق آسيا⁽¹⁾.

ويكفي أن تعلم أن دولة واحدة هي الهند جرفت بريطانيا منها في زمن احتلالها ما يصل إلى 45 ترليون دولار⁽²⁾، وأن بريطانيا احتلت خلال تريخها الطويل نحو 200 دولة فكيف لاتصبح بريطانيا العظمى عظمى.

ويكفي أن تعلم أن دولة صغيرة كهولندا احتلت دولة بحجم إندونيسيا طبعاً بفارق أسلحة النار وماذا ستجده في تلك الجزر سوى المال والثروة وكيف لا تصبح دولة صغيرة عدد سكانها اليوم نحو (18.000.000) ثمانية عشر مليوناً غنية وثرية وبقية دول الغرب المستعمرة؟.

ويكفي أن تعلم أن فرنسا التي احتلت في العصر الحديث ما يصل إلى 32 دولة، باتت رابع دولة تمتلك رصيذاً من الذهب، وذلك بنحو 2436 طن من الذهب وليس فيها منجم واحد وإنما جلبته بورق اسمها فرانك تطبعها بعدد حبات الرمل للشعوب الضحية.

ويكفي أن تعلم أن دولة هي أمريكا تعطيك ما قيمته سنتاً واحداً وهي عشر أوراق مطبوعة سموها 1000 ألف دولار لتأخذ بها 10 براميل نפט تعيد صناعة مشتقاتها لتعود تبيعها للعالم المستهلك بأضعاف مضاعفة.

ثم وعلى العالم الفقير أن يتحمل نواتج صناعاتهم ورفاهيتهم من إشعاعات نووية.. وغازات سامة تلوث البيئة.. وأسلحة بيولوجية.. وأمراض الشذوذ الأخلاقي.. فصارت بقية الأمم تواجه مخاطر الحضارة الغربية من توسع ثقب الأوزون إلى ارتفاع درجة الحرارة إلى الفيضانات المدمرة.. إلى الجفاف المتلف.. إلى مخاطر مسخ منظومة القيم الإنسانية وتسفلها.

ومن مظاهر التوحش أن جعلوا بأيديهم المؤسسات الحاكمة للعالم وسموها دولية وليست سوى مؤسسات (استعمارية) غربية بيدها ملفات الشعوب المستضعفة تتحكم فيها كما تشاء.. يحكمون الآخرين ليس بالتفويض بل بلغة الدمار الشامل، ولسان حالهم يقول نحن نملك مصير الكرة الأرضية إذا فلنقر لنا الكرة الأرضية بالولاء والطاعة.

وأخيراً أطلقوا لهذا التغول مصطلحات تبريرية فقالوا الغاية تبرر الوسيلة.. ولا أخلاق مع مصلحة.. والقانون لا يحمي المغفلين.. حتى لا يلام الجلاذ بقدر ما يلام الضحية.

(1) الويكيبيديا.

(2) موقع الجزيرة نت.

وماذا كانت النتيجة؟ الواقع أن الإنسان الغربي رغم ثرائه لم يربح على المستوى الشخصي الكثير، ورغم شيوع الفردانية الامبرالية وإطلاق شعارات من نحو افعل ما تشاء وقل ما تحب .. إلا أن الوضع انتهى بالإنسان هناك إلى حالة من الاكتئاب والإحباط بعد أن استنفدوا رصيد المتعة بالحلال والحرام، وباتت الحياة محكومة بقانون الملل.

ملوا زواج البعيد فرغبوا في القريب.

ملوا الزواج الخاص فرغبوا في التبادل والمشاعية.

ملوا زواج الرجال بالنساء فقالوا بالشذوذ.

ملوا الشذوذ (المثلية) فبحثوا عن المتعة في الحيوان.

ملوا الحيوان فذهبوا يلتمسونها في الروبوتات.

ملوا النوع البشري فظهرت ظاهرة التحول من ذكر إلى أنثى ومن أنثى إلى ذكر عن طريق

التدخل في تغيير خلق الله فيصير الواحد لا هو رجل ولا هو امرأة.

ملوا حياة الإنسان فذهبوا يدرسون التحول إلى كلاب وهناك معاهد تخرج الكلاب البشرية وقد

بلغ عددهم في أوروبا إلى نحو 70000 سبعين ألف كلب آدمي لمن يشتري كلبا آدميا للمنزل.

ثم ملوا الحياة كلها فبحثوا عنها في الموت وتخليص الجسد من البقاء وابتدعوا وسائل الانتحار

وأضافته بعض القوانين هناك ضمن حقوق الشخص في الاختيار .. ومتى ما وصلنا إلى فرض ثقافة

الموت الغربي فسيكون الموت الجماعي أعلى درجات الحرية التي يهديها الغرب للعالم.

لذا يتوجب على الشعوب التي استنفدت ثرواتها المادية وبقي لها رصيد أخلاق أن تساعد في

إعادة أنسنة الغرب حتى لا يكون دمار البشرية على أيديهم .. وليس التعامل الإداري عندهم والتقليد

الديمقراطي الذي يزايد التغريبيون على الشعوب الفقيرة به بالذي يحول دون رؤية جانب الغرب المظلم

فذلك ثقب ضيق يدخل إلى رعاياهم منه النور، ولايهم العالم الآخر من قريب أو بعيد .. ما يهم بقية

الشعوب هو العائد إليها من شرور هذه الحضارة وتعاضم خطرهما عليهم.



النصارى ومدرسة الكبر اليهودي

قال الله في النصارى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ...) ووصفهم بأنهم ضالون، وليس بعد الضلال والكفر ذنب، لكن ذلك لم يمنع جمال العدل الإلهي أن يسجل لهم صفة من كمال الخلق الإنساني يحبها الله وهي أنهم لا يستكبرون، وأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من اليهود فقال: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِييُونَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)⁽¹⁾، والله تعالى لا يحب المستكبرين (.. إنه لا يحبُّ المُستَكْبِرِينَ)⁽²⁾ لماذا؟

- لأن المتكبرين مرضى نفوس، يخرجون عن دائرة الحياد العقلي والمنطقي، ويستمررون في حالة مواجهة مع الحق ولو جاء في ثياب الأنبياء، قال المولى في اليهود رموز التكبر : (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ...) .. إنهم في حالة استغلاق تنتهي معها سلطة العقل لسطوة العاطفة، فما آمنت به عقولهم كفرت به قلوبهم كبرا وتعاضما، قال المولى تعالى: (.. فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)⁽³⁾ وقال في فرعون زعيم الطواغيت وقومه: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) في حين قال في النصارى وعلمائهم المتواضعين: (وإذا سمعوا ما أنزل الله ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ...) فليس بينهم وبين الحق جدار الكبر الذي يحجب أفق الرؤية المنصفة، وذكر القرآن أن الله جعل في قلوبهم رافة ورحمة : (... وَقَفَيْنَا بِعَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ...)⁽⁴⁾ وهذا في عمومهم أكثر من حكاهم، ويمكن إدراك هذا كسلوك عام فيهم، ومنه نفسر دخولهم في الإسلام بدون تردد إذا عرفوا أنه الحق، بعكس اليهود المصابين بلوثة جنون العظمة، حتى تكبروا على الذات الإلهية نفسها فقالوا: (إن الله فقير ونحن أغنياء) (يد الله مغلولة) (أرنا الله جهرة) (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) وغير ذلك من الوقاحة الاستعلائية التي هي فيهم ومن انتهج نهجهم في خط التعاضم المقيت .. مع الاحتفاظ لليهود بفارق التشبيه بينهم وبين المستكبرين العرب فيما يتعلق باحترامهم لمحكوميتهم.

(1) [المائدة : 82].

(2) [النحل : 23].

(3) [الأنعام : 33].

(4) [الحديد : 27].

- إن الاستكبار في حق ابن آدم منازعة الله في عظمته، فهو وحده (المتكبر) كما وصف ذاته، وقال: (وله الكبرياء في السماوات والأرض ...) فإله فوق خلقه والمتكبرون يرون أنفسهم فوق الخلق أيضاً، قال ابن منظور في سياق تعريف المتكبر: " المتكبرون يرون أنهم أفضل الخلق، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وهذه الصفة لا تكون إلا لله خاصة؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد مثله، وذلك الذي يستحق أن يقال له المتكبر، وليس لأحد أن يتكبر؛ لأن الناس في الحقوق سواء"⁽¹⁾.

ولذلك يكرر المؤمنون في كل صلاتهم، وكل قيامهم، وكل ركوعهم وسجودهم (الله أكبر) تأكيداً أن الكبرياء لله وحده، وأنه أكبر من كل الطواغيت ومن الدنيا وما فيها .. لكننا المستكبرون يضعون أنفسهم مقام الله .. فيكرسون في الأتباع ثقافة عظمتهم وعلو مقامهم، وتفرد خصائصهم؛ ليكبروا هم ويصغر مقام الله في عيونهم، فيسهل عصيانه في طاعتهم، ويسهل بيع الدين لصالح دنياهم، ويستهان بحدود الله في مقابل نزواتهم .. فيصير قولهم الوحي .. وحكمهم الفصل .. ووجودهم القدر المحتوم .. الناس قبلهم عدَم، وبعدهم ندم .. من السهل أن يموتوا من أجلهم، ولكن من الصعب أن يعيشوا من دونهم .. ويوم القيامة يتفاضح المستكبرون مع المستضعفين في ممارسة هذا النوع من الشرك (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا).⁽²⁾ مكر الليل والنهار يأمر الذين استكبروا أتباعهم أن يمنحهم صفة الندية مع الله وإن لم يصرحوا بذلك . وكثيراً ما ندد الله بالكبر والمستكبرين وآثار هذه الآفة المرضية على سلوك أصحابها، وكيف أنها تقودهم وأتباعهم إلى النار .. وما يحدث في أمتنا العربية والإسلامية اليوم هو طغيان الاستكبار وتحكم وثنية المستكبرين، سماهم القرآن المأ الذين استكبروا (الحكام) أولئك المسيجون بالسدنة وحملة المباخر، الذين يُضفون عليهم هالة التقديس، وليسوا في واقع الأمر - أي سلاطين الجور أولئك - سوى عصابات سلطوية وقراصنة حكم غالباً يحكمون الشعوب بطريقة الاختطاف والقوة القهرية، ويمارسون هواية سحق كرامتهم، ويتلذذون بتركيعةهم ليشبعوا روحهم المستبدة.

لذلك من الصعب على هذه المسوخ أن تقلد حكام الغرب في التواضع لشعوبهم، تلك الخلة التي سجلها الله في كتابه العزيز، حتى أولئك الذين يسبحون بحمدهم ويقدمون لن يستطيعوا الاقتداء بلين جانبهم مع رعاياهم، لأن التواضع صفة أكبر من النخالات، إنها صفة العظماء، قال الله في أشرف الخلق: (واخفض جناحك للمؤمنين) ذكرت مرتين في القرآن، ولم يرد خفض الجناح في القرآن إلا في

(1) معجم (لسان العرب) مادة (ك ب ر) ط3- بيروت (5/130).

(2) [سبأ 33].

حق رسول الله لأتباعه وفي حق الولد لوالديه (واخفصُ لهما جناح الذل من الرحمة)، فخفض الجناح مقرون بالذل لمن لهم حق الرعاية هو الشرف عينه، واضطهادهم هي الوضاعة عينها، وكلمة (خفض) تعبير قرآني فريد مخصوص بسلوك عظيم وهو هذه الفريضة الغائبة، وعكس خفض الجناح يقال فلان (فارد جناحية) إذا أريد أنه متكبر، فرسول الله إلى جانب كونه مبلغا هو حاكم، وعليه أن يكون قريبا من أتباعه، قدوة في سلوكه يأكل معهم، ويجاهد معهم، ويجلس حيثما انتهى به المجلس، يسبقهم في الغرم ويتأخر عنهم في الغنم، يعيش حياة البسطاء وخزائن الجزيرة تجبى إليه .. وهكذا كان .. أما الصغار فليس من ثقافتهم صناعة محامد الذكر بالتواضع وصنائع المعروف، بل يفتنون لتكبير أنفسهم بإنتاج المدائح وصناعة الهيلمان الزائف، وإطلاق لغة التناول والادعاء، وتقصير قامات الآخرين .. وإلغاء وجودهم .. وبعثرة حياتهم بالظلم، والبطش، والتنكيل، ليستمر مرض الإحساس بالتفوق عليهم وهكذا يعيشون.

إن شرف الحاكم في ذلته أمام المؤمنين وعزته على الكافرين لأن الذل للشعوب يعني إدراك المسؤولية تجاههم والعكوف على خدمتهم ومعايشة حاجياتهم، وإن التكبر عليهم سيعني ضياع البوصلة وانحراف الوجهة ونفاد الغرض الذي من أجله جاء.



زوال (دولة إسرائيل) (3-1)

تضافرت الأدلة على زوال دولة إسرائيل من التوراة، والإنجيل، والقرآن، والسنة النبوية الصحيحة .. على أن هذه الدولة الصناعية هي في النهاية دولة صغيرة سريرية ليس قوتها في ذاتها بل في العوامل المحيطة بها، منها العناية المركزة التي تحظى بها من قبل دول عظمى كأمریکا ربطت مصيرها بمصيرها، وذلك لما تمثله وجود هذه الدولة في قلب العالم الإسلامي من عنصر تقنيت وتنشيت لقوى المسلمين، وليس فقط لأنها تفسر نبوءات الكتاب المقدس كما ألقى في روعهم .. فهي نبوءات أخطئوا في فهمها كما سنجد.

وبالتالي فأدلة نهاية هذه الدولة متضافرة والنبوءات المتصلة بنهايتها تكاد تكون متطابقة، من حيث شروطها وتقارب دلالتها في الكتب السماوية المختلفة.

وستتناول النصوص القرآنية على أنه يلزم التنبيه إلى أن آراء القدامى - رحمهم الله - لا ينبغي أن تكون دائما أساسا في تفسير أحداث لم تأت بعد، فقد ربطوا إفسادتي بني إسرائيل بزمن مضى وهو الإفساد الأولى وكانت سهامهم في هذه مقاربة إن لم تكن مسددة، حيث كان الترجيح أقرب إلى عصر السبي البابلي لليهود على يد بخت نصر عام (عام 597 ق.م) إلا أنهم تاهوا في تفسير زمن الإفساد الثانية وهم في ذلك معذورون، فالزمن من أهم سياقات تفسير القرآن الكريم وقد قال الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - (ثم إن علينا بيانه) أي أن تفسير القرآن سيتولى الله إظهاره طبقا لما يستجد في توالي الأزمنة؛ لأن تفسير النبي لو تم سيكون موقوفا لا يصح التعديل عليه، وهناك نصوص لم يأت تفسيرها بعد ولو ذكرها لربما كان في ذلك فتنة على من لم يشهد زمانها .. وكان غالب تفسير النبي لبعض الآيات المتصلة بالتشريع وهو المراد بقول الله: (... وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم (...).

ولنا أن نتناول الإفساد الثانية على النحو التالي:

1- تأصيل الإفساد الثانية:

إذا ما انتفنا على أن الإفساد الأولى قد وقعت بقتل الأنبياء بغير حق، والتجرؤ على الله، ونقضهم المواثيق، وقولهم سمعنا وعصينا، وأكلهم السحت .. الخ فإن ما هو حيز بحثنا في هذه التأملة هو هذه الإفساد الثانية التي هي شرط نهاية إسرائيل قال تعالى: (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا) قضي: أي أعلمهم بما سيكون منهم.

ولقد ربط النص القرآني الكريم الإفساد الثانية بجمعهم من جميع الأمم والأعراق فقال: (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جننا بكم لفيها) الضمير في (من بعده) يعود إلى فرعون الذي أخرجهم من مصر.

اسكنوا الأرض: في الجمع الأول أي أرض فلسطين فقد كانوا موحددين والكنعانيون وثنيين في بلد مقدس، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين، يورثها إرث طاعة ودعوة وعدل، لا إرث اغتصاب وبغي وفساد، فاليهودية تجمع ديني رسالي لا قومي وطني .. غير أنه وقع منهم الإفساد الأولى، فعاقبهم الله بعدة عقوبات، منها تسليط البابليين عليهم، ومنها أنه كتب عليهم الطرد من الأراضي المقدسة، بعد أن فقدوا أهلية إرثها إرث طاعة فلحق بهم التمزيق والشتات قال تعالى: (وقطعناهم في الأرض أمما).

ثم مكنهم الله في زماننا هذا من جميع من سلط عليهم وهم الفرس، والروم، والعرب حيث قال: (ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) فصار مالهم لا نظير له، وصار بنوهم من القوة بحيث يسيطرون على مؤسسات عالمية كبرى، ويقومون دولة مكتملة الأركان، وصاروا (أكثر نفيرا) أي أكثر من غيرهم قدرة على النفير الإعلامي، وتوجيه الرأي العام العالمي، وتحجيش الأمم لصالحهم، والتأثير في ثقافتهم، كما هو مشهود .. فعلوا بذلك علوا كبيرا، لم يعملوا مثله من قبل، ابتلاء لهم من الله واختبارا لمدى صلاحهم مفهوم من قوله لهم في الأعراف (وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون) فهذا الابتلاء من عدل الله لهم لتجديد الفرصة لهم لتعديل منهجهم الذي جبلوا عليه في الفساد في الأرض .. غير أنهم لم يحسنوا كما جاء في سورة الإسراء بعد ذكر الكرة على الأعداء: (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) أي إن استقمتم في تعاملاتكم مع الخالق والمخلوقين بعد أن رددنا لكم الكرة على أعدائكم فذلك لأنفسكم، فكان منهم الإفساد الثانية ليكون الجزاء وفاقا، قال الله (وإن أسأتم فلها) أي فلأنفسكم الإساءة.

والإفسادتان مرتبطتان بدخولهم الأرض المقدسة، فجمعهم الله مرة ثانية إليها ليقضي الله أمرا كان مفعولا: (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيقا) وعد الآخرة: أي الإفساد الثانية .. لفيقا: أي ملففين من جميع الأجناس والأعراق، وهذا تماما مطابق لواقع الحال حيث وفدوا من شعوب مختلفة بثقافات وأعراق ولغات مختلفة.

ويعزز فكرة الجمع الثاني قوله تعالى: (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) والحشر: هو جمع الناس في مكان واحد.

وأول الحشر: هو خروجهم من المدينة في عهد رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - والخليفة الثاني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وذلك بعد أن كتب الله عليهم الجلاء إلى الشام لنقضهم الوثيقة المدنية في القصة المعروفة.

أما ثاني الحشر: فهو جمعهم هذا إلى فلسطين، وقول بعض المفسرين أنه حشر يوم القيامة فيه نظر فجمع القيامة جمع عام لكل البشرية لا يستقل فيه اليهود باختصاص .. لماذا جمعهم الله إلى فلسطين؟

بعد أن قطعهم الله في الأرض أما عقابا لهم جمعهم إلى فلسطين مرة ثانية، فرصة لإثبات تعديل سلوكهم، ثم ليأخذ منهم شأفته على أيدي عباده الصالحين، فسنة العقاب ملازمة تلازم شقاوتهم: (وإذ تأذن ربك لبيعنن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب)⁽¹⁾ تأذن: أعلم الأنبياء بهذا المصير، فكما عاثوا في الأرض فسادا أفرطوا أيضا في التنكيل بالفلسطينيين أهل البلد الأصليين وهذا يؤسس للعقاب بالمثل كسنة ماضية .. (يتبع)



(1) [الأعراف:167].

زوال (دولة إسرائيل) (2-3)

2- ألم يكتب الله فلسطين لليهود؟

قبل الحديث عن نصوص الكتب المقدسة الدالة على نهاية إسرائيل الدولة، يلزم الجواب على شبهة سؤال مطروح يقول:

- أليسا الله تعالى قد كتب فلسطين (الأرض المقدسة) لبني إسرائيل حيث قال في [المائدة : 21]: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ...) والأرض المقدسة هي نفسها الأرض المباركة في آل عمران: (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ...) أي فلسطين وهي نفسها في الإسراء: (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ...) وسياق الخطاب كله في بني إسرائيل؟

الجواب: نعم. ومن غير حاجة إلى صرف الآيات عن وجهها .. ولكن لنتتبع الجواب ولنعلم شروط الاستخلاف وانتفائه .. فالله وعدهم بالتمكين كما وعد المؤمنين من المسلمين، قال في سورة النور: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ...) ولأن بيت المقدس أرض مقدسة ولم يكن في الأرض موحدون غير بني إسرائيل في ذلك التاريخ فقد وعدهم بها، وهنا تأتي التوضيحات:

أولاً- لم يأخذوا بميثاق ربهم الذي كان شرطاً للوفاء قال : (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ...) قال الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - في تفسير المنار : "أما عهدهم فهو التمكين في الأرض المقدسة والنصر على أعدائهم"⁽¹⁾.

وأما عهد الله فهو طاعته، وعدم عصيانه، وأخذ الشريعة بقوة، وقتال الوثنيين .. إلى غير ذلك .. فهل وفوا بعهد الله؟ انظر كيف قابلوا عهد الله وميثاقه قال تعالى: (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا ...) رفضوا وعد الله وعصوا.

(1) (1/142).

وقال لهم موسى عليه السلام: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ..) (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ..) قيل مدينة أريحا فماذا كان ردهم؟ (.. فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) رفضوا الجهاد في سبيل الله.

ولم يتحقق فيهم شرط ميراث الأرض المباركة الذي جاء على لسان موسى وهو يخاطبهم: (.. إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) .. وقال الله: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) فإرث الأرض والتمكين والعاقبة تكون للمؤمنين الصالحين المتقين وليس العاصين المناذيين. إذا لم يستوفوا شروط عهد الله، لذلك حرّمها عليهم (قال فإنها محرمة عليهم) (أربعين سنة يتيهون في الأرض ...) وبقراءة الوصل (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة).

ثانيا- وعلى القراءة الثانية، فقد حرّمها الله عليهم أربعين سنة يتيهون في صحراء سيناء، ولا يزال موسى فيهم حيا بعد أن يؤس منهم: (قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) إلى أن جاء جيل آخر بعد موت نبي الله موسى، امتلك شروط الأهلية فدخلوها بقيادة فتى موسى (يوشع بن نون) .. وبعدها استقروا وحكموا وجعل الله منهم ملوكا وكان أبرزهم نبي الله داود ومن بعده ابنه سليمان -عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام- وبعد موت نبي الله سليمان انقسمت دولة العبرانيين إلى دولة الأسباط في الشمال، ودولة يهوذا في الجنوب.

وهنا كانت الإفساد الأولى حيث ارتدوا على أعقابهم فانقلبوا خاسرين .. سعوا في الأرض فسادا وقتلوا الأنبياء بغير الحق، وخالفوا الشريعة المنزلة .. فنزع الله منهم استحقاق الأرض المقدسة مرة ثانية، فكما أخرج الله إبليس من السماء -أو من الجنة على رأي- بسبب عصيانه، وكما أخرج آدم عليه السلام من الجنة بسبب معصيته كذلك وحرّمها من سمو المكانة، كذلك حرّم الله اليهود من سمو مكانة الأرض المقدسة فما عادت لهم، ولقد جاء الرومان بعد البابليين وبعثروهم في الأمم وألحقوا بهم الشتات، كما قال المولى: (وقطعناهم في الأرض أمما ...). قال الطاهر بن عاشور رحمه الله في تفسير التحرير والتنوير بعد عودتهم من سبي بابل واستقرارهم فيها "أجلاهم (طيطوس) الروماني وخرّب بيت المقدس في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد، فلم تجتمع أمتهم بعد ذلك فتمزقوا أيدي سبأ"⁽¹⁾.

لماذا هذا التقطيع؟ الجواب: التقطيع هو تيه ثان في الأرض بعد التيه الأول؛ لأنهم أمة بلا وطن ثابت كما سبق في التأملة السابقة، فمنبعهم مشتت بين العراق - حران التي انحدر منها إبراهيم - عليه السلام - وطاف مهاجر إبراهيم، الشام ومصر، ومكة، ثم فلسطين التي سكنها ثم نبي الله إسحاق وابنه يعقوب، ثم سكنوا مصر التي أوى يوسف عليه السلام إليها أباه وإخوته، وهناك مكثوا نحو 215 عاما، وكثر نسلهم ثم عادوا إلى فلسطين مرة ثانية وسموا بالعبرانيين لعبورهم البحر، فأين هو وطنهم الحقيقي من كل هذه الجهات؟ لذلك كان التيه جزءا من عذابهم في الأرض، ولم تعاقب أمة بسلبها الأرض غير بني إسرائيل كأنما كانت هبة مستردة، ولقد لجئوا إلى صياغة كتاب التلمود وفيه اخترعوا ما أسموه بأرض إسرائيل من الفرات إلى النيل، وإنما كتبوه بأيديهم لعلمهم أنهم في الأرض غرباء.

ولقد جاء الإسلام وأورث الله أرضه المقدسة عبادا آخرين استوفوا شروط الاستخلاف .. إنهم المسلمون وأصحابها الأصليون وهم الكنعانيون الذين هم الفلسطينيون اليوم، فهم أصحاب الوطن بالوجود، فورثوا الأرض طينا وورثوها دينا .. حيث استمر وجودهم مرتبطا بالأرض من أربعين قرنا قبل الميلاد، و27 قرنا قبل الدولة العبرية، ولم يسكن اليهود فلسطين سوى عدة قرون كأمة ذات نفوذ، وبالتالي لا حق لهم في فلسطين بشروط الاستخلاف وشروط السبق إليها، فكان طردهم منها بمثابة إنهاء حق الإقامة في أرض ليست لهم.

إنما السؤال الكبير هو: لماذا جمعهم الله مرة ثانية إلى فلسطين كما نص على ذلك في سورة الإسراء: (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لقيفا)؟

هذا ما لم نتمكن من الإجابة عليه في هذه التأملة وطبقا لما جاء في الكتب السماوية التي سنتناول ذلك في التأملة الثالثة والأخيرة بعون المولى تعالى.



زوال (دولة إسرائيل) (3-3)

3- لماذا جمع الله اليهود إلى فلسطين؟

تتحدث الكتب السماوية عن شقاوة هذه الأمة، وشغبها الديني، وعنادها، وفسادها مما لا يتسع المقام لسرده، كما تتحدث أيضا عن جمعهم إلى بيت المقدس لتأديبهم على أيدي المؤمنين كما سنرى. وهنا نثبت في شكل نقاط حتمية زوال دولة اليهود في هذا الزمان بعد جمعهم، وليس كما ذهب إليه بعض المفسرين أن ذلك قد تم في الزمن الماضي .. وذلك على النحو التالي:

- قوله تعالى: (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيما) .. فلم يتفرقوا في الأمصار والأقطار كما تفرقوا من بعد أن شنتهم الرومان وحتى عام 1948م تاريخ قيام دولتهم، ولم يجتمعوا من كل الأجناس والألوان واللغات إلى فلسطين كما حدث في هذا العصر أي وعد الإفسادة الثانية، ولم يقل المولى فإذا جاء وعد ثانيهما لتجانس (أولاهما) بل (وعد الآخرة) وذلك - والله أعلم - إشارة إلى ربط الحدث بالآخرة أي آخر الزمان وأن ذلك في أمة نبي آخر الزمان، كما أن النصوص القديمة تذكر ذلك .. والشيء ذاته أي جمعهم إلى أورشليم وعذابهم نجده في التوراة من سفر حزقيال، جاء فيها: "هانذا أجمعكم في وسط أورشليم* .. أجمعكم بغضبي و سخطي و أطرحكم و أسبكم* فأجمعكم و أنفخ عليكم في نار غضبي فتسبكون في وسطها* .. فتعلمون أنني أنا الرب سكبت سخطي عليكم"⁽¹⁾. وأورشليم هي القدس.

- إن الحديث عن عقاب بني إسرائيل بسبب فسادهم والحديث عن دخول المسجد جاء في سياق الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى بحادثة مسرى آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم الذي استهلت به السورة: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ...) وهو ما يعني أن الأماكن المقدسة (المسجد الحرام والمسجد الأقصى) قد أورثها الله عبادا له آخرين هم أمة محمد، فالمناسبة مناسبة استلام مفاتيح المقدسات الإلهية لنبي جديد وأمة جديدة، ثم في نفس السورة ذكر فساد اليهود، مشيرا إلى وقوع المسجد تحت الاحتلال وكيف سيعود في نهاية المطاف إلى أهله.

- قوله (ثم رددنا لكم الكرة عليهم ...) لم يقل فرددنا بل (ثم رددنا) التي تفيد التراخي الرتبي والزمني وهو الزمن الطويل الفاصل بين الإفسادة الأولى والثانية، وهو اليوم ثم قال: (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا).

(1) (من آية 20 إلى 23).

إن هذا التمكين هو الذي نجده في قوله تعالى: (ضربت عليهم الذلة أين ما تقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ...) فلم يسبق أن تمكنوا من السيطرة على العالم من بعد نبي الله سليمان الذي جاءت الإفسادة الأولى بعده كما هو واقع الآن، فحبل الله بهذا التمكين هو ابتلاء لهم كما قال فيهم في سورة الأعراف: 168 (لعلهم يرجعون) وهو إعدار من الله لهم بعد أن عاشوا أدلة مستضعفين في الأرض .. وأما حبل الناس فيتمثل في الدول العظمى على رأسها أمريكا، فصاروا أكثر نفيرا ولم يقل أكثر قوة بل (أكثر نفيرا) فلو جاءت أكثر قوة لكانت قوة ذاتية لكنهم أقل قوة من دول عظمى غيرهم، أما كلمة نفير فجامعة لعدة معان منها: "النفير رهط الرجل الذي ينصرونه" (1) .. "والنفير استنفرهم فنفروا معه" (2) .. فالى جانبهم الحركة الصهيونية العالمية الذين هم في أمريكا فقط أكثر من 40 مليوناً، وإلى جانبهم الماسونية العالمية والحكومات الخفية .. ومن معاني (النفير) أنهم أكثر استجاجاً واستصراخاً كما جاء في (معجم لسان العرب) ويدخل في هذا الاستصراخ النفير الإعلامي حيث كبريات مؤسسات الإعلام بأيديهم.

وأخيراً نلاحظ كلمة (أكثر) فلم يكونوا من بعد سليمان عليه السلام أكثر من أعدائهم في هذه الأمور بل عاشوا مستضعفين في جزر سكانية معزولة قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة وحل بهم الاضطهاد.

- تحول صيغ الفعل في دخول المسجد من الماضي في أفعال الإفسادة الأولى (بعثنا .. جاسوا) إلى المضارع في الإفسادة الثانية (ليسوؤوا .. ليدخلوا .. ليتبروا) وهذا يدل على زمن الاستقبال بالنسبة لزمن الخطاب الذي منه خطاب الله لهم في الإنجيل لأن عيسى عليه السلام بُعث أيضاً إلى بني إسرائيل ونزل الإنجيل عليهم. ومنه خطاب الله لهم أيضاً حين نزول القرآن، وكلها تحدثت عن فسادهم ونهايتهم في المستقبل، ثم الملفت أن أفعال الإفسادة الثانية تقابل العلو (ليسوعوا) أي بعد تكبركم سيلبسون وجوهكم العار والخزي و(ليدخلوا المسجد) يدل على فقدهم السيطرة على أهم باعث قادهم إلى احتلال فلسطين، وأن النزاع الأساسي هذه المرة هو في ملكية الأرض المقدسة ككل والمسجد الذي يدعون وجود الهيكل فيه بشكل خاص، ولم تكن في الإفسادة الأولى قضية معبد أو هيكل لذلك لم يذكر الجانب الديني فيها فلم يكن البابليون وراء ديانة بل قضية فساد في الأرض وقتل الأنبياء بغير حق، فالتصويب على دخول المسجد رمزية دينية عقائدية وهدف ديني للذين سيقاثلون اليهود وهم المسلمون، وليحسم النزاع في ملكية الأرض المقدسة كاملاً على رأسها المسجد الأقصى ومدينة القدس .. قوله (وليتبروا ما علوا تتبيرا) أي يهلكوه ويدمروه، ولا يخفى التشاكل بين (وليتبروا ما علوا) وبين

(1) (معجم مشارق الأنوار).

(2) (القاموس المحيط).

(ولتعلن علوا كبيرا) وهو - والله أعلم- أن هذا التدمير سيغال مجالات علوهم في الأرض فيكون على أيدي المسلمين خلاص العالم منهم فتنتهي قبضتهم وسيطرتهم إلى الأبد.

- ذكر كلمة (المسجد) في الإفساد الثانية مهم جدا فمصطلح مسجد كبيت عبادة هو خاص بالمسلمين، ولم يرد كلمة المسجد معرفا في القرآن إلا ويراد به بيت عبادة المسلمين، وقد ذكر الله بيوت عبادة الديانات السابقة وديانة الإسلام مرتبة قال: (... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ...) قال الفخر الرازي في تفسير مفاتيح الغيب: "الصوامع للنصارى، والصلوات للصائبين، والمساجد للمسلمين" فكل بيت عبادة أسند إلى ديانتها، وإلا لما فرق بينها ولقال لهدمت دور العبادة، ثم الشيء الملفت أكثر قوله (وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة) أي سيدخلونه محررين كما دخلوه فاتحين أول مرة، وكان ذلك في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، على أن ما يهيم اليهود في بيت المقدس هو الهيكل لا المسجد وما يهيم الصليبيين هو كنيسة القيامة لا المسجد، فالمسجد لا يشكل اهتماما لأي ديانة سوى المسلمين .. وعلى قول كثير من المفسرين أن الإفسادتين قد انتهتا في زمن سبق الإسلام فالجواب: ما عسى أن يمثل استلام المسجد من اليهود إلى وثنيين من بابل أو صليبيين من الرومان ما عسى أن يمثل من تكريم للمسجد الأقصى؟ بل المراد عصرنا هذا.

على أن حديثي عن المسجد كمصطلح خاص للمسلمين، وإلا فقد ذكر السجود للأمم السابقة وقال الله في أصحاب الكهف: (لنتخذن عليهم مسجدا) فالمسجد هنا مكان سجود وليس مصطلح المسلمين، فمسجد مثل مسلم وإسلام هذه مصطلحات صار يعرف بها المسلمون مع أن الأمم السابقة أيضا كانت مسلمة لله وموجود ذلك في آيات عدة، لكن عندما يقال مسلم فالمراد به المنتمي لدين الإسلام وعندما يقال مسجد فالمراد به معبد المسلمين.

- الحديث الصحيح المعروف المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود"⁽¹⁾ قوله يا مسلم يا عبد الله ولم يقل يا عربي يشير إلى دينية المعركة وأن الجنود المقاتلين هويتهم المشتركة ليست قومية بل تشمل كل المسلمين، والملفت أن النصوص القديمة تشير إلى هذا الخليط كما سيأتي.

(1) رواه مسلم.

- تتوافق الكتب السماوية في مسألة دمار إسرائيل، وهو ما أشار إليه كتاب الله العزيز بقوله: (وقضى ربك إلى بني إسرائيل في الكتاب ...) وما تحدث عنه في سورة الإسراء هو موجود في أيضا في الكتاب المقدس الذي يشمل العهد القديم والعهد الجديد بصورة أو بأخرى، وتتفق بشكل مدهش على أسباب دمارها وهو فشو البغي منهم والفساد في الأرض، وفي نصوص من الكثرة بحيث تستوعب عملا بحثيا مستقلا، وبحسبنا هاهنا أن نسرده نصوص زوال هذه الدولة من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ونترك مسألة تحليل النصوص للقارئ .. جاء في العهد القديم (التوراة) " في ذلك اليوم .. تأتي من موضعك شعوب كثيرة وجيش كثير تصعد على إسرائيل كسحابة تغطي الأرض في الأيام الأخيرة يكون"⁽¹⁾ .. وجاء في العهد الجديد (الإنجيل) "إذا رأيتم أورشليم قد أحاطت بها الجنود فاعلموا أن خرابها قد اقترب وتدوس الأمم أورشليم"⁽²⁾ .. وجاء في سفر ميخا من الإنجيل "الذين يكرهون الحق، الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم فستفح صهيون كحقل وتصير أورشليم خراباً"⁽³⁾ .. وفي لوقا "تدوس الأمم أورشليم إلى أن تنتهي أزمنة الأمم"⁽⁴⁾ .. هذا التطابق لا يدع مجالاً للشك أن إسرائيل كدولة موعودة بالدمار، وأن المقدسات الإسلامية ستعود لأهلها طال الزمن أو قرب.

تنبيه مهم

انتشرت في الآونة الأخيرة مقالات تنتبأ بزوال إسرائيل عام 2022م عن طريق حساب الجُمَّل، وصار الناس يرددونها بشكل كبير وملفت حتى إن الشيخ بسام جرار صاحب هذه النبوءة يقول إن موقع واحد يؤيده وينشر نظريته يضم نحو 5.5 مليون عضو .. وهنا تكمن الخطورة فقد يكون وراء هذا التطبيل قوى تستهدف ثقة المسلمين بدينهم، فعلى فرض أن ذلك سيكون فسيفسيف الناس إلى حساب لا أصل له وإنما هي توافقات اعتباطية تقوم على المصادفات، وإذا لم يحدث ذلك تحول الناس إلى التمسخر بالدين لأنها صارت كأنها نبوءة دينية ثابتة، بل ربما كانت مدخلا لتشكيك الناس في دينهم وحسبنا الله ونعم الوكيل.



(1) (حزقيال 38).

(2) (لوقا 9: 21).

(3) (ميخا، الإصحاح: 3).

(4) (لوقا 24,9: 21).

الوجه الآخر للحضارة الغربية

من مظاهر حروب الجيل الرابع، أي - حربنا من الداخل - هو تمجيد العقلية الغربية، واحتقار العقلية العربية والإسلامية وازدراءها .. وهنا أضع إشارة انتباه لذاتية القارئ العربي الحر إلى أن تلك المقارنات التي تمجد الغرب وتزدرى العرب ليست من باب التنبيه على الأخطاء لإصلاحها؟ .. أي مقارنة تحضرهم بتخلفنا .. ففرق بين المقارنة للاستفادة من الأشباه والنظائر، وبين المقارنة لإيقاع اليأس وإحداث الهزيمة والتسليم بالتبعية للغرب الأسطوري الذي لا يقارن .. إن الذات التي تستمتع باحتقار نفسها هي ذات منهزمة قابلة للعبودية، فتخلفنا المادي يتطلب الحث على بناء أنفسنا، وليس جلد الذات ليل ونهار بسيط الاحتقار، فمن الغرب بالنظرة الإنسانية الكلية ومن العرب؟

إن كل رصيد الغرب من الفضائل هو هذا الفاصل الزمني القصير من الحريات التي أطلقت هناك وقيدت هنا في غير بلاد الجنس الأبيض، وهاهي البنية العنيفة والعنصرية للغرب تطل بقرونها من جديد عبر انتعاش الأصولية (النازية) و(الفاشية) و(البلشفية) الاستباحية التي تعبر عن تاريخ الغرب الاستتصالي الحقيقي، فلا ينبغي أن تخطف أبصارنا بريق لمعانها فيغلب الطبع التطبع، فبنية العقلية الغربية منذ عهد الإغريق واليونان عقلية استعلائية شرسة ومتسلطة.

إن الغرب -لا الشرق ولا العرب - هو الذي قنن للعبودية والطبقية منذ عهد اليونان، ثم استقى عدوانية إضافية من أدبيات العهد القديم (التلمود) اليهودية فصار المصدر الأول للحروب الكونية منذ الإغريق حتى اليوم .. فقد احتل الرومان الوطن العربي كاملا عدا العراق منذ الأسكندر الأكبر، حتى جاء المسلمون وتحقق على أيديهم الجلاء، فكانت فتوحات المسلمين تحررية ووقائية في جوهرها .. ثم حاول الغرب مرات عدة استعادة محتلاته العربية القديمة بالحملات الصليبية المتعددة، إلى أن تمكن أخيرا بعد انتهاء الإطار التوحيدي للمسلمين من احتلال كامل الوطن العربي مرة ثانية .. وأقام الغرب الاستباحي التوسعي الامبراطوريات الاحتلالية التي لا تغيب عنها الشمس كبريطانيا، والاتحاد السوفيتي، وفرنسا، وهولندا، والدانمارك، وغيرها على حساب الشعوب الأخرى ونهب ثرواتها، التي أقام عليها نهضته وعمرانه، ثم يعجب المنهزمون كيف تطور الغرب وكيف تأخر غيرهم .. وحتى اللحظة لاتزال قواعد دول الغرب العسكرية، وغواصاته، وبوارجه، المحملة بآلات الدمار الشامل منتشرة في جميع أنحاء العالم، ولازال متحكما في عالمنا بالاحتلال المباشر في العراق، وسوريا، وفلسطين، يقتل شعوبنا .. ويبيد ثرواتها .. ويقتل علماءنا وباحثينا الذين يمكن أن يشكلوا نواة نهضة حقيقية، وينشر حروبه وصراعاته عن طريق وكلائه في اليمن، وليبيا، وسوريا، والصومال ويطلق

شركات الموت بقوانين رسمية مثل شركة (بلاك ووتر) الأمريكية، وشركة (فاغنر) الروسية التي تقتل الشعب السوري، لحماية الطغاة والحكام المستبدين، والتي تمثل امتدادا لفرسان الهيكل الصليبي الإجرامي القديم.

ومن الغرب انتشرت آلات القمع وأساليب التعذيب لاضطهاد الحركات الوطنية التحريرية وتصفياتها، بينما يدعم الحركات الجهوية الانفصالية، والطائفية المتعصبة لإثارة القلاقل وزعزعة الاستقرار، سواء في الوطن العربي، أو دول أمريكا الجنوبية، التي وراءها صراع الحضارات والإرادات، ووراءها في أفريقيا نهب ثروات القارة البكر في ظل عدم وجود حكومات مركزية وقوية تحمي ممتلكات شعوبها.

والغرب لا الشرق هو النحاس الأول لاستعباد قارة بأكملها هي قارة أفريقيا منذ عام 1444 عن طريق البرتغاليين .. واستمر يجرف من القارة السوداء مئات الآلاف بقوة الحديد والنار كعبيد وسخرة لبناء حضارتهم على حساب حرية وكرامة الشعوب الأخرى، ولم يبتدع الرق سوى الرومان كما سبق، ثم تأتي نخالات شوارعية عميلة تتهم المسلمين بممارسة الرق، مع أن الإسلام هو من حارب الرق وأنهى بالكفارات التعبدية، وإلى اللحظة لا يزال الغرب يمارس جريمة الاتجار بالبشر، وهو ما يسمى بتجارة الرقيق الأبيض، بشراء النساء والأطفال ليغذي بهن أسواق الدعارة من دول أوربية شرقية فقيرة .. ومن هذا الغرب العظيم لا من الصين ولا من اليابان انتشرت أشكال الرذيلة في العالم، ومنه ظهر زواج المثلية، وزواج الإنسان بالحيوان فدمرت الكرامة الإنسانية وشوهت الأعراض، ودمرت الأسرة.

والغرب وليس العرب ولا الشرق من قام بأبشع ما عرف العالم من جرائم التصفيات العرقية، ابتداء من إبادة المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس)، وإقامة محاكم التفتيش، يعذبونهم بأبشع وسائل التعذيب لترك دينهم وعلى مدار مئات السنين، حتى لم يبق فيها موحد بعد 800 عام من الحكم والحضارة الإسلامية .. وفي البوسنة والهرسك قتل فيها نحو 300 ألف مسلم واغتصبت فيها نحو 60 ألف امرأة وطفلة مسلمة وهجر نحو مليون بريء وأعزل .. وحدث عن ضحايا أفغانستان والشيشان، والجزائر بلد المليون شهيد قبل ذلك .. وفي سوريا يقتل الروس بتواطؤ مع الغرب وبمباركة نيرون العرب بشار الأسد نحو نصف مليون قتيل، وتشريد نحو 7 مليون سوري في بقاع العالم.

وماذا لو أن الشرق قد فتح متاحف للجمام من رؤوس البشر وتحديدا من الثوار المناهضين لواقع الاحتلال ماذا سيقول الغرب؟ لكن هذا في الغرب لا في الشرق في فرنسا الذي أسموه متحف (الإنسان).

وإن الغرب لا الشرق هو المنفذ الأول للحروب المليونية، فقد أباد في عشرة حروب فقط نحو 130 مليوناً من بني آدم من بداية الحرب العالمية الأولى عام 1914 حتى نهاية القرن العشرين.

والغرب لا الشرق هو المنفذ الأول لإبادة الشعوب عن بكرة أبيها كالهنود الحمر، وشعوب القرم، وإستراليا، ليحل محلها ويستأثر بحقها في الحياة .. وهو من قام بإفناء مدن بأكملها في لحظات، مثل مدينة هيروشيما، وناجازاكي اليابانيتين، وقام بتدمير مدن أخرى كجروزني، والموصل، وحلب وقبل ذلك آلاف المدن الأخرى في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

وبالنظر إلى البنية الشريرة في تعشُّق الحروب بنى الغرب الجريمة الكبرى في حق البشرية وهي (أسلحة الدمار الشامل) .. حتى صار لكل فرد ما يساوي 5 طن من المتفجرات وما ينهي الحياة البشرية لعشر مرات .. وصارت تجارة آلة الموت هي الأولى في العام، وبما يصل إلى نحو 2 ترليون دولار، ولا يزالون يتسابقون على التفنن في ابتداع قتل البشرية، فحقنوا الحشرات بالأمراض البوائية وأطلقوها، لأنهم أصحاب نظرية الإبادة للتخفيف من البشر، فأبحاثهم في مصادر الموت أكثر من مصادر الحياة .. وهاهي أمريكا وحدها تخصص نحو 300 مليار للأبحاث العسكرية في ميزانية عام 2018م والعالم يعجب وينبهر ويصفق لهذا الإجرام ولهذه العقلية الجنونية التي تقود البشرية إلى الفناء، ويعد الأغباء هذا من فضائل الغرب وعبقريته.

إن بنية العقلية الغربية تأسست منذ عهد اليونان على القسوة والاستهانة بالبشر، فقد كانوا يقيمون حفلات الافتراس للمخالفين المسيحيين قبل دخول الرومان في المسيحية، ويجبرون الأسرى مع عوائلهم على مصارعة الأسود في نوادي اللعب (الكولسيوم) وسط ضحكات الجمهور واستمتاعهم، ولا تزال حلبات العنف والقتال كهواية وحرفة غربية قائمة إلى اليوم، ولا يرى الغرب العالم إلا حلبة صراع مفتوحة للتدافع والتغالب وهو فيها (سوبر مان) الرجل الأقوى.

إن الغرب لم يستطع طوال تاريخه العيش بدون صراع حتى مع نفسه نظراً لهذا التركيب البنيوي الخاص، فتاريخ هذا الجزء من العالم حافل بشكل مروع بالحروب الإثنية والكنسية (مثل تلك الحروب الأوروبية حرب 30 عاماً التي قتل فيها ما يزيد عن 11 مليون شخص، ونقص فيها سكان ألمانيا من 30 مليوناً إلى 20 مليوناً .. ونتج عن ذلك نقص كبير في عدد الرجال حتى جعلوا تعدد الزوجات إجبارياً.

وفي حروب نابليون قتل أكثر من 6 ملايين إنسان، وفي حرب السنوات السبع بين بريطانيا وفرنسا قتل ما يزيد عن 14 مليون إنسان، وفي الحرب الأهلية الروسية قتل ما يزيد عن 9 ملايين ..

وفي حروب فرنسا الدينية قتل نحو 4 ملايين" يقول المؤرخ بريفولت إن عدد من قتلهم المسيحية في انتشارها في أوربا يتراوح بين بين 7-15 مليوناً" (الويكيبيديا) ويعد هذا الرقم في تلك الحقبة ضخماً.

وكانت الهمجية سمة الحروب المسيحية فيكثر فيها الاغتصاب، وأعلى عمليات انتهاك الأعراض في التاريخ نفذها أرباب الحضارة المعاصرة ونقلنا عن المؤرخة الألمانية مريام غيرهارد انظر كتاب «عندما أتى الجنود». تقول: إنه بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية اغتصب الحلفاء 2 مليون امرأة ألمانية .. وتناثرت جثث كثير منهن في الشوارع .. ولم يتردد جنود الحلفاء لحظة واحدة في إعدام أية امرأة رفضت الرضوخ لمطالبهم .. وحتى يومنا هذا يوجد نحو نصف مليون ألماني مجهولي النسب نتيجة عمليات الاغتصاب.

وخلال الأشهر التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية على الساحة الأوروبية توجهت نسبة كبيرة من النساء الألمانيات نحو المستشفيات من أجل إجراء عمليات إجهاض، فضلاً عن ذلك ووفق تقارير الأطباء كانت عمليات الإجهاض تجري بشكل يومي ومتواصل في مختلف المستشفيات الألمانية .. وقد قبلت ألمانيا حتى منتصف الخمسينات بتسجيل 37 ألف طفل باسم أمهاتهم، ومن تبقوا تم تبنيهم .. وكذا الجنود الروس ارتكبوا أكثر من مليون اعتداء؛ 190 ألفاً قام بها جنود أميركيون، 45 ألف اعتداء جنسي قام به الجنود البريطانيون و50 ألف اغتصاب ارتكبه الجنود الفرنسيون، والأمر ليس أفضل مع جنود جيوش الحلفاء الأخرى.

وإنني هنا لأسأل نخالات العمالة الذين يعيشون بيننا، ويشغلون أوقاتنا بتلميع أسيادهم وشمم العرب والمسلمين والتأفف منهم، ماذا لو كانت هذه التركيبة الثقيلة من الإجرام الغربي بحق البشرية قد قام بها العرب، ماذا كنتم ستسمون ذلك؟ إذا كانوا إلى الآن يعون كالكلاب الضالة لأن الفتوحات الإسلامية حررت الشعوب المستضعفة من امبراطوريات الشر الروم والفرس، فكيف لو أن العرب والمسلمين قد مارسوا كل هذه الفظاعات التي ينافق العالم بالصمت عليها اليوم وبشكل رهيب عجيب وغير مسبوق؟



صدق الله وكذبت حساباتنا

لم يشر القرآن الكريم إلى أمة كافرة كالصين، أو الهند أو اليابان، أو كوريا بقدر ما أشار إلى الروم، وتحدث كثيرا عن صراع مستمر مع أهل الكتاب الذين يشكلون الحضارة الغربية اليوم (اليهود والنصارى) وفصل في ذلك تفصيلا إعجازيا .. فتحدث عن محاور الصراع وسببه الذي أساسه (الدين).

وتحدث منذ 1400 عام أن موقفهم الثابت من الإسلام هو الرفض الدائم حتى نتبع ملتهم.

وتحدث أننا نحبهم ولا يحبوننا .. ونؤمن بكتابتهم ولا يؤمنون بكتابتنا .. وأنهم يرضوننا بأفواههم وتأبى قلوبهم .. وأنهم لا يحبون أن ينزل علينا خير من ربنا.

وتحدث أنهم لن يتركوا إيذاءنا ومحاولة النيل منا فقال: (.. وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أُشْرِكُوا أُذَى كَثِيرًا ..).

فلا يزال أذاهم من العهد المدني إلى الحروب الصليبية، إلى الاحتلال المعاصر، وحتى اللحظة أذى مستمرا.

أذى في احتلال أرضنا ومقدساتنا ومحاولة تدميرها، وفلسطين خير شاهد اليوم.

أذى في النيل من رموزنا وتشويهها، على رأسهم نبي الإسلام صلوات الله عليه والخلفاء من بعده.

أذى في محاولة مسخ الإسلام من خلال تغيير المناهج .. وإحلال القرآن بكتاب آخر سموه الفرقان .. وإحلال الشريعة بقوانين الدول الغربية.

أذى في تشويه مجتمع الصحابة وتضخيم الفتنة وجعلها مرآة عاكسة لسلوكهم.

أذى في محاولة تشويه السنة والتشكيك فيها، والطعن في روايتها.

أذى في قطع صلة المسلمين بدينهم من خلال هدم المؤسسات الدينية، وإقصاء العلماء، وتغيير المناهج باسم تجفيف منابع الإرهاب.

أذى في إنتاج آلاف الأفلام الهلويديّة التي تشوه العرب والمسلمين، وتجعلهم مجرد أمة متوحشة همجية ليس لهم حضارة ولا تاريخ.

أذى في محاولة وضع أيديهم على مقدراتنا .. والاستيلاء على أموالنا .. واستنزافنا .. وتحويلنا إلى قصعة يتداعون إلى أكلها، رغم أن الغرب بات مركز الاقتصاد العالمي، ومصب منابع ثروات العالم لكنه لا يريد للمسلمين أن يعيشوا ويطوروا واقعهم.

أذى في منع أي نواة للتقدم الحضاري من خلال تنفيذ سلسلة من الاغتيالات لعلمائنا في مختلف المجالات البحثية، والمسارة لاحتضان العقول المهاجرة في مراكز أبحاثهم.

أذى في تجنيد العملاء والمندسين، وطلائع الانهزام، وفتح مراكز أبحاث تجسسية وتجنيد المفكرين الذي لا هم لهم سوى الطعن في الإسلام .. والإسلام وحسب .. لا البوذية التي تعكف على عبادة الحجر .. ولا الهندوسية التي تعكف على عبادة البقر .. ولا اليزيدية التي تعكف على عبادة الشيطان.

الصرخة موجهة فقط ضد الإسلام، عدوهم التقليدي .. فلا يزالون يحرضون على نبذه وأنه دين غير صالح لأنه ببساطة غير قابل للتطويع والاحتواء.

أذى في كل شيء .. هل نجد أذى كهذا من اليابان، أو الصين، أو الهند، أو كوريا كما نجده من أهل الكتاب اليوم، وكما أكد عليه النص القرآني؟ لانجد إلا ما حدثنا به القرآن الكريم .. الغرب ثم الغرب ثم الغرب.

وعلى كل فإنه في حديث الصراع مع طرف قرر أن يتخذك عدواً أبدياً ليس لائقاً أن توجه إليه اللوم فيما يتخذك من المواقف .. ولا فيما يتخذك تجاهك من فنون الحرب بقدر ما يجب أن تلوم نفسك وأنت تمارس تجاهه حبا من طرف واحد .. إن لم يستطع حبك فليس له أن يلغي كرهه لك وتبقى هذه مشكلتك .. لماذا لا تجرب دور الطرف المستهدف منه وتعمل حسابك؟ لماذا لا تجرب تصديق كلام الله ولو لمرة واحدة؟.

قد يقال ولكن المسافة التي باتت تفصل بين واقعنا وواقع الغرب تجعل القبول بفكرة عدائهم عبثية، وليس من بدّ سوى مداراتهم بالتنازل لهم عما يريدون.

والجواب: أن هذا هو الخبال بعينه .. لم تقل كلاما كهذا كوريا الشمالية، ولا كوبا الدولة الصغيرة، ونجحت في أن تكون ندا مزعجا لأمريكا الجارة اللدودة، وعاشت كما تريد أن تعيش لا كما أراد لها الغرب .. بل ولا العرب حين قرروا أن يتحرروا من استعمارهم حصلوا على ما يريدون.

على أن العودة إلى النص القرآني يعطينا تلميحات هامة قال تعالى (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) راجع سورة آل عمران الآية 120 وقال (لن يضرركم إلا أذى) اقرأ هذا في سورة آل عمران آية 111، لقد احتلوا بلاد المسلمين نحو 130 عاما كالجزائر، وجنوب اليمن، وسوريا، ولبنان، وتونس، ومصر ووالخ ولم يستطيعوا بمقوماتهم المادية الهائلة .. وآلاتهم الحربية التي لا مجال لمقاومتها .. وبهرجهم الحضاري الأخاذ لم يستطيعوا أن يدخلوا في دينهم قرية واحدة .. لم يستطيعوا أن يقنعوا المسلمين بترك دينهم، بل عاد الإسلام أقوى مما كان .. وتم طردهم بأسلحة بدائية عندما توفر سلاح واحد وهو سلاح الإيمان والثقة بالنصر .. لم يستطيعوا الاستمرار في مستعمراتهم رغم دخولها ضمن خارطتهم السياسية.

ثم لما عجزت آلاتهم الحربية عن تركيع المسلمين، ومسخ هويتهم مع طول مكثهم فيهم خرجوا من الأقطار العربية والإسلامية وتركوا مهمة المسخ للمسح من أبناء المسلمين .. فكان وما أرادوا .. حيث أخذ هؤلاء المسخ الراية الصليبية، وتسلموا مهمة حرب الإسلام والمسلمين تحت حجة تهديم الدار من أجل قتل صرصور .. حرب الإسلام والمسلمين من أجل القضاء على الإرهاب؟ ولم تعد تدري، إن لم يكن الإسلام هو المعنى بمصطلح الإرهاب فما هو الإرهاب؟ .. ولا ندري كم نحتاج من الوقت إلى أن تظن الشعوب الإسلامية أنها لا تزال رازحة تحت نفوذ (الاستعمار)، ولكن بأياد محلية، وبأسماء ولغة ولباس وأموال وأدوات إسلامية .. حتى وصلنا إلى عهد حروب الجيل الذي يقتل العدو نفسه بيده، بدلا من التدخل المباشر .. فهاهم يقتلوننا بأيدي أبناء المسلمين، وأموالهم، ويحاربون الإسلام بأبناء المسلمين وجنودهم .. بل صرنا ننتظر من الغرب التدخل لتهدئة ثيرانهم ويأخذوا دور المخلص، وإنما هو كالمستجير من الرمضاء بالنار.



المسلمون وأهل الكتاب من يكره من؟

إنه ليُلاحظ بين المسلمين وأهل الكتاب جدلية ثنائية ملفتة تستحق التأمل لاستخلاص النتائج، فالمسلمون يتعاملون مع هذا الطرف بالمنهج القرآني، وهو البر والمودة للتأليف .. والعدل والإنصاف لإقامة الحجة .. فيما يتعامل أهل الكتاب مع المسلمين بشتى أنواع العدا والتربص والكيد .. ثم ويا للعجب لن تجد سؤالاً في الغرب شغلهم أوقاتهم مثل سؤال: (لماذا يكرهنا المسلمون؟!) فمن يكره من؟

لنستعرض ثنائية اللونين الأبيض والأسود بين المسلمين وأهل الكتاب كما ورد في القرآن الكريم:

1- كان المسلمون يفرحون إذا انتصر الروم على الفرس، ولقد بشر الله المؤمنين بأن الروم ستنتصر على الفرس فقال: (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) سماه نصراً وإضافته إلى الله فيه إشارة إلى أهميته؛ لأن الروم كانوا أهل الكتاب مهما كان محرفاً، إذ يبقى للاعتراف بوجود الله عند الله مكانة .. في حين كان أهل الكتاب من يهود المدينة يفرحون بانتصار قريش الوثنيين على المسلمين أصحاب الدين السماوي، ويظاهرونهم على المسلمين، وقد نقض اليهود العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووقفوا إلى جانب الكفار في غزوة الأحزاب .. وفوق هذا يذهبون إلى كفار مكة يقولون لهم إنهم أهدى من الذين آمنوا سيلاً، كما فعل زعيما اليهود حبي بن أخطب وكعب بن الأشرف قال الله: (الْم تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيْلًا) (1) .. ويسوؤهم أي خير للمسلمين ويسعدهم أي شر يلحق بهم (إن تمسكم حسنة تسوؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ...).

2- ذكر القرآن الكريم أن المسلمين يحبون أهل الكتاب، يفسره جامع الصلوة كونهم يعترفون بالله وأنبيائه السابقين ويؤمنون بالله واليوم الآخر .. الخ قال المولى تعالى: (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ...) (2) .. في حين تقول الآية التي قبلها في اليهود تجاه المسلمين: (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) وفي نهاية آية 119 (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا

(1) [النساء:51].

(2) [آل عمران:119].

خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ...). .. على أن عداوة اليهود أشد: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ...).

3- ونجد الإسلام يعلن دعوة حوار مفتوحة مع أهل الكتاب ففي سورة آل عمران: 64 قال تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ...). وليس كذلك أهل الكتاب فقد اتخذوا من المسلمين موقفين الأول: إما إخراج المسلمين من الإيمان وإعادتهم إلى الكفر بالله كما نجد في قول الله: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ...).
الثاني: أو إدخال المسلمين في ملتهم: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ...).

4- نهى الإسلام أتباعه أن يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِلَّهِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ...). .. وسماهم الله في 31 موضع بأهل الكتاب، ولم يمح عنهم هذا الشرف الذي يحبون أن يتمثلوا به .. ولم يتعامل أهل الكتاب مع المسلمين إلا كأصحاب دين وثني واستمروا ضدهم بالحرب والإيذاء: (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ...). وكان ولا يزال الأذى منهم مستمرا في مقدساتنا .. في رموزنا .. في وجودنا .. ابتداء من المدينة مع اليهود .. مرورا بالحروب الصليبية مع النصارى .. وانتهاء بكليهما اليوم.

* استخلاص النتائج:

والسؤال المهم هنا لماذا هذا التناقض؟ إذا كان ميل المسلمين إلى المودة والعدل مبررا بالتأليف وإقامة الحجة وبجامع المشتركات الإيمانية التي أحرى بأهل الكتاب أن يتبعوها .. فلماذا لا يفعل أهل الكتاب الشيء نفسه مع المسلمين بما أنهم أهل كتاب، تجمعهم بالمسلمين وحدة المصدر ومشاركات عقديّة؟

الجواب: المواقف تفسر من منطلق كل فريق.

أما المسلمون فلأن هذا أخلاق دينهم وتعاليم ربهم، والأصل الانفتاح على الآخر، وعدم مجابهته بالعداء بدون ضابط العدل والحق، ويرون أن التقاءهم مع أهل الكتاب بوحدة المصدر كفيلا أن يقربهم إلى الإيمان بالدين الخاتم فيكونون للمسلمين سندا وعونا في نشر دين الله .. غير أن منطلق أهل الكتاب ليس من منطلق ديني، بل من منطلق دنيوي، إذ لم يبق للدين من معنى سوى أنه يشكل لونا مهما من ألوان تميزهم عن الآخرين ويمنحهم صفة السماوية وصفة المقدس .. فانتهى إلى مجرد زيّ يتزيّون به ليجمّل حياتهم وسمعتهم وقد وجدنا من ذلك في الكتاب الكريم قولهم:

- (نحن أبناء الله وأحباؤه) هذه مكانتهم الإلهية التي منحوها لأنفسهم على بقية الخلق، فتفسيرهم للتاريخ أو تفسير عنصرى بالدرجة الأولى والدين وظيفة تلميعية.

- وقولهم: (ليس علينا في الأميين سبيل) لن يؤخذنا الله بما نفعل بالعرب .. أطلق الله أيدينا في أن نفعل بهم ما نشاء.

لم يعد الدين عندهم منبع هداية .. وميزان عدل .. ومعيار شرع، لذلك يشعرون بالغيرة والحسد ممن جاء ليجردهم من حيازتهم للدين كما ذكر الله (حسدًا من عند أنفسهم) (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ...) فالدين عندهم حقوق محفوظة للابتزاز والاستكبار في الأرض، وليس لله من مهمة سوى الدفاع عن مصالحهم تعالى عن ذلك .. ولو كانوا يعملون للدين لا يستعملونه .. ويخدمونه لا يستخدمونه، لكان في ظهور موحدين إلى جانبهم عون لمهمتهم، وبشارة لتعزيز موقفهم من الكفار الوثنيين، وعضد يساعدهم على نشر دين الله وتعبيد الناس لخالقهم.

فعلام موالاة قوم ناصبوا الإسلام والمسلمين العدا بغير علة موجبة سوى خوف على نفوذهم الديني بعد أن انحرفوا عن جوهر سألته وجعلوه مطية لأمانيتهم وأهوائهم؟ ولذلك انصب غضبهم على أهل دين التوحيد لأنه جاء ينهي لعبة البيع والشراء بكتاب الله وآياته، وبسبب فكرة الحيازة الخاصة للدين لم ينل منهم أهل دين من حرب تاريخية متواصلة كما نال منهم المسلمون.

وينسحب هذا على كل من يرغب في الحصول على امتيازات الدين لأداء خدمات دنيوية عامة من لقب ظل الله في الأرض .. إلى الممثل الحصري لإرادته .. إلى حامل راية الحق .. إلى الممثل الوحيد للمسلمين .. وهو إنما يعني به الدين الوظيفي الذي يمنحه مكاسب وامتيازات، لا الدين الذي يحمل هم نشره، وتثبيت دعائمه .. وتطبيق حدوده بميزان العدل على الجميع .. فهذا أمرٌ مكلف لمن يحمله بحق .. لذلك يجمع هؤلاء قاعدة بيانات دينية مشتركة تبدأ وتنتهي بصراع المصالح وتدافع على النفوذ والاستحواذ .. فالمؤمن من آمن بأحقيتهم في تعبيد البشر لملكهم .. والكافر من كفر بها، وليس الله، والدين، والنبوة، والشريعة إلا مترتبات لتعزيز ذلك الحق .. (.. قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين).



مظاهر الصدام الحضاري بين المسلمين وأهل الكتاب

تعددت أشكال الصراع الحضاري بين المسلمين وأهل الكتاب، وكما سبق في التأملة السابقة أن المسلمين لم يروا في أهل الكتاب في بداية ظهور الإسلام إلا عنوان اتصال ديني يلتقي مع ما هم عليه من الأسس والمبادئ .. ومُعتدًا يمكن أن يُستقوى به في وجه الوثنيين، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لأهل الكتاب الذين كانوا على النقيض، حيث حاربوا الإسلام بضراوة .. ونجمل ذلك في المظاهر التالية:

أولاً - ظهر أهل الكتاب كطرف منازع ابتداء .. وبدا موقفهم من الإسلام قائماً على التغلب فقد رؤوا فيه ديناً منافساً لهم على النفوذ الديني .. على سماوية الفكر .. وإلهية المصدر .. على خلافة الله في الأرض .. فمنهم خرج الأنبياء .. وفيهم نزلت الكتب .. ولهم شريعتهم وقبيلتهم التي تكسبهم صفة التميز، وترفعهم عن أصحاب الديانات الوضعية، وكلا الفريقين نظر إلى العالم كهبة إلهية .. لا كجمال رسالة سماوية .. بل رسالة أرضية تنتهي بتسخير الموجودات في محبة أبناء الله وأحبائه ولأن عيسى -عليه السلام- من بني إسرائيل فإن النصراري يقرون بتبعيتهم للموسويين (اليهود) ويسمون التوراة والإنجيل (الكتاب المقدس) فلا فرق عندهم بين تعاليم موسى وعيسى -عليهما السلام- فهم في المنتهى شيء واحد .. وحين حذرنا الله من موالاتهم قال: (بعضهم أولياء بعض) فهم متفقون على حرب الإسلام وإن اختلفوا في بعض التفاصيل.

- التصادم بين (عالمية) الإسلام و(عولمة) أهل الكتاب - حقائق وأرقام.

ثانياً- رأوا كذلك في الإسلام منازعاً لهم على النفوذ العالمي، فكل من اليهود والنصارى ينظران للعالم كملكية خاصة منذ عصور هيمنة الإغريق القديمة، ومنذ كتابة تلمود اليهود في السبي البابلي .. لذلك من عندهم تأتي مشاريع العولمة .. وفيهم أنشئت اليوم المؤسسات الدولية .. وبأيديهم تصاغ الأنظمة العالمية مثل النظام العالمي الجديد .. وليس المراد بالمجتمع الدولي في واقع الأمر سواهم .. المجتمع الذي يحكم العالم بعقلية الوصاية والهيمنة لاعقلية التشاركية .. وفي المقابل جاء الإسلام ب(العالمية) -مع فرق كما سيأتي- قال تعالى: (ليظهره على الدين كله) فهذا تصور عالمي شامل لجميع الأديان لا قومي خاص .. فالعالم مجال دعوته ووجهة خطابه مع حق الآخرين في الاختيار .. ولذلك قال: (ليظهره) ولم يقل ليلغيه، فالإظهار بقوة الحق، أما الإلغاء فيحق القوة .. وإنما قاتل المسلمون الفرس والروم لأنهم أعلنوا حربهم على الإسلام، وجاء القرآن (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه) أي معترفاً به ومهيماً عليه بنسخ شريعته فالإسلام دين عالمي، والكتاب المقدس شريعة دين

قومي خاص .. وبينما يبدأ القرآن بخطاب العالم (الحمد لله رب العالمين) وينتهي بصيغة الناس (قل أعوذ برب الناس) .. نجد التوراة والإنجيل تتحدث عن بني إسرائيل خاصة قال عيسى عليه السلام: "لم أرسل إلا لخراف بيت إسرائيل الضالة" (1) وكان أول طلب من موسى لفرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، وكانت تلك أظهر مهمة قرآنية لموسى عليه السلام.

على أن عالمية الإسلام مرتبطة بفكرة الاستبدال، ففي حين يخاطب المشترك الإنساني بمشروع إلهي عالمي يربطهم بخالقهم، ويصل دنياهم بآخرتهم فإن لأي فرد أو أمة الحق أن تحمله كرسالة إلهية فليس امتيازات ممنوحة .. ولا دين العرب وحدهم .. فلقد حكم العرب العجم وحكم العجم العرب .. وحكم الموالي في الدولة المملوكية سائر المسلمين بدون تحفظ، فهو دين عاملي لأسودهم وأبيضهم وعربهم وعجمهم ومواليهم وساداتهم .. أما العولمة التي هي مشروع أهل الكتاب فهي فكر عنصري إلغائي .. محور ثقافة أمة واحدة .. ومنزع تصورهم .. طبقوه بالهيمنة قديما وحديثا، وبخاصة النصارى .. وتختلف العولمة عن العالمية فـ(عولمة) على وزن (فوعلة) مثل قولية وحوكمة .. ففيها فاعل ومفعول .. فالفاعل هو المستلحق لطرف آخر بقوة الفعل استلحاقا ثقافيا، وسياسيا، واقتصاديا، لا علاقة للرسالة الإلهية بها .. بل هي تفكير قائم على الحيازة والاحتكار والتفكير السادي المطلق (وحديثنا عن التصور المؤسسي لا على الشعوب والأفراد).

إذا نحن أمام اتجاهين متعاكسين .. عالمية الإسلام وعولمة أهل الكتاب والتصادم كان وسيظل حتميا.

على أن كل طرف من اليهود والنصارى يحمل في ثقافته فكرة التميز عن الآخر بخصلتين لا يحملهما الصيني ولا الكوري ولا الأفريقي.

- أما اليهود فيرون أنهم يتميزون بـ:

أولا- أنهم (شعب الله المختار) كما سبق لأن فيهم أزهرت دوحه الأنبياء يوما وفضلهم الله على العالمين .. الخ

وثانيا- كل شيء خلقه الله فهو في محبتهم وخلق البشر الأغيار (الجويم) عبيدا لهم، وإنما خلقهم في هيئتهم ليسهل التعامل معهم؛ لذلك يتصرفون من هذا المنطلق وبها استحوذوا اليوم على عالميات كثيرة فما تسمعه من مؤسسات باسم (دولي) و(عالمي) و(أممي) في يد صهاينة الغرب واليهود ..

(1) (مت. 24:15).

وبقية الأمم مستلحقة بأساليب الترهيب والترغيب .. وهذا هو العلو الكبير الذي ذكره القرآن .. يتحكمون في مؤسسات مؤثرة كالإعلام .. والبنوك .. واحتياطي الذهب العالمي .. ووراء حكومات خفية كالماسونية التي تسهم في توجيه مسارات الفكر العالمي وتغيير منظومة القيم الإنسانية وتنتشر الحروب والفتن والفساد والعري .. وغير ذلك .

وأما النصارى فيرون أنهم يتميزون ب:

أولاً- بسماوية دينهم الذي هو أكثر تابعا في العالم.

وثانياً- بجنسهم الآري الأبيض النقي، فهم اللون الأجل .. والعقل الأكل .. وحق لهم بهذا أن يكونوا هم مركز العالم، وبقية شعوب العالم أطراف ومجال توسع وتوجيه .. وهذه الثقافة تركت أثرها على نظرة المؤسسات الرسمية للآخر منذ عهد الأسكندر الأكبر المقدوني أي منذ (القرن 4 ق م) الذي بسط نفوذه على حواضر العالم القديم من البحر (الأدرياتيكى) غربا إلى (نهر السند) شرقا، حتى ظن بعض علماء المسلمين أنه ذو القرنين الذي بلغ مطلع الشمس ومغربها، فوُقت الكثير من الشعوب والأمم تحت حكم الإغريق، واستمرت الشام وشمال أفريقيا خاضعة للحكم الغربي، إلى أن جاء الإسلام الذي حمل معه قاعدة المساواة بين الناس بأصل الخلق وغير المعادلة .. فجعل قُرب وبعُد المخلوق من الخالق معيارا للتفاضل وهذا أبرز أسباب العداء الموجه للإسلام على مر التاريخ .. لقد تحررت بالإسلام الكثير من الشعوب الملونة من نفوذ الرجل الأبيض، وحدث الصدام المتوقع، ولأول مرة بهذا الدين تتحول الشعوب المحكومة بالروم إلى حاكمة للروم ولما يزيد على عشرة قرون متتالية .. فأحدث بذلك توازنا بين إفراط المتبوع بذاته، وتقريط التابع لذاته ولك أن تدرك سر الهجوم المتواصل على الحركة التحررية للإسلام الذي اصطلح عليه بالفتوح الإسلامية فسموها غزوا، لأنهم يرون في غزو الروم للعالم حقا محفوظا لهم والوقوف في وجههم هو الغزو.

* عودة الهيمنة بضعف المسلمين:

ثم ما هو إلا أن ضعف المسلمون، وتداعت دولة الخلافة العثمانية، وامتلك الغرب زمام المبادرة حتى أعاد العالم مرة ثانية إلى وضعه الطبيعي في ثقافته، أي وضع التابع المستلحق لنظام المركز، وكانت غريزة الهيمنة قد نشطت أكثر من (ق16م) وحتى (ق20م) فاحتلوا قارتي أمريكا وأستراليا .. وفي العصر الحديث بعد أن نشروا طلائع الاستشراق أخضعوا جميع العالم للاحتلال المباشر مابين القرن (19-20) (عدا دويلات تعد بأصابع اليد الواحدة) .. وكانت آخر منطقة تتخلص من الاحتلال

الغربي المباشر هي منطقة (ماكاو) الصينية عام 1999م بعد أن خرجت منها البرتغال، فيما لاتزال فلسطين حتى اليوم تخضع لاحتلال أهل الكتاب وبالقوة القهرية.

* تقاسم آسيا وأفريقيا:

تم تقاسم كل من قارة آسيا وأفريقيا بين حكومات الجنس المنفوق .. فتوزعت أفريقيا بين بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وألمانيا، وأسبانيا، والبرتغال، وبلجيكا، ولم تتج دولة أفريقية من الاحتلال سوى دولة (البيبريا) التي لم تخضع للاحتلال المباشر بسبب خضوعها للحماية الأمريكية غير المباشرة .. وتقاسم الغرب عسكريا أيضا كل قارة آسيا .. ففي عام 1916 تم تقسيم الدول العربية بين (سايكس) وزير خارجية بريطانيا و(بيكو) وزير خارجية فرنسا التي سميت بمعاهدة (سايكس بيكو) .. ولم تخرج عن سيطرتهم سوى صحراء الجزيرة العربية .. وعند إنشاء مملكة آل سعود الثالثة عام 1902م كان ذلك بدعم عسكري مباشر من بريطانيا لتخضع بعد ذلك للنفوذ الأمريكي كبقية دول الخليج.

في حين بسط الغرب نفوذه على بقية دول آسيا بما فيها (اليابان) التي خضعت للهيمنة الأمريكية بعد هزيمتها بضرب أمريكا لمدينتي هيروشيما وناجازاكي بالقنابل النووية .. واحتلت (الصين) رغم ثقلها البشري وقوتها العسكرية، فقد دخلت بريطانيا وفرنسا (بكين) عام 1860م بعد مقاومة الصين لحرب الأفيون من قبل بريطانيا .. واحتفظت بريطانيا بعدها بمنطقة (هونغ كونغ) التي عادت للصين عام 1997م .. وأخضع الاتحاد السوفيتي (نصارى الكنيسة الشرقية) نحو 16 جمهورية إسلامية للاحتلال المباشر، فبلغت مساحته سدس العالم.

ولقد احتلت بريطانيا وحدها في أوقات متفاوتة 200 دولة من العالم بنسبة 90% وكانت يوما لا تغيب عنها الشمس .. ودولة واحدة هي أمريكا تتواجد بقواعدها الحربية اليوم في 130 دولة تتبع نفوذها الاقتصادي والسياسي والثقافي.

وحتى اليوم غالب دول العالم غير مستقلة سياسيا وثقافيا واقتصاديا بدرجة أو بأخرى، أربع دول غربية عظمى بيدها مصير الأمم هكذا قالوا ومنحوا أنفسهم حق إبطال القوانين (حق النقض الفيتو) وسموا المجلس الحربي الذي يديره (مجلس الأمن) كعادتهم في صناعة زخرفة الأسماء، ومعهم دولة واحدة من خارج النادي الاستعماري التاريخي هي الصين التي كانت إحدى مستعمرات فرنسا وبريطانيا .. وما عسى أن تصنع دولة واحدة ولا يزال جزءا من أراضيها تحت الوصاية وهي تايوان .. تشكل هذه الدول غرفة عمليات حربية ومن لا تخضع من دول (الهامش) لإرادة دول (المركز) حوربت بأجيال جديدة من الحروب، التي منها الحصار الاقتصادي .. الذي تعرضت له دول ككوريا

الشمالية، والعراق، وإيران، والسودان، وكوبا، وفنزويلا .. وصحيح أن دولا أثبتت قدرتها على انتزاع القرار مثل الصين، وتركيا، وكوريا الشمالية، وكوبا، إلا أن الصحيح أيضا أن فكرة العالم موضع احتواء لن تترك لأي دولة الاستقلال الحقيقي دون حرب التآمر .. إن ذلك في السادية الغربية بدرجة دين ثابت تم تأكيده بإنتاج كل الأسلحة المحرمة على غيرهم .. الحلال لهم وحدهم .. وخروج أي دولة عن واقع الاحتواء يظل مسألة وقت حتى تحكم لها الشراك.

على أن عقيدة الهيمنة الغربية لا يعني بحال أنها قدر الشعوب الضعيفة بقدر ما هي (استراتيجية) متوارثة بين زعمائه وأدبيات مفكره التي لا يتسع الحيز لسردها هنا .. وأن الحقيقة التاريخية الثابتة أنه لم ولن يتصدى لـ(عولمة الغرب) سوى (عالمية الإسلام) التشاركي الذي حصّن أتباعه من قابلية هيمنة أهل الكتاب، وحرّم موالاتهم (كما سيأتي) .. من أجل ذلك هو اليوم مجال حربهم الشرسة وتحت اللافتة التي رفعوها ضده إسلام فوبيا (الخوف من الإسلام) ومن حقهم أن يخافوا منه بما أنه الند الوحيد القادر على تحجيم هيمنتهم التي لاحدود لها.

ولتغيير المعادلة فإن السيطرة الاحتلالية الغربية تقوم على مبدأ مهم وهو سياسة الاحتواء، والمراد بقاء كل شيء في الدول المستهدفة تحت التتبع والمراقبة والسيطرة فيتم الضغط لتقريب العملاء والضغط تحت عدة مسميات لإبعاد من ليس معهم أو يشتم منهم روح المثابرة والشعور بالانتماء إلى الوطن والهوية، ومن مظاهر التتبع تحين الفرص لتوجيه ضربات مميتة لأحزاب ذات توجهات إسلامية ووطنية حقيقية.

ولعلاج ذلك يجب إغراق الدوائر بالعناصر ذات التاريخ النظيف والسلوك العروبي والإسلامي المعتر بذاته، وإغراق الواقع بالمؤسسات الوطنية والإسلامية المعتدلة والنابهة، التي تدرك فن التدافع السلمي ومعارك السيطرة الدبلوماسية على مراكز النفوذ لضمان جودة الانتماء النزيه والعاذل، والذي من شأنه إعاقة آلية الإقصاء الهادي وتوفير البدائل العميلة وإلى حد اليأس، ويلزم إلى جانب ذلك تنويع العلاقات بين الأقطاب المتحكمة في العالم، ودوما تبقى الأضمن تلك الدول التي ليس لها مع الإسلام صراع حضاري، ولا علاقة ضدية كما هو الحال بالنسبة لعلاقة الإسلام بالغرب وطبقا لما نص عليه مؤتمر كامبل باناريمان في بريطانيا عام 2007م أن العرب عدو الغرب ويجب إضعافه .. والأضمن من الجميع هي الدول الإسلامية المقتررة والناهضة التي يمكن تكوين قطب إسلامي معها والتخلص من الاستعمار الخفي والقذر وتقليم أظافر ونزع أنيابه.



فلسفة الرؤية الغربية لمواجهة الإسلام

في التأملة السابقة تناولنا أحد أهم الأسباب في تحذير القرآن الكريم من موالاة أهل الكتاب، وهو أن لهم مع الإسلام قصة تنافس .. وذلك أن الإسلام عالمي بطبيعة هدفه الرسالي، وأن لليهود والنصارى تصورا عالميا أيضا ولكن من باب الهيمنة والاستحواذ، وليس الدين فيه مخدوما بل مستخدما .. وقد دلت على ذلك بتاريخ الروم الاحتلالي من قبل مجيء الإسلام وحتى العصر الحديث .. كما لا تخفى مراكز النفوذ اليهودي العالمي المعروف .. وكنت قد اعتمدت في ذلك على الذاكرة التاريخية، ثم وجدت أن الموضوع من الأهمية بحيث يتطلب الاستدلال من كلام وتصريحات ونبوءات بعض سياسي الغرب ومفكرهم وقساوستهم التي تدل على نظرة حاكميتهم للعالم، بل وثقافة الإرهاب الوجودي ضد الآخرين .. لذلك عمدت إلى قراءة بعض أبرز الكتب الغربية عن الخلفية السياسية التي توجه زعماءهم وأهمها كتاب صامويل هنتنجتون (Samuel Huntington) (صدام الحضارات) الشهير الصادر عام 1995م .. وسيكون هذا الكتاب معتمد نقاش الحلقات الأربع التالية بالنظر إلى أهميته ككتاب صدر من كاتب سياسي كبير مقرب من رؤساء البيت الأبيض، وبات يوجه الكثير من السياسات اليوم .. وقد رافقت إصداره ضجة إعلامية ترويجية استخباراتية كبيرة ليصبح في نظري أخطر كتاب سياسي صدر في القرن العشرين .. وخطورة هذا الكتاب تكمن في أنه في الظاهر يقدم خارطة ثرية لصراع حضارات العالم وعلى أساس ديني، غير أن محصلته تتضمن رسائل مفخخة تجاه العالم الإسلامي تحديدا عن طريق شيطنتهم، والتدليس عليهم، وقلب أوجه الحقائق، وتهويل أنشطة راديكالية إسلامية وإخفاء نظائرها في الغرب كما سنرى بعون المولى.

بالإضافة إلى كتب أجنبية أخرى تناولت هذا الموضوع ومنها كتب الموظفة السابقة في البيت الأبيض (غريس هالسل) وغيرها .. وقد خرجت الدراسة بعناوين تنشر تباعا في ست حلقات وعلى النحو التالي:

- أولا - عقيدة الهيمنة على العالم لدى أهل الكتاب.
- ثانيا- خوف أهل الكتاب من الإسلام كدين يحول دون أطماعهم.
- ثالثا- ترهيب العالم من الصحوة الإسلامية ودعمهم للتنظيمات الغربية الدينية المتطرفة.
- رابعا - تزييف المعلومات عن قضايا المسلمين وشيطنتهم وقلب أوجه الحقائق.
- خامسا- الإرهاب السياسي ضد قادة الدول الإسلامية والتشجيع على الاستبداد.
- سادسا- التناغم مع نبوءات تدمير العالم في معركة (هرمجدون) بالأسلحة النووية وبخاصة المسلمين وروسيا .. ونبدأ بالعنوان الأول:

1 - عقيدة الهيمنة على العالم لدى أهل الكتاب:

يقول المسلم النمساوي محمد أسد: "إن اليونانيين والرومانيين نظروا إلى أنفسهم على أنهم هم وحدهم المتمدينون . أما كل من كان أجنبيا عنهم، وعلى الأخص أولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر المتوسط، فقد كان اليونانيون والرومانيون يطلقون عليهم لفظة البرابرة . ومنذ ذلك الحين والأوروبيون يعتقدون أن تفوقهم العنصري على سائر البشر أمر واقع . ثم إن احتقارهم إلى حد بعيد أو قريب لكل ما ليس أوروبيا من أجناس الناس وشعوبهم قد أصبح إحدى الميزات البارزة في المدنية الغربية"⁽¹⁾ ويبقى تخطيط شكل العالم من مهمتهم .. يقول هنتجتون: "في سنة 1919 كان « وودرو ويلسون » والويد جورج « وواجورج كليمنصو » يتحكمون في العالم بالفعل . وهم جالسون في باريس، قرروا ما هي الدول التي يجب أن توجد، وما هي التي لا ينبغي لها، ما هي الأقطار الجديدة التي تنشأ، ما هي حدودها (من يحكمها!)، وكيف يجب أن يقسم الشرق الأوسط وأرجاء أخرى من العالم بين القوى المنتصرة"⁽²⁾ .. يقول رضا هلال في كتاب (المسيح ونهاية العالم): "جاء الرئيس بوش، بعد انتصار أمريكا في حرب الخليج، ليعلن عن إقامة النظام العالمي الجديد « تجسيدا لفكرة نهاية التاريخ، بنشر القيم الأمريكية على امتداد العالم، أي بمعنى آخر « أمركة العالم » . ثم جاء كتاب صمويل هانتجتون عالم السياسة الأمريكي، الذي حمل عنوان « صدام الحضارات : إعادة تشكيل النظام العالمي »، والصادر عام 1996، ليتنبأ بأن نهاية التاريخ هي نهاية صراع بين الحضارات، أو بمعنى أدق صراع بين الحضارة الغربية المسيحية وبقية العالم"⁽³⁾ .. يقول والتر أمكدوجال في كتابه (أرض الميعاد والدولة الصليبية) "إن مهمتنا بعد الحرب الباردة هي إعادة تحديد العالم من حولنا وليس إعادة تحديد تقاليدنا الدبلوماسية"⁽⁴⁾.

ولا تذهب بعيدا عند سماعك ل: (النظام العالمي الجديد) و(الشرعية الدولية) و(المجتمع الدولي) .. الخ فإنما ينتهي معناها في الأخير إلى تحكمهم في العالم فلديهم هم حق إبطال القوانين الإنسانية الفيتو (حق النقض) عدا الصين .. وما هو تصورهم للنظام العالمي الجديد؟ إنه النظام الذي يهيء

(1) الإسلام على مفترق طرق ل محمد أسد ليوبلد فايس سابقا (Leopold Weiss). ترجمة: عمر فروخ- دار العلم للملايين- بيروت-1987م ص 52).

(2) صراع الحضارات أو صدام الحضارات لصامويل هنتجتون (Samuel Huntington) ترجمة: طلعة الشايب - الطبعة الثانية 1999م - الصادر في سنة 1996 ص 150).

(3) (المسيح اليهودي ونهاية العالم ل (رضا هلال). مكتبة الشروق القاهرة - الطبعة الأولى 1421هـ-2000م. ص 216).

(4) أرض الميعاد والدولة الصليبية ل والتر أمكدوجال (Walter McGogal). - دار الشروق- الطبعة الأولى 2000م. ص 21).

لمجيء عيسى الذي سيحكم الأرض كلها ألف عام ولا يبقى على الأرض سوى المسيحيين حسب الدراسة .. ومن الذي سيدير العالم؟ يقول القس الأمريكي بات روبرتسن في كتابه (النظام العالمي الجديد 1995): "إن النظام العالمي الجديد هدفه إقامة حكومة عالمية واحدة . وتقف وراء ذلك الهدف مؤسسات مثل مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك، وصحيفتا نيويورك تايمز وواشنطن بوست وجامعة هارفارد، والماسونية، والأمم المتحدة، وجماعة العصر الجديد . (ويعتقد أن الحكومة العالمية ستؤسس ديانة عالمية توفق بين المعتقدات الدينية، [وقد ظهر من خلال مشروع الديانة الإبراهيمية في دولة الإمارات]) وستشرع قانونا عالميا، وسيكون لها جيش عالمي، وسيصبح الفرد في النظام العالمي الجديد مواطنا عالميا تسيطر عليه تكنولوجيا الكمبيوتر والأقمار الصناعية التي ستظهر حركة كل مواطن في كل أنحاء الأرض وأن النظام العالمي الإلهي سيأتي أقرب جدا مما نعتقد، فيسوع المسيح قال إن « ملكوت الرب قريب » والرب يعمل بحسب الجدول الذي وضعه لنهاية الزمان . (إن روبرتسن يطالب بالعودة إلى إله يعقوب : « أنتم تسجدون لما لستم تعلمون . . لأن الخلاص هو في اليهود . . »⁽¹⁾ .. ويفصل روبرتسن نبوءته بأن النظام العالمي الجديد يعد لحكومة عالمية تفسح لها الطريق الولايات المتحدة"⁽²⁾ .. وهذا ما لانكاد نجده في الحضارة (الكونفوشيوسية) الصينية والحضارة الهندية، فالرب في تصور أهل الكتاب خلق الخلق في محبة أبناء الله وأحبائه لاغير فهم الذين يتحكمون في بدئه ومنتهاه كما سبق .. وهل لبقية العالم معهم حظ أو نصيب؟

تتقل الموظفة في البيت الأبيض في عهد الرئيس رولاندريجان (غريس هالسل) عن المفكر الدكتور/ جون فالوورد أستاذ صاحب أشهر كتاب لنهاية التاريخ هول ليسني وهو قادم لمقابلة الرئيس . قال فالوورد وهو يحمل كتابا مقدساً كبيراً : « إن الله لا ينظر إلى جميع أبنائه بنفس الطريقة » . فسألته : ماذا عن المليار مسلم في العالم ؟ فأجاب : لقد أخبرني الله أن له مخططاته لليهود وللمسيحيين، وليس لغيرهم ما لم يصبحوا مسيحيين لقد أعد الله خططا سماوية للمسيحيين وخططا أرضية لليهود"⁽³⁾.

وإذ يربط الكثير من ساسة الغرب ومفكريهم بين مركزية حكمهم للعالم وبين حروب الفناء فإن ذلك يأتي من منطلق ديني في المقام الأول ورائه خدمة عالم المسيحية، يؤكد هذا البعد صامويل هنتجتون .. يقول: "الدين محوري في العالم الحديث، وربما كان القوة المركزية التي تحرك البشر وتحشدتهم"⁽⁴⁾ "اللغة والدين هما العنصران الرئيسان في أي ثقافة أو حضارة، وإذا كانت هناك حضارة

(1) (يوحنا 2:44).

(2) (ينظر كتاب المسيح اليهودي نهاية العالم " (ص 224).

(3) كتاب يد الله لغريس هالسل (Grace Halsal) - ترجمة محمد السماك - دار الشروق ص (50).

(4) (المصدر السابق ص10).

عالمية تظهر أو تبرز فلا بد أن تكون هناك ميول نحو ظهور لغة عالمية ودين عالمي .. (1) .. لكن الدين الذي يجب في نظرهم أن تمضي نبوءاته على العالم هو دينهم وثقافتهم، يقول: "لكي تتجح يجب أن تكون مثلنا .. طريقنا هي الطريقة الوحيدة" (2) .. ومن أجل ذلك فإن الحرب الدينية الغربية مركزة على الدين الإسلامي الذي يمثل تحديا كبيرا أمام أهدافهم.

وإنها لاستراتيجية ومنهج ثابت أعدوا له من أول بزوغ فجر الإسلام وفي العصر الحديث باتفاق دول الاحتلال الغربي الجديد ولم يكن نتيجة عوامل خارجة عن هذه الخط الممد والمرسوم غالبا، يجليه ما حدث عام 1907م في بريطانيا، ففي هذا العام توصلت اللجنة التي انبثقت عن مؤتمر كامبل عام 1905، الذي دعا إليه (هنري كامبل بانيرمان) بدعوة سرية من حزب المحافظين البريطانيين الذي يرأس حكومته هنري هذا، واستمرت جلساته حتى 1907، توصلت هذه اللجنة إلى نتيجة مفادها: "إن البحر الأبيض المتوسط هو الشريان الحيوي للاستعمار! لأنه الجسر الذي يصل الشرق بالغرب والممر الطبيعي إلى القارتين الآسيوية والأفريقية وملتقى طرق العالم، وأيضا هو مهد الأديان والحضارات". والإشكالية في هذا الشريان هو أنه كما ذكر في الوثيقة: "ويعيش على شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص شعب واحد تتوفر له وحدة التاريخ والدين واللسان". وأبرز ما جاء في توصيات المؤتمر في هذا المؤتمر:

1- إبقاء شعوب هذه المنطقة مفككة جاهلة متأخرة:

وعلى هذا الأساس قاموا بتقسيم دول العالم بالنسبة إليهم إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: دول الحضارة الغربية المسيحية (دول أوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا) والواجب تجاه هذه الدول هو دعم هذه الدول ماديا وتقنيا لتصل إلى مستوى تلك الدول.

الفئة الثانية: دول لا تقع ضمن الحضارة الغربية المسيحية ولكن لا يوجد تصادم حضاري معها ولا تشكل تهديدا عليها) كدول أمريكا الجنوبية واليابان وكوريا وغيرها) والواجب تجاه هذه الدول هو احتواؤها وإمكانية دعمها بالقدر الذي لا يشكل تهديدا عليها وعلى تفوقها

الفئة الثالثة: دول لا تقع ضمن الحضارة الغربية المسيحية ويوجد تصادم حضاري معها وتشكل تهديدا لتفوقها (وهي بالتحديد الدول العربية بشكل خاص والإسلامية بشكل عام) والواجب تجاه تلك الدول هو حرمانها من الدعم ومن اكتساب العلوم والمعارف التقنية وعدم دعمها في هذا المجال ومحاربة أي اتجاه من هذه الدول لامتلاك العلوم التقنية

(1) المصدر السابق ص 98.

(2) المصدر السابق ص 121.

2- ومحاربة أي توجه وحدوي فيها:

ولتحقيق ذلك دعا المؤتمر إلى إقامة دولة في فلسطين تكون بمثابة حاجز بشري قوي وغريب ومعادي يفصل الجزء الأفريقي من هذه المنطقة عن القسم الآسيوي والذي يحول دون تحقيق وحدة هذه الشعوب الا وهي دولة إسرائيل واعتبار قناة السويس قوة صديقة للتدخل الأجنبي وأداة معادية لسكان المنطقة فصل عرب آسيا عن عرب أفريقيا ليس فقط فصلاً مادياً عبر الدولة الإسرائيلية، وإنما اقتصادياً وسياسياً وثقافياً، مما أبقى العرب في حالة من الضعف⁽¹⁾.



(1) ينظر موسوعة الويكيبيديا كلمة مفتاحية (كاميل بانيرمان).

2- خوف أهل الكتاب من الإسلام كدين يحول دون أطماعهم.

من نصوص الرؤى السابقة يتبين أن زعماء الغرب لم يقبلوا بغير قيادة العالم بأي وجه .. وليس الطموح بحد ذاته مذمّة ولكن المذمة قد تكون في طرق تحقيقها، ومن الواضح أن المجتمع الغربي بسببه إلى اكتشاف وسائل العصر الحديث بات يقود اليوم العالم بامتياز .. غير أنه وبفضله في الحفاظ على منظومة القيم العليا للإنسانية بل ورسمه خططا استراتيجية لتدميرها .. وقيادته العالم بشكل تصادمي حكمي (فمن ليس معنا فهو ضدنا) كما عبر عن ذلك جورج بوش الابن في أحد تصريحاته بعد ثمانية أشهر من دخوله البيت الأبيض، أقول إن هذا التعسف سيقود إلى انتخاب البشرية البديل الأصح إذ باتت الثقافة الغربية كابوسا على قواعد العدالة الدولية، وعلى الأسرة والمجتمع، وعلى العلاقات المدنية .. يقول صامويل هنتجتون: "المشكلة الرئيسية في العلاقات بين الغرب والباقي هي التناظر بين جهود الغرب - وبخاصة أمريكا - لنشر ثقافة غربية عالمية"⁽¹⁾ .. لكن أي ثقافة يقودون المجتمعات إليها؟ ليست ثقافة العلاقة الجنسية المثلية ولا نشر الإباحية المجنونة هي آخر إطلاقاتهم، ولا مسألة الإجهاض والإنجاب قبل الزواج، ولا الجندرة بل سيصلون إلى زواج المحارم ولن يتركوا قيمة حتى يحطموها .. على أن كل هذا يتضاءل أمام ثقافة نهاية التاريخ الذي تنتهي البشرية بحرب إبادة هم الذين ينفذونها باسم الرب .. ويرون أن الإسلام كثقافة هو عدوهم الأول، لأنه يمتلك قوة تدافع فكرية تحول دون ثقافة تفكيك نظام الإنسانية.

صامويل هنتجتون مؤلف كتاب صدام الحضارات يصور هذه الثنائية الضدية بقوله: "كان الصراع نابعاً من أوجه التشابه بينهما، كلاهما دين توحيد ويختلف عن الديانات التي تقول بتعدد الآلهة ولا يستطيع أن يستوعب آلهة آخرين بسهولة : وكلاهما ينظر إلى العالم نظرة ثنائية نحن وهم .. كلاهما يدعي أنه العقيدة الصحيحة الوحيدة التي يجب أن يتبعها الجميع، كلاهما دين تبشيري يعتقد أن متبعيه عليهم التزام بهداية غير المؤمنين وتحويلهم إلى ذلك الإيمان الصحيح . الإسلام منذ البداية انتشر بالفتح، والمسيحية كانت تفعل نفس الشيء عند وجود الفرصة، مفهوما « الجهاد » و « الصليب » المتوازيان لا يشبهان بعضهما الآخر فقط وإنما يميزان العقيدتين عن الأديان العالمية الأخرى . الإسلام والمسيحية مع اليهودية لهم كذلك نظرات غائية للتاريخ على عكس النظرات الخلقية أو الساكنة السائدة في الحضارات الأخرى"⁽²⁾.

(1) صدام الحضارات (ص.293).

(2) نفس المصدر السابق ص(340-341).

وليست هذه الثنائية موضع تدافع فكري وحسب بل وموضع تنازع قيادي فلا بد من طرف فاعل وآخر مفعول .. طرف حاكم وآخر محكوم .. يقول: "إن أسباب الصراع المتجدد بين الإسلام والغرب توجد في الأسئلة الأساسية للقوة والثقافة . من الفاعل ومن المفعول به ؟ « ، « من الذي يجب أن يحكم، ومن الذي يجب أن يكون محكوماً ؟ » القضية المركزية للسياسة كما حددها « لينين » هي جذر الخلاف بين الإسلام والغرب ⁽¹⁾ وهذا التصور بالنسبة للأيدلوجية الإسلامية ليس دقيقاً، فعالمية الإسلام لايعني تحكّم شعب أو أمة في أخرى واستلحاقها سياسياً واقتصادياً وثقافة خاصة .. ونشر الإسلام وتعبيد الخلق للخالق هو الهدف الأول وليس الهيمنة الدنيوية ونشر الثقافات العرقية .. واتباع خطوات الشيطان في حرف البشرية عن فطرتها .. فهذا شأن الغرب الذي يهيمه تغريب العالم نمطياً وسلطوياً .. سواء باسم الدين أو تحت أي مسمى.

ويشير المؤلف إلى " تأكيد الإسلام مهما كان شكله المذهبي عن رفض المؤثرات الأوروبية والأمريكية على المجتمع المحلي وعلى السياسة و الأخلاق .. إنهم يؤكدون على الاختلافات بين حضارتهم والحضارة الغربية وعلى تفوق ثقافتهم والحاجة إلى الحفاظ على ثبات تلك الثقافة ضد الهجوم الغربي ⁽²⁾ ويتابع "المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام : فهم حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته وهاجسه ضالة قوته ⁽³⁾ إذن الإسلام كمنظومة غير قابلة للاحتواء هو مشكلتهم، لذلك طوروا نعتهم وعلى لسان بوش الصغير من الإسلاميين الإرهابيين .. إلى الإرهاب الإسلامي .. إلى الإسلام الإرهابي لأنه يتسم بالاستعصاء .. والمشكلة (في ضالة قوته) وماذا لو كان قويا ماذا سيفعل بكم أيها الغرب؟! .. بنتيجة السياق.

والحقيقة أن الإسلام ليس غريباً على الفطرة الإنسانية، فلم يأت إلا ليحسنّ الحسن، ويقبّح القبّيح .. الثقافة الغربية هي الصادمة للفطرة البشرية لا الإسلام .. يضيف هنتجتون: " يتجلى التحدي الإسلامي في الصحوة الثقافية والاجتماعية والسياسية العامة للإسلام في العالم الإسلامي وما يصاحبه من رفض لقيم الغرب ومؤسساته الاجتماعية ⁽⁴⁾ وهل يقتضي الاستقلال الثقافي تحدياً للغرب وجدلية صراع وصداما بالضرورة؟ هكذا تبدو نزعة التحكم والفرض، ويفسرون منحى الثقافة نحو المحليات بالتهديد الخطير الذي يجب أن يتصدى له الغرب، حتى وصلوا إلى مقولة التدخل من أجل حماية المصالح، فصار فرض ثقافتهم مصالح .. بل وصار إلغاء الآخر من حق الدفاع عن النفس ..

(1) نفس المصدر السابق ص342.

(2) نفس المصدر السابق ص345.

(3) نفس المصدر السابق ص352.

(4) نفس المصدر السابق ص169.

يتابع: "ويمكن أن نرى رد الفعل تجاه الغرب ليس فقط في الاندفاع الفكري الرئيسي للصحة الإسلامية، بل وفي التحول في مواقف حكومات الدول الإسلامية تجاه الغرب . الحكومات التي جاءت بعد الاحتلال مباشرة كانت غربية عموماً في أيديولوجيتها وسياساتها وموالية للغرب في سياستها الخارجية مع استثناءات جزئية مثل الجزائر وإندونيسيا" (1) .. كأن التبعية للغرب قدر المسلمين؟ ولا ينسى هنتجتون أن يسند الخطر النووي إلى الإسلام وليس إلى الغرب وبطريقة إقحام مفضوحة؟! فبعد حديثه عن انهيار الشيوعية يقول: "وإذا اتضح أن الغرب لن يكون قادراً على المحافظة على تابعه من الأنظمة الإسلامية، فالمرجح أنهم سيلقون نفس المصير .. إنهم ينظرون إلى الإسلام كمصدر للانتشار النووي والإرهاب" (2)!

ويقدم نتائج استطلاع غاية في الغرابة وهي أن نسبة كبيرة من السياسيين الأمريكيين يرون في ثلاث دول عربية وإيران خطراً عليهم، أي خطر على (أقوى دولة في العالم وراءها مليارات مسيحي يمتلكون آلاف القنابل التدميرية) إنه صناعة العداء الوهمي للغرب في زمن اللافتوحات .. يقول هذا اليهودي المعتق: "في نوفمبر 1994 عندما طرح سؤال إذا ما كان « الانبعاث الإسلامي » يعتبر خطراً على مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط مثلاً، كانت إجابة 61 % من عينة قوامها 350 أمريكي من المهتمين بالسياسة الخارجية هي « نعم .. . الدول الأربع التي يخشاها الشعب الفرنسي أكثر من غيرها كانت كلها إسلامياً : العراق 52%، إيران 35 %، ليبيا 26%، الجزائر 22 %" (3) " الإسلام هو الحضارة الوحيدة الذي جعل بقاء الغرب موضع شك فعل ذلك مرتين على الأقل" (4) " كون الإسلام جعل الغرب موضع شك إن كان من ناحية الدين ففيه شك فالقاعدة (لا إكراه في الدين) وإن كان من ناحية المركز الحاكم للأمم فربما نعم وهذه مسؤولية ليس الإسلام وحده بل الأمم جميعاً، وهذه روسيا اقتحمت أوروبا من ناحية أوكرانيا كما تقول عقيدتها العسكرية لإنهاء مركزية الغرب فمن ذا الذي خول الغرب بالتحكم في العالم؟

ويرسم صامويل هنتجتون في كتابه صدام أو صراع الحضارات سيناريو ماكراً وهو: "إذا كان المسلمون يزعمون أن الغرب يحارب الإسلام، والغربيون يزعمون أن الإسلام يحارب الغرب يصبح من المعقول أن ما يدور شيء يشبه الحرب إلى حد كبير، في شبه الحرب هذه يعتمد كل طرف على جوانب قوته الخاصة وعلى جوانب الضعف لدى الآخر، من الناحية العسكرية هي حرب إرهاب ..

(1) نفس المصدر السابق ص 347.

(2) نفس المصدر السابق ص 348.

(3) المصدر السابق ص 348.

(4) المصدر السابق ص 339.

المجندون الإسلاميون المخلصون لأفكارهم يستغلون المجتمعات المفتوحة في الغرب ويزرعون السيارات المفخخة في أهداف مختارة (!؟). العسكريون الغربيون المحترفون يستغلون السماوات المفتوحة في الدول الإسلامية ويلقون القنابل المدمرة على أهداف مختارة، المشاركون الإسلاميون يخططون لاغتيال شخصيات غربية مهمة (!؟)، الولايات المتحدة تتآمر لقلب الأنظمة الإسلامية المتطرفة⁽¹⁾ إن خطورة هذا السيناريو الذي نحتة من خيال الشيطان تكمن في أن الذي يدس القنابل ويغتال الشخصيات طرف لا يمكن رؤيته، وقد يكون مدبرا .. وفي المقابل شرعنة ضرب الدول والشعوب الإسلامية البريئة بأسلحة الدول المتطورة والحديثة بحجة الدفاع عن النفس.

نعم إن العرب والمسلمين غير راضين عن سياسة الغرب الظالمة من غير شك وكثير من شعوب العالم، غير أن حديث الكاتب ليس عن نزاع حقوق أو حدود بل عن صراع وجود .. عن صدام حضارة المسلمين بحضارة المسيحيين .. فصرف القارئ عن مظالم الغرب وأبرزها زرع كيان غريب في جسد الأمة الذي لايشير إليه صامويل ذو الأصول اليهودية.



(1) المصدر السابق ص(351).

3- ترهيب العالم من الصحوة الإسلامية ودعمهم للتنظيمات الغربية الدينية

المتطرفة.

منذ حملات الاستشراق التي نحت بالحروب الصليبية منحى اعتمد الغرب الفكر سلاحا حضاريا بعد أن فلت سيوف جيوشهم .. استمرت منهجية الدس وتزوير الحقائق في دراسة فكر الآخر كجزء من الحروب الفكرية الموجهة حتى الآن .. فلاتزال الكثير من الأقلام الغربية وبالذات الرسمية وشبه الرسمية منها تنتهج هذا الأسلوب .. وقد انعكس هذا على آلات الإعلام الضخمة وبعض مخرجات أفلام هوليوود .. ويكفي أن نعلم أن بالكذب أحتلت شعوب .. من شعب الهنود الحمر .. إلى فلسطين .. إلى العراق .. الخ

صامويل هنتنجتون أضاف إلى ما سبق أسلوب التهويل من الخصم، وإذا كان قد أسس نظرية صدام الحضارات على أساس الثقافة والدين كما قال: "أصبحت الهوية الثقافية هي العامل الرئيس في تحديد صدامات دولة ما وعداوتها"⁽¹⁾ فقد قام برصد شديد لمظاهر تنامي الصحوة الإسلامية والتخويف منها كما لو أنها معامل تصنيع أسلحة دمار شامل، مع تجاهل قصدي للتطرف المسيحي واليهودي الرسمي والشعبي، حتى التطرف الهندوسي الذي أصبح اليوم يهدد استقرار شبه القارة الهندية صمت عنه وأصبح صراع الحضارات من طرف واحد.

وينقل عن دانييل بيبس ما فيه تصوير تخيلي غير واقعي عن مدى كره الإسلاميين للحضارة الغربية قوله: "وحدهم الأصوليون المتشددون هم الذين يرفضون التحديث والتغريب ويلقون بأجهزة التلفزيون في الأنهار ويجرمون ساعات المعصم (!؟)"⁽²⁾ .. ويقول هنتنجتون: "العالم الإسلامي يتزايد عداؤه للغرب"⁽³⁾ .. وما مظاهر هذا العدااء يا ترى؟ يقول: " في سنة 1989 كان يوجد في آسيا الوسطى 160 مسجداً عاملاً ومدرسة إسلامية واحدة في أوائل 1993 كان العدد قد أصبح عشرة آلاف مسجد وعشر مدارس"⁽⁴⁾ كثرت المساجد إذاً كثر التهديد للغرب، أو ليس المسلمون يتكاثرون كبقية الشعوب؟ .. أتساءل.

(1) المصدر السابق ص 203.

(2) المصدر السابق ص 121.

(3) المصدر السابق ص 134.

(4) المصدر السابق ص 159.

ويضمّن رسالة للحكام .. يمكن السيطرة على جميع التيارات المعارضة إلا الإسلاميين طالما بقيت لديهم مؤسسات .. يقول: " المعارضة الدينية تستطيع أن تعمل من وراء شبكة من المساجد، ومؤسسات العمل الاجتماعي، ومنظمات إسلامية أخرى، تشعر أنها لا يمكن أن تقمعهما .. الديمقراطيون والليبراليون ليس لديهم غطاء كهذا، ومن هنا من السهل على الحكومة أن تسيطر عليهم أو أن تتخلص منهم" أي التيارات غير الإسلامية⁽¹⁾ .. يتابع: "في سنة 1993 كما يقول أحد التقارير، ازداد أعداد الملثحين والمحجبات في تركيا، وأصبحت المساجد، وازدحمت المحلات بالكتب، والصحف الدينية، والأسطوانات، وأشرطة الكاسيت، والفيديو التي تمجد التاريخ الإسلامي، والمفاهيم الإسلامية كما تمجد الإمبراطورية العثمانية لحفاظها على قيم وتعاليم النبي محمد «، ويقول التقرير إن « ما لا يقل عن 290 دار نشر ومطبعة و 300 مطبوعة (من بينها أربعة يومية) وبعض المحطات الإذاعية غير المرخصة وحوالي 30 قناة تليفزيونية غير مرخصة أيضاً، كانت كلها تروج للأيديولوجية الإسلامية"⁽²⁾ "كما زادت بنسبة كبيرة أعداد الذين يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج، مما خلق إحساساً أعمق بالهوية المشتركة بين المسلمين من بلاد بعيدة مثل الصين، والسنغال، واليمن، وبنجلاديش. وهناك أعداد متزايدة من الطلاب من إندونيسيا وماليزيا وجنوب الفلبين وإفريقيا يدرسون في جامعات الشرق الأوسط، حيث ينشرون الأفكار وقيمون العلاقات الشخصية عبر الحدود الوطنية"⁽³⁾.

هذا الرصد ليس كلام هنتنغتون العجوز وزحمة المعلومات الدقيقة التي تضمنها الكتاب لا يمكن أن تكون بعمل فردي، بل هي تقارير استخباراتية تم مده بها وكان عليه صياغتها صياغة وظيفية لأهداف أيديولوجية حضارية اقتضت أن يضبط مؤشر خطورتها (الصناعية) نحو المسلمين، وإلا ماذا يعني أن يتوسع نشاط المسلمين العبادية بتوسع رفعتهم البشرية؟ وسنجد أن تصاعد معدل أنشطة التبشير يتجاوز هذه الأرقام التهويلية بأضعاف .. ولم ينس أن يأتي على ذكر النقابات التي وصل إليها الإسلاميون، وعدد المؤسسات التي يديرونها وكأنها مؤسسات أسلحة دمار شامل غربية تهدد البشرية .. لم يفته حتى المرور على الباعة المتجولين الذين تأثروا بالصحة حد قوله .. ولم يذكر ولكن الحقائق تذكر أن الغرب الذي يحارب الحركات الإسلامية الحضارية المعتدلة يشجع بل ويدعم بكل قوة الحركات الهدامة في العالم الإسلام لتشكل خنجرا مسموما يطعن بها خاصرة الاستقرار ويشوه بها الإسلام ويجعلها شماعة حربية لتدخلاته مثل داعش والمليشيا الشيعية المغيبة عقليا.

ثم وبما أن عنوان الكتاب (صدام الحضارات) فإن السؤال الذي يخرج بلا إجابة: لماذا لم يقارن بين ظاهرة التشدد الديني في الحضارات كلها ويقوم برصد مظاهر العودة إلى التدين في الغرب

(1) المصدر السابق ص189.

(2) المصدر السابق ص240.

(3) المصدر السابق ص286.

وإمكانياتهم الهائلة وتصريحاتهم الفاشية أحيانا تجاه الحضارات الأخرى؟! تجاهل ذلك ولكننا لم نتجاهله ومن كُتِبَ كُتَّابٌ غربيين منصفين أوردنا بعض الحقائق والأرقام في تنامي التطرف الديني في أمريكا وحسب .. والفارق بينها يُبين الطرف الأخطر على العالم .. تقول غريس هالسل في كتابها (يد الله): "ربما تزيد نسبة نمو المسيحية الإنجيلية على أي اتجاه ديني آخر في العالم بما في ذلك الأصولية الإسلامية" (1) .. ويقول كارين آرمسترونغ عن التطرف اليهودي: "في سفر التكوين أصبح المسوغ العقلي لبرنامج سياسي لتطهير عرقي . أدت هذه النظرية الدونية منطقياً إلى نظرة مسيحية مرعبة تماماً . بعد حرب الأيام الستة وقف اليهود على « شفير الخلاص »، بسبب التوجيه الأحادي لليهودية بأن مهمتها كانت واضحة . كان عليهم احتلال المناطق وطرد العرب « وتطهير رجس الأغيار من جبل الهيكل » .. هذه الرؤية الظلامية للدمار والموت رؤية عدمية حتى الأعماق، إنها مشبعة بالحدق ورغبة الانتقام . تبين نسخة كاهانا المشوهة والمرعبة للإيمان" (2) .. "إن من الصعب حصر كل المنظمات المسيحية الصهيونية، والأصولية في الولايات المتحدة . ولكن الباحثة جريس هالسل تذكر أنه توجد 250 منظمة مسيحية أمريكية ممالئة لإسرائيل تمارس أنشطة مختلفة" (3) .. ومن هذه المنظمات أو بالأصح التنظيمات تنظيم جيش الرب، وآخر حزب الله الذي تحالف عام 1992 مع اليمين المسيحي والحزب الجمهوري .. "ويقدر عدد الإنجيليين الجدد في الولايات المتحدة بنحو 50 مليوناً .." (4).

هؤلاء يمثلون ذروة التطرف والفكر العدمي الذي يخطط لإبادة البشرية كما سيأتي ويشمل هذا الفكر العامة والنخبة على السواء .. يقول رضا هلال: "كشفت استطلاعات جالوب أن حوالي 70 مليوناً من الأمريكيين يشاهدون المحطات التليفزيونية الدينية التي بلغ عددها 104 محطة تليفزيونية، إضافة إلى 1006 قناة تليفزيونية بنظام الشفرة (الكابل) أما محطات الإذاعة الدينية، فيقدر عددها ما بين 1200 – 1400 محطة تبث الواحدة منها حوالي 17 ساعة يومياً" (5) .. "أما الشبكة المسيحية المرئية والمسموعة الأهم فهي شبكة CBN التي تغطي الولايات المتحدة و 60 دولة أجنبية، ويمتلكها القس بات روبرتسون الذي يقدم برنامجاً استعراضياً يعرض عدة مرات يومياً يسمى « نادي السبعمئة » .. ، وأنه يصل إلى عدد من المشاهدين يفوق أعداد الذين تصلهم مجلات « تايم » و « نيوزويك »

(1) عن داميان طومبسون ص 22).

(2) النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام (ص371).

(3) المسيح اليهودي (ص114) نقلا عن كتاب (لماذا الكنيسة المسيحية غير متسامحة --- Why The Christian Church Is Not Pacifist لهالسل).

(4) كتاب يد الله ص18).

(5) المسيح اليهودي ونهاية العالم ص 88).

« و«صحف واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز» و«لوس أنجلوس تايمز» مجتمعة⁽¹⁾ .. ويقول كارين آر مسترونغ: "جنت هذه المحطات التلفازية أكثر من مليار دولار سنوياً، ووظفت أكثر من ألف شخص، وأثبتت أنها كانت نتاجاً مهنيّاً رفيع المستوى .. كان جيرى فالويل هو رجل الساعة . فخلال الفترة الممتدة من الستينات حتى السبعينات، أربعة من كل عشرة أجهزة تلفاز في الولايات المتحدة كانت تتحول إلى محطته في لينشبيرغ فيرجينيا، لقد بدأ وزارته هناك، ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى أصبح المشروع ثلاثة أضعاف حجمه الأصلي .. . وكانت الصلوات تبث على / 392 / قناة تلفازية و / 600 / محطة إذاعية"⁽²⁾ و(فالويل) قس أصولي يقود اليمين المتطرف .. هل أغلقت هذه القنوات والجمعيات الأصولية كما أغلق حكام العرب الكثير من القنوات الدعوية؟ أم هل عطلت الحكومات الأمريكية برامجها وسجنت رموزها الوعظية؟! .. بل هذه الجمعيات والبعثات التبشيرية مسموح لها أن يدفع لها المواطن الأمريكي الضرائب إذا أحب ذلك وكثير من الأثرياء يدفعون الضرائب لتلك الجمعيات التي ظاهرها النفع وباطنها التبشير .. والتنصير في أوساط المسلمين الفقراء في طول العالم وعرضه .. لا يهم تلك سنة التدافع في الحياة، إنما الذي يهم صرف النظر عنها لدى كتاب السياسات الغربية لتبقى الدراسات المجهرية مسلطة على المسلمين وتضخيمها.

هناك كتاب غربيون منصفون كتبوا عن ظاهرة التحول في الغرب نحو التدين، وعندهم نقل باحثون عرب ولئن حذروا من هذا التوجه فلأن فكره فكر هرمدوني عدمي يقوم على فلسفة التدمير ونهاية التاريخ": فالعلاقة بين القس بيلي جراهام زعيم منظمة «شبان المسيح» والرئيس دوايت أيزنهاور معروفة، كما أن القس جراهام كان يقيم صلوات إفطار في البيت الأبيض أثناء فترة رئاسة نيكسون، ولكن العلاقة وصلت إلى آفاق جديدة مع ترشيح ريجان وخلال رئاسته . فعقب مؤتمر ترشيحه للرئاسة عام 1980، أعلن ريجان تأييده للأجندة الأخلاقية لليمين المسيحي .. وعين ريجان عدداً من شخصيات اليمين المسيحي في مناصب سياسية مهمة . وفي عام 1983، أيد ريجان في خطابه أمام «الاتحاد الوطني للإذاعيين الدينيين»، قضايا أجندة اليمين المسيحي مثل خفض الضرائب على أولياء أمور تلاميذ مدارس الأبرشيات، وعودة الصلاة إلى المدارس⁽³⁾ فهذا الانسجام الأيديولوجي بين القمة والقاعدة لا غبار عليه عند صامويل.



(1) المصدر السابق ص 89.

(2) النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام - ترجمة: محمد الجورا - دار الكلمة للنشر والتوزيع - دمشق - الطبعة الأولى 2005م ص 297.

(3) المسيح اليهودي ونهاية العالم ص 101.

4 - تزييف أهل الكتاب المعلومات عن قضايا المسلمين

وشيطنتهم وقلب أوجه الحقائق .

النمو الصحوي، والنمو السكاني في العالم الإسلامي يمهد للحديث عن الحدود الأكثر التهاوبا في العالم، وهي حدود الدول الإسلامية، هكذا ارتأى هنتجتون صاحب كتاب (صدام الحضارات) أن يكون مدخله للحديث عن حروب العالم الإسلامي، فلا علاقة تلازمية بين المقدمة والنتيجة، إلا أن تكاثر السكان يأتي ضمن أجندة ما أسموه بتجفيف منابع الإسلام وبمصطلحهم (تجفيف منابع الإرهاب)، يقول هنتجتون: "النمو السكاني في الدول الإسلامية وبخاصة زيادة نسبة منهم في سن الخامسة عشرة، والثانية والعشرين، يقدم مجندين جددا للأصولية والإرهاب والتمرد والهجرة" (1) .. يضيف: "وهكذا يكون النمو السكاني الإسلامي عاملاً مساعداً ومهماً في الصراعات على طول حدود العالم الإسلامي بين المسلمين والشعوب الأخرى" (2) .. وبالتالي فالحدود الأعنف عنده هي حدود المسلمين مع الجيران .. "إن أشد خطوط التقسيم الحضاري عنفاً هي تلك الموجودة بين الإسلام وجيرانه" (3) وسنرى حدود من يقصد من الدول ومن المعتدي فيها ومن المعتدى عليه وفي صفحة 413 يكتب عنواناً صفيقاً هو: (تصادف الحدود الدموية للإسلام) ينسب الدموية للإسلام، رغم أنها في الغالب حروبهم وتآمراتهم ودمويتهم في الصومال، والشيشان، والبوسنة، والهرسك، وأفغانستان، والسودان، (وبعد موت صامويل هنتجتون) صف العراق، وسوريا، وليبيا، وحتى اليمن ليست حروب إنتاج محلي بل حروب صناعة خارجية، وألم نقرأ في حلقة سابقة قول المؤلف إن زعماء من الغرب قرروا في باريس في مطلع القرن الماضي إنشاء الأنظمة واختيار حكامها.

لننظر هذا الشرير تحت العنوان السابق الحدود الدموية للإسلام (!؟) كيف جعل من الضحية الجلاذ، لقد صورّ الاعتداءات والتصفيات العرقية التي تعرض لها المسلمون كما لو أنها حروب المسلمين ضد الغير يقول: " في البوسنة خاض المسلمون حروباً دموية ومدمرة مع الصرب الأرثوذكس واشتبكوا في عنف مع الكروات الكاثوليك .. الأويغور - Uighurs والجماعات الإسلامية الأخرى ضد عمليات التصيين ويطورون علاقاتهم بأقاربهم في العرق والدين في الجمهوريات السوفيتية السابقة، في شبه القارة الهندية : خاضت باكستان والهند ثلاثة حروب، وهناك صحوه دينية تقاوت الحكم الهندي في كشمير، واللاجئون المسلمون يقاتلون القبائل في أسام، والمسلمون

(1) صدام الحضارات ص (170).

(2) نفس المصدر السابق، ص (196).

(3) نفس المصدر السابق (293).

والهندوس مشتبهون في أعمال شغب وعنف متقطعة في أنحاء الهند، وصعود الحركات الأصولية في كل من المجتمعين الدينيين يغذى هذه الصراعات ويقويها .. في ماليزيا وإندونيسيا يثور المسلمون من وقت لآخر على الصينيين اعتراضا على سيطرتهم الاقتصادية .. في جنوب تايلاند الجماعات الإسلامية متورطة في أعمال عنف وتمرد متقطع ضد الحكومة البوذية .. في الشرق الأوسط الصراع بين العرب وإسرائيل، والفلسطينيون اشتبكوا ضد الحكم الإسرائيلي بالانتفاضة⁽¹⁾.

و يجمع الاعتداءات على المسلمين وحروب الدول الحدودية كحرب أذربيجان مع الأرمن أيضا، ويجعلها حروب المسلمين مع الغير، ولا يذكر التطهير العرقي الذي مارسه الأرمن ضد المسلمين الأذربيين في إقليم ناغورني كارباخ الذي امتد بين 1988 و1994 وحرب (الأفغان مع الروس) فهي حرب الأفغان لا حرب الروس حسب تعبيره، ولا يذكر أن الروس هم الذين اجتاحت الأفغان عام 1979م الذي خلف الملايين من القتلى والجرحى والمشردين، كما لم يذكر أن البوسنيين تعرضوا للتطهير العرقي، وقتل وتشريد واغتصاب من الصرب والكروات ما بين 1992 إلى 1995 فيما المؤلف عاكف على تأليف كتابه، ولقد تمت إدانة مجرم الحرب الصربي (رادوفان كاراديتش) في محكمة لاهاي الدولية بالمؤبد، بل بالعكس ذكر أن الصرب في كوسوفو تعرضوا للتطهير على أيدي المسلمين .. حيث طالب الصربيون كما قال " باتخاذ إجراءات حاسمة لوضع حد لعمليات الإبادة الجماعية ضد الصرب في كوسوفو"⁽²⁾ طبعا هو (ناقل أمين) عن آخرين .. لكن الأمانة توقفت عند طرف واحد .. وفي ص 424 ينقل اقتباسا عن المدان دوليا بجرائم حرب رئيس الصرب (سلوبودان ميلوسيفتش) الذي جيش الصرب وحرصهم على قتل المسلمين بأنه " أصبح فورا زعيما قوميا" .. في حين في (ص433). يصم الرئيس المسلم علي عزت بيغوفيتش " أنه أكثر تطرفا" .. هكذا مع أنه لم يُنقل عنه الدعوة إلى العنف وتطهير الآخر، ولعل تطرفه في أنه كان يعتز بهويته الإسلامية وتلك إدانة كافية.

كما يبرز صامويل الشيشانيين وكأنهم ضد الروس، والكشميريين ضد الهند، ولم يشر إلى تنامي حزب بهاريا جناتا الهندوسي المتطرف الذي دمر أتباعه مسجد البابري التابع للمسلمين وقتلوا نحو 2000مسلم فيما صموئيل أيضا عاكف على تأليف كتابه هذا الذي فرغ منه عام 1995 واليوم يذيق الهندوس المتطرفون المسلمين الولايات فمن المتطرف؟

(1) المصدر السابق ص413 .

(2) المصدر السابق ص424 .

والأغرب أن ينحت للماليزيين والاندونوسيين أيضا ثورة اقتصادية ضد الصين، وعندما يتحدث عن القضية الفلسطينية فإنما يتحدث عن العرب والفلسطينيين ضد إسرائيل، ليخرج من كل هذا التهريج في رسم بياني بأكبر نسبة حروب للإسلام والمسلمين ضد الآخرين من بين العالم وليقول: "الدول الإسلامية أيضا لديها ميل شديد للجوء إلى العنف في الأزمات الدولية"⁽¹⁾. "الإسلام عقيدة أكثر استبدادية حتى من المسيحية .. إن مفهوم اللاعنفا غائب عن الفكر والممارسة الإسلامية"⁽²⁾ وفي (ص 429) يقول: "الإسلام مصدر عدم استقرار".

ولإضفاء طابع العلمية ولغة الحقائق والأرقام يُكثر من الرسوم البيانية، إدراكا منه أن الكثير سيظمن بها كحقائق دون أن يكتشفوا أنه يقلب بها أوجه الحقائق وأنه كتاب سياسي استخباراتي مفخخ برسائل تحريضية ضد حضارة بعينها وهي الإسلام .. انظر مزيدا من أحكام هنتجتون وهو يقول : "الغرب على العكس من الإسلام لم يتورط إلا في صراعين بين حضارات مختلفة وصراع بين حضارات بعينها"⁽³⁾ .. وفي (ص 426) يقول: "يظل السؤال : لماذا والقرن العشرون يوشك على الانتهاء، نجد أن المسلمين الأكثر تورطاً في مزيد من العنف بين الجماعات، من شعوب الحضارات الأخرى" وبطريقة قصدية يتجاهل في هذا القرن أعظم الأحداث البشرية التي كان بطلها الحضارة الغربية.

- لم يتحدث عن أعظم حربين مسيحتين سموها عالمية وهي حربهم راح ضحيتها ما قد يتجاوز حروب البشر كلها وهو نحو 110 مليون، وتدمير آلاف المدن.

- لم يذكر أن في هذا القرن كان العالم بأسره يرزح تحت الهيمنة الغربية وبالاحتلال العنفي التدميري المباشر.

- لم يذكر أن في هذا القرن دُمرت مدينتان بالكامل على يد الغرب وبأفتك سلاح إبادة جماعية هما هيروشيما وناجازاكي اليابانيتان، وأن في هذا القرن تقفن الغرب في إنتاج أسلحة تدمر العالم لعشر مرات، وأنه بقي يخوض سباقا محموما لإنتاج آلة تدمير الكون كله.

- لم يقل لنا هذا المنتج التحريضي أن الغرب ملثا أيضا بنزعة العدوانية والسيطرة منذ عهد اليونان وأن النازية والفاشية والشيوعية العدمية واليمينية المتطرفة خرجت من الغرب (أهل الكتاب) وليس من الإسلام.

(1) المصدر السابق ص 419.

(2) المصدر السابق ص 428.

(3) المصدر السابق ص 416.

يقول فرنسيس فوكوياما في كتابه (نهاية التاريخ) "الواقع أن التاريخ الإنساني لم يعرف قط إبادة جماعية كذلك التي قامت بها الأنظمة الشمولية في ألمانيا الهتلرية وروسيا الستالينية، وهي إبادة ما كانت لتتحقق لولا الحداثة ذاتها . لقد عرف العالم بطبيعة الحال أنظمة دموية كثيرة قبل القرن العشرين، غير أن هتلر وستالين وضعوا التكنولوجيا الحديثة والتنظيم السياسي الحديث في خدمة الشر"⁽¹⁾ " وما زالت البشرية منذ هيروشيما تعيش في ظل أفطع تقدم تكنولوجي حتى الآن، ألا وهو الأسلحة النووية"⁽²⁾. فهل هتلر واستالين مسلمان؟

يضيف فوكوياما عن الغربيين قوله: "إنهم شرعوا بتشككون في عالمية مُثلهم . فالتدمير الانتحاري الذي تسبب فيه النظام الأوروبي للدولة خلال حربين عالميتين هدم فكرة تفوق العقلانية الغربية، في حين أضحى من الصعب التمييز بين المتمدين والهمجي"⁽³⁾.

ولو أن كتاب (صدام الحضارات) كأى كتاب عادي لما أولينا أحكامه ومقرراته عناية تذكر، لكنه صار بمثابة خارطة عمل سياسي ثقافي ديني ومن خلال نتائجه يتعرض المسلمون اليوم لمزيد من الحرب والاضطهاد .. وفي بلدانهم على أيدي الحكام الأدوات الاستعمالية الرخيصة.



(1) (ص 23).

(2) (ص 24).

(3) (ص 24).

5- الإرهاب السياسي ضد قادة الدول الإسلامية والتشجيع على الاستبداد.

على الرغم من انخراط غالب حكام المسلمين في سلك الغرب إلا أن السياسة الغربية لاتكف عن ممارسة الإرهاب السياسي عن طريق اتهام من يرون فيه ميول استقلال بدعم الإرهاب .. وإن مفكري وساسة الغرب ليفضلون الأنظمة المستبدة العميلة على الحكومات الوطنية. وهنا يستمر صامويل هنتجتون صاحب كتاب (صدام الحضارات) تسليط لغته المجهرية على حكام عُرفوا بتبعيتهم للغرب ليلتقط تصريحات لهم، أو يضبطهم متلبسين بأداء شعيرة دينية ما، ليجعل ذلك مؤشراً على صحتهم السياسية الدينية المعادية للغرب يقول: "فالملك حسين ملك الأردن مقتنع بأن مستقبل الحكومات العلمانية في العالم قليل، كان يتكلم عن الحاجة إلى إقامة ديمقراطية إسلامية" و « إسلام حديث » . الملك « الحسن » في المغرب كان يؤكد على أنه من سلالة النبي « محمد » كما راح يؤكد على دوره « كأمر للمؤمنين » . سلطان بروناي الذي لم يُعرف من قبل بأي ممارسات إسلامية أصبح « شديد الورع » وراح يعرف نظامه بأنه ملكية ملايوية إسلامية . ابن علي في تونس بدأ يتوسل إلى الله بانتظام في خطبه ولف نفسه في عباءة الإسلام « ليختبر الميل المتزايد للجماعات الإسلامية » . في أوائل التسعينيات تبنى « سوهارتو »، صراحة، سياسة أن يصبح أكثر إسلاماً، في بنجلاديش تم إلغاء مبدأ « العلمانية » من الدستور في منتصف السبعينيات . وفي أوائل التسعينيات كانت الهوية العلمانية الكمالية في تركيا تواجه تحدياً كبيراً لأول مرة، وبغرض إبراز التزامهم الإسلامي هرع رؤساء الحكومات – أورال، سوهارتو – كريموف – لأداء فريضة الحج . حكومات الدول الإسلامية عملت من أجل أسلمة القانون . في إندونيسا تم دمج المفاهيم والممارسات القانونية الإسلامية في النظام القانوني العلماني⁽¹⁾.

بهذه الأخطاء الدينية في تصور صامويل مستشار سياسة البيت الأبيض يثير منها رائحة ارتداد هؤلاء الحكام عن الغرب، وبالتالي: "منذ السبعينات يوجد اتجاه معاد للغرب، ثابت تقريباً : من علاماته صعود الأصولية وتحولات القوة داخل الدول الإسلامية من حكومات أكثر موالاة للغرب إلى حكومات أكثر عداء له، وظهور ما يشبه الحرب بين الجماعات الإسلامية والغرب، وضعف العلاقات الأمنية التي كانت قائمة بين بعض الدول الإسلامية والولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة"⁽²⁾.

(1) صدام الحضارات ص190.

(2) المصدر السابق ص296.

وبذات البلطجة السياسية يظهر من فرنسا كتاب آخر اسمه (خطوات سبع نحو الجحيم) لـ (الآن شوية) مدير الاستخبارات الخارجية الفرنسية سابقاً، يقول مؤلفه على قناة فرنسا 24 العربية في 15 فبراير 2022م في برنامج (حوار) إن كتابه خلاصة تجربة مسؤول سابق في الاستخبارات الفرنسية، وفيه حسب قوله حملّ دولا مثل باكستان، وتركيا والسعودية، وقطر مسؤولية انتشار الإرهاب (!؟) .. وبكل وقاحة وشفافة يستدل بكلمات قالها مسؤول هنا أو هناك، أو قدم مساعدات لإخوانه المسلمين، أو بنى مسجداً أو مركزاً إسلامياً .. الخ

و إنما يستمرون في نحو هذه الكتابات والإطلاقات بهدف الإرهاب والابتزاز السياسي، حيث وصلت الوصاية الغربية إلى الحديث عن تمرد الزعيم الفلاني فصار الاستقلال تمرداً، ووراء هذا التمرد تأديب وعقوبات، كما يؤدب ولي الأمر الولد العاق، حتى اللغة الدبلوماسية التي تحترم استقلال الدول استغنوا عنها .. ولا شك أن رسائل سياسية إرهابية كهذه قد أثرت في دفع بعض الدول الإسلامية إلى اضطهاد شعوبها لكي يرضى عنهم زعماء الغرب .. فسُجن الكثير من العلماء والدعاة وأُغلقت مؤسسات دينية، وجمعيات خيرية، وقطعت المساعدات عن أقليات مسلمة كثيرة .. غير أن هذا كله لم يرض (أهل الكتاب) إنهم كما جاء في القرآن لن يرضوا عن المسلمين حتى يتبعوا ملتهم.

ومن ألسنتهم لا يريدون سوى حكام عملاء لهم وضد شعوبهم [ولا يقبلون ديمقراطية تأتي بأناس وطنيين، بل يفضلون المستبدين الذين يبيعون أوطانهم مقابل دعم الغرب لهم، وبشكل يناقض المواقف المعلنة عن تشجيعهم للديمقراطية]، يتابع هنتجتون : "تبنّي المجتمعات غير الغربية للتقاليد الديمقراطية الغربية يشجّع ويفتح الطريق نحو السلطة أمام الحركات السياسية القومية والمعادية للغرب - في الستينات والسبعينات، كانت الحكومات المتغربة والمالية للغرب في الدول النامية مهددة بالانقلاب عليها والثورة ضدها، في الثمانينيات والتسعينيات كانت تواجه خطراً متزايداً بأن تخرج من السلطة عن طريق الانتخابات .. التحول إلى الديمقراطية يتصادم مع التخريب، والديمقراطية في صميمها عملية محدودة وليست كوزموبوليتانية⁽¹⁾. والسياسيون في المجتمعات غير الغربية لا يفوزون في الانتخابات عن طريق إظهارهم مدى تخريبهم أو تعلقهم بالغرب، بل إن المنافسة الانتخابية تعريهم بدلاً من ذلك بتقديم ما يتصورون أنه يرضى المطالب الشعبية، والتي عادة ما تكون عرقية ودينية في صبغتها . والنتيجة، هي التعبئة الشعبية ضد النخب ذات الثقافة والتوجهات الغربية، الجماعات الإسلامية الأصولية فازت في بعض الانتخابات التي تمت في الدول الإسلامية، وكانت قاب قوسين أو أدنى من السلطة في الجزائر، لو لم يقدم العسكر على إلغاء انتخابات 1992"⁽²⁾.

(1) إشارة إلى حركة نسوية متحررة.

(2) صدام الحضارات 155-156).

وخيار صداقة الأنظمة الاستبدادية القائمة للشعوب، العاكفة على تأمين التدخلات السافرة للغرب موقف ثابت من وقت مبكر يقول المستشرق و. ك. سميث الأمريكي، والخبير بشؤون باكستان: "إذا أعطي المسلمون الحرية في العالم الإسلامي وعاشوا في ظل أنظمة ديمقراطية، فإن الإسلام ينتصر في هذه البلاد، وبالديكتاتوريات وحدها يمكن الحيلولة بين الشعوب الإسلامية ودينها"⁽¹⁾.

وبدهي أن بقاء حالة التبعية للغرب تقتضي ضعف المسلمين وهو ما صرح به مسؤول في وزارة الخارجية الفرنسية عام 1952: "فلنعط هذا العالم الإسلامي ما يشاء، ولنقو في نفسه الرغبة في عدم الانتاج الصناعي، والفني، حتى لا ينهض"⁽²⁾ .. كما تقتضي الحيلولة دون توحيد العرب يقول مورو بيرجر في كتابه «العالم العربي المعاصر»: «إن الخوف من العرب، واهتمامنا بالأمة العربية، ليس ناتجا عن وجود البترول بغزارة عند العرب، بل بسبب الإسلام .. يجب محاربة الإسلام، للحيلولة دون وحدة العرب، التي تؤدي إلى قوة العرب؛ لأن قوة العرب تتصاحب دائما مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره"⁽³⁾.

ويخشون أن تكون وحدة العرب طريقا إلى وحدة المسلمين يقول جورج بوش الصغير الذي أعلن في يوم 11 سبتمبر، 2001 أن حربه على العراق حرب صليبية يقول: "هناك استراتيجية لدى مسلمين تهدف إلى إنهاء النفوذ الأمريكي والغربي في الشرق الأوسط وعند سيطرتهم على دولة واحدة سيستقطب هذا جموع المسلمين ما يمكنهم من الإطاحة بجميع الأنظمة في المنطقة وإقامة إمبراطورية أصولية إسلامية من إسبانيا وحتى إندونيسيا"⁽⁴⁾.

أخيرا لم نسرد كل مظاهر العداء للإسلام والمسلمين ويكفي أن نعلم أن الرسوم المسيئة للنبي صلى الله عليه وسلم ظل مظهر إصرار منحط ومبتذلا تدعمه حكومات غربية ويمثل عداء متواصلا من طرف واحد ما ينتهي إلا ليعود من جديد.



(1) من كتاب دمروا الإسلام أبيدوا أهله لجلال العالم « (ص 58).

(2) (ص 41-40) نقلا عن كتاب جند الله ص22).

(3) قادة الغرب يقولون (ص 42) عن مجلة روز اليوسف في عددها الصادر بتاريخ 29-6-1963).

(4) (ينظر موقع تبيان).

6- التناغم مع نبوءات تدمير العالم في معركة (هرمجدون) بالأسلحة

النوية وبخاصة المسلمين وروسيا .

لا شيء يمكن أن يفسر سباق النادي المسيحي والعقول اليهودية على التفنن في صناعة فناء البشرية سوى شيء واحد وهو أن هذا الفناء هو عندهم شيء مقدس يرضي الرب .. وللأسف أن الأمر كذلك عندهم وأن هناك معركة رهيبية ستودي بمعظم سكان البشرية، وأن أعداءها المستهدفين هم المسلمون والروس .. ثم ويا لعجب المفارقة يصفون الإسلام بالإرهاب وأنه يهدد أمن واستقرار العالم!؟.

(هَرْمَجْدُون) .. مكان في فلسطين وقد ظهرت الكلمة مرة واحدة فقط في العهد الجديد (الإنجيل) .. وتعني (هر) الجبل و(مجدون) مكان المعركة .. ويصفونها بأنها معركة النزول الثاني للمسيح الذي يمثل نهاية العالم، وتكون بين الخير والشر، أو بين الله والشيطان.

وقد بات ليوم الفناء هذا مدرسة تضم تيار المحافظين، وإذا كانوا في أمريكا نحو 50 مليوناً فهو في غيرها من الدول المسيحية أضعاف وبخاصة من البروتستانت .. وليس السؤال في انتظام عامة الناس في سلك هذا التصور التدميري، بل في أن تعيش مسكوناً بهذا الهاجس شخصيات من أعلى نخبة وعلى مستوى رؤساء، لذلك لم يأت عبثاً عنوان كتاب آخر رئيس أمريكي ديمقراطي⁽¹⁾ هو باراك أوباما (أرض الميعاد) .. فأرض الميعاد ابتداء وانتهاء، وجدلية صراع، ومعنى قداسة، ونهاية التاريخ هو نشيدهم المتواصل، ويقينهم المتصل أن البشرية قادمة على الفناء بأيديهم في معركة نهاية التاريخ قبل مجيء عيسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة، ليحكم بعد ذلك العالم لمدة ألف سنة، ثم لا يكون هناك سوى دين واحد هو دين النصرانية .. ولنمسك عن الكلام ونترك النصوص نتكلم.

تقول غريس هالسل موظفة البيت الأبيض إبان حكم الرئيس رولاند ريجان: "إن أكثر من 51% يعتقدون أن كارثة من صنع الإنسان سوف تحقق بالحضارة في القرن التالي" [أي القرن الواحد والعشرين]⁽²⁾ تضيف: "وإن شهرة عقيدة هرمجدون تجاوزت ما يسمى المعتوهين [وهم جماعة إنجيلية] ووصلت إلى أرفع مستوى في السلطة الحكومية"⁽³⁾.

(1) آخر رئيس بالنسبة لتاريخ تأليف كتاب تأملات.

(2) كتاب يد الله ص14.

(3) المصدر السابق ص18.

ويكفي أن ندرك مدى سيطرة فكرة اليوم الأخير على عقول هؤلاء أن يباع من كتاب المبشر المسيحي هال ليندسي (آخر أعظم كرة أرضية) الذي يتحدث فيه عن نهاية العالم (25 مليون نسخة)، ولم يتقدم عليه مبيعا سوى الكتاب المقدس⁽¹⁾.

وقد نشرت مجلة « سان دييجو » في عدد أغسطس عام 1985، حديثا مع الرئيس ريجان قال فيه إنه مقتنع بأن المعركة الأخيرة « هر مجدون » بين جوج وماجوج كما وردت في سفر حزقيال، أصبحت وشيكة، ونسبت إليه قوله : « إن أرض إسرائيل ستعرض لهجوم تشنه عليها جيوش الأمم الكافرة (العرب بمساعدة الاتحاد السوفييتي) »⁽²⁾. وفي اقتباس آخر يؤرخ لها بخمسين عاما ابتداء من 1982م .. وسنجد أن الطرف المستهدف بدرجة أساس بهذه المعركة الكونية هم المسلمون والروس .. وإياداة المسلمين عقيدة قديمة جديدة: "يقول المستشرق الفرنسي كيمون في كتابة «وباثولوجيا الإسلام » : أعتقد أن من الواجب إياداة خمس المسلمين، والحكم على الباقيين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر"⁽³⁾ .. ويرد عن بول بوير، ما يجعل مسألة وجود العرب برمته مسألة شك يقول: "من الواضح أن النبوءات الوشيكة الوقوع تتطلب اقتلاع العرب ليس من القدس فقط، إنما من معظم الشرق الأوسط .. لقد وقفوا في طريق الوعود الإلهية لليهود» من كتابه عندما يتلاشى الوقت"⁽⁴⁾ .. و" في العصور الوسطى قال بعض مفسري الكتاب المقدس إن عدو المسيح يجب أن يكون مسلما فيما قال آخرون إنه يهودي"⁽⁵⁾. غير أنه وبعد أن برأ البابا بولس السادس اليهود من صلب المسيح، يترجح الرأي الأول أن المسلمين هم عدو المسيح ولابد أنهم المعنيون أكثر من غيرهم بفكرة الإبادة.

يلي المسلمين بهذه الوعود الروس تنقل هالسل عن مفكرين ووعاظ تأكيدات هذه النهاية المدمرة للأعداء من مثل (زيفانيا) الذي يقول : " إن الكتاب المقدس يعلمنا أنه ستكون هناك حرب نووية خلال المحنة الكبرى (؟) بالتأكيد ! وسوف يقتل ثلث الإنسانية بالنار والدخان والكبريت .. . وسوف تبتلع النار قبلهم (من ؟) الجيش الشمالي - الجيش الروسي - الذي يتحرك باتجاه إسرائيل . إن نار غضبه سوف تبتلع الأرض كلها"⁽⁶⁾. ثم حذار سيأتي اليوم الذي سيكون فيه الحريق كالفرن⁽⁷⁾. لذلك

(1) المصدر السابق ص17).

(2) المسيح اليهودي ونهاية العالم ص136).

(3) قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله ص 45).

(4) انظر كتاب يد الله ص 30).

(5) المصدر السابق ص 38).

(6) (زيفانيا 1/18).

(7) (مالاشي 1/4).

فإن العهد القديم والعهد الجديد على توافق بشأن الهولوكوست النووية . TER" - جاك فاناميب -
تلفزيوني إنجيلي"⁽¹⁾.

وتورد عن كلايد إنجيلي ضابط متقاعد: "إن غضب الله سوف يدمر خمسة أسداس الشعب الروسي . وستحول جثث الملايين منهم إلى طعام للطيور الكاسرة من كل نوع « كلايد"⁽²⁾ ومن المؤكد أن تضافر حلف الناتو قاطبة على حرب روسيا اليوم يأتي جزء منه تجاوبا مع هذه النبوءات. أما تقديرات نبوءات معركة نهاية التاريخ فتعد نتائج الحربين العالميتين عندها لعبة أطفال، فـ"اقتناعاً منهم بأن هرمجدون نووية لا مفر منها بموجب خطة إلهية"⁽³⁾. "يخبرنا « ليندسي » أن علينا أن نمر في سبع مراحل زمنية تتضمن واحدة منها معركة هرمجدون الرهيبة حيث يكشف عن أسلحة نووية مدمرة تماماً وجديدة . وحيث إن الدم سوف يسيل كالأنهار العاتية"⁽⁴⁾ ويقول : " إن كل مدينة في العالم سيتم تدميرها في الحرب النووية الأخيرة"⁽⁵⁾ يتابع ليندسي أن "200 مليون جندي على الأقل من الشرق، مع ملايين أخرى من قوات الغرب . من الإمبراطورية الرومانية المتجددة (أوروبية الغربية) ! سيضرب المسيح أولئك الذين اجتأحوا مدينته القدس . ثم سيضرب الجيوش المتكدسة في وادي مجيدو لا عجب أن يسيل الدم ليصل إلى ألجمة الخيل"⁽⁶⁾ .. كما جاء في « كتاب لنديسي » السابق ذكره الذي تأثر به الرئيس ريجان : "إن علينا أن ندمر الكرة الأرضية، وأن نبني أنفسنا وكل ما عندنا من أشجار وأزهار وأشعار وفنون وآداب وموسيقى جميلة بحيث لا يبقى شيء من الماضي ؟ وبحيث لا يكون هناك غد على الأرض؟"⁽⁷⁾ .. ويقول القس الأمريكي زعيم المحافظين جيرى فالويل : "وفيما تقترب هرمجدون من نهايتها وملايين الأموات على الأرض فإن الإله المسيح سيضرب الوحش والنبي الكذاب (المعادي للمسيح) ويلقي بهما في بحيرة من نار تغلي فيها الحجارة . وسيذبح المسيح كل أعدائه الآخرين الذين ينجون من هرمجدون .« و رسم فالويل صورة مرعبة عن نهاية العالم ولكنه لم يبد حزينا أو حتى مهتماً . وفي الواقع فقد أنهى عظته بابتسامة كبيرة قائلاً : ما أعظم أن نكون مسيحيين ! إن أماننا مستقبلاً رائعاً (!!) "⁽⁸⁾ "لذلك فإن كل الدول تكس المزيد من الأسلحة ولكن لا أحد يسبق الولايات في ذلك، حيث يبلغ مجموع الرؤوس الحربية الجاهزة 14500 رأساً وفي

(1) المصدر السابق ص 33.

(2) المصدر السابق ص 31.

(3) كتاب النبوءة والسياسة (ص 201).

(4) المصدر السابق ص 24.

(5) المصدر السابق ص 51.

(6) عن المؤلف ليندسي (كتاب يد الله ص 33).

(7) النبوءة السياسية ص 22.

(8) المصدر السابق ص 53.

ألمانيا الغربية يوجد 3396 سلاحاً نووياً أميركياً . وفي بريطانيا يوجد 1268 . وفي إيطاليا يوجد 549 . وفي تركيا 489 . وفي اليونان 164 . وفي جنوب كوريا 151 . وفي هولندا 81 . وفي بلجيكا 25⁽¹⁾ هذا ما تدونة غريس هالسل عن عدد الرؤوس النووية الأمريكية وهي تعمل في مركز القرار الأمريكي مع أن الشائع أنها أقل من ذلك. ويقول جيرى فولويل: " منذ هيروشيما أنتجنا أكثر مما نحتاج إليه لتدمير الإنسانية كلها ومع ذلك فإننا مندفعون بصورة متواصلة لإنتاج المزيد من القنابل". ستقضى الأمم الأخرى ويبقى المسيحيون يقول ليندسي: « إن المسيحيين المخلصين يجب أن يرحبوا بهذه الحادثة لأنه بمجرد ما تبدأ المعركة النهائية فإن المسيح سوف يرفعهم إلى السحاب، وأنهم سوف ينقذون، وأنهم لن يواجهوا شيئاً من المعاناة التي تجري تحتهم"⁽²⁾.

من هنا ندرك سر التدمير الشامل في حروبهم للمدن والبشر والحجر، لأن فكرة الإبادة فكرة دينية ترضي الرب بتصورهم .. ويفسر عدم المرونة في الحرب مع روسيا فيما يتصل بحرب أوكرانيا بل إجماعاً غربياً ضدها كما قلنا لأن إبادتها داخلية في النبوءات، ذلك لأن الكنيسة الغربية تعد الأرثوذكس مهرطقين وكفاراً.

أخيراً : إننا نجد في الإسلام حديثاً ممثلاً عن معركة عظيمة وردت في الأحاديث باسم (الملحمة الكبرى) ولكن ليس فيها إبادة البشرية بقدر ما فيها ضحايا أكثر جداً، وليس فيها اعتداء من المسلمين بل هذه الملحمة تكون بسبب غزو صليبي يأتون تحت سبعين راية، فتقافة الإبادة ليست في الإسلام ولا في ثقافة المسلمين، إنها في ثقافة بقية الديانات السماوية وفي كتبهم المقدسة، بينما كلمة السيف في القرآن الكريم غير موجودة، ولم يكن هذا الجنون في اختراع مالم يكن ليخطر على بال الشيطان من أسلحة الفناء سوى تناغم مع العقيدة الخاصة عقيدة الإرهاب والتدمير والإبادة الشاملة مع الأسف.



(1) المصدر السابق ص(70).

(2) المصدر السابق " (ص 25-26).

حرب المصطلحات

المصطلحات باتت تُصنع لا تُنتشر .. وتدخل ضمن الصناعات الحربية وتوجه بدقة عالية .. وبتأثير مدمر لاتقل عن تأثير الحروب الأخرى .. لقد دخلت في رسم السياسات .. وفرض الثقافات .. ومنح مشروعية وجود المسميات ونزعها عنها .

وتأريخ صناعة المصطلحات ليس بالجديد .. تعالوا إلى هذا العرض المبسط.
كان ولايزال أشهر مصطلح تضليلي واضح الغش كلمة (استعمار) ويعني طلب الإعمار فالسبين تفيد الطلب، والمفهوم المتبادر إلى الذهن أن الدولة المستهدفة طلبت من المحتل الإعمار .. فاحتلتها تحت غطاء هدف حضاري إنساني نبيل .. وهو إعمار البلد المحتل .. تصور ثقافة تسمى دولة قتلت أكثر من مليون مواطن (استعماراً) وإلى الآن اسم الاحتلال استعمار!!
وصُنعت لقائد الاحتلال مصطلح (المندوب السامي) يلامس معنى مندوب العمل الخيري؟ لا قائد حملة احتلالية .. فما أسهل أن يقول أي زعيم دون غضاضة وقع تحت الاحتلال: (وجه المندوب السامي) (قرر المندوب السامي) فهو مجرد مندوب في النهاية، بعكس لو كانت وجه قائد الغزو فمن ذا الذي يرضى بحكم وتوجيهات الغازي؟

مثله كلمة (الانتداب) بدل الاحتلال .. تلاه مصطلح (الوصاية الدولية) وهي شكل من أشكال الاحتلال، ابتكرته الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية تحت غطاء الأمم المتحدة.. وضع تحت كلمة (وصاية) وكلمة (دولية) عدة خطوط .. فلاوصاية ولادولية .. إذ توحى الوصاية وكأن دولاً باتت هي الوصية على دولة غير راشدة، تحفظ ثرواتها من نهب الطامعين .. وترعى شؤون تطورها، والحقيقة أن هذه الوصاية هي في محصلتها الاحتلال ونهب الثروات .. وهناك بنود وردية وديعة ومسالمة تدعم تلك الوصايات مثل البند السابع.. إنه مجرد (بند) بريء ومحايد، لكنه جهنم احتلالي آخر على من يريدون لي ذراعه من الشعوب أو الأنظمة .. لم يسموه احتلالاً غير مباشر بل بنداً سابغاً .. وتصير الشعوب بكل أريحية تخضع لهذا البند لأنه مجرد بند.

ومن جهة يسمون معركة التحرير الفلسطيني (النزاع الفلسطيني الإسرائيلي) فهو مجرد نزاع وسوء تفاهم على أراض .. ويسمون التسليم لليهود (تطبيعاً) لا تسليماً وقالوا (السلطة) الفلسطينية وليس الدولة لأنهم أرادوها مجرد إدارة سلطة.

والحصار الظالم الذي يمنع عن الأطفال الحليب وعن المرضى العلاج أطلقوا عليه مصطلح (عقوبات تأديبية) فمن يعاقب من؟

وحكموا العالم كما سبق بكلمة (دولية) و(مجتمع دولي) وليس للعالم غير الغربي في كلمة دولية وزن، ولا عمق، ولا ارتفاع، فعبارة مجتمع دولي" عبارة تستخدم في العلاقات الدولية للإشارة إلى أنفسهم من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها بأوسع معانيها" (الويكيبيديا).. فالغرب هو المركز الذي يتحكم في الأطراف .. والقطب الوحيد الذي يوجه دفة سفينة العالم لذلك ما يأتي منهم يسمى دوليا فنسمع (البنك الدولي) (المحكمة الدولية) (القرارات الدولية) (اللاعب الدولي) (الممثل الدولي) وما لم يظهر من هناك لا يكون دوليا.

وعندما يريدون تغيير صيغة نظام العالم يصنعون لذلك مصطلحا جذابا من مثل: (النظام العالمي الجديد) (العالم الحر) (الفوضى الخلاقة) (العولمة) وكلها توحى بجماليات الرؤى، وبراءة المقاصد، وسلامة الأهداف.

ومن ناحية مغايرة يصنعون مصطلحات منفرة يرمونها في وجه الأعداء فالدول الضد (دول راعية للإرهاب) (أنظمة مارقة) وحينئذ تتجلى المعاناة الإنسانية تجاه الحقوق المشروعة في تلك الدول غير (المتعاونة) فتفتح السجلات ضدها من ذلك:

سجل (حقوق الإنسان) سجل (حقوق الأقليات) (حقوق المرأة) (حقوق الحريات الشخصية) (حقوق الحريات الفكرية).. الخ وقد يكون بعضها غير موجود فعلا لكنها تفعل فقط ضد المارقين، ويستطيعون أن يخترعوا لهم مشاكل ويفتحوا لهم ملفات ضاغطة كثيرة لمزيد من شيطنتهم وتضييق الخناق عليهم فستسمع مشكلة (ختان الإناث) مشكلة (زواج القاصرات) مشكلة (عقوبة الإعدام) ومشكلة (الجندرة).. الخ إنها مشاكل يتسنى الغازي منبر الوعظ والإرشاد ليوجه بها العصاة والمارقين ويهدد بتأديبهم وإنزال العقوبة بهم.

ولا يكاد يظهر من الغرب موقف عن ظواهر اضطهاد غربية من مثل اختطاف أطفال الأقليات في السويد عن طريق الإدارة الاجتماعية (السوسيال) .. وظاهرة الاتجار بالنساء والأطفال في مجال الدعارة في الغرب عموما .. وظاهرة الاجهاض .. وظاهرة تهديد النوع الإنساني بفرض الشذوذ الجنسي .. وظاهرة فرض الثقافة الغربية والعلمانية على المسلمين في بعض الدول الغربية والإساءة لرموزهم.. وحرق كتابهم المقدس .. وتنامي ظاهرة العنصرية .. وصعود اليمين المتطرف .. لأنهم ببساطة يصدرن أمراضهم بأغلفة جميلة من المصطلحات .. فسموا اختطاف الأطفال (حماية من القمع الأسري) .. وسموا الإساءة للآخرين (حرية فكرية) .. والانحراف (تحررا) .. والعلاقات غير الشرعية (علاقة حب) .. والمومسات (بائعات هوى) .. و(الشاذين) مثليين .. ورأس الدعارة (بطل الجنس) والربا (فوائد) .. والخمر (شرابا روحيا).. والقائمة تطول.

فتقبلها الناس كلها بقبول حسن، كالأطفال الذين يجذبهم كل بريق خادع ويتقاصر إدراكهم عما قد يكون تحته من الشر والموت الزؤام.

***صدر للمؤلف:**

- تحفة الأحاباب في شرح ملحّة الإعراب مكتبة الإرشاد ودار ابن حزم - لبنان
- دليل المعلم الناجح عن مكتبة الإرشاد - صنعاء
- رحلة قبل الرحيل عن مكتبة الإرشاد ودار ابن حزم - لبنان
- لغة الخطاب الدعوي ضمن سلسلة الأمة القطرية رقم (143) - قطر.

***كتب جاهزة للطبع:**

- علم المعاني كتاب منهجي.
- الحرية من منظور إسلامي.
- الفروق الدلالية للمواقع الإعرابية.
- شر البلية - مجموعة مقالات ساخرة في بعض الصحف.
- النحو الدلالي.
- دراسات نحوية.
- تأملات سياسية.
- تأملات فكرية.
- شبهات وردود.
- قصة إشراق الروح (قصة حج).
- الخيط الأبيض - ديوان شعر.